التعالم

مَظَاهِرُهُ وَأَخطَارُهُ فِي ضَوءِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

تأليف

خديجة فاطمة بنت سيد ممتاز الدين

دار الشاكر

للطباعة والنشر والتوزيع

سلانجور - ماليزيا

التعالم

مَظاهِرُهُ وأخطارُهُ
في ضوءِ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ

أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير تقدَّمتْ بها الطالبة إلى قسم القرآن والحديث في أكاديمية الدراسات الإسلامية بجامعة ملايا في ماليزيا.

حقوق الطبع والتصوير محفوظة للمؤلِّفة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

Edisi Pertama 2015

Darul Syakir Enterprise

Hak cipta terpelihara. Tidak dibenarkan mengeluarkan mana-mana bahagian daripada cetakan ini atau memindahkannya ke dalam sebarang bentuk melalui sebarang cara, sama ada secara elektronik atau mekanik, termasuk fotokopi, rakaman, atau sebarang bentuk penyimpanan maklumat dan sistem menyalin, sebelum mendapat keizinan bertulis daripada Darul Syakir Enterprise.

Perpustakaan Negara Malaysia Data Pengkatalogan-dalam-Penerbitan

Khadeja Fatima Bint Syed Mumtazuddin

التعالم: مظاهره وأخطاره في ضوء السنة النبوية: تأليف خديجة فاطمة بنت سيد ممتاز الدين

ISBN 9789675996702

عنوان الناشر:

DARUL SYAKIR ENTERPRISE

No.6 & 6A, Jalan 4/12A, Seksyen 4 Tambahan.

43650 Bandar Baru Bangi, Selangor. MALAYSIA.

Tel:03-8922 1235 Faks: 03-8926 5748

ANEKA PRINT & PACKAGING SDN BHD

No 6 & 8, Jalan Asa 8, Kawasan Perusahaan Ringan,

Taman Asa Jaya, 43000 Kajang, Selangor Darul Ehsan. MALAYSIA.

التعالم

مَظَاهِرُهُ وَأَخطَارُهُ
في ضوءِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

تأليف
خديجة فاطمة بنت سيد ممتاز الدين

دارُ الشاكر
للطباعة والنشر والتوزيع
سلانجور - ماليزيا

بسم الله الرحمن الرحيم

من مُحكَم تَنْزيل ربّ العالمين:

قال الله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

من مشكاة النبوة:

قال رسول الله ﷺ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِس ثَوْبَيْ زُوْرٍ» (حديث متفق عليه).

من دُرَر أقوال الصحابة:

قال عُمَرُ بن الْخَطّاب ﵁: "مَن تَزيَّن بما ليس فيه؛ شانَه اللهُ".

من روائع ما تفوَّه به الرَّبّانيون:

قال الإمام ابن سِيْرين: "إنَّ هذا العِلمَ دِيْنٌ؛ فانظروا عمن تأخذون دينكم".

من بديع ما نَطَق به الشعراء:

وغيرُ تقيٍّ يأمر الناسَ بالتُّقَـــى طبيبٌ يُداوي الناسَ وهو عليلٌ!

إهداء

إلى كُلِّ غَيُوْرٍ على دين الله تعالى وشرعِه، وكتابِه المبين، وسُنَّةِ رسوله المصطفى الصَّادِق الأمين – عليه أفضَلُ صلوات وسلام ربِّ العالمين – وعلومِهما الطَّاهِرة الشريفة، ومعارِفِهما الجليلة الأصيلة ...

إلى كُلِّ مُؤمِنٍ بقيمة التُّرَاث، وعارفٍ بحقِّ الكتاب ...

إلى كُلِّ عالِمٍ عامِلٍ تَقِيٍّ، وعابِدٍ صالِحٍ نَقِيٍّ، حامٍ للمِلَّة، ناصِرٍ للشَّريعة، بارٍّ بالأُمّة، ذابٍّ عن التُّراث، مُدافِعٍ عن الكِتاب ...

أهدي هذا البحثَ، سائلةً الْمَوْلَى تعالى التوفيقَ والسَّدادَ، راجيةً منه – سبحانه – النفعَ والقبولَ.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور محمد أبي الليث الخير آبادي

أستاذ الحديث وعلومه، بقسم دراسات القرآن والسنة

كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية

الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد! فإن العلم منحة من الله تعالى، يهب لمن يشاء، ويمنع من يشاء، وأول من وهبه هو أبونا آدم عليه السلام، حيث قال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١]، ثم ورثه الأنبياء، ثم جعل العلماء ورثتهم، يقول النبي ﷺ: «إنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوْا دِيْنَاراً وَلاَ دِرْهَماً، إِنَّمَا وَرَّثُوْا الْعِلْمَ،...»"[١].

ويقتضي هذا العلم (المنحة الربانية) من صاحبه أن يعرف حقّ هذه المنحة، الذي هو خشية الله وتقواه، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨]؛ إذ الخشية متوقفة على معرفة المخشيّ. ولذلك كان النبي ﷺ أعلم الناس وأتقاهم يقول: «إن أتقاكم وأعلمكم باللّه أنا»[٢]. ويقول أيضاً: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِالله، وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً»[٣]، لا شكَّ أن النبي ﷺ هو أشد الناس خشيةً لله وتعظيماً له، فينبغي أن يكون بين العلم والخشية تَلازُمٌ، فأشَدُّ الناس خشيةً لله هم أعلمهم بالله وبصفاته، وقدرته وعذابه، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

[١] أخرجه أبو داود في السنن، كتاب العلم، باب في فضل العلم، برقم (٣٦٤١). والترمذي في السنن، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، برقم (٢٦٨٢). وابن ماجه في مقدمة السنن، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم (٢٢٣). وصحَّحه الشيخ الألباني.

[٢] أخرجه الإمام البخاري في الصحيح، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله»، برقم (٢٠).

[٣] أخرجه عبد بن حميد في المسند، ج١، ص٤٣٥، برقم (١٥٠٢).

"كفى بخشية الله عِلماً، وبالاغترار بالله جهلاً"[1]. وقال ﷺ: "رأس الحكمة مخافة الله"[2]. وفي الحِكَم: "خيرُ علم ما كانت الخشية معه"[3]. وحتى نفى الربيع بن أنس صفةَ العالم من العالم الذي لم يخش الله، يقول: "مَن لم يَخشَ الله فليس بعالم"[4]. فكلما ازداد المسلم علماً زاد قرباً من الله، وشكراً له على ما أولاه من نعمه.

والعلم النافع في الحقيقة هو الذي يجعل صاحبه دائم الخشية من مخالفات أحكام الله ورسوله، سواء ما كانت تتعلَّق بحقوق الله أو بحقوق الناس. يقول الشيخ ابن عباد (ت٧٩٣هـ) في شرح الْحِكَم العطائية: "واعلم أن العلم النافع، المتفق عليه فيما سلف وخلف، إنما هو العلم الذي يؤدِّي بصاحبه إلى الخوف والخشية، وملازمة التواضع والذلة، والتخلُّق بأخلاق الإيمان، إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها، وإيثار الآخرة عليها، ولزوم الأدب بين يدي الله تعالى، إلى غير ذلك من الصفات العلية، والمناحي السنية"[5].

ولكن الذي نراه في هذه الأيام هو على خلاف ذلك تماماً، وهو أصبح ظاهرةً مقيتةً، فأكثر علماء الدين ظاهرهم تقوى، وباطنهم هوى، فمعاملاتهم مع الآخرين أسوأ بكثير من معاملات علماء الدنيا؛ لأن علماء الدنيا هم أكثر منا إخلاصاً في عملهم، وأكثرنا تخلُّقاً بالأخلاق الحميدة، مما دلَّ على أن العلم الذي حصل عليه علماء الدين لم يؤدِّ وظيفته؛ لأنهم لم يدركوا روحه، الذي هو خشية الله وتقواه، فمثل علمهم كمثل الصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر فهي صلاة في الدنيا، وليست لها أية قيمة في الآخرة، فأين هم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]؟ وكذلك الصوم الذي لا يجعل صاحبه يتقي المحرمات في المعاملات فكأنهم ما تفطنوا فلسفة الصوم التي أشار الله إليها في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، فمثل هذا الصوم صوم ظاهرًا، وليس بصوم روحاً.

---

[1] أخرجه ابن المبارك في الزهد، ج١، ص١٥، رقم٤٦؛ وابن أبي شيبة في المصنف، ج٧، ص١٠٤، برقم (٣٤٥٣٢).

[2] أخرجه ابن أبي عمر في مسنده كما في "المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية" لابن حجر، ج٣، ص٢٠٩، برقم (٣١٢٥)، وهو صحيح. ورُوي مرفوعاً عن عدة من الصحابة، ولكنها كلها ضعيفة. انظر لذلك: الألباني، سلسة الأحاديث الضعيفة، ج٥، ص٥٨، برقم (٢٠٥٩).

[3] ذكره الثعالبي في تفسيره، ج٣، ص٢٥٧. وانظر: "شرح الحكم العطائية" لعبد المجيد الشرنوبي الأزهري، ص١٥١، رقم الحكمة: ٢٣٢.

[4] ذكره ابن الجوزي في زاد المسير، ج٦، ص٤٨٦. ولم أجده مسنداً.

[5] ذكره ابن الجوزي في زاد المسير، ج٦، ص٤٨٦. ولم أجده مسنداً.

وهؤلاء العلماء هم الذين يستحقون أن يُسَمّوا "متعالمين"، متظاهرين بالعلم، وليسوا بعالمين حقيقيين، تقول الباحثة الفاضلة في هذا الكتاب، وما أحسن ما قالت: "وعلى نقيض أئمة المسلمين أصحاب الحقِّ الربانيين وعلماء الملة والدين، – تماماً – يأتي أولاء الْمُتعالِمون، المدَّعون بما لم يُعطَوا، المتشبِّعون بما لم يُمنحُوا، شعارُهم الكذب والزُّوْر، ورسولُ الله ﷺ يقول: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِس ثَوْبَيْ زُوْرٍ»[1]، ودثارُهم المكر والخديعة، دَسُّوا أنفسهم بين أهل الحقِّ ترويجاً لبضاعتهم، وتزييناً لمزاعمهم وأباطيلهم، افتراءً على الدين، وتشويهاً لسُمْعَة الإسلام والمسلمين، فلا هم للشريعة الغرَّاء نصروا، ولا لشوكة الكفر كسروا، بل كانوا بأساً وبلاءً على الدين، وعِبئاً ثقيلاً على كاهل أهله المؤمنين، ووصمةَ عارٍ على جبينه الغُرِّ المبين. فهم من العلم خواءٌ، ومن الْخُلُق براءٌ، وتخلَّقوا بالعُجْب والكبرياء، وتحلَّوا بالبطر والخُيلاء، قلوبُهم للهوى وعاءٌ، وأذهانهم خِلْوٌ من النبوغ والذكاء، وحلوقهم لا تفترُّ من اجترار الادِّعاء تلو الادِّعاء، تسلَّطوا على العباد بداء الفُحش والبذاء، فحُرِموا بخُبث مقاصدهم وقُبح نياتهم ميراث الأنبياء ومنح الأولياء؛ لأن غايتهم في كل ما يعملونه نيلُ الشهرة والرياء، فإلى الله نرفع أكفَّ الدعاء ليُنجي الأمةَ من شرِّ هؤلاء".

واستطردت الباحثة قائلةً: "لقد ظهر "التَّعالُم" – هذا المرض الخبيث والدَّاء العجيب – حيث ظهر، في عصرٍ تكالبت على الأمة فيه فِتَنٌ عوجاء، واشتدَّتْ عليها نوازلٌ ومِحَنٌ شعواء، ليُصيبها في أساسها وعمادها، وقد اندلع على مصراعيه مُحدِثاً فيها عظيم الفساد والاختلال، ومختلقاً أعاجيب البدَع وأفانين الضلال، وقد اتَّخذ هذا البلاءُ المبينُ والشرُّ المستطيرُ ألواناً متنوعةً، وأشكالاً مختلفةً، فتعدَّدت ظواهرُه وتكاثرت مظاهرُه، من تعالُمٍ في الإفتاء والقضاء، أو في مجال الوعظ والتدريس، والدعوة والإرشاد، أو ما يتعلَّق بدائرة النشر والتأليف والتحقيق، وهلم جراً".

ولهذا السبب نرى أنّ أكثر علماء الدين مبغوضون عند الأمة، بدلاً من أن يكونوا محبوبين؛ لأنهم منارة الهدى والرشاد، ولكن أعمالهم مع الناس نفاق وهوى. وعلى حسب قول رسول الله ﷺ: «إنَّ الله إذَا أَحَبَّ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إنَّ اللَّهَ ﷻ يُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ. وإذَا أَبْغَضَ عَبْداً دَعَا جِبْرِيْلَ، فَيَقُوْلُ: إِنِّيْ أُبْغِضُ فُلاَناً

[1] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب النكاح، باب المتشبع بما لم ينل، ص٩٨٢، برقم (٥٢١٩). ومسلم في الصحيح، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره، برقم: (٢١٢٩)، عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ له.

فأَبْغِضْهُ، قَالَ: فيُبْغِضُهُ جِبْرِيْلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضُوْهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُوْنُهُ، ثُمَّ تُوْضَعُ لَهُ البَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ»[1]، هم مبغوضون عند الله، لذلك أنزل البغضاء لهم في أهل الأرض.

وهذا الكتاب الذي نحن بصدد التقديم له من تلك الكتب التي يُفتخَر بها ويُعتَزّ؛ ويُعتبَر بها ويُتَّعَظ؛ لأنه قدَّم صُوَراً عديدةً للتَّعالُم البغيض، والتظاهر المقيت بالعلم، والكتاب في أصله رسالةٌ تقدَّمت بها الباحثة الفاضلة خديجة فاطمة إلى قسم القرآن والحديث في جامعة ملايا، ومن حُسْن حظّي أنْ وقع اختيار مسؤولي القسم علي لمناقشتها، فقرأتها بدقةٍ، وأُعجبت بها إعجاباً شديداً؛ لأن موضوع التعالم من أهمّ الموضوعات في كلّ عصر، خاصةً في العصر الحاضر، والباحثة الفاضلة أثبتت جدارتَها في إثبات مسائل التَّعالُم، من خلال الأحاديث، ومن خلال أقوال العلماء، ومن خلال تحليلاتها العلمية النافعة، بقدرتها الخارقة عليهما، ولذلك الكتاب بأكمله يشكل إضافةً علميةً في المكتبة الإسلامية، ونالت بها صاحبتها درجة الماجستير، وجهدها مقدَّرٌ ومثمَّنٌ؛ لأنها بذلت في إعدادها جهداً كبيراً، مما يبشِّر لها بمستقبل باهر إن شاء الله.

ولاحظتُ من خلال اطّلاعي عليها أن الباحثة كتبتها بحرقةٍ وألَمٍ شديدَين على المتعالمين، بعد أن ذاقتْ مرارتَها، وجَرَّبَتْها في حياتها، ورأتْ نفسها مسؤولةً أمام الله عن القضاء على هذه الظاهرة، ووجدتْ نفسها حيداً غريباً في مجتمعها، كما قال رسول الله ﷺ: «بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيْباً، وَسَيَعُوْدُ كَمَا بَدَأَ غَرِيْباً، فَطُوْبَى لِلغُرَبَاءِ»[2]، ومثلها في هذا الباب كما قال عليه السَّلام: «الصَّابِرُ فِيْهِمْ عَلَى دِيْنِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ»[3].

ورأتْ الباحثة أن قضية "التَّعالُم" قضية مهمةٌ وخطيرةٌ، ومتواجدة في كل بقعة، ومنتشرة في كل مصر، ولذا فلا يمكن الإغفال عنها فيما نشهده اليوم من واقع معاصر مرير؛ بل لا بُدَّ من إعطاء رؤيةٍ متكاملةٍ لإدراك أبعاد هذه القضية، وإبراز جوانبها والإحاطة بمَعالِمها، والتحذير من مغبَّتها، والتنبيه عن أخطارها على الْمُتعالِم نفسه، وجنايته على الأمة جمعاء، ثم تقديم الحلول النبوية السَّنِيَّة المتكاملة والمناهج الإصلاحية الشاملة للحدِّ من هذه القضية وإيقافها.

---

[1] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأدب، باب المقة من الله، برقم (٣٠٣٧). ومسلم – واللفظ له – في الصحيح، كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً...، برقم (٢٦٣٧).

[2] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً...، برقم (١٤٥).

[3] أخرجه الترمذي في السنن، في أبواب الفتن، باب الصابر على دينه...، ص٥١٩، برقم (٢٢٦٠)، وقال: "هذا حديث غريب"، وصحَّح الشيخ ناصر الدين الألباني، انظر: الألباني، صحيح سنن الترمذي، ج٢، ص٥٠٥، برقم (٢٢٦٠).

فنجحتْ الباحثة في تقديم تلك الحلول المتكاملة والمناهج الإصلاحية الشاملة من خلال السنة النبوية، وسَيْر الصحابة وأئمة الهدى والتقى، رجاءَ إعادة المتعالمين إلى العمل بقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]، وتمثيلهم صورةً حقيقيةً لقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾.

وأرجو من الله العلي القدير أن يجد هذا الكتاب آذاناً صاغيةً، وقلوباً واعيةً، وأن يكلّل جهدها هذا بالقبول الحسن لدى العلماء.

محمد أبو الليث الخير آبادي

١٥ من رجب ١٤٣٦هـ

(الموافق ٤ من مايو ٢٠١٥م)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور نجم عبد الرحمن خلف

أستاذ الحديث النبوي المشارك بكلية دراسات القرآن والسنة

جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

الحمد لله ربّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الصالحين المصلحين.

أما بعد: كنت أقول: إن موضوع التَّعالُم من الموضوعات التي لا تزال بحاجة إلى المزيد من الدراسات والبحث العميق، فإن هذه الصفة – التي غزت الكثير من أبناء أمتنا – هي من العِلَل الفادحة الفاضحة، والقادحة في الشخصية المسلمة.

ثم جاء هذا العمل العلميّ القيّم المتميز الموسوم بـ"التَّعالُم، مظاهره وأخطاره في ضوء الكتاب والسنة النبوية" كرسالة ماجستير حازت على أعلى تقدير وأطيب ثناء من "جامعة ملايا" بالعاصمة كوالالمبور في ماليزيا. وقد اتصفت هذه الدراسة بالعُمْق والإحاطة والتحقيق والتوثيق، وهي من إعداد الباحثة الفاضلة الصالحة المصلحة خديجة فاطمة بنت سيد ممتاز الدين، خريجة "جامعة أم القرى" العتيدة.

ورسالتها هذه مِن أجود الرسائل جمعاً وتحليلاً واستنتاجاً، وقد بذلت فيها الباحثة جهداً مميزاً قيماً تُشكَر عليه، نسأل الله أن يثيبها عليه، ويتقبَّله منها، ويعم النفع به وبها.

وقد كتب أخونا العالِم العامل الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد – رحمه الله – كتاباً قيماً في الموضوع، وقد كان يعطيني ويعطي غيري ممن يُحسِن بهم الظَّنَّ من أهل العلم ما يكتب من أعمال علمية كمسوّدات قبل نشرها للنظر فيها، ونقوم بتدقيقها ومراجعتها، فكان – رحمه الله – يقبل جميعَ ما نسجِّله من ملاحظات وتصحيحات شكلية وفوائد تحسينية بصدر رحب وسرور ظاهر، فكان مثالاً صادقاً لما يدعو إليه، ويكتب فيه، مِن نبذ التَّعالُم واستقباحه والتحذير منه. وقديماً قال سفيان الثوري: "العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل"[1].

---

[1] جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر، رقم ١٢٧٤.

وهذه الدراسة القيمة في مادتها ومقاصدها تدخل في جملة مَن أشاد بهم النبي الكريم ﷺ مِن صالحي حَمَلة العلم الشرعي القائمين بحقوقه، فعن إبراهيم بن عبد الرحمن الْعُذْرِيِّ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِين»[١].

وكم بين أهل العلم من منتحل متشبِّع بما لم يُعْطَ، دَعِيٍّ من أهل الزور والتدليس. وهذه الدراسة الفاحصة تدخل صاحبتها في سِلك التعديل النبوي لمن يحمل العلمَ الشرعي، ويقوم بنفي ماليس منه من التحريف والانتحال والتأويل الجاهل، فيفضحون المحرفين من الغالين، والمنتحلين من المبطلين، والمتصدِّرين من الجاهلين.

و"التَّعالُم" من الصفات الذميمة البغيضة التي جمعت بين الكذب والزُّوْر، والفخر المتكلّف المصطنع، والرِّياء، والانتحال الباطل، وأصحابها يدخلون في جملة من ذَمَّهم الله بقوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

وقد كان الخوارج قديماً، وعلى مدار التاريخ الإسلامي إلى يومنا هذا، صورة خطيرة من صُوَر "التَّعالُم"، وشكلاً فاحشاً من أشكاله؛ حيث قال فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – حين قالوا له متعالمين متعالين: لا حكم إلا لله – قال ﷺ: "كلمةُ حقّ أريد بها باطل". فهؤلاء تعالموا فاعتقدوا الباطل، وعملوا به، فكفروا علياً ﷺ، ثم قتلوه، ثم قتلوا كلَّ من لا يكفِّره، وأعملوا السيف في أهل التوحيد.

والحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ)، وهو يتتبَّع إشارات القرآن الكريم، وتوجيهات السُّنة النبوية في تصنيف كتبه، نراه قد تنبه في وقت مبكّر لهذا الدَّاء العُضال، واستشرائه؛ حيث أصيب به شريحة واسعة من أمة الإسلام؛ فوضع كتابه "الصمت وآداب اللسان"، وعالج فيه جملةً من الأبواب المفضية إلى التَّعالُم. كما وضع كتباً أخرى مستقلةً في ذلك؛ مثل: "ذمّ العجب"، و"ذمّ الرياء"، و"ذمّ البغي" كما كتب مصنَّفاتٍ أخر تعالج هذه الأمراض، وتَسُدّ أبوابها مثل كتاب "التواضع والخمول" أي خمول الصيت، والبعد عن الجعجعة والبهرجة.

---

[١] رواه البيهقي، وصحَّحه الشيخ الألباني في "مشكاة المصابيح"، رقم ٢٤٨، كما صحَّحه غيره.

وكان لسفيان الثوري أخٌ صالِحٌ، فكتب إليه يستشيره – وقد عزم على الحجّ – أين يَنْزِل، يعني ليلقى مشاهيرَ أهل العلم، فأجابه سفيان: "إنزل بمرّ الظهران حيث لا يعرفك إنسان"[١]، أي تفرغ للنسك، واخل بربك، واذكر ذنبك لتظفر بحجٍّ مبرورٍ وذنبٍ مغفورٍ.

وقد وُفِّقَت الباحثة في تأليف هذا الكتاب أيما توفيق، فقد جمع هذا العمل فأوعى من الفوائد والعوائد وفرائد القلائد، وفيه الغنية والكفاية في بابه.

والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

وكتبه

د. نجم عبد الرحمن خلف

[١] "التواضع والخمول" رقم ٧٣، وكتاب "العزلة والانفراد" رقم ٤٢، كلاهما لابن أبي الدنيا.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور خالد بن مرغوب بن محمد أمين

أستاذ مشارك بقسم فقه السنة بكلية الحديث الشريف

في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية

الحمد لله حقّ حمده، والصلاة والسلام على نبيه و عبده وآله وصحبه ووفده.

أما بعد: فإن "العلم" هو المعرفة، وهو نقيض الجهل، والمتصف به عالِمٌ ويقال: "رجل علاَّمة"، إذا بالغت في وصفه بالعلم؛ أي: عالِمٌ جدا والهاء للمُبالغة[١]. والعلمُ أفضَلُ ما يُطلَب فى هذه الدنيا، وكفانا أن الله تبارك وتعالى لم يأمر نبيَّه ﷺ بطلب الازدياد من شيءٍ إلا من العلم فقال له تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ [طه: ١١٤].

وقد حَثَّ الرسول ﷺ على طلب العلم فقال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيْقاً يَبْتَغِيْ فِيْهِ عِلْماً؛ سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيْقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعَ أَجْنِحَتَهَا رَضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَات وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الْحِيْتَان فِي الْمَاءِ. وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوْا دِيْنَاراً وَلاَ دِرْهَماً، إِنَّمَا وَرَّثُوْا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[٢].

وقوله ﷺ: «إنَّ العُلَمَاء وَرَثَةُ الأَنْبِيَاء» يَدُلّ على أنّ المقصود بالعلم شرعاً هو العلم الموروث عنه ﷺ وهو القرآن والسنة، وما يتعلَّق بذلك وما يُستنبَط منه.

وعلى ذلك فالعالِمُ هو مَن جَمَع المسائلَ الأصولَ في العلوم الشرعية بحفظ المتون المصنَّفة فيها، مع استيعاب أهمّ ما في شروحها، ووصل إلى حدّ متوسط من إدراكها، وصارت له قدرةٌ

---

[١] انظر: "كتاب العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي، ج٢، ص١٥٢، و"تهذيب اللغة" لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، و"مختار الصحاح" لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ص٤٦٧، و"تاج العروس" للزبيدي مادة "ع ل م".

[٢] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ص٦٠٨، ٦٠٩، برقم٢٦٨٢، وأبو داود في السنن، كتاب العلم، باب في فضل العلم، ص٥٢٣، برقم٣٦٤١، وابن حبان في الصحيح، ج١، ص٢٩٠، وكلهم عن أبي الدرداء ﷺ، وهو حديث حسن بشواهده.

على التعبير عن ذلك العلم، واستطاع تدريسه، ودفع الإشكالات الواردة فيه، قال الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه رحمهما الله: "إنَّ العالِم إذا لم يعرف الصحيح والسقيم، والناسخ والمنسوخ من الحديث: لا يُسَمَّى عالِماً"[١].

فالقدرةُ على ردّ الشُّبَه عن الدين أو العقيدة، وإزالة الإشكالات الواردة فيه، من علامات الرسوخ في العلم، قال الإمام تاج الدين السُّبْكي رحمه الله: "العالِمُ من يدعو الواضح واضحاً، والمشكلَ مُشكلاً"[٢]، بل قال العلامة محمد بن يوسف بن عمر السنوسي صاحب كتاب "أم البراهين": "العالِمُ حقّاً من يستشكل الواضح، ويوضِّح المشكلَ لسعة فهمه وعلمه وتحقيقه"[٣].

وأيضاً من صفات العالِم الراسخ المتمكِّن قدرتُه على دفع الشبهات، لا أنه يتأثر بما يرد عليه منها وتُصيبه بالريبة في علمه؛ فإنَّ هذا حالُ الجاهل، وهو يظنّ ركونه إلى الشبه لسعة اطلاعه، وإنما ذلك من عدم رسوخه وضعف يقينه.

فالعالِمُ الراسخُ المتمكِّنُ هو مَن شهد له جمعٌ من العلماء الراسخين لاسيما الذين أخذ عنهم، بإتقان العلوم الشرعية ورسوخه فيها، وتمكُّنه من دقائقها، قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله: "ليس كلُّ مَن أحبَّ أن يجلس في المسجد للحديث والفُتيا جلس؛ حتى يشاور فيه أهلَ الصلاح والفضل، وأهلَ الجهة من المسجد، فإن رأوه لذلك أهلاً؛ جلس. وما جلستُ حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني لموضع لذلك"[٤].

كذلك من صفات العالِم الرَّبّاني الراسخ: التثبُّت والتحرِّي وأن يقول فيما لا يعلمه: "لا أدري"، ولقد كان الأجلاَّء من الصحابة تُعرَض لهم المسألةُ لا يدرون حكمَ الله فيها فيهابونها ويتوقَّفون فيها. قال أبو بكر الصِّدّيق ﷺ: "أيُّ سَماءٍ تظلني، وأيُّ أرضٍ تقلني إذا أنا قلتُ في كتاب الله بغير عِلم"[٥]، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "إذا ترك العالِمُ (لا أَعْلَمُ) فقد أصيبت مقاتله"[٦].

---

[١] معرفة علوم الحديث: للحاكم النيسابوري، ص٦٠.

[٢] انظر "طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي: (٥/ ١٩٥).

[٣] نيل الابتهاج بتطريز الديباج: لأحمد بابا التنبكتي، ص٥٦٣.

[٤] ترتيب المدارك وتقريب المسالك: للقاضي عياض: (١/ ١٤٢).

[٥] جامع بيان العلم وفضله: لابن عبدالبر: (٢/٨٣٣).

[٦] جامع بيان العلم وفضله: لابن عبدالبر: (٢/٨٤٠).

كما يجب على العالِم أن يكون مُتقِناً في علمه، وقد قيل: "أكثر ما يُفسِد الدنيا: نصفُ متكلِّم، ونصفُ متفقِّه، ونصفُ متطبِّب، ونصفُ نحويٍّ، هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان"[1].

ويحتاج طلبة العلم أن يمضوا وقتاً كافياً في طلبه كي يرسخ في صدورهم بشكل جيّد مُتقَن، روى الحافظ الخطيب البغدادي وغيره عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: "تفقَّهوا قبل أن تَسُوْدُوا"[2].

قال الإمام أبو عُبَيْد قاسم بن سَلاَّم الهروي – رحمه الله – في شرح هذا الأثر: "يقول: تَعَلَّمُوا العلم ما دُمْتُم صغاراً قبل أن تصيروا سادةً رؤساءً منظور إليكم، فإن لم تعلَّموا قبل ذلك؛ استحييتم أن تعلَّموا بعد الكبر، فبقيتم جُهَّالاً تأخذون من الأصاغر؛ فيزري ذلك بكم".

وهذا شبيهٌ بحديث عبد الله بن مسعود ﷺ: "لن يزال الناسُ بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أتاهم من أصاغرهم فقد هلكوا"، وفي الأصاغر تفسيرٌ آخر بلغني عن ابن المبارك أنه كان يذهب بالأصاغر إلى أهل البِدَع، ولا يذهب إلى السِّنّ"[3].

فالتصدُّر قبل التأهُّل آفةٌ في العلم والعمل، وقد قيل:"مَن تصدَّر قبل أوانه؛ فقد تصدَّى لهوانه"[4]، وسببُ ذلك أنه لم يسبق له أن تلقَّى العلمَ عن العلماء، فلم يتأدَّب بآدابهم، وإنما تلقَّى العلمَ عن الكتب، والمطالعة فقط، وفعلُه ذلك قرينةٌ على أنه لم يتخلَّص من رعونة نفسه كإعجابه بمبلغ علمه وعدم فقهه لبواطن الأحوال وجهله بعواقب الأمور. ومعلوم أنَّ طلب العلم يحتاج إلى صبرٍ وتأنٍّ وبعدٍ عن العجلة والتهوُّر.

ومَن كان كذلك فقد تشبَّع بما لم يُعْطَ، ولبس ثوبَي زُوْرٍ، وأجلس نفسَه مجالسَ العلماء، ليُشَار إليه بالبنان، ويصرف وجوه الناس إليه، والأولى به أن يعرف قدر نفسه ليقف عند حدّه.

وهذا هو عينُ "التَّعالُم"، الذي معناه: ادِّعاء العلم، والتصدُّر لتدريسه والتأليف فيه، والنقاش في مسائله، ممن لم يتأهَّل لذلك، فهو يَدّعي أنه عالِمٌ وهو في الحقيقة ليس بعالِمٍ،

---

[1] الفتوى الحموية الكبرى: ص٥٤٤.

[2] "نصيحة أهل الحديث" للخطيب البغدادي، ص ٢٩-٣٠، وعلَّقه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: كتاب العلم باب الاغتباط في العلم والحكمة، ٢٥/١، طبعة الشيخ زهير الناصر.

[3] غريب الحديث: للقاسم بن سلام الهروي: (٣/ ٣٦٩).

[4] تذكرة السامع والمتكلم: لابن جماعة، ص٦٥.

وللعلامة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد كتابٌ في هذا الموضوع سَمَّاه "التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب"، والذي بيَّن فيه – رحمه الله تعالى – خطورةَ هذه الظاهرة وآثارَها على الأمة وصُوَرَها.

و"التَّعالُم" لا شَكَّ أنه من الفِتَن الكبرى في هذا العصر، وله خطورة بالغة، فهو خطرٌ على صاحبه وعلى الناس جميعاً؛ لأنه يتلاعب بدين الله ﷻ إذا تكلَّم فيما لا يحسنه دون تروٍّ ولا أناة ولا حلم، ودون نقل عن العلماء.

وقد نبَّه الله ﷻ إلى هذه الفتنة في بعض آيات تنْزيله الحكيم، منه قوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقوله ﷻ: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَـٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

كما جاءت في الأحاديث النبوية نصوصٌ عديدةٌ فيها تحذيرٌ عن هذه الفتنة، ومنها ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلمَ يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بقَبْضِ العُلَمَاء، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً؛ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوْساً جُهَّالاً، فَسُئِلُوْا، فَأَفْتَوْا بغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوْا وَأَضَلُّوْا»[١]، ومنها ما رواه أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا»[٢].

وقد ظهرت هذه الفتنةُ في السنوات الأخيرة بشكل واضح، فأصبح الجميع علماء وعارفين بخبايا الأمور في الدين وفي السياسة وفي الطِّبّ، ومن أسباب ذلك: التأثُّرُ بالعالَم الغربي، وضعفُ المتصدِّرين للتعليم، وقلةُ أهل العلم واختفاؤهم عن الأنظار لقلة رغبة غالب الناس فيهم. كما أنَّ ذيوع الإنترنيت وما يوفِّره من الوصول إلى المعلومة بأسرع وقتٍ وبأقلّ جهدٍ قد ساهم في ذلك؛ حيث تخيَّل للكثيرين قدرتهم على تحصيل العلم بأنفسهم.

---

[١] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، ص٣٧، برقم (١٠٠)، ومسلم في الصحيح، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، ص١١٦٤، برقم (٢٦٧٣).

[٢] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل، ص٣٣، برقم (٨٠)، ومسلم في الصحيح، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، ص١١٦٢، برقم (٢٦٧١).

وهذه الرسالة التي يُسعدني أن أقدِّم لها، قد تقدَّمت بها الباحثةُ "خديجة فاطمة بنت سيد ممتاز الدين" (خريجة جامعة أم القرى بمكة المكرمة) إلى قسم القرآن والحديث في جامعة ملايا في ماليزيا، بعنوان: "التَّعالُم ومظاهره في ضوء السنة النبوية: دراسة موضوعية معاصرة" لنيل درجة علمية في الحديث النبوي، وكان من المناقشين لهذه الرسالة: الأستاذ الدكتور محمد أبي الليث الخيرآبادي (أستاذ الحديث النبوي في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا)، وهو عالِم جليل، محدِّث فقيه، اشتهر بدماثة خُلُقه، وحُسْن تعامُله، ونصائحه السديدة إلى طلبة العلم.

وقد تناولت الباحثة في هذه الرسالة بالدراسة والتحليل لفتنة "التَّعالُم" من خلال أبرز مظاهره الثلاثة الكبرى من: تعليم وتدريس، وتأليف وتحقيق، وقضاء وإفتاء، وكلٌّ ذلك في ضوء السنة النبوية، وقد تمكَّنت الباحثة – بعون الله وفضله – من دراسة هذه القضية ومعالجتها في ضوء الأحاديث النبوية الشريفة، كما وُفِّقَتْ كذلك في تحقيق أهداف البحث ومقاصده حسب المنهج الذي أعدّته للسَّيْر وفقه، وأثبتتْ أنَّ "التَّعالُم" من الفِتَن التي تنبَّأ رسولُ الله ﷺ بظهورها وانتشارها في آخر الزَّمان قُرْب يوم القيامة، وقد وقعتْ هذه الفتنةُ تماماً؛ مِصداقاً لِما أخبر بها عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وقد توصّلت الباحثة في نهاية هذه الرسالة إلى نتائج طيبة، ومن أهمِّها: أنَّ "التَّعالُم" فتنة عظيمة، وقضية معاصرة مهمة من ناحية، وخطيرة أيضاً من ناحية أخرى، وقد حذَّر منها رسولُ الله ﷺ أُمَّتَه المباركة. وذكرت الباحثة في آخر ملخَّص رسالتها ما يجدر بي أن أنقله هنا بنصّه، إذ تقول: "فسَيْراً على المنهاج النبوي، واتّباعاً للسيرة المصطفوية في تربية الأمة؛ يجب على أهل العلم وأرباب القلم من عقلاء الأمة وربّانييها: تحذيرُ النشء والأجيال، وتوعيةُ الأمة والرجال حول عواقب هذه الفتنة الوخيمة ونتائجها الأليمة، حِفاظاً لعقول أبناء المسلمين، وصوناً لتراثهم العلمي العظيم".

وقد أثنت الباحثةُ كثيراً على كتاب "التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب" للشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبي زيد رحمه الله، واستفادت منه كثيراً حتى كادت الرسالةُ أن تُعتبَر تكملةً وشرحاً له، وهذا هو اللاَّئقُ بطلبة العلم أن يُكمِلوا جهود مَن سبقوهم، ويَبْنوا عليها. إضافةً إلى ذلك فقد استثمرت الباحثة في هذه الدراسة، المعلومات المتاحة في عشرات الكتب القديمة والحديثة التي وردت فيها تلميحاتٌ عن هذه القضية، ثم صاغت الباحثة تلك المعلومات في بيان مؤثر وأسلوب جميل، وكان عملُها قائماً على منهجية حسنة وترتيب متميز، كما أنها اقتصرت على الأحاديث المقبولة من الصحيح والحسن.

وقد طالعتُ هذه الرسالة بإمعانٍ واستفدتُ منها جداً، فألفيتُها جهداً قيماً وافياً بالمراد، مستوعباً لما ينبغي ذكره ببيان جزل، وتعبير جميل، مشتملاً على صفوة العلم، وزبدة التذكير والإرشاد.

وإني أرى أن الباحثة – وَفَّقها الله – قد أصابت من هذه الرسالة مغنماً رابحاً، وسلكت فيها سبيلاً ناجحاً، أسأل الله أن يبلغها بها مرتبةَ الراسخين في العلم، وقد ألمح ذلك أنه لا يزال في خبايا شقائق الرجال زوايا من الإتقان والإفادة يُشكَرن لأجلها، وتعقد عليهن الآمال في نهضة الأمة ورفعةِ الملة بإذن الله تعالى.

وهكذا يكون الصبر والبذل، وإني لأرجو الله أن يُوفِّق الأستاذةَ الكريمة للمزيد من الكتب القيّمة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

واللهُ أسأل أن يكتب لنا جميعاً، علماً نافعاً وعملاً متقبّلاً، وأن يرزقنا البصرَ النافذ عند مجيء الشبهات، والعقلَ الكامل عند نزول الشهوات، والثباتَ على الحقّ حتى نلقاه سبحانه راضياً عنا بكرمه، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

خالد بن مرغوب بن محمد أمين

١٤٣٦/٨/١٣هـ بالمدينة المنوَّرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ[1]

بقلم المحدّث الشيخ سلمان الحسيني الندوي

أستاذ الحديث النبوي في دار العلوم لندوة العلماء بلكنؤ
ورئيس جامعة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد
ورئيس جمعية شباب الإسلام – الهند.

أختي العزيزة السيدة خديجة بنت المحترم سيد ممتاز الدين حفظهما الله تعالى.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد، فقد تلقّيت خطابك العزيز، وكتابك القيّم المفيد، بعنوان: "التَّعالُم: مظاهره وأخطاره في ضوء السنة النبوية"، وهو عنوانٌ لافتٌ مهمٌّ، يلفت أنظارَ المهتمّين بفقدان الرسوخ في العلم وحُبّ التظاهر، وكثرة الجدل والمراء، مما أدَّى إلى التشدُّق والتفهيق، والاغترارِ بالعلم، وقد أُصيب المتعالمون بغرور الفهم العميق، والاهتداء، كما كان يصفهم شيخنا الشيخ عبد الفتاح أبو غُدَّة رحمه الله تعالى.

وقد نبَّه ربُّ العِزَّة والجلال إلى هذا المرض النفسي، والنِّفاق القلبي، وأنذر المصابين به بعذابه، وتنبَّأ الرسول ﷺ بظهورهم وغلبتهم وسيادتهم، وأصبح عصرنا يزخر بأمثال هؤلاء ممن يحملون شهادات الزُّور، من شهادات الماجستير والدكتوراة: المصطلحات العلمية المستوردة التي ما أنزل اللهُ بها من سلطان، ولم تعرفها العصور المفضَّلة بالخير.

وكان من توفيق الله تعالى لك: أن تعلّقتِ بهذا الموضوع في إبان نهضتك بالعلم والبحث والتحقيق، فما يُراد لك بذلك إلا الخير والبركة والهدى والنور – إن شاء الله تعالى –، وقليلٌ من الناس من يتفطَّنون لآفات العلم ومصائبه، وقليلٌ منهم من يُدرِكون مضلاَّته ومنحرفاته وتزويراته، فبارك الله فيك، وتقبَّل منك، وزادك حرصاً على الخير، ونباهةً وفطانةً وكياسةً، وحفظك من كل مكروه.

---

[1] هذه الكلمة الجامعة الوجيزة هي – في الحقيقة – رسالةُ جوابٍ أرسلها إلي فضيلته؛ وذلك حينما طلبتُ منه التقديم للكتاب، فاعتذر – حفظه الله – بهذه الرسالة البليغة الوافية، ذات المعاني الكثيرة الراقية، وقد أردتُ منه – أيَّده الله – استطلاعَ رأيه حول موضوع البحث، فأتحفني برأيه الثمين، وفكره المتين، فتراءى لي إثبات هذه الدرة الثمينة الغالية ككلمة تقريظ للكتاب.

لم أكن أستطيع أن أقدِّم الكتاب، فالموضوع أكبَرُ من طاقتي وأنا مشغول، مهموم، بالأسفار والقضايا الكثيرة، فاكتفيتُ بهذه الرسالة المختصرة، إشادةً بالموضوع، وتنويهاً بالبحث، وثناءً على الجهد، ومباركةً على التوفيق، وَفَّقك الله تعالى للمزيد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سلمان الحسيني الندوي

٣١ شعبان ١٤٣٦هـ (٣١ مايو ٢٠١٥م)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرف الأنبياء والمرسَلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومَن تبعهم بإحسان، وسار على نهجهم إلى يوم الدين، اللهم لا عِلم لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزدنا علماً يا ربَّ العالمين، اللهم آمين.

أما بعد... فخيرُ الكلامِ كلامُ الله تبارك وتعالى، وأفضَلُ الْهَدِيِ هَدْيُ المصطفى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأجَلُّ النِّعَمِ وأعظَمُها على الإطلاق نعمةُ العلم وما يقتضيه بل ما يزيِّنه ويحلِّيه من الْخُلُق الفاضل القويم، فهذا من أحسن ما أكرم به الخالق البشرية جمعاء عامةً، والأمة المحمدية خاصةً.

وأكبَرُ دليلٍ على ذلك أنَّ أوّل ما خلق اللهُ جلَّ – شأنه – القلمَ، ثم أمره بكتابة ما شاء تعالى من المقادير. وأوّل ما أنزل اللهُ تبارك تعالى على خاتم أنبيائه من الوحيِ الإلهيِّ قولَه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، كما أنَّ الحقَّ تبارك وتعالى لم يأمرنا بالاستزادة في الدنيا من أيّ شيء سوى العلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤]، ولو كان شيءٌ آخر في الدنيا أعَزَّ وأشرَفَ من العلم لأمرنا الله بالاستزادة منه، كذلك فإنَّ ما ينبغي أن يصاحبه من الْخُلُق هو أعظَمُ ما امتدح الله به سيدَ الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضَلُ الصَّلاة وأتَمُّ التسليم، حيث قال جلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤]، ولولا هذه الأخلاق ما أحبَّه القريبُ والبعيد، وامتدحه العدوُّ قبل الصَّديق.

والعِلمُ الممدوح المطلوب الاستزادة منه في القرآن الكريم هو العلم الشرعي، الْمُتَّبَع لكتاب الله تعالى وسُنَّةِ المصطفى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فهذا الذي عظَّم الله شأنه، ورفع قدره، وأعلى منْزلته.

وأَوْلَى الناسِ بتحصيل هذا العلم من مَورِدَيه الأصيلَين من اختارهم الله تعالى واصطفاهم للعَلِّ منه والنهل، وآتاهم من فضلِه وكرمه ما جعلهم هُداةً مهتدين أبراراً، ملتزمين سُبُلَ المتّقين

الأخيار، مُتّبِعين للسُّنَن والآثار، متحلِّين بالمكارم الأنوار، متخلِّين عن صفات الفُجَّار، فهم – حماهم الله – أركان الشريعة، وحصون الدين المنيعة، وبهم تُهدَم البِدَع الشنيعة، وهم أمناء الله تعالى من خليقته، والواسطة بين المختار عليه السَّلام وبين أمته، أئمة الهدى ومصابيح الدُّجَى، بهم حفظ الله تعالى الدين، وصانه عن أباطيل الكذَّابين.

تحمَّلوا لنيل العلم وتحصيله ما تحمَّلوا، ومن خدمته والذَّبّ عن حياضه تمكَّنوا، فعمَّروا في سبيله الأوقات وأفنوا الأعمار، وتجشَّموا لأجله مشاقّ الرحلات والأسفار، وخاضوا بفرسانهم الأنهار والبحار، وسلكوا المجاهل والفيافي والقِفار، وفارقوا الأهل والأحباب والأوطان، وهجروا أطايب الملذَّات والأوطار.

قلوبُهم بلآلئ التُّقى والإيمان مرصَّعةٌ، وألسنتهم بضوء الحقِّ والبيان منوَّرةٌ، وأنفسهم بدُرَر الهدى والفرقان مزيَّنةٌ، لذا فهم مِن أشرف مَن رفعهم الله تعالى مِن خليقته لِما يحملون في صدورهم من أشرف ما أنزله تعالى من علومه ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾ [المجادلة: ١١].

وعلى نقيض أئمة المسلمين هؤلاء مَن هم أصحابُ الحقِّ الربانيين، وعلماء الملة والدين – تماماً – يأتي أولاء الْمُتعالِمون، المدَّعون بما لم يُعطَوا، المتشبِّعون بما لم يُمنحُوا، شعارُهم الكذب والزُّوْر، ورسولُ الله ﷺ يقول: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِس ثَوْبَيْ زُوْرٍ[١]»، ودثارُهم المكر والخديعة، واللهُ تعالى يقول: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤]، دَسُّوا أنفسهم بين أهل الحقِّ ترويجاً لبضاعتهم، وتزييناً لمزاعمهم وأباطيلهم، افتراءً على الدين وتشويهاً لسُمْعَة الإسلام والمسلمين، فلا هم للشريعة الغرَّاء نصروا، ولا لشوكة الكفر كسروا، بل كانوا بأساً وبلاءً على الدين، وعِبئاً ثقيلاً على كاهل أهله المؤمنين، ووصمةَ عارٍ على جبينه الغُرِّ المبين.

فهم من العلم خواءٌ، ومن الْخُلُق براءٌ، بل على نقيض ذلك تخلَّقوا بالعُجْب والكبرياء، وتحلَّوا بالبطر والخُيلاء، قلوبُهم للهوى وعاءٌ، وأذهانهم خِلْوٌ من النبوغ والذكاء، وحلوقهم لا تفترُّ عن اجترار الادِّعاء تلو الادِّعاء، تسلَّطوا على العباد بداء الفُحش والبذاء، فحُرموا بخُبث مقاصدهم وقُبح نياتهم ميراث الأنبياء ومنح الأولياء؛ لأن غايتهم في كل ما يعملون نيلُ الشهرة والرياء، فإلى الله نرفع أكفَّ الدعاء لِيُنجي الأمةَ من شرِّ هؤلاء.

---

[١] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب النكاح، باب المتشبع بما لم ينل، ص٩٨٢، برقم (٥٢١٩)، ومسلم في الصحيح، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره، برقم: (٢١٢٩)، عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ له.

لقد ظهر "التَّعالُم" – هذا المرض الخبيث والدَّاء العجيب – حيث ظهر، في عصر تكالبت على الأمة فيه فِتَنٌ عوجاء، واشتدَّتْ عليها نوازلٌ ومِحَنٌ شعواء، ليُصيبها في أساسها وعمادها، وقد اندلع على مصراعيه مُحدِثاً فيها عظيم الفساد والاختلال، ومختلقاً أعاجيب البِدَع وأفانين الضلال، وقد اتَّخذ هذا البلاءُ المبينُ والشَّرُّ المستطيرُ ألواناً متنوعةً، وأشكالاً مختلفةً، فتعدَّدت ظواهرُه وتكاثرت مظاهرُه، من تعالُمٍ في الإفتاء والقضاء، أو في مجال الوعظ والتدريس، والدعوة والإرشاد، أو ما يتعلَّق بدائرة النشر والتأليف والتحقيق، وهلم جراً.

وهذا الذي أتحدَّث عنه وأذكره هو في الحقيقة ليس وليدَ العصر؛ بل ظهر بُعَيْدَ العصر النبوي، لكنه في عصرنا الراهن قد ذاع وشاع، وعمَّ وطمَّ.

لذا فلا بُدَّ لأهل الغيرة والحمية، والنخوة الدينية الإيمانية أن يتداركوا هذا الداء بناجع الدواء، ليرزق الله الأمة عاجل الشفاء.

ومن هنا كانت فكرة هذا البحث...، حيث استخرتُ المولى تعالى لدراسة هذه القضية من جميع جوانبها، وشتّى نواحيها، من خلال جمع واستقراء ودراسة أدلته من السُّنّة النبوية الشريفة، فانشرح لذلك صدري واطمأنت نفسي.

أهمية البحث:

تَكمُن أهميةُ هذا البحثِ في معالجته لقضية عصرٍ مهمةٌ من ناحيةٍ، وخطيرةٌ من ناحيةٍ أخرى، كما أنها تواجدتْ على أرض الواقع في كل بقعة، وانتشرت في كل مصر، لذا فلا يمكن الإغفال عنها فيما نشهده اليوم من واقع معاصر مرير؛ بل لا بُدَّ من إعطاء رُؤيةٍ متكاملةٍ لإدراك أبعاد هذه القضية، ولا يُمكِن هذا إلا من خلال النظر والتأمُّل والتدبُّر في أحاديث المصطفى ﷺ، والتي تنبَّأ فيها عن حدوث هذه القضية، لإبراز جوانبها والإحاطة بِمَعالِمها، والتحذير من مغبَّتها، والتنبيه عن أخطارها على الْمُتعالِم نفسه أولاً وجنايته على الأمة جمعاء ثانياً، ثم تقديم الحلول النبوية السَّنِّيَّة المتكاملة والمناهج الإصلاحية الشاملة للحدِّ من هذه القضية وإيقافها.

ومن ناحيةٍ أخرى فإن الأهمية العظمى لهذا البحث تَكمُن – بمشيئة الله تعالى – في بيان إعجاز الحديث النبوي في تحقُّق التنبُّؤات الواردة في كلام المصطفى عليه أفضَلُ الصَّلاةِ وأتَمُّ التسليمِ، مَن وصفه الحقُّ تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]، وهذا منِ أعظم الدلائل على صِدْق نبوة النبي ﷺ، وعلى صِدْق ما جاء به من الوحي الإلهي الرباني.

أسباب اختيار البحث:

أمَّا أسباب اختياري لهذا الموضوع فأُلَخِّصها فيما يلي:

١) أنَّ قضية "التَّعالُم" وإن كان الأقدمون قد تناولوها في بعض مؤلفاتهم ورسائلهم، كذلك ما كتب فيه بعض علمائنا المعاصرين هي بمجموعها لا تفي بالموضوع دراسةً وإحاطةً وشمولاً من جميع جوانبه وأخذاً بكل نواحيه، بل هي إما مبثوثةٌ متفرّقةٌ في كتب الآداب والأخلاق العامة قديماً، أو أنها عبارة عن تنبيهات وإشارات إلى أخطارها على الفرد والمجتمع، ونصائح – لمن بيده أزمة التغيير – للحدِّ من انتشارها، كلُّ ذلك في صورة رسائل وجيزة مختصرة، وجُلُّ ما وقفتُ عليه رسالة رائعة ماتعة مختصرة للشيخ الفاضل بكر بن عبد الله أبي زيد (ت١٤٢٩هـ) بعنوان "التَّعالُم وأثره في الفكر والكتاب"؛ لأجل ذا كلِّه اخترتُ هذا الموضوع لدراسته دراسةً شاملةً متكاملةً في ضوء الأدلة النبوية الواردة فيها للحصول على رؤية متوازنة متكاملة.

٢) إنَّ قضية "التَّعالُم" وإن لم يكن النَّصُّ الحديثي قد تناولها بلفظه بشكل مباشر إلا أننا عن طريق النظر والتأمُّل للأحاديث النبوية المتعلّقة به نستطيع أن نصل إلى رؤية واضحة للقضية من خلال معاني ومقاصد الأدلة المتعلقة بها وبأمثالها.

٣) إنَّ المبادئ والقِيَم والرُّؤى والحلول المستوحاة جميعها من الإرشاد الرباني والْهَدْي النبوي في هذه القضية سيكون لها – بإذن الله تعالى – دورٌ كبيرٌ ونفعٌ عظيمٌ في تطهير ضمائر أهل "التَّعالُم"، والارتقاء بمستوى أفكارهم الخاطئة، وأخلاقهم السيئة، وسلوكهم المنحرف؛ وعلى ذلك سيكون هذا البحثُ – بإذن الله تعالى – لَبِنَةً جادَّةً في بناء عمارة أمةٍ مستقيمةٍ تحاول وبكل جهد القضاء على ما تواجهه من مشاكل وأزمات.

٤) إنَّ في معالجة هذه القضية وإبرازِ جانب الإعجاز النبوي فيها، ردّاً عظيماً على أعداء الإسلام من مُدَّعي النبوة، ومن المستشرقين المشكِّكين لأبناء الأمة في سُنَّة نبيِّها المصطفى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ودحضٌ لمفترياتهم الباطلة، وتفنيدٌ لمزاعمهم وآرائهم الجاهلة الْمُضِلَّة.

وأخيراً فإنَّ غاية المبتغى من هذا البحث: دعوة الأمة جمعاء إلى تعظيم العلم وأهله، وحفظِه وصيانتِه، فإنَّ شرفَ العلمِ وفضلَ أهلِه وحَمَلَته ينبغي أن لا يجهله فردٌ من أفراد الأمة، فطلبُ العلم مِن أسمى المطالب، وأسنى الغايات والمقاصد؛ ودليلُ كمال الشرف، وتمام الفضل، وعلماء الأمة فيها وَرَثَةُ أنبيائها وخِيرةُ أوليائها؛ فهم سراجُ العباد ومنارُ البلاد، بهم يُهتدى في

ظلمات البَرِّ والبحرِ، مثلُهم في الأرض مثلُ النجوم في السماء، فلا بُدَّ لكلِّ مَن سلك سبيلَهم التحلِّي بما هم عليه من الفضائل، والتخلِّي عن كل ما اجتنبوه من الرذائل، فبهذا يسمو ويَسعَد – بإذن الله – في الدنيا، ويُفلِح وينجح في الآخرة. أمَّا مَن خالفَهم فعن قريبٍ يفتضح، وبإذن الله أمرُه يتّضح، وما ذلك على الله بعزيز.

إشكالية البحث وأسئلته:

لا شكَّ أنَّ هذا العصر الذي نعيش فيه قد امتلأ بمنكرات الفِتَن، وأباطيل السيئات، كما قد تنبَّأ بذلك النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وغيرُ خافٍ على أحدٍ أنه هو بعينه العصر الذي قال عنه عليه السَّلامُ: «الصَّابِرُ فِيْهِمْ عَلَى دِيْنِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ[١]» أو كما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما ذاك إلا لعِزَّة المتمسكين بالشرع وقلة العاملين به، في الوقت الذي كَثُر فيه المدَّعون الكذَّابون، المفترون الدَّجَّالون، الذين أحسنوا ظواهرَهم ترغيباً للناس زُوْراً وكذباً فيما يقولون ويدَّعون، بينما بواطنهم فيعلم العليمُ ما هم عليه من سُوء النية، وخُبْثِ الطوية، وإنَّ صدر المسلم الغَيُوْر ليجيش حميةً وغيرةً على دين الله وشرعِه حين يرى أمثال هؤلاء، ويشتدّ غضباً ويتفطَّر ألماً بل ويمتلئ بُغضاً وكراهيةً – وهم الفقراء المفلسون – يخوضون في أشرف ما أنزله الله على وجه البسيطة ألا وهو: العِلم، الذي أكرم الله به خيرةَ خليقته وأفضلِهم على الإطلاق ألا وهم: الأنبياء عليهم السَّلام، ثم وَرَثَتهم العلماء.

وهذا في الحقيقة هو ما سَمَّاه العلماء بـ"التَّعالُم"، وهو في الواقع قضيةٌ خطيرةٌ جِدُّ خطيرة، قد انتشر وباؤها في المجتمع المسلم، واستشرى واستفحل، وأوّلُ مَن قام بالتنبيه على تلك القضية الْمُؤلِمة بهذا المسمَّى "التَّعالُم" هو: إمامُ الغَيُورين على العلم والتُّراث في وقتنا المعاصر: الشيخ بكر عبد الله أبو زيد (ت١٤٢٩هـ) رحمه الله تعالى، وقد تناوله في رسالته الصغيرة حجماً، العظيمة الجليلة نفعاً وفائدةً، فأحسن – رحمه الله تعالى – وأجاد، وأشعل جَذْوَةَ الغَيرة على الكِتاب والتراث في أفئدة العِباد، ونصح علماءَ الأمة على محارَبة هذه القضيةِ المشؤومة في جميع بِقَاع المسلمين وأرجاء البلاد.

لكن لم تكن هناك دراسةٌ وافيةٌ كافيةٌ، شاملةٌ كاملةٌ، من نواحٍ عديدة، وجوانب مختلفة لهذه القضية، ومن هنا انبعثتْ فكرةُ هذه الرسالة الجامعية، وتَراءى لي العملُ على تحقيق هذه

---

[١] أخرجه الترمذي في السنن، في أبواب الفتن، باب الصابر على دينه...، برقم (٢٢٦٠)، ص٥١٩، عن أنس بن مالك ﷺ، وقال: "هذا حديث غريب"، وصحَّح الشيخ ناصر الدين الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي، ج٢، ص٥٠٥، برقم (٢٢٦٠).

الفكرة، وتَرْجَمتِها إلى نتاجٍ علميٍّ أكاديميٍّ محقَّقٍ مدروسٍ في ضوء ما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة، وعن طريقه - بمشيئة الله تعالى وعونِه وتوفيقِه - سوف أحاول الإجابةَ على الأسئلة التالية:

١) ما هي المفاهيم والمصطلحات المتعلّقة بالعلم ونقيضه "التَّعالُم"؟
٢) ما هو "التَّعالُم" مفهومه ومعناه؟، وما هي مظاهر "التَّعالُم"؟
٣) ما هي أسباب "التَّعالُم" ودوافعه؟، وما هي صفات "الْمُتعالِم"؟
٤) ما هي أخطار انتشار "التَّعالُم" ونتائجه؟
٥) ما موقف أهل العلم من هذه القضية؟
٦) كيف تناول علماء الأمة لهذه القضية في مؤلَّفاتهم قديماً وحديثاً؟
٧) ما المواقف الغابرة القديمة الواردة في بطون كتب السِّيَر والتاريخ في مثل هذه القضية؟ وما الأمثلة الواقعية المعاصرة في الزمن الحاضر؟

أهداف البحث:

وبالنسبة للأهداف المرجوّ تحقيقها عبر هذا البحث - بمشيئة الله تعالى - فهي كالتالي:

١) دراسةُ قضية "التَّعالُم" من حيث مفهومه ودلالته ومعناه، وتناولُ السُّنّة النبوية الشريفة لهذه القضية، وذلك عبر جمعِ الأحاديث النبوية الواردة فيها، وكذلك جمعِ أقوال الصحابة والتابعين ﷺ، وأقوالِ قدامى العلماء والمعاصرين، لتقديم رؤية إسلامية متكاملة نحو القضية المطروحة.
٢) توضيحُ مظاهر "التَّعالُم" المختلفة وصُوَرها المتنوعة في العديد من مجالات العلم والثقافة والمعرفة، وكذلك إبرازُ شخصية "الْمُتعالِم" من جوانب متعدِّدة، حيث يتناول البحث صفاته ودوافع تعالمه ومسبِّباته لديه.
٣) تناوُلُ هذه القضيةِ في واقعنا المعاصر وما هي عليه الآن، وما كانت عليه سابقاً، ومن ثم بيان موقف العلماء قديماً وحديثاً من هذه القضية، وبيانُ أخطار "التَّعالُم" ونتائجه على الفرد نفسه، وعلى المجتمع كله، وتقديمُ أمثلة ونماذج من بطون كتب السِّيَر والتاريخ، كذلك من واقع العصر الحديث. وكلُّ ذلك بتتبُّع واستقراء الكتب التي تناولت هذه القضيةَ قديماً وحديثاً.

منهج البحث:

وللوصول إلى الغايات المرجوَّة، والحصول على النتائج الهادفة المأمولة فسأعتمد بعون الله تعالى على المنهجَين البحثيين التاليين:

أولاً: المنهج الاستقرائي: وذلك في جمع الأحاديث النبوية المتعلقة بقضية "التَّعالُم" وتتبُّعِها ثم دراستها في ضوء القوانين المعتبرة، لتقديم رؤية متكاملة للقضية المذكورة.

ثانياً: المنهج الوصفي التحليلي: وسيتم توظيفُ هذا المنهجِ في فهم الأحاديث النبوية المتعلقة بالقضية المطروحة، والتعرُّفِ على أقوال العلماء فيها، واستنباطِ الفوائد منها، واستخراجِ الفوائد الحديثية والحِكَمِ النبوية، والأمثالِ العَلِيَّة السَّنِيَّة، ثم ربطِها بواقع الأمة اليوم.

وأما بالنسبة لطريقة سَيْري في البحث، ومنهجي في ترتيب صياغته؛ فهو كالتالي:

١) قمتُ - بعون الله تعالى وتوفيقه - بتصنيف الأحاديث تصنيفاً موضوعياً، ووضعتُ كلَّ حديثٍ في المبحث المتعلّق به.

٢) قدّمتُ للموضوع بمقدمة مناسبة، ثم علّقتُ على الأحاديث بما يخدم فكرةَ الموضوع.

٣) وثّقتُ - بحمد الله تعالى - أقوالَ العلماء والمفسِّرين والمحدِّثين من الكتب المعتبرة في التفسير والحديث قدر الإمكان.

٤) رجعتُ في شرح الأحاديث إلى الشروح المعتبَرة لكتب الرواية، وفي حالة عدمِ وجود شرحٍ لحديثٍ في تلك الشروح؛ قمتُ بشرحه بنفسي حسب فهمي ومعرفتي.

٥) ختمتُ كلَّ فصلٍ بتلخيصٍ إجماليٍّ لِما ورد فيه.

وأما بالنسبة لمنهجي في جمع الأحاديث النبوية، وتخريجها، وخدمة متونها ونصوصها؛ فهو كالتالي:

(أ) ما يتعلَّق بجمع الأحاديث:

١) جمعتُ - بعون الله تعالى - الأحاديث المتعلقة بالموضوع من كتب السنة، بما يخدم مباحثَ ومطالبَ البحث.

٢) اقتصرتُ على الأحاديث المقبولة (الصحيح والحسن بنوعيهما) على قدر الإمكان، وتركتُ الأحاديث الضعيفة ضعفاً واهياً.

٣) أوردتُ - بحمد الله - الحديث كاملاً، إلا إذا كان الحديثُ طويلاً فاقتصرتُ على الجزء المراد الاستدلال والاستشهاد به، بذكر موضع الشاهد مع الإشارة إلى ذلك.

٤) كما حصرتُ الآيات التي تبيِّن عنايةَ القرآن بالموضوع حسب علمي واطّلاعي، وإدراجها مع الأحاديث النبوية تحت مباحث الفصول، وقد رجعتُ في ذلك إلى أمهات كتب التفسير في الموضوعات التي بُنِيَتْ على آيات قرآنية للإلمام بأهمِّ آراء المفسِّرين المذكورة في تفسير تلك الآيات.

(ب) ما يتعلَّق بتخريج الأحاديث والحكم عليها:

١) إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدِهما؛ فقد اكتفيتُ بالعزو إليهما أو إلى أحدهما، وإذا لم يكن في الصحيحين أو أحدِهما؛ توسّعتُ – بعون الله تعالى وتوفيقه – في تخريجه بقدر الحاجة.

٢) عزوتُ الأحاديث إلى مصادرها بذكر الكتاب، والباب، والجزء، والصفحة، ورقم الحديث – إنْ وُجد – لا سيما الأصول السِّتَّة، وفي حال تكرار الحديث؛ اكتفيتُ بالقول أنه سبق تخريجه وشرحه في الصفحة رقم (...).

٣) اعتمدتُ حكم الإمام الترمذي على الحديث في غير الصحيحين، مقرّرة ذلك بحُكم الشيخ محمد ناصر الدين الألباني فيه وفي بقية كتب السُّنَّة، كأبي داود، والنسائي، وابن ماجه، وكذلك بحكم الشيخ شعيب الأرناؤط في تحقيقه لمسند الإمام أحمد ولصحيح ابن حِبّان.

(ج) ما يتعلَّق بخدمة متون الأحاديث ونصوصها:

١) قمتُ بضبط المتن بالشكل.

٢) بيّنتُ مشكلَ الحديث ومختلفه.

٣) بيّنتُ ألفاظَ غريب الحديث بالاستفادة من كتب الغريب واللغة والشروح.

وأما بالنسبة لمنهجي في ترجمة الأعلام فإنني ترجمتُ لهم في الحاشية – لا سيما الذين أوردتُ أقوالَهم في البحث – (ما عدا الصحابة ﷺ) عند أوّل وُرود أسمائهم، بذكر اسم المترجَم ونسبه ونسبته وبلده وكنيته ولقبه وما يدلّ عليه من مثل ذلك، ثم تاريخ الولادة والوفاة بالعام الهجري، ثم مرتبته العلمية، وبعض أشهر كتبه خاصةً إذا كان في الحديث وعلومه، وكلٌّ ذلك بالرجوع إلى الكتب الخاصة بذلك. أمَّا في تراجم الأعلام المعاصرين فقد اضطررتُ إلى الاعتماد على الشَّبَكة العنكبوتية في تراجمهم، مع اعترافي بأنَّ الشبكة ليست مصدراً علميّاً يُمكِن الوثوقُ به والتوثيق منه.

صعوبات البحث:

لا شكَّ أنَّ لكل بحثٍ صعوباته ومعوّقاته، تلك التي تقف سدّاً منيعاً أمام الباحث دون الوصول إلى غايته بيُسْرٍ وسلامٍ؛ ولعلَّ من أهمّ الصعوبات التي واجهتني في إعداد هذا البحث ما يلي:

١) قِلَّةُ المراجع والمصادر التي تتناول هذا الموضوع.

٢) نُدْرَةُ كتب الحديث التي تتطرَّق إلى هذا الموضوع.

٣) ربطُ الموضوعِ بالأحاديث النبوية الشريفة بصورة سليمة وإنزالُها على الواقع المعاصر، بما يُطابِق الحقَّ والحقيقة، إذ أنَّ معظم أحاديث الفِتَن تتناول قضيةَ رفعِ العِلم ونقصانه، وفُشُوِّ الجهل وانتشاره بصورة عامة، وقليلةٌ هي تلك الأحاديث التي تتحدَّث بصورة خاصة عن قضية "التَّعالُم" في الدرس أو التدريس، أو في الكتابة والتأليف، أو في مجال الإفتاء والقضاء.

الدراسات السابقة:

لم أجد في هذا الموضوع أي دراسة جامعية سابقة – حسب علمي القاصر – سِوى رسالة "التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب" للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، التي أشرتُ إليها آنفاً، وهي رسالة بليغة الأسلوب، عريقة المضمون، رائعة المبنى، فائقة المعنى. تحدَّث فيها الشيخ عن "التَّعالُم" وظواهره المختلفة، وما هو عليه في عصرنا الراهن، وضرب لذلك أمثلةً من بطون كتب السِّيَر والتاريخ مع ذكر بعض المؤلفات فيه مما يدلُّ على أنه ليس وليدَ العصرِ بل له جذورٌ قديمةٌ، لكنها الآن امتدَّتْ وقَوِيَتْ، واتّخذتْ مظاهرَ مختلفةً وألواناً عديدةً، تلا ذلك أبحاث مختصرة مفيدة للغاية دالَّةً على ما أراده الشيخ مِن بيان خطرِ هذا المرض الخبيث على الفرد نفسه دنياً وأخرى، وعلى الأمة الإسلامية جمعاء، فجزاه الله تعالى عنا جميعاً خيرَ ما جَزَى غَيُوراً على دينه وشرعِه، ومُدافِعاً عن سُنَّة نبيِّه – عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ – وأُمَّتِه.

وكذلك ثمة كتب اهتمّتْ بالحديث عن ظاهرة "التَّعالُم" قديماً وحديثاً ضِمن أبحاثها، وصفاً لِما كان عليه الحالُ في الماضي وما عليه الآن في الواقع المعاصر، كما بيّنتْ موقفَ علماء الأمة من هذه القضية، وقدّمتْ العديدَ من الحلول والاقتراحات، والتي سوف أتناولها – بمشيئة الله تعالى – بالبحث والدراسة.

كما تناول هذا الموضوعَ بالحديث والكتابة بعضُ العلماء المعاصرين في محاضراتهم ومقالاتهم مما هو متناثرٌ على مواقع الشبكة العنكبوتية، والتي استفدتُ منها كذلك في تعضيد الموضوع بالأدلة والشواهد، كمحاضرة "فتنة التَّعالُم" لفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن صالح

المحمود. أما بالنسبة للمقالات فمثل: "التَّعالُم وآثاره الخطيرة على الأُمَّة!" للشيخ صالِح بن فَوْزان، و"التَّعالُم وقول النبيّ ﷺ: «المتشبِّع بما لم يعط كلابس ثوبَي زور»" للشيخ حسام الدين عَفانة، و"الْمَعالِم لمعرفة حدّ التَّعالُم" للأستاذ أبي بكر يوسف لَعْوِيْسي، و"فضل العلم وخطورة التَّعالُم" للشيخ محمد حَسَّان المصري.

وأخيراً أقول: إنَّ ما بذلتُه من جهدٍ في هذا البحث إنما هو قَدْرَ الوُسْعِ والطاقة البشرية، فما كان منه صواباً فمِن الله تعالى، وما كان خلافُه فأسأل الله أن يغفره لي، والكمالُ لله وحده، والعصمةُ لمن عصمه الله، وأسأل الله تعالى أن يوفِّقني لخدمة سُنّة نبيِّه المصطفى عليه أفضَلُ الصَّلاة وأتَمُّ التسليم، وأن يجعل عملي في إعداد هذا البحث خالصاً لوجهه، ويكتب له النفعَ والقبول، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

وفي الختام وقبل أن أمضي ... يطيب لي أن أقدِّم أَسْمَى آيات الشكر الجزيل، والعرفان الجميل، وأسجِّل كلَّ الاحترام والتقدير، والإجلال الكبير، لكلِّ مَن تفضَّل عليَّ بالتقديم لهذا الكتاب المتواضع الصغير، والتوجيه قُدُماً للمسير...، مَن كانوا لي بفضل الله تعالى نِعْمَ أهل النُّصْح والأمانة، وأُوْلِي التأييد والاستقامة...، فبتقديمهم حفظهم الله، اشتدَّ عود البحث وحَسُنَ، واستقام اعوجاجه وصَلُحَ، وهم كلّ من: فضيلة الشيخ الجليل الأستاذ الدكتور محمد أبي اللَّيْث الخيرآبادي، وفضيلة الشيخ المحقِّق العلامة الدكتور نجم عبد الرحمن خلف، وسماحة العالِم الرَّبّاني الداعية الكبير الشيخ سلمان الحسيني النَّدْوي، وفضيلة الشيخ المبجَّل الدكتور خالد بن مرغوب بن محمد أمين، أبقاهم الله ذُخْراً للإسلام والمسلمين، ونفع بهم في الدَّارَين، وجمع لهم بين السعادتَين، وأكرمهم في الدنيا والدين، وجزاهم عن طَلَبة علوم الدين خيرَ ما جزى عبادَه العلماء الربَّانيين، وحَشَرهم مع الأبرار المتّقين، وما ذلك بعزيز على ربّ العالمين، فاطر السماوات السبع والأرضين، وصلَّى الله وسلَّم على المبعوث رحمةً للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الغُرّ الميامين، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، آمين.

خديجة فاطمة بنت سيد ممتاز الدين

كوالالمبور ٩ شعبان ١٤٣٦هـ
(الموافق ٢٦ مايو ٢٠١٥م)

كلمةُ شكرٍ وتقديرٍ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، القائل في مُحكَم تنْزيله المبين: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وامتثالاً لقوله جلَّ جلاله، أحمده تعالى سبحانه، وأشكره على نعَمه التي لا تُعَدّ وآلائه التي لا تُحصَى؛ إذ أكرمني بنعمة الإسلام أوّلاً، ثم وَفّقني لطلب العلم الشرعيّ ثانياً، ثم تَوَالتْ نعَمُ الله تبارك وتعالى، فاللهمَّ لك الحمدُ حمداً كثيراً، طيباً مباركاً فيه.

ثم الصَّلاةُ والسَّلامُ الأتمّان الأكملان على المبعوث رحمةً للعالمين، خاتم الأنبياء والمرسَلين، محمَّد المصطفى عليه وعلى آله وصَحْبه ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، القائل صلواتُ ربِّي وسلامُه عليه: «مَنْ لاَ يَشْكُرِ النَّاسَ لاَ يَشْكُرِ اللهَ»[١].

وعملاً بهذا الحديث النبوي الجليل، والقول المصطفوي السَّنِيّ النبيل: فإني أتقدَّم بجزيل الشكر، ووافرِ العرفان، وعظيمِ التقدير، وبالِغِ الامتنان، إلى مَن أَمَر الْمَوْلَى تعالى العليّ العظيم، بشكرهما فقال جلَّ جلاله، وتقدَّست أسماؤه: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان: ١٤]، فالشكرُ كلّ الشكر **لوالديَّ الحبيبَين**، مَن هما سببُ وجودي في ذي الحياة، ومَن لهما أعظَمُ دورٍ وأجَلُّ أثرٍ في تربيتي وتوجيهي وتشجيعي، ومواصلةِ الدعاء لي ليلاً بنهارٍ، داعيةً الْمَوْلَى تعالى، كما أمرني ربِّي في حقِّهما أن يرحمهما كما رَبَّياني صغيراً، وأن يجزيهما عني أعظَمَ ما جزى والِدَيْن عن ولدهما، آمين.

ثم أهدي فائق شُكري إلى مَن هو أعظَمُ الناسِ حقّاً عليَّ بعد الله عَزَّ وجَلَّ، ورسولِه الأكمل ﷺ: **زوجي العزيز "أبي حسن"**، الذي أمدَّني كثيراً بتوجيهاته القيمة المفيدة، وملاحظاته العلمية السديدة، فله مني ومن أعماق فؤادي جزيلُ الشكر وعاطِرُ الثناء...، ولا أملك سِوى أن أقول: جزاه اللهُ تعالى خيرَ ما جزى زوجاً عن زوجته، آمين.

ثم أزجي خالص تقديري، **لعمّي ووالد زوجي: الأستاذ سيد أنور بن الغَوْري**، الذي حَثَّني على الْمُضِيّ قُدُماً في طريق العلم، ومُواصَلةِ السَّيْر على الدَّرْب، وشَجَّعني على ذلك إلى أن أكملتُ المسير، جزاه الله تعالى خير الجزاء، آمين.

ثم أَزُفُّ غايةَ شكري، وخالص مَحَبَّتِي لِفِلْذَتَي كَبِدي، ومُهْجَتَي قلبي: **ابناي الحبيبَين: "حَسَن وحُسَيْن"**. أمَّا "حسنٌ" فقد صَبَر وتحمَّل مشاقَّ انشغالي عنه بالبحث والكتابة، في نُعومة أظفاره، في

---

[١] أخرجه الترمذي في السنن، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، ص٤٥٤، برقم١٩٥٤، عن أبي هريرة ﷺ، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

ذلك العُمُر الذي هو أحوَجُ ما يكون بحاجةٍ إلى قُرْبِي وتربيتي وعنايتي واهتمامي. وأمَّا "حسينٌ" فقد رأى نورَ الحياةِ بعيداً عن أحضان الْجَدّات وحنانهنَّ، غريباً عن أحداق الأجداد وعطفهم، فقاسى بذلك كِلَي الغُرْبَتَين: غربة الأرض والوطن، وغربة الأهل والأحباب. فاللهُ تعالى الكريم يُخلِف لهما عن صبرهما كلَّ خيرٍ وعِزٍّ، وصلاحٍ وبرٍّ، ويُجازيهما خيرَ الجزاء وأكرمه في الدَّارَين، وهو المسؤولُ سبحانه لأن يَمُدُّهما بالتوفيق والنجاح والعطاء والسَّداد في حياتهما العلمية والعملية، ويجعلهما لي ولزوجي قُرَّةَ عينٍ في الدنيا والآخرة، آمين.

ثم الشكرُ موصولٌ إلى سعادة المشرِف المفضال **الدكتور فيصل بن أحمد شاه** سلَّمه الله، الذي أيَّد موضوعَ هذا البحثِ، ووافق على فكرة هذه الأطروحةِ، أسال الْمَوْلَى ﷻ أن يجزيه عني خير الجزاء، وأن يُجزِل له المثوبةَ والعطاء، آمين.

كما لا يفوتني أيضاً أن أتقدَّم بالشكر الوافر الجزيل، والثناء العاطر الجميل، لفضيلة الشيخ الجليل **الأستاذ الدكتور محمد أبي اللَّيْث الخيرآبادي** (أستاذ الحديث وعلومه في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا)، الذي تفضَّل بتحكيم البحث تحكيماً مُحكَماً وقراءته قراءةً مُتقَنَةً، ثم أكرمني بملاحظاته العلمية القيمة، وتصحيحاته الدقيقة الموزونة، والتي كان لها أكبَرُ الأثر في تحقيق هذا العمل وإنجازه بهذه الصورة التي هو عليه الآن. فأسأل الْمَولَى ﷻ أن يُكرمه في الدَّارَين، ويجمع له بين السَّعادتَين، ويُحسِن عاقبتَه في جميع أمور الدنيا والدين، آمين.

والشكرُ مبذولٌ **للدكتور فوزي درامَنْ** (أستاذ الحديث النبوي المشارك في جامعة ملايا)، الذي تفضَّل كذلك بتحكيم البحث، فجزاه الله تعالى عني خير الجزاء، آمين.

ثم الشكرُ والتقديرُ **لجامعة ملايا**، ممثَّلة في أكاديمية الدراسات الإسلامية، قسم الكتاب والسنة، والتي أتاحت لي فرصةَ إكمال الدراسات العليا، فجزى الله تعالى القائمين عليها خير الجزاء، آمين.

ومما يَسُرُّني ويشرِّفني أيضاً أن أسطِّر كلَّ عرفان بالجميل، وأن أخطَّ أجمل عبارات الشكر والتقدير لعلاَّمة البحرين: **الشيخ نظام محمد صالح يعقوبي**، مَن أدين له بعظيم الفضل بعد الله – تبارك وتعالى – في تمهيد الطريق لإنجاز هذا البحث وإخراجه، إذ أجرى – حفظه الله – منحةً دراسيةً لإكمال مشروع هذا البحثِ وإتمامه، فجزاه الله تعالى عني خيرَ الجزاء وأجزله، وأوفاه وأوفره، وبارك له في أهله وماله، ونفع به وبعلمه، آمين.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أبتهل للمولى تعالى سائلةً النفع والقبول، وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، إنه وَلِيُّ ذلك، والقادرُ عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلَّى الله على نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الفصل الأول

مقدمات تمهيدية

المبحث الأول: مصطلحات تأصيلية وضوابط أساسية.

المبحث الثاني: "العلم" و"العلماء" في مصدرَي الشريعة، ورأي علماء الأمة المستمدّ من القرآن والسنة.

المبحث الأول:

مصطلحات تأصيلية وضوابط أساسية

وخيرُ ما أبدأ به هذا البحث - بإذن الله تعالى - مقدمة تمهيدية تشتمل على بعض المفاهيم والمصطلحات المتعلّقة بالعلم ونقيضه "التَّعالُم"؛ ذلك لأنه لا بُدَّ من معرفة حقيقة "التَّعالُم" وماهيته الوقوفُ جيداً على مفهوم العلم ومعناه، والإفتاء ومعناه، وما لا يكتملان إلا به من أدب وخُلُق، كذلك لا بُدَّ من معرفة ماهية قنوات العلوم والمعارف وأوعيتهما وقوالبهما من تأليف وتصنيف وتحقيق.

ثم أعرِّج - بإذن الله - على ذكر آيات عطرة من كتاب الله الكريم في بيان فضل العلم وشرفِ أهله، ثم إيضاح هديِ النبيِّ ﷺ في طلب العلم وإكرام العلماء، ثم ذِكر ما ورد من أقوال أئمة العلم المأثورة في قيمة العلم وقدر العلماء. فهذه هي أولاً تلك الأصول والمصطلحات:

المطلب الأول: تعريف "العلم" لغةً واصطلاحاً:

وأوّلُ ما أبدأ بتعريفه من المصطلحات هو مصطلح "العلم"، وذلك بشيء قليل من التفصيل؛ لأن معرفة الأصل ضروريٌ جداً، لمعرفة ضدِّه ونقيضِه، ولذا فسوف أقوم بتعريف "العلم" لغةً واصطلاحاً، كما أقدِّم كذلك بتعريف بعض المصطلحات التي تتعلَّق بـ"العلم".

لغةً: "العلم" نقيض الجهل، نقول للرجل: عالِمٌ وعليمٌ.

وقال ابن جِنِّي[1]: "لما كان العلم قد يكون الوصف به بعد المزاولة له، وطول الملابسة؛ صار كأنه غريزة، و لم يكن على أول دخوله فيه، ولو كان كذلك لكان متعلِّماً لا عالِماً.

والعِلْمُ من صفات الله ﷻ العُلَى، فهو "العليم"، "العالِم"، "العَلاَّم"[2]، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٨٦]، وقال سبحانه: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩][3].

---

[1] هو عثمان بن جني الموصلي، أبو الفتح (ت٣٩٢هـ): من أئمة الأدب والنحو، وله شعر. وُلد بالموصل وتوفي ببغداد. من تصانيفه: "شرح ديوان المتنبي"، و"سر الصناعة"، و"الخصائص" وغيرها. انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٤، ص٢٠٤.

[2] ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص٣٧١.

[3] المرجع السابق، ج٩، ص٣٧٠.

ومرادف "العِلم": الْحِلْم، والعلماءُ: حلماء؛ لأن العلم مَحْلَمَةٌ لصاحبه، وعلى ذلك جاء عنهم فاحش وفحشاء لَمَّا كان الفُحْشُ من ضروب الجهل، ونقيضاً للحلم.

واصطلاحاً: العِلمُ: إدراك الشيء بحقيقته[1].

كما قيل في تعريفه أنَّ المراد به: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وقال الحكماء: هو حصول صورة الشيء في العقل.

وقيل: العِلمُ هو إدراكُ الشيء على ما هو به.

وقيل: زوالُ الخفاء من المعلوم، والجهل نقيضه.

وقيل: العلمُ صفةٌ راسخةٌ تُدرَك بها الكليات والجزئيات.

وقيل: العلمُ وصولُ النفسِ إلى معنى الشيء.

وقيل: هو مستغنٍ عن التعريف.

وجميعها تعريفات جامعة مانعة[2].

و" الإعلام" مختصٌّ بما كان بإخبار سريع.

و"التعليمُ" مختصٌّ بما يكون بتكرير وتكثير حين يحصل منه أثرٌ في نفس المتعلِّم.

والفرقُ بين "التعليم" و"التعلُّم": أنَّ التعليم تنبيهُ النفسِ لتصوُّر المعاني، والتعلُّم تنبُّهُ النفسِ لتصوُّر المعاني[3].

أمَّا الفرق بين "العِلم" و"المعرفة" فهو كما قال الزَّبِيْدِيّ[4]: "المعرفة: إدراكُ الشيء بتفكُّر وتدبُّر لأثره، وهي أخصُّ من العلم"[5].

---

[1] الراغب الأصبهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٥٨١.

[2] علي بن محمد بن علي الجرجاني، كتاب التعريفات، ص١٩٩.

[3] الراغب الأصبهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٥٨٠. ومحمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج٣٣، ص١٢٨، ١٢٩.

[4] هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق، أبو الفيض، الحسيني البَلْجَرامي ثم الزَّبيدي ثم المصريّ (١١٤٥-١٢٠٥هـ): المحدِّث اللُّغوي. وُلد في بلدة "بَلْجَرام" الواقعة قُرب مدينة "لكنؤ" في شمالي الهند. رحل إلى اليمن وأقام بمدينة "زَبيد" زمناً طويلاً حتى نُسب إليها، ثم رحل إلى مصر واستقرَّ فيها حتى وفاته. ومن أشهر مؤلفاته: "تاج العروس من جواهر القاموس". انظر: عبد الحي الحسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ج٢، ص١٠٦.

[5] مرتضى الزبيدي، تاج العروس، ج٣٣، ص١٣٧.

مصطلحاتٌ تتعلَّق بـ"العلم":

ويجدر بي هنا ذكرُ بعضِ المصطلحات المهمَّة اللَّصُوْقَة جداً بمصطلح "العلم" – والتي سوف يَكثُر ورودُها في البحث إن شاء الله، كما أنها وردتْ كذلك بكثرةٍ في كتب أهل العلم ممن كتبوا في مثل هذه القضايا، وقاموا بمعالجتها خيرَ قيامٍ – وذلك للمزيد من التوضيح والبيان:

١) **العِلم الشَّرْعي**: قال الحافظ ابن حَجَر[١] في تعريفه: "العِلم الشَّرْعي الذي يُفيد معرفةَ ما يجب على المكلَّف مِن أمر دينه في عباداته ومُعامَلاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتَنْزيهه عن النقائص، ومدارُ ذلك على: التفسير والحديث والفقه"[٢].

ويمكن تعريفه بما يلي أيضاً: أنه "علمُ ما أنزله اللهُ على رسوله من البَيِّنات والْهُدَى"[٣]، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً؛ يُفَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ»[٤]، وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوْا دِيْنَاراً وَلاَ دِرْهَماً، إنَّما وَرَّثُوْا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ؛ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[٥].

٢) **العالِم**: هو من يَحمِل قَدْراً كبيراً من العلم بالله وأحكامه. ويشترط بعض العلماء في تسمية صاحب العلم: "عالِماً" أن يكون عاملاً بعلمه وتَقِيّاً. وهذا صحيحٌ كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨][٦].

فـ"العالِمُ" هو: العاملُ بعلمه، الذي يعمل بكل ما آتاه اللهُ من علمٍ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وهذا عينُ الخشيةِ التي امتدح اللهُ تعالى أصحابَها في قوله: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]، فهنا أخبر الله ﷻ أنَّ العلماء هم من يخشونه حقَّ خشيته[٧].

---

[١] هو أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ – ٨٥٢هـ): قاضي القضاة، شيخ الإسلام، أمير المؤمنين في الحديث. أصله من "عسقلان" بفلسطين، ومولده ووفاته بالقاهرة. تخرَّج في الحديث على يدي الحافظ العراقي. ولي قضاءَ مصر مرات ثم اعتزل. ومن أشهر مؤلفاته: "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، انظر: محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج١، ص ١١٨، ١٢٢.

[٢] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج١، ص١٨٨.

[٣] انظر: محمد بن صالح العثيمين، كتاب العلم، ص٢.

[٤] أخرجه البخاري، في الجامع الصحيح، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، برقم: (٧١)، عن معاوية ابن أبي سفيان ﷺ.

[٥] أخرجه ابن حبان في الصحيح، ج١، ص١٨٩، ٢٩٠، برقم٨٨، وابن ماجه القزويني، في السنن، في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم: (٢٢٣)، عن أبي الدرداء ﷺ، وقال محقق "صحيح ابن حبان" الشيخ شعيب الأرناؤط: "حديث حسن".

[٦] مرتضى الزبيدي، تاج العروس، ج٣٣، ص١٣٧.

[٧] الزبيدي، تاج العروس، ج٣٣، ص١٣٧.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: "ليس العلم عن كثرة الحديث، إنما العلم خشية الله"[١].

وقد يُطلَق العلمُ ويُراد به: العمل، وبه فسَّر الإمام عبد الله بن يزيد المكِّي[٢]، قولَه تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ ﴾ [يوسف: ٦٨]. أي: لذو عملٍ، ومما يؤيِّد هذا قولهم: "العالِم: الذي يعمل بما يعلم"[٣].

٣) **العالِم الرَّبَّانِيّ**: وقد ورد في تعريفه عدةُ أقوالٍ:

فقيل أنه: العالِمُ الرَّاسِخُ في العلم والدين.

وقيل: الذي يَطلُب بعلمه وجهَ اللهِ تعالى.

وقيل: العالِم العامِل المتعلِّم"[٤].

وقيل: الذي يبلِّغ تلميذَه العلمَ شيئاً فشيئاً حتى يَبلُغ به الكمالَ بعون الله تعالى[٥]؛ لأنَّ أصل "الرَّبّ" بمعنى: "التربية"، وهي: تبليغُ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، و"الرَّبَّانِيّ" هو من يربِّي المتعلِّمَ بصِغار العلوم قبل كِبارها[٦].

وعلى ذلك فالعالِمُ الرَّبَّانِي هو مَن اتَّصف بهاتَيْن الصِّفَتين العظيمتين، وتَحَلَّى بهاتين الْخِلَّتَيْن الجليلتين، وهما:

أولاً: خشيةُ اللهِ جلَّ وعلا، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾، فيخشى الرَّبَّ ﷻ، وتقوده هذه الخشيةُ الربانيةُ إلى العمل بما آتاه الله من علم، والإخلاصِ لله ﷻ.

ثانياً: تربيةُ الأُمَّةِ بصِغار العلم قبل كِباره[٧]، أي تربية المتعلِّمين بصِغار مسائل العلم قبل كِبارها، ومعنى هذا: أنَّ العالِم الرَّبَّاني يدرِّج طلابَه الصِّغار في العلم تدريجاً، ويربِّيهم على صِغار مسائل العلم قبل كِبارها[٨]، وبذلك لا يشقُّ عليهم حيث لم يُلقِ العلم جملةً واحدةً،

---

[١] ابن عبد البر القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٦٠٩، برقم: (١٤٠١).

[٢] هو الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المكِّي (ت١٤٨هـ): المقرئ، ومن رواة الثقات، روى عروة بن الزبير وغيره. انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٢، ص٤٥٨.

[٣] الزبيدي، تاج العروس، ج٣٣، ص١٣٧.

[٤] ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص٦٢٣.

[٥] محمد عوامة، أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين، ص١٧٩.

[٦] ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص٦٢٣.

[٧] كما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "الربانيُّ الذي يربِّي الناسَ بصغار العلم قبل كباره"، انظر: البخاري في الصحيح، في كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، ص٣١.

[٨] محمد عوامة، أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين، ص١٧٩.

بل بالرِّفْق والصبر والحِلْم والأناة حتى يصل بهم إلى طريق السَّلامة والاستقامة، فيكون له بذلك أجره وأجرهم، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

المطلب الثاني: تعريف "الإفتاء" لغةً واصطلاحاً:

لغةً: "الإفتاء" مصدرٌ من فعل "أفتى يُفتي إفتاءً"، بمعنى: الإبانة والتوضيح، يُقال: "فلانٌ أفتاه في الأمر"؛ أي: أبان له[1].

واصطلاحاً: هو تبيين الحكم الشرعي بلا إلزامٍ[2].

الفرق بين "الإفتاء" و"القضاء":

ويختلف "الإفتاء" عن "القضاء"، وإن كانا في حقيقتهما تبيينُ الحكم الشرعي، في أنَّ "الإفتاء" ليس فيه إلزامٌ من المفتي، في حين أنَّ "القضاء" فيه إلزامُ المتقاضيَين بالحكم، إلى جانب ما في القضاء من إبرام العقد للقاضي حين التولية، وما فيه من الشروط المعتبَرة في القاضي؛ كالذكورة والحرية دون المفتي[3].

شروط الإفتاء:

وهي أن يكون صاحبه مكلَّفاً، مسلماً، ثقةً، مأموناً، متنّزهاً عن أسباب الفسق ومُسقِطات المروءة؛ لأن مَن لم يكن كذلك فقوله غير صالحٍ للاعتماد، وإن كان من أهل الاجتهاد. ويكون فقيه النفس[4]، سليم الذهن، رصين الفكر، صحيح التصرُّف، والاستنباط، متيقِّظاً[5].

وللعلماء في آداب الإفتاء كتب عديدة مستقلة، مثل كتاب "الفقيه والمتفقه" للحافظ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، وكتاب "أدب المفتي والمستفتي" للحافظ ابن الصلاح الشَّهْرَزُوْري (ت٦٤٣هـ)، و"أدب الفتيا" للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) وغيرها.

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص١٨٣.

[2] مرعي الكرمي المقدسي، غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى، ج٣، ص٤١٩.

[3] ابن الصلاح، أدب المفتي والمستفتي، ص٦٧.

[4] هو العالِمُ المتديِّن المهذَّب، الذي يعلم ما يحتاجه وما يُصلِح حاله وما يُفسدها، يعلم ما له وما عليه، ويعمل بما عَلِمه من علم وفقه وغيره. انظر: الموسوعة الفقهية، ج١، ص١١، ١٢، انظر مادة "فقه".

[5] ابن الصلاح، أدب المفتي والمستفتي، ص٧٧.

المطلب الثالث: تعريف "الْخُلُق" لغةً واصطلاحاً:

ثم نعرِّف "الْخُلُقَ"، وهو أيضاً مصطلحٌ أساسٌ في البحث؛ لأن الله – تبارك وتعالى – وكما يَهَبُ العلمَ ويعطيه لأهل محبّته ورضوانه ممن اصطفاهم لذلك من خَلْقه واجتباهم، كذلك يمنحهم الرَّبُّ – تبارك وتعالى – أخلاقاً شريفةً عاليةً رفيعةً تُناسِب شرفَ ما يَحمِلونه من العلم والفقه.

لغةً: "الخلق" وجمعُه: أخلاق، وله معنيان:

١) الطبع والسَّجيَّة. ومنه حديث عائشة – رضي الله عنها – في وصف خُلُق ا لنبيِّ ﷺ: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"[١]. أي: أنه – عليه الصَّلاة والسَّلام – كان متمسّكاً بآداب القرآن الكريم وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه.

٢) الْمُرُوْءَةُ والدين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وفي الحديث: «مَا مِنْ شَيْءٍ أثقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ»[٢] [٣].

واصطلاحاً: "الخُلُق" عبارة عن هيئةٍ للنفس راسخة تَصدُر عنها الأفعالُ بسهولةٍ ويُسْرٍ من غير حاجةٍ إلى فكرٍ ورَوِيَّةٍ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة؛ سُمِّيَت الهيئةُ: "خُلُقاً حسناً". وإنْ كان الصادرُ منها الأفعال القبيحة؛ سُمِّيَت الهيئةَ: "خُلُقاً سيئةً". وإنما قلنا: إنه هيئة راسخة؛ لأن من يَصدُر منه بذلُ المال على النُّدرة بحالة عارضة، لا يُقال: خُلُقه السَّخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه، وكذلك من تكلَّف السكوت عند الغضب بجهدٍ أو رَوِيَّة؛ لا يقال: خُلُقه الحلم.

وليس الخُلُقُ عبارةً عن الفعل، فرُبَّ شخصٍ خُلُقُه السَّخاء ولا يبذل، إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء[٤].

قال الراغب[٥]: "الخُلُق ما كان مختصاً بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة.

---

[١] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ص٣٠١، برقم ٧٤٦.

[٢] أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، ص٦٧٩، برقم: (٤٧٩٩)، والترمذي في الجامع، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، ص٤٦٢، برقم (٢٠٠٣)، عن أبي الدرداء ﷺ، واللفظ لأبي داود، وهو حديث صحيح، انظر: الألباني، صحيح سنن أبي داود، ج٣، ص١٧٩، برقم (٤٧٩٩).

[٣] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص٨٨٠، ٨٨١.

[٤] الجرجاني، كتاب التعريفات، ص١٣٦.

[٥] هو أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ"الراغب الأصفهاني" (ت٥٠٢هـ): أديب، من الحكماء العلماء. من أهل "أصبهان" سكن بغداد. من كتبه: "المفردات في غريب القرآن"، و"جامع التفاسير"، و"الذريعة إلى مكارم الشريعة"، و"الأخلاق"، و"محاضرات الأدباء"، وغيرها. الزركلي، الأعلام، ج ٢، ص٢٥٥.

و(الْخَلاَقُ): ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه، قال تعالى: ﴿ مَا لَهُۥ فِى ٱلۡأَخِرَةِ مِنۡ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢][1].

وقد تكرَّرت الأحاديث في مدح حُسْنِ الْخُلُقِ، منها:

١) عن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ سُئل عن أكثر ما يُدخِل الناسَ الْجَنَّةَ، فقال: «التَّقْوَى وَحُسْنُ الْخُلُقِ»[2].

٢) وعنه ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِيْنَ إِيْمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً»[3].

٣) وعنه عن النبي ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ»[4].

٤) وعن عائشة – رضي الله عنها – قالتْ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِك بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»[5].

المطلب الرابع: تعريف "الأدب" لغةً واصطلاحاً:

وأرى من اللاَّزم هنا تعريف "الأدب" باعتبار أنه مرادفٌ للخُلُق، ومشابهٌ له في المعنى.

لغةً: "الأَدَبُ" هو في الأصل مأخوذٌ من "الأَدْب" – بسكون الدَّال – وهو الدعاء، ومنه قيل للصَّنِيع يُدعَى إليه الناسُ: مَدْعاة ومَأْدُبَة[6].

و"الأدب": الظَّرْفُ وحُسْنُ التَّناوُل في الأمور كلِّها. سُمِّيَ كذلك لأنه يأدب الناس إلى الْمَحامِد، وينهاهم عن الْمَقابِح[7].

فالأدبُ على ذلك يكون جامعاً للفضائل والأخلاق الكريمة[8].

---

[1] الأصفهاني، مفردات القرآن، ص٢٩٧.

[2] أخرجه الحاكم النيسابوري، في المستدرك على الصحيحين، ج٤، ص٣٦٠، برقم: (٧٩١٩)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه".

[3] أخرجه أبو داود في السنن، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان، ص٦٦١، برقم: (٤٦٨٢)، والترمذي في الجامع، أبواب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، ص٢٨٢، برقم (١١٦٢)، وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح".

[4] أخرجه الحاكم في المستدرك، ج٢، ص٦٧٠، برقم (٤٢٢١)، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي.

[5] أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، ص٦٧٩، برقم (٤٧٩٨)، وهو حديث صحيح، انظر: الألباني، صحيح سنن أبي داود، ج٣، ص١٧٨، برقم (٤٧٩٨).

[6] ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٩٣.

[7] ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٩٣، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص٥٨.

[8] محمد عوامة، أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين، ص٧١.

واصطلاحاً: هو رياضةُ النفوسِ ومحاسنُ الأخلاق، ويقع على كلِّ رياضةٍ محمودةٍ يتخرَّج بها الإنسانُ في فضيلةٍ من الفضائل[1].

وقيل: أن "الأدب" عبارة عن معرفة ما يُحتَرز به عن جميع أنواع الخطأ[2].

وقال الحافظ ابن حجر: "الأدب: استعمال ما يُحمَد قولاً وفعلاً، وعبَّر بعضُهم بأنه الأخذُ بمكارم الأخلاق، وقيل: الوقوفُ مع المستحسنات، وقيل: بل هو تعظيمُ مَن فوقك، والرِّفْقُ بمن دُوْنك..."[3].

وكلٌّ هذه المعاني مرادةٌ في الأدب، داخلةٌ في مسمَّاه، ولا تعارُضَ بين واحدٍ منها والآخر. وهذه المعاني مجتمعة، كان يُطلَق عليها في لسان السَّلَف اسم: الْهَدْي، وهَدْي الرجل: سيرته العامّة والخاصّة، وحالُه وأخلاقُه. فمن اكتملتْ فيه كانوا ينظرون إلى حركاته وسَكَناته ليقتدوا به فيها[4].

لقد اعتنى علماء الإسلام قديماً وحديثاً بموضوع الأخلاق والآداب اعتناءً كبيراً، واهتموا بذلك اهتماماً شديداً حيث قاموا بتأليف الكثير من الكتب القيمة المختصّة بالأخلاق والآداب وخاصةً ما تختصّ بأخلاق أهل العلم من علماء ومتعلّمين، وقضاة ومفتين، ومؤلِّفين ومصنِّفين، ومن تلك الكتب: "جامع بيان العلم وفضلِه" للحافظ أبي عَمْرو يوسف بن عبد البَرّ القُرْطُبيّ (ت٤٦٣هـ)، و"تعليم المتعلِّم طريق التعلُّم" للشيخ بُرْهان الإسلام الزَّرْنُوْجي (من أبناء القرن السادس)، و"تَذْكِرَة السَّامع والمتكلِّم في أدب العالِم والمتعلِّم" للإمام بدر الدين محمَّد بن إبراهيم بن جَمَاعة الكِنَانِيّ (ت٧٣٣هـ)، و"الدُّرُّ النَّضِيد في أدب الْمُفِيد والْمُسْتَفِيد" للشيخ بدر الدين محمَّد العِزِّي (ت٩٨٤هـ)، و"أَدَبُ الطَّلَبِ ومُنْتَهى الأَرَبِ" للإمام محمد بن علي الشَّوْكاني اليَماني (ت١٢٥٠)، كما أَلَّف في هذا الموضوعِ بعضُ أَجِلَّة العلماء المعاصرين كتباً مفيدةً، مثل "حِلْيَةُ طالب العلم" للعلامة الشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ت١٤٢٩هـ)، و"مَعالِم إرشادية لصناعة طالب العلم" للشيخ محمد عَوَّامة.

---

[1] عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعريف، ص٤٢.

[2] الجرجاني، التعريفات، ص٢٩.

[3] ابن حجر، فتح الباري، ج١٠، ص٤٩٠، أول كتاب الأدب.

[4] محمد عوامة، أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين، ص٧٢.

المطلب الخامس: تعريف "الأمانة العلمية" ونقيضها "السرقة العلمية":

أعرِّف في هذا المطلب بمصطلح "الأمانة العلمية" باعتبارها الخُلُقَ الرئيسَ الأساسَ الذي ينبغي لكلِّ مَن يُمارِس العلمَ – دراسةً وتدريساً، تأليفاً وتحقيقاً، أو قضاءاً وإفتاءاً – أن يكون فائقَ التحلِّي به، والتمسُّكِ بمُوجباته والبُعْدِ عن نواقضه. ثم أقوم بتعريف مصطلح "السرقة العلمية" باعتبارها ضِدَّ "الأمانة العلمية" ونقيضَها، وهي مِن أبرز صفات الْمُتعالِمين الذين يُمارسِون فنَّ التأليف والتحقيق بلا علمٍ ولا نضوجٍ، ولا تمكُّنٍ ولا رسوخٍ، وبلا استحقاقٍ أو أهليةٍ، ولمزيد التوضيح والبيان أُتبِع تعريفَ ذلك بذكر صُوَرٍ من السرقة العلمية والتي يسطو بها الْمُتعالِمون على كتب أهل العلم ومؤلَّفاتهم.

لغةً: "الأمانةُ" مصدرُ "أَمِنَ يَأْمَن" بمعنى: اطمأنَّ و لم يخف، فهو آمِنٌ، وأَمِنٌ، وأمينٌ، يُقال: "لك الأمانُ"، أي: قد آمنتُك. والبلدُ: اطمأنَّ فيه أهلُه. والشَّرَّ؛ أي: سَلِمَ منه. وفلاناً على كذا، أي: وَثِقَ به واطمأنَّ إليه[1].

واصطلاحاً: تُطلَق "الأمانةُ" على كلِّ ما عُهِدَ به إلى الإنسان من التكاليف الشرعية وغيرها، وحكمُها الوجوب، فتجب المحافظة عليها، في كلِّ ما يُعهَد به إلى الإنسان وحفظُ كلِّ أمانةٍ بحسبها[2].

وقد قال العلماء: "حفظُ الأمانة يُوجِب سعادةَ الدَّارَين، والخيانةُ تُوجِب الشَّقاءَ فيهما"[3].

ولهذا فالأمانةُ أصلٌ أصيلٌ في حياة المسلم، وشأنُ الأمينِ عظيمٌ، وقَدْرُه كبيرٌ في الشرع، وفي عُرْف الناس وتَعامُلهم في حياتهم.

وقد نَصَّ العلماء على أنَّ من واجبِ الوُلاة: "استكفاءُ الأمناء، وتقليدُ النصحاء، فيما يُفوَّض إليهم من الأعمال، ويُوكَل إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمالُ بالكفاءة مضبوطةً، والأموالُ بالأمناء محفوظةً"[4].

---

[1] المعجم الوسيط، ص٤٨.

[2] انظر: محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج٢، ص١٧٧٧، انظر: "الوديعة".

[3] بكر بن عبد الله أبو زيد، الردود، ص١١٣، نقلاً عن: "الموسوعة الفقهية"، ج٦، ص٢٣٦ – ٢٣٩، ٢٧١ – ٢٧٢.

[4] بكر بن عبد الله أبو زيد، الردود، ص١١٣، نقلاً عن: "الموسوعة الفقهية"، ج٦، ص٢٣٦ – ٢٣٩، ٢٧١ – ٢٧٢.

والله تعالى يقول: ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦].

وقال سبحانه ناهياً عن الخيانة في الأمانة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّيْ»[١].

ولأجل ذلك نصَّ العلماءُ على اعتبار شرط "الأمانة" في كل تصرُّفٍ، وفي كل ولايةٍ، ونصّوا على مفرداها، مثل: القاضي، والشاهد، والمفتي، وأرباب الخبرة، والعالِم في علمه، وأشرفُه علمُ الوحيَيْن الشريفين، وفهمُ المراد من نصوصهما.

(أ) **تعريف "الأمانة العلمية":**

يُراد بـ"الأمانة العلمية": العناية الفائقة بموجبات الثقة لأمانة تحمُّل العلم[٢]. "والأمانة في العلم هي زينته، وروحه، وهي منبعُ حياة الأمة، وأساسُ عظمتها وفلاحها. وفلاحُ الأمةِ في صلاح أعمالها، وصلاحُ أعمالها في صِحَّة علومها، وصِحَّةُ علومها: أن يكون رجالُها أمناءً فيما يروون ويصفون. فمن تحدَّث في العلم بغير أمانةٍ فقد مَسَّ العلمَ بقُرْحَةٍ، ووضع في سبيل فلاح الأمة حجرَ عثرةٍ"[٣].

فإنَّ العلم إمَّا نقلٌ مُصَدَّقٌ، أو استدلالٌ محقَّقٌ، و"الأمانة" أصلٌ فيهما، فهي حِلْيَةٌ مأمورٌ بها شرعاً، والخيانةُ فرعٌ فاسدٌ، منازعٌ لهذا الأصل الشريف، فهي خِلَّةٌ مَنْهِيٌّ عنها، فواجبٌ على طالب العلم أن يكون فائِقَ التحلِّي بالأمانة العلمية في الطلب، والتحمُّلِ، والأداءِ، والبلاغِ.

فالعالِمُ وطالبُ العلم، يَكتسبان هذا الشرطَ الإسلاميَّ بدافعٍ من الخُلُق والأدب والديانة، ونَقاوةِ المنهج، فإذا اختلَّت الأمانةُ العلمية؛ ارتفعتْ الحصانة عنه بقدر ما أخلَّ بها[٤].

(ب) **تعريف "السَّرِقَة العلمية":**

كما أسلفتُ سابقاً فإنَّ "السرقة العلمية" هي نقيض "الأمانة العلمية"، وهي تعني: الاقتباسَ من المؤلَّفات سواء كان ذلك للألفاظ والعبارات أو المعاني والأفكار، أم كلاهما معاً دون نسبتها إلى

---

[١] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «من غشّنا فليس منا»، ص٥٨، برقم (١٠٢)، عن أبي هريرة ﷺ.

[٢] بكر بن عبد الله أبو زيد، فقه النوازل، ج٢، ص١٢٨.

[٣] محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، ج١، ص١٣.

[٤] انظر: بكر بن عبد الله أبو زيد، الردود، ص١١٣، ١١٥.

قائلها، أو العزو إلى أصحابها ذوي المؤلَّفات الأصيلة، بصورة تُشعِر أنها من ألفاظ الآخذ وأفكاره.

وهي فعلة شنيعة مِن أبشع أنواع الخيانة، إذ أنَّ الأمانة في نقل العلم مشترَطةٌ، والخيانةُ فيه أعظَمُ من الخيانة في المال، وهي من علامات نقص الإيمان، وضعفِ العقل، وضمورِ الأدب، ومن صفات المنافقين البارزة، وسماتهم الأصيلة[1].

ومما يدلّ على تحريمها قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨]. وعن أبي ذَرٍّ ﷺ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «وَمَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ؛ فَلَيْسَ مِنَّا، وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[2].

وهناك الكثيرُ من عبارات علماء السَّلَف الدَّالَّة على ذَمِّ السُّرَّاق، وقُطَّاع الطُّرُق، الذين يُغِيْرون على ألفاظ الآخرين وأفكارهم، ثم ينسبونها إلى أنفسهم كذباً وزُوْراً، وسنذكرها بإذن الله لاحقاً في موضعها من البحث.

وهذه بعضُ أشهَرِ صُوَرٍ للسرقة العلمية:

١) سرقةُ المادة العلمية بالكامل.

٢) إدخالُ فقرةٍ أو عدة فقراتٍ كاملةٍ – من كاتب آخر – إلى النصِّ.

٣) تفكيكُ الكلام وإعادة تركيبه.

٤) السرقةُ عن طريق الترجمة.

٥) سرقةُ النِّقاط البحثية[3].

٦) سرقة عناوين الكتب المشهورة[4].

---

[1] حسين بن معلوي الشهراني، حقوق الاختراع والتأليف في الفقه الإسلامي، ص ١٣٨، بتصرف واختصار.

[2] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: "يا كافر"، ص٤٧، برقم (٦١).

[3] وهي أن يقوم السُّرَّاق بالسَّطو على نقطة بحثية أو خُطَّة مسجَّلة لباحث آخر؛ وذلك بالسَّطو عليها وتسجيلها في جامعة أخرى مع استخدام الرشوة لتمرير الموضوع حيث يُمنَع إعادة تسجيل خطة قد سُجِّلت في جامعة أخرى. انظر: محمد مسعد ياقوت، موقع محمد مسعد ياقوت.

[4] انظر: محمد مسعد ياقوت، موقع محمد مسعد ياقوت بتصرفٍ يسير.

المطلب السادس: تعريف "التأليف" لغةً واصطلاحاً:

ثم أعرِّج على تعريف "التأليف"؛ وذلك لبيان حقيقة التأليف وماهيته، وكيفيتِه ومقاصدِه، ولأضع بذلك حدّاً مُفارقاً بين "التأليف" الواعي الجادّ، وبين العَبَث والتلاعُب في هذا المجال.

لغةً "التأليف" مصدرُ "أَلَّف يؤلِّف تأليفاً"، وأصلُه مِن "أَلِفَ الشيءُ الشيءَ"، أي: انضمَّ الشيء إلى الشيء، والأشياء الكثيرة.

وكلُّ شيءٍ ضممتَ بعضه إلى بعض؛ فقد أَلَّفته تأليفاً، وأَلَّفتَ الشيء تأليفاً إذا وصلت بعضَه ببعض.

و"المؤلَّف": الكتاب الذي جُمِعَتْ فيه مسائلُ علمٍ من العلوم. وقيل: التأليفُ هو جمعُ الأشياء المتناسبة.

و"المؤلِّف": هو منشيء، ومصنِّف الكتاب، أي المؤلِّف[1].

واصطلاحاً: "التأليف" جمعُ مسائل علمٍ من العلوم في كتاب ونحوه[2].

وتأليف الكتاب: ضمُّ بعضِه إلى بعض حروفاً وكلماتٍ وأحكاماً ونحو ذلك من الأجزاء[3].

ويُطلَق "التأليف" على كتابة البحث أو الكتاب؛ لأنَّ الكاتب أو المؤلِّف يجمع بين المعلومات على وجه التناسُب، ويُطلَق على الكتاب "مؤلَّفاً"؛ لأنه يجمع ويضم معلومات تتعلَّق بعلم معيَّن[4].

مقاصد التأليف:

وقد ذكر المؤرِّخ ابن خَلْدُون[5] مقاصد التأليف وأهدافه التي ينبغي اعتمادها، وها هي خلاصتها:

١) شيءٌ لم يُسبَق إليه، فيُؤلِّف فيه، ومن ذلك استنباطُ العلم بموضوعه، وتقويم أبوابه وفصوله، وتتبُّع مسائله، واستنباط مسائل ومباحث تعرض للمؤلِّف يحرص على إيصالها لغيره، وهو ما يُعبَّر عنه بقولهم: "اختراعُ معدومٍ".

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، ج١، ١٨٠، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ٧٩٢، ٧٩٣.

[2] انظر: الجرجاني، كتاب التعريفات، ص٧١، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص٨٩.

[3] سليمان الطوفي، شرح مختصر الروضة، ج١، ص٩٢.

[4] محمد عثمان شبير، المعاملات المالية المعاصرة، ص٥٤.

[5] هو أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد، وليّ الدين الحضرمي الإشبيلي، المعروف بـ"ابن خَلْدون" (٧٣٢ – ٨٠٨هـ): من كبار المؤرِّخين المسلمين، وعظماء التاريخ. وُلد في تونس وتوفي في القاهرة، اشتهر بكتابه "العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر"، أولها: "المقدِّمة" الشهيرة. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٣، ص٣٣٠.

٢) توضيحُ ما قد يُستغلَق، وشرحُ ما يُشكَل في كلام مَن سبق وتواليفهم.

٣) تبيينُ خطإٍ، وإصلاحُ غلطٍ بعد التوثيق من ذلك بالبرهان الواضح.

٤) تكميلُ ناقصٍ، كأن يكون الفنُّ نقصتْ منه مسائلُ أو فصولٌ، فيقصد من اطَّلع على ذلك أن يرتِّبها ويهذِّبها، ويجعل كلَّ مسألةٍ في بابها.

٥) ترتيبُ مختلطٍ وتهذيبه.

٦) جمعُ متفرِّقٍ كأن تكون مسائلُ العلم مفرَّقةً في أبوابها من علوم أخرى، فتُجمَع في مؤلَّف واحد.

٧) اختصارُ مطوَّلٍ، مثلاً: أن يَعمَد إلى شيء من التواليف المطوَّلة المسهبة، فيلخِّصها بالاختصار والإيجاز، وحذفِ المكرَّر إنْ وَقَع، مع الحذر من حذف الضروري لئلاَّ يخلَّ بمقصد المؤلِّف الأول.

٨) تعيينُ المبهَم[١].

قال ابن خَلْدُوْن – رحمه الله تعالى – بعد ذكره لهذه المقاصد: "فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف ومراعاتها، وما سوى ذلك ففعلٌ غيرُ محتاجٍ له، وخطأٌ عن الجادَّة، التي يتعيَّن سلوكها في نظر العقلاء، مثل انتحال ما تقدَّم لغيره من التواليف بأن ينسبه إلى نفسه ببعض تلبيسٍ من تبديل الألفاظ، وتقديم المتأخّر وعكسه، أو يحذف ما يحتاج إليه في الفنِّ، أو يأتي بما لا يحتاج إليه، أو يبدل الصواب بالخطأ، أو يأتي بما لا فائدة فيه؛ فهذا شأن الْجُهَّل والقِحَّة[٢]"[٣].

"وجماعُ هذه المقاصد كلِّها: التأكيدُ على ضرورة الإتيان بالجديد، والحرص على الإبداع والابتكار، والحذرُ – كلّ الحذر – من التكرار وتسويد الأوراق بلا فائدة"[٤]، "فما كلُّ من صنَّف أفاد، ولا كلُّ من قال وَفَّى المرادَ، والفضلُ مواهبُ، والناسُ في الفنون مراتبُ، والناسُ متفاوتون في الفضائل، وقد تظفر الأواخرُ بما تركته الأوائلُ، وكم ترك الأوّلُ للآخر، وكم لله على خَلْقه من فضلٍ وجُوْدٍ"[٥].

---

[١] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج٤، ص١٢٤٠.

[٢] القِحَّة: قليلو الحياء. انظر: المعجم الوسيط، مادة "وقح"، ص١٠٩١.

[٣] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج٤، ص١٢٤٠.

[٤] أحمد الصويان، الكتاب الإسلامي المعاصر: نظرات نقدية، ص١٣.

[٥] محمد الشربيني، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، بهامش بجيرمي على الخطيب، ج١، ١٥.

فالمقصودُ بالتأليف ما كان منطوياً على عمل إبداعي تظهر به قدرةُ المؤلِّف ومَلَكتُه العلمية. أمَّا النقل المجرَّد، أو التجميع العاري عن أي عملٍ إبداعيٍّ؛ فلا يُعَدّ ابتكاراً؛ بل تعالُماً يكشف عاراً وشناراً.

والابتكار إنما يعني: أن يكون الإنتاج الذهني ذا قيمةٍ، بمعنى أن تبرز مغالبة المبتكر وشخصيته فيما ابتكره، إما في مقوِّمات الفكرة، أو في الطريقة التي اتَّخذها لعرض هذه الفكرة[1].

أما مجرَّد الترديد لمصنّفٍ أو مخترعٍ سابقٍ دون أن يكون فيه أثرٌ للابتكار؛ فهذا لا يُسَمَّى إبداعاً ولا ابتكاراً؛ لكنه إنتاج علمي مقنّع بدعوى كاذبة، خاصة ونحن في عصر المحاكاة، وغياب التقوى من القلوب، والله المستعان[2].

وقد ألَّف بعض العلماء كتباً ورسائل قيمةً في آداب التأليف، وذكروا فيها جملةً من الآداب التي ينبغي لكلٍّ من يتصدَّى لذلك التزامُها والتحلِّي بها، ومن تلك الكتب "التعريف بآداب التأليف" للإمام جلال الدين أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ).

المطلب السابع: تعريف "التصنيف" لغةً واصطلاحاً:

ونعرِّف الآن مصطلح "التصنيف" ومبرّراته، ثم نبيِّن الفرقَ بينه وبين "التأليف".

لغةً: "التصنيف" مصدرُ "صَنَّف يصنِّف تصنيفاً"، ويُقال: "فلانٌ صنَّف الشيءَ تصنيفاً"، أي: جعله أصنافاً، وميَّز بعضها من بعض.

و"صنّفتُ الشجرةَ"، أي: أخرجتُ أوراقَها، وتصنيفُ الكتابِ من هذا[3].

واصطلاحاً: تأليفُ الكلام لتحريره نثراً أو نظماً[4].

وقيل: "هو جمعُ المادة العلمية مع الربط بين مفرداتها برابطٍ مناسبٍ"[5].

الفرق بين "التأليف" و"التصنيف":

"التأليف" إيقاع الأُلْفَة بين الكلام مع التمييز بين الأنواع[6]، و"التصنيفُ" أعَمُّ منه، إذ هو جعلُ الشيءِ أصنافاً متميّزةً، وقد يُستعمَل كلٌّ منهما مكانَ الآخر[7].

---

[1] الشهراني، حقوق الاختراع والتأليف في الفقه الإسلامي، ص٨٧.

[2] انظر: بكر بن عبد الله أبو زيد، فقه النوازل، ج٢، ص١٥٣، ومحمد سعيد رمضان البوطي، قضايا فقهية معاصرة، ص٨٨.

[3] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص٨٢٨.

[4] صديق حسن خان القنوجي، أبجد العلوم، ج١، ص٢١٣.

[5] محمد عبد الله أبو صعليك، جهود المعاصرين في خدمة السنة النبوية المشرفة، ص٧٣.

[6] حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١، ص٣٥.

[7] حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص٣٥.

مبرّرات التصنيف:

لا بُدَّ لمن يصنِّف من مبرِّرٍ لتصنيفه الذي صنَّف، وقد ذكر أهلُ العلم مبرّراتٍ للتصنيف، وأجمل الحافظُ الخطيب البغدادي[1] مبرّراتِ التصنيف في الحديث فقال: "قَلَّ ما يتمهَّر في عِلم الحديث، ويَقِفُ على غَوامِضه، ويَستبين الْخَفِيَّ من فوائده، إلاَّ مَن جَمَع متفرِّقَه، وألَّف متشتَّتَه، وضَمَّ بعضَه إلى بعضٍ، واشتغل بتصنيف أبوابه، وترتيب أصنافِه"[2].

ويقول الأستاذ الدكتور نور الدين عِتْر[3]: "وينبغي لمن يتصدَّى للتصنيف أن يلحظ في عمله فائدةً جديدةً، إمّا باشتمال مصنَّفه على ابتكار فكرةٍ أو نظريةٍ جديدةٍ، توصَّل إليها باجتهاده، أو حُسْنِ ترتيبٍ أو تنسيقٍ، أو حلٍّ لمشكلٍ وإيضاحٍ لغامضٍ، أو تجديدِ أسلوبٍ يقدِّم به المادةَ العلميةَ في ثوبٍ يناسب عصرَه"[4].

ومما تقدَّم نقلُه عن الخطيب البغدادي والدكتور عِتْر يُمكِن إجمال مبرّرات التصنيف – لا سيما في السنة – في العصر الحديث فيما يلي:

١) جمعُ الفوائد المتفرِّقة.

٢) شرحُ المصطلحات الغامضة والمفردات الغامضة.

٣) تيسيرُ المادة العلمية وتوضيحها وتقريبها للقارئ المعاصر.

٤) دفعُ شبهة التعارُض بين النصوص.

٥) الدفاعُ عن الشخصيات العلمية التي نقلت العلمَ.

٦) الترتيبُ والتبويبُ الجديد للمادة العلمية[5].

تلك هي مبرّرات التصنيف لا سيما في مجال السُّنّة النبوية، والله تعالى أعلم.

---

[1] هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي، المعروف بالخطيب (٣٩٢-٤٦٣هـ): أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين، ومن المؤلفين المكثرين. وُلد في "غُزية" – الواقعة منتصف الطريق بين الكوفة ومكة – وتوفي ببغداد. رحل في طلب الحديث إلى بلدان كثيرة. ومن أشهر مؤلفاته: "تاريخ بغداد"، و"الكفاية في علم الرواية"، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع". انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٣، ١١٣٥، ١١٣٦.

[2] الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج٢، ص٢٨٠.

[3] هو نور الدين محمد عتر الحلبي (من مواليد عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م): العلامة الجليل، المؤلِّف المحقِّق، أحد كبار علماء الحديث وعلومه. وُلد بحلب. تخرَّج في جامعة الأزهر بالدكتوراه في الحديث. درَّس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ثم في كلية الشريعة بجامعة دمشق. ومن أشهر مؤلفاته: "منهج النقد في علوم الحديث"، ومن تحقيقاته للكتب: "علوم الحديث" لابن الصلاح. انظر: سيد عبد الماجد الغوري، محمد حميد الله سفير الإسلام، هامش صفحة ٩، ١٠.

[4] نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص١٩٧.

[5] أبو صعليك، جهود المعاصرين في خدمة السنة النبوية المشرفة، ص٧٤، ٧٥.

المطلب الثامن: تعريف "التحقيق" لغة واصطلاحاً:

ثم بعد ذلك يأتي "التحقيق"، وهو فَنٌّ عظيمٌ له أصولُه وشروطُه، وضوابطُه وقواعدُه.

فلغةً: "التحقيق" مصدرُ فِعْلِ "حقَّق يحقِّق تحقيقاً"، يُقال: "ثوبٌ محقَّقٌ" إذا كان مُحكَم النسج.

و"حقَّقتُ الأمر وأحققتُه": أي كنتُ على يقين فيه.

و"أحققتُ الأمر إحقاقاً": إذا أحكمتُه وصححته[1].

والتحقيقُ في الأصل: إثباتُ المسألة بالدليل[2].

واصطلاحاً: "التحقيق" بذلُ عنايةٍ خاصّةٍ بالمخطوطات حتى يُمكِن التثبُّت من استيفائها لشرائط معيَّنة، فالكتابُ المحقَّق هو الذي صحَّ عنوانُه، واسمُ مؤلِّفه، ونسبةُ الكتاب إليه، وكان متنُه أقربَ ما يكون إلى الصورة التي تركها المؤلِّف[3].

ويمكن تعريفُه كذلك بأنه: إخراجُ الكتاب على أُسُسٍ صحيحةٍ مُحكَمةٍ من التحقيق العلمي في عنوانه، واسم مؤلِّفه، ونسبته إليه، وتحريره من التصحيف والتحريف، والخطأ والنقص والزيادة.

أو إخراجه بصورة مطابقة لأصل المؤلِّف، أو الأصل الصحيح الموثوق إذا فُقدت نسخة المؤلِّف[4].

شروط التحقيق وأصوله:

وهذه بعض شروط التحقيق وأصوله، التي ينبغي لكلِّ من يتصدَّى لذلك التمسُّكُ بها:

١) اختيارُ المخطوط ذي القيمة العلمية التاريخية له أهمية كبرى في دراسته ونشره.

٢) اختيارُ نُسَخٍ معتمَدةٍ لهذا المخطوط لدراستها وتحقيقها.

٣) نَسْخُ المخطوطة، والتي تحتاج إلى مِراسٍ وخبرةٍ بقراءة الكتب المخطوطة، وخطوط العلماء والنُّسّاخ على اختلاف أنواعها.

٤) مقابلةُ المخطوطة بالمنسوخة للتأكُّد من سلامة النصِّ وتصحيحه وتطابُقه مع أصله الذي أُخذ عنه، بعيداً عن التصحيف والتحريف، والزيادة والنقصان.

٥) تصحيحُ النصِّ وتقويمُه وتحريره، وإثبات الفروق المختلفة بين النصوص المتباينة لإخراج النصِّ بالصورة الصحيحة الواضحة التي وضعها المؤلِّف.

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٢٦١،٢٦٠.

[2] الجرجاني، كتاب التعريفات، ص١٢١، ١٢٢.

[3] عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ص٤٢.

[4] أكرم ضياء العمري، مناهج البحث وتحقيق التراث، ص٢٦.

٦) التعليقُ على المخطوطة، وتخريجُ نصوصها مما يزيد القارئَ ثقةً واطمئناناً، بما اشتملت عليه من نصوص وشواهد.

٧) التقديمُ للكتاب المحقَّق بمقدمة حافلة تُلقي الضوءَ على حياة المؤلِّف وعصره، والبيئةِ التي عاش فيها، كما تقوم بالتعريف التَّامِّ بموضوع الكتاب ومنهجه، وتحلِّل مادته، وتبيِّن مصادره، كما تحقِّق تلك المقدمة في عنوان الكتاب، وصحةَ نسبته إلى المؤلِّف مع وصف النُّسَخ المعتمدة في التحقيق، وبيان منهج التحقيق.

٨) الفهرسةُ، وهي آخر مراحل التحقيق للمخطوطة، وهي في الأهمية بمكانٍ، حيث تيسِّر للباحث الوصول إلى أي معلومة في الكتاب بكل يسر وسهولة[١].

المطلب التاسع: تعريف "الفِتْنَة" لغةً واصطلاحاً:

والآن يَحسُن بي أن أتعرَّج على تعريف مصطلح "الفِتْنَة"؛ وذلك باعتبار أنَّ "التَّعالُم" فتنةٌ من فِتَن العصر وبلاياه التي حذَّر منها رسولُ الله ﷺ، وتنبَّأ بظهورها آخرَ الزَّمان.

فلغةً: "الفتنة" مصدر مادة "فَتَن يَفْتَن فَتْناً" والتي تدلّ على الابتلاء والاختبار، يُقال: "فَتَنْتُ الذَّهَبَ بالنار" إذا امتحنتَه[٢].

وأصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهَبِ النَّارَ لتَظهَر جَوْدَتُه من رداءته، واستُعمِل في إدخال الإنسان النارَ[٣].

وقيل: "الفَتْنُ: إحراقُ الشيء بالنار، كما في قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات: ١٣]؛ أي: يُحرقَون[٤].

وقيل: الفتنةُ: العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ [الذاريات: ١٤][٥].

واصطلاحاً: الفتنة هي ما يتبيَّن به حالُ الإنسان من الخير والشَّرّ[٦].

وقيل: إنَّ معناها: البَلِيَّة، وهي معاملةٌ تُظهِر الأمورَ الباطنة[٧].

---

[١] انظر: عبد الله عسيلان، تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل، ص٣٦.

[٢] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص٤٧٢.

[٣] الراغب الأصفاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٢٣.

[٤] خليل الفراهيدي، كتاب العين، ج٨، ص١٢٨.

[٥] الراغب الأصفاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٢٣.

[٦] الجرجاني، كتاب التعريفات، ص٢١٢.

[٧] المناوي، التوقيف على مهمات التعريف، ص٢٥٧.

أنواع "الفِتَن":

وللفتنة نوعان: فتنة الشُّبُهات، وفتنة الشَّهَوات، و أعظَمُها فتنةُ الشبهات، وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما.

وفي فتنة الشبهات يقول الإمام ابن قَيّم الجوزية[1] رحمه الله تعالى: إنَّ "فتنة الشبهات من ضَعْف البصيرة، وقِلَّة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فسادُ القصد، وحصولُ الهوى، فهنالك الفتنة العظمى، والمصيبة الكبرى، فقُلْ ما شئتَ في ضلال سيء القصد، الحاكمِ عليه الهوى لا الْهُدَى، مع ضَعْف بصيرته، وقِلَّةِ علمِه بما بَعَث اللهُ به رسولَه، فهو مِن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ [النجم: ٢٣].

وهذه الفتنةُ مآلُها إلى الكفر والنِّفاق، وهي فتنةُ المنافقين، وفتنةُ أهل البِدَع، على حسب مراتب بِدَعِهم. فجميعُهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التى اشْتَبَه عليهم فيها الحقُّ بالباطل، والْهُدَى بالضَّلال.

وهذه الفتنةُ تنشأ تارةً من فهم فاسد، وتارةً من نَقْلٍ كاذبٍ، وتارةً من حقٍّ ثابتٍ خفيٍّ على الرجل فلم يَظفَر به، وتارةً من غرضٍ فاسدٍ وهوىً مُتَّبَعٍ، فهي مِن عَمًى في البصيرة وفسادٍ في الإرادة.

ولا يُنجى من هذه الفتنة إلا تجريدُ اتِّباع الرسول، وتحكيمُه فى دِقِّ الدين وجلِّه، ظاهرِه وباطنِه، عقائدِه وأعمالِه، حقائقِه وشرائعِه، فيتلقَّى عنه حقائقَ الإيمان وشرائعَ الإسلام"[2].

أمَّا النوع الثاني ففتنة الشهوات، وهي الاستمتاع بالدنيا وملذَّاتها، ويَنتُج عن فتنة الشبهات فسادُ الدين من البِدَع وغيرها، ويَنتُج عن فتنة الشهوات فِسْقُ العمل، ولذا كان السلف – رحمهم الله – يقولون: "احْذَرُوا من الناس صِنفَين: صاحب هوىً قد فَتَنه هواه، وصاحبُ دنيا أعْمَتْه دنياه". وكانوا يقولون: "احْذَرُوا فتنة العالِم الفاجر، والعابد الجاهل، فإنَّ فِتْنَتهما فتنةٌ لكل مفتونٍ". وأصلُ كلِّ فتنةٍ إنما هو من تقديم الرَّأي على الشرع، والهوى على العقل، فالأوّلُ أصلُ فتنة الشبهة، والثاني أصلُ فتنة الشهوة، ففتنة الشبهات تُدفَع باليقين، وفتنةُ

---

[1] هو محمد بن أَبي بكر بن أَيُّوب بن سعد الزُّرعي الدِّمشقي، شمس الدّين، المعروف بـ"ابن قيم الجوزية" (٦٩١ –٧٥١هـ): المحدِّث المفسِّر، المجتهد المطلَق، المؤلِّف المكثر. وُلد بدمشق وتوفي بها. لازم شيخَ الإسلام ابنَ تيمية وتخرَّج عليه. وله نحو مئة مؤلَّف في موضوعات مختلفة. انظر: الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ٦٩٥، ٦٩٧.

[2] ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان، ج٢، ص٥٨٤، ٥٨٥.

الشهوات تُدفَع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامةَ الدين منوطةً بهذين الأمرين، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]. فدلَّ على أنه بالصبر واليقين تُنال الإمامةُ في الدين. وبكمال العقلِ والصبر؛ تُدفَع فتنةُ الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين؛ تُدفَع فتنةُ الشبهة، واللهُ المستعان[1].

المطلب العاشر: تعريف "التَّنَبُّؤات" لغةً واصطلاحاً:

ثم أقوم بتعريف "التنبُّؤات"؛ لأجل بيان أنَّ "التَّعالُم" قضيةٌ تنبَّأ رسولُ اللهِ ﷺ بوقوعها وحصولها عند كثرة الفِتَن وقُرْبِ القيامة، وهذا التنبُّؤ العظيم ووقوعُه على أرض الحقيقة والواقع من أعظمِ ما يدلّ على صِدْق المصطفى – عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ – وصِدْقِ ما جاء به من الوحي الإلهي.

لغةً: "التَّنَبُّؤات" جمعُ: "تَنَبُّؤٍ"، وهو مشتقٌّ من فِعْل "نَبَأَ يَنْبَأُ نَبْأً"، و"النَّبَأُ" جمعُه: "أنباء"، وهو خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يَحصُل به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يُقال للخبر في الأصل: "نبأٌ" حتى يتضمَّن هذه الأشياءَ الثلاثة، ويكون صادقاً وحقُّه أن يتعرَّى عن الكذب.

و"أنبأ" مثل "نبَّأ" بمعنى: أخبر، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]، بمعنى: من أخبرك هذا، قال: أخبرني العليم الخبير.

و"النبيءُ": الْمُخبِر عن الله تعالى، فإنَّ الله تعالى أخبره بتوحيده، وأطلعه على غيبه، وأعلمه أنه نبيُّه.

و"التَّنَبُّؤُ": الإخبارُ عما سيكون في المستقبل على وجه التحقيق والتوكيد[2].

واصطلاحاً: "التَّنَبُّؤُ" معناه على وجه العموم: بناءُ تصوُّرٍ لِما ستكون عليه الظاهرةُ في المستقبل.

و"التنبؤات النبوية" هي ما أخبر بها النبيُّ ﷺ من أخبارٍ غيبيةٍ، وأمورٍ مستقبليةٍ مما قد تحقَّقتْ بعضها في عهد النبيِّ ﷺ، أو بعد عهده إلى وقتنا الحاضر، أو ستحقَّق – بإذن الله تعالى – ولا بُدّ إلى قيام السّاعة؛ لأنها من إخبار الله تعالى له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهي في الحقيقة من معجزات النبيِّ ﷺ التي أيَّده الله بها دِلالةً على صِدْق نُبُوَّتِه ورسالتِه.

و"التنبُّؤات النبوية" تنقسم إلى قسمين رئيسين، هما: "التنبُّؤات النبوية المتحقّقة"، و"التنبُّؤات النبوية غير المتحقّقة".

---

[1] المرجع السابق، ج٢، ص٥٨٥.

[2] مرتضى الزبيدي: تاج العروس، ج١، ص من ٤٤٣، إلى ٤٤٥، مادة"نبأ".

أمَّا "التنبُّؤات النبوية المتحقّقة " فهي: تلك الأخبار الغَيبية، والأمور المستقبلية التي قد تنبَّأ بها النبيُّ ﷺ وتحقَّقت في حياته أو بعد مماته إلى وقتنا الحاضر، ومن تلك الأمور على سبيل المثال: ظهورُ الكَذَبَةِ الأدعياء الذين ادّعوا النبوة كمُسَيْلِمَة الكذَّاب[١] وغيره، وقد ظهر مسيلمة في عهده عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وادَّعى النبوةَ ورسولُ الله ﷺ خاتمُ الأنبياء والمرسَلين على قيد الحياة، ومنهم كذلك المتنبِّي غلام أحمد القادِيَانِيّ[٢] الكذَّاب المدَّعي للنبوة أيضاً، الذي ظهر في أوائل القرن الرابع عشر الهجري. كذا من تلك الأمور رفعُ العلم، وانتشار الجهل، وسلطة الأدعياء، وهذا ما يُسمّى بـ"التَّعالُم" كما سنراه في المباحث القادمة إن شاء الله.

وأمَّا "التنبؤات النبوية غير المتحقّقة" فهي: التي أخبر عنها النبيُّ ﷺ و لم تتحقَّق حتى الآن، لكنها ستحقَّق ولا بُدّ حتى تحين الساعةُ؛ لأنها من إخبار الله تعالى العليم العلاَّم له ﷺ، فالله ﷻ يقول: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤]. ومن تلك الأمور التي لم تتحقَّق بعد: خروجُ يأجوج ومأجوج، وظهورُ الدَّجَّال، وغيرُ ذلك[٣].

المطلب الحادي عشر: تعريف "التَّعالُم" و"الْمُتعالِم":

وبعد أنْ تعرَّفنا على بعض المصطلحات التأصيلية والضوابط الأساسية المتعلّقة بهذا البحث؛ فلنتعرَّف الآن في هذا المطلب على مصطلح "التعالُم" و"الْمُتعالِم" بصورة عامة وجيزة للغاية، بينما تفصيل ذلك فسيأتي لاحقاً.

فـ"التَّعالُم" هو ادِّعاء العلم بالقول، أو العمل، أو الحال، أو الهيئة، ونحو ذلك، ممن ليس من أهل العلم[٤].

---

[١] هو مُسَيْلِمَة بن ثُمَامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي أبو ثمامة (ت١٢هـ): متنبئ، من المعمَّرين. وُلد ونشأ باليمامة. وكان أكثر من وضع أسجاعٍ يضاهي بها القرآنَ، قُتل في معركة قادها الصحابي الجليل خالد بن الوليد. انظر: ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٣٧، ١٣٨.

[٢] هو أحمد بن مرتضى بن محمد القادياني، ويُسمَّى "مرزا غلام أحمد" (١٨٣٩ – ١٩٠٨م): مؤسِّس "القاديانية". نسبته إلى "قاديان" من قرى "بنجاب" وُلد ودُفن فيها. قرأ شيئاً من الأدب العربي، واشتغل بعلم الكلام. وكان ممن ادَّعى بالنبوَّة. وقد تصدَّى كثير من معاصريه للرد عليه وتكفيره. انظر: الزركلي، الأعلام، ج١، ص٢٥٦.

[٣] انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢، ص٦٩٩، ٧٠٠. وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٥، ص٣٨٥. وابن تيمية الحراني، النبوءات، ج٢، ص٦٨٨، و٨٨٢، و٨٨٣.

[٤] انظر مادة "علم" في هذه المعاجم العصرية: وحيد الزمان القاسمي الكيرانوي، القاموس الوحيد، ص١١١٩. و"المعجم الوسيط" ص٦٥٥. والمعجم العربي الأساسي، ص٨٦٠.

وعلى هذا يمكنني القولُ بإيجاز في تعريف "الْمُتعالِم" أنه: شخصٌ رقيقُ الدِّيانة[1]، مُزْجَى البضاعة في العلم، لكنه يتظاهر وكأنّه من علماء الدين الراسخين.

وسيأتي في الفصل القادم - بمشيئة الله تعالى - تفصيلُ القول وتوضيحُه أكثر فأكثر؛ وذلك حينما أستعرض - بإذن الله تعالى - تعريفاتِ العلماء لمصطلح "التَّعالُم" و"الْمُتعالِم" وأقوالِهم في ذلك قديماً وحديثاً... وبالله نستمدّ العون والتوفيق والسَّداد.

****

[1] رقيق الديانة، بل في كثير من الأحيان مستخف بالدين، لا تجد لشرع الله ربّ العالمين ودينه، وسنة رسوله ﷺ وهديه أي تعظيماً وأهمية لديه، فلا تشم منه أدنى رائحة لخشية الله وتقواه، والخوف من الجزاء وعدالة رب السماء.

المبحث الثاني:

"العلم" و"العلماء"
في مصدرَي الشريعة، ورأي علماء الأمة المستمدّ من القرآن والسنة

وفي فضل "العلم" وأهميته، وبيانِ مكانة أهله وحَمَلَتِه ومنْزلِتِهم؛ حَفَل كتابُ الله تبارك وتعالى وزَخَر بكثيرٍ من الآيات القرآنية الدَّالة على ذلك، كما جاءت السُّنَّةُ النبوية الشريفة مَلْئى بالأحاديث الدَّالة على فضل "العلم" وشرفِ أهله، ولم يَأْلُ علماءُ الأمةِ وربّانيِّيها في تاريخ الإسلام من أوّله إلى يومنا هذا عن الإشادة بعلماء المسلمين الربانيين، وبيانِ عَظَمَةِ نعمةِ العلم عليهم، وفضلِ ذلك على غيرها من النِّعَم. وهذا ما سأتحدَّث عنه في هذا المبحث، الذي يشتمل على ثلاثة مطالب، أولها في بيان "العلم" و"العلماء" في آي القرآن الكريم، والثاني في بيان فضل "العلم" و"العلماء" في الحديث النبوي الشريف، والثالث في سَوْق أقوال أهل العلم الواردة في فضل "العلم" وشرف أهله.

المطلب الأول: "العلم" و"العلماء" في آي القرآن الكريم:

وأرى من الواجب والضرورة في هذا المطلب إيراد بعض الآيات القرآنية من كلام الباري تبارك وتعالى، مستدلةً بها على فضل العلم وشرف أهله، وما بوَّأهم المولى تعالى من مكانة رفيعة ومنْزلة عالية، حيث قال جلَّ من قائلٍ في مُحكَم تنْزيله العزيز: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم:

١) قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٨].

ففي هذه الآية استشهد الله ﷻ بأُوْلِي العلم على أجل مشهودٍ عليه، وهو توحيده، وهذا يدلّ على فضل العلم وأهلِه من عِدّة وجوهٍ:

أولاً: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

ثانياً: اقتران شهادتهم بشهادة الرَّبِّ تبارك وتعالى.

ثالثاً: اقتران شهادتهم بشهادة الملائكة.

رابعاً: وفي هذا تزكيتهم وتعديلهم؛ فإنَّ الله تعالى لا يستشهد من خَلْقِه إلا العُدُوْل[١].

[١] ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، ج١، ص٥٠.

٢) وقال الله تعالى: ﴿ ۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۗ ﴾ [الزمر: ٩].

ففي هذه الآيةِ بيانُ فضل العلم وشرفِ أهله من حيث نفي الله جلَّ جلاله التسوية بين أهل العلم وبين غيرهم، وهذا يدلّ على غاية فضلهم وشرفهم[١].

٣) وقال الله تعالى: ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

في هذه الآية أَمَر اللهُ تعالى بسؤال أهل العلم والرجوع إلى أقوالهم، وجعل ذلك كالشهادة منهم، والمقصود بأهل الذكر: أهل العلم، بما أُنزل على الأنبياء[٢].

٤) وقال الله تعالى: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ۚ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وفي هذه الآية مدح اللهُ ﷻ أهلَ العلم، وأثنى عليهم، وشرَّفهم، بأنْ جعل كتابَه آياتٍ بيناتٍ في صدورهم؛ وهذه منقبةٌ خاصةٌ لهم دون غيرهم[٣].

٥) وقال الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ [طه١١٤].

وكفى بهذا شرفاً للعلم وأهله أنْ أمر اللهُ نبيَّه أن يسأله المزيدَ منه[٤]، قال الإمام القُرْطُبيّ[٥]- رحمه الله تعالى - في تفسير هذه الآية: "فلو كان شيءٌ أشرَفَ من العِلم؛ لأَمَر اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يسأله المزيدَ منه، كما أَمَر أن يَستزيده من العِلم"[٦].

٦) وقال الله تعالى: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١].

وهنا إخبارٌ من الله جلَّ شأنه برفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصةً دون غيرهم[٧].

---

[١] انظر: ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج٧، ج٨٦.

[٢] انظر: ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٥٨.

[٣] انظر: ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٣٠٣.

[٤] ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج١، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

[٥] هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي (٦٠٠ - ٦٧١هـ): إمام فقيه مفسِّر عالِم باللغة. وُلد في مدينة "قرطبة" وقد رحل بعد سقوطها إلى الإسكندرية، ثم إلى صعيد مصر حيث استقرَّ فيه حتى وفاته. له تصانيف عظيمة، ومن أبرزها: "الجامع لأحكام القرآن الكريم"، و"التذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة، و"التذكار في أفضل الأذكار". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٣٢٢.

[٦] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص٤٠.

[٧] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٨، ص١٩، ٢٠.

٧) وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]. وهنا خَصَّ الرَّبُّ تبارك وتعالى أهلَ العلم خاصةً بخشيته ومراقبته في كلِّ وقتٍ وآنٍ وحين، فهم أهلُ الخشية، وهم أهلُ التُّقى، وكفى بهذا فخراً وشرفاً. قال الإمامُ ابن قَيِّم الْجَوْزِيَّة رحمه الله تعالى: "ولو لم يكن في العِلم إلاَّ القُرْبُ من ربِّ العالمين، والالتحاقُ بعالَم الملائكة، وصُحْبَةُ الملأ الأعلى؛ لكَفَى به شرفاً وفضلاً"[1].

٨) وقال الله تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. قال العلماء: "الحكمة إصابة الحقِّ والعمل به، وهي العلم النافع والعمل الصالح"[2].

٩) وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]. هنا نَدَب اللهُ تعالى المؤمنين إلى التفقُّهَ في الدين، وهو: تعلُّم الدين، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم، وهو تعليم الدين[3].

١٠) ومن الجدير بالذكر أنَّ العلم من أعظم أفضال الله ﷻ، وأجَلُّ نعمائه على أنبيائه ورُسُله، وكفى بهذا فخراً وشرفاً للعلم وأهله، فقد قال الله تعالى لخاتم أنبيائه ورُسُله مذكِّراً نعمتَه عليه: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال في حقِّ يوسف عليه السَّلامُ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال في حقِّ موسى عليه السَّلامُ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ ﴾ [القصص: ١٤].

---

[1] ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج١، ص١٨٠.

[2] ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج١، ص٥٤.

[3] ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج١، ص٥٨.

وقال في حقِّ عيسى عليه السَّلامُ: ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة: ١٤].

وقال في حقِّ داود عليه السَّلامُ: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة في حقّ العديد من أنبياء الله ورُسُلِه ممن امتنَّ الله تعالى عليهم بنعمة العلم وفضله والحكمة وشرفها.

المطلب الثاني: "العلم" و"العلماء" في الحديث النبوي الشريف:

وحيثُ أنني قد ذكرتُ في المطلب السابق بعضَ الآيات القرآنية، فيا حبّذا التعريج في هذا المطلب على بعض الأحاديث النبوية من مشكاة الرسالة المحمدية للاستدلال كذلك على فضل العلم وشرفِ أهله، فلنُورد بعضَ ما قاله أفصحُ من نَطَق بالضّاد رسول الله عليه أفضلُ الصَّلاة وأعظَمُ التسليم:

١) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُه إلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُوْ لَهُ»[١].
ومعنى هذا الحديث: أنَّ كل عملٍ في الدنيا سِوى هذه الأعمال الثلاثة – التي صرَّح بها رسولُ الله ﷺ – منقطعٌ عن الإنسان نفعُها بعد موته إلا ما يقوم به من صدقة جارية، أو يتركه من ذُرِّيّة طيبة صالحة، تدعو له بالخير وترجو له النفعَ والقبولَ، أو ما قام به من تعليم أبناء المسلمين وذراريهم، وتدريسهم من أمور الدين وأصول الشَّرع التي ينتفعون بها في دنياهم وأُخراهم، أو ما خلَّفه مما خَطَّتْ يداه من كتبٍ نافعةٍ وتأليفاتٍ مفيدةٍ تخدم الدينَ وتنفع الأمةَ[٢].

٢) وعن حذيفة بن اليَمان ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِّنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وخَيْرُ دِيْنِكُمْ الوَرَعُ»[٣].

---

[١] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ص٧١٦، برقم١٦٣١.

[٢] انظر: النووي، المنهاج شرح مسلم بن الحجاج، ج١١، ٨٧. ومحمد تقي العثماني، تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم، ج٢، ص٧٢، ٧٣.

[٣] أخرجه الحاكم في المستدرك، ج١، ص١٧١، برقم (٣١٧)، والطبراني في المعجم الأوسط، ج٤، ص١٩٦، برقم (٣٩٦٠)، وقال المنذري: "رواه الطبراني في الأوسط، والبزار بإسناد حسن". (الترغيب والترهيب: ١١٨/١، برقم: ١٠٣).

وفي هذا الحديث دلالةٌ ظاهرةٌ على أفضلية العِلم على سائر أنواع العبادات؛ وذلك لأنه بالعلم يَتعبَّد الْمَرْءُ للمَوْلى تبارك وتعالى، على معرفة وبصيرة. أما من يَتعبَّد بلا علمٍ ولا معرفة فقد يقع في أخطاء ومُنكَرات، والله أعلم.

٣) وعن أبي الدَّرْداء ﷺ قال: قَدِمَ عليه رجلٌ من المدينة وهو بدمشق، فقال: ما أقدَمَك يا أخي؟ فقال: حديثٌ بلغني أنك تحدِّثه عن رسول الله ﷺ، قال: أمَا جئتَ لحاجة؟، قال: لا، قال: أمَا قَدِمْتَ لتجارة؟ قال: لا، قال: ما جئتُ إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيْقاً يَبْتَغِيْ فِيْهِ عِلْماً؛ سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيْقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعَ أَجْنحَتَهَا رَضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَات وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الْحِيْتَان فِي الْمَاءِ. وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِب، إنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوْا دِيْنَاراً وَلاَ دِرْهَماً، إِنَّمَا وَرَّثُوْا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[١].

وهنا يبيِّن رسولُ الله ﷺ فضلَ طالب العلم والسَّاعي في سبيله؛ حيث يوضِّح إن من اختار سلوكَ سبيل العلم؛ سهَّل اللهُ تبارك وتعالى له سبيلَ الجنة، كما أنَّ ملائكة الرحمن تتواضع لطالب العلم توقيراً لعلمه وحيازته لوراثة رسول الله ﷺ العظمى، ومِن فضله كذلك أنَّ كل مَن في السموات والأرض حتى الحِيْتان في البحر يسألون الله تعالى المغفرةَ لعباده العلماء، وفضلُ العلماء على العُبّاد كفضل القمر على سائر الكواكب؛ ذلك لتعدِّي نفع العلماء إلى غيرهم، واختصار نفع العُبّاد على أنفسهم دون غيرهم، وهؤلاء العلماء – في الحقيقة – وَرَثَةُ الرُّسُل الكرام والأنبياء، إذْ لم يورِّثوا – عليهم أفضَلُ الصَّلاة وأتَمُّ السَّلام – ديناراً ولا درهماً، إنما ورَّثوا العلم فقط، فمَن طلب العلمَ وأخذ به أخذ نصيباً تامّاً وافراً لا أتَمَّ منه لا أوفَرَ[٢].

٤) وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيا مَلْعُوْنَةٌ، مَلْعُوْنٌ مَا فِيْها، إلاَّ: ذِكْرَ اللهِ تعالى، وَمَا وَالاَهُ[٣]، وعالِماً، أو مُتَعَلِّماً»[٤].

---

[١] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ص٦٠٨، ٦٠٩، برقم٢٦٨٢، وأبو داود في السنن، كتاب العلم، باب في فضل العلم، ص٥٢٣، برقم٣٦٤١، وهو حديث صحيح، انظر: الألباني، صحيح سنن أبي داود، ج٢، ص٦٩٤، برقم ٣٠٩٦.

[٢] انظر: عبد الرحمن المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي، ج٧، ص٣٧٥، ٣٧٧.

[٣] "وما والاه" أي: طاعة الله تعالى.

[٤] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب الزهد، باب إن الدنيا ملعون، ص٥٣١، ٥٣١، برقم٢٣٢٢، وقال: "حسن غريب".

وفي هذا الحديث أيضاً دلالةٌ واضحةٌ على شرف العلم وفضلِ طلبه؛ إذ بيَّن رسولُ الله ﷺ أنَّ الدنيا وبكل ما فيها مبغوضةٌ مكروهةٌ مذمومةٌ؛ لكونها تُبعِد عن الله، وتُشغِل عن ذكره، ولا يُحمَد ما فيها سِوى ذكر الله تبارك وتعالى، وما والاه اللهُ وأحبَّه من أعمال البرّ وأفعال القُرَب والطَّاعة، وعالِمٌ أو متعلِّمٌ[1].

٥) وعن عثمان بن عَفّان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وعَلَّمَهُ»[2].

ونُدرِك من هذا الحديث أنَّ أفضل الناس وأحسنَهم على الإطلاق مَن تدارس القرآنَ وتعلَّمه، ثم قام بتعليمه وتدريسه للعباد، فحصل بذلك النفعَ والانتفاعَ، فهذا مِن أشرف الأمة وخِيْرَةِ الناس، وهو كذلك مِمَّن عَناهم ﷻ بقوله في مُحكَم تنْزيله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣][3].

٦) وعن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «سَلُوْا اللهَ عِلْماً نَافِعاً، وَتَعَوَّذُوْا باللهِ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ»[4].

وفي هذا الحديث يعلِّمنا رسولُ الله ﷺ أن نسأل المولى – تبارك وتعالى – العلمَ النافع، وهو المتعلِّق بأمر الدين والدنيا فيما يعود فيها على نفع الدين، أمَّا عدا ذلك فإنه مذمومٌ، وهو مِمّا قال الحقُّ – تبارك وتعالى – فيه: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، كما أمر رسولُ الله ﷺ كذلك الاستعاذةَ من هذا العلم الذي لا ينفع كعلم السِّحْر والنجوم وغير ذلك[5].

٧) وعن أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيْلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ»[6].

[1] انظر: المباركفوري، تحفة الأحوذي ج٦، ص٥٠٤، ٥٠٥.

[2] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن، ص٩٤٩،، برقم٥٠٢٧.

[3] انظر: ابن حجر، فتح الباري، ج٩، ص٩٥، ٩٦.

[4] أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الدعاء، باب ما تعوّذ منه رسول الله ﷺ، ص٥٤٩، برقم٣٨٤٣، أما الحديث فهو صحيح، كما قال البوصيري في "مصباح الزجاجة في زوائد سنن ابن ماجه"، ج٢، ص٢٩٤، برقم١٣٥٣.

[5] انظر: صفاء الضوي أحمد العدوي، إهداء الديباجة بشرح سنن ابن ماجه، ج٥، ص١٩٣.

[6] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب فضل طلب العلم، ص٦٠١، برقم (٢٦٤٧)، وقال: "هذا حديث حسن غريب".

وفي هذا الحديث يبيِّن رسولُ الله ﷺ أنَّ مَن خرج مِن بيته، أو بلدِه في سبيل طلب العلم وتحصيله فأجرُه كأجر المجاهد في سبيل الله؛ وذلك لِما في طلب العلم من إحياء الدين وإذلال الشيطان وإتعابِ النفس كما في الجهاد في سبيل الله، ويَستمِرّ هذا الأجر والثواب إلى أن يرجع إلى بيته كما خرج[1].

٨) وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْهُوْمَانِ لاَ يَشْبَعَانِ، مَنْهُوْمٌ فِي عِلْمٍ لاَ يَشْبَعُ، وَمَنْهُوْمٌ فِي دُنْيَا لاَ يَشْبَعُ»[2].

ومعنى هذا الحديث أنَّ من شأن صاحب الدنيا: الازديادُ من متاع الدنيا الزائل الفاني، والحرص على ذلك، من الأموال والمساكن والمراكب وغير ذلك من كلِّ ما يُبعِده عن التقرُّب إلى الله، ويُوجِب غضبَه وسخطَه، وهذا مذمومٌ غايةَ الذَّمِّ. بينما صاحبُ العلم فمِن شأنه الازديادُ من العلم، والحرصُ على كسبه وطلبِه وتحصيلِه، وعدمِ الاقتناع بالبعض اليسير منه، والسَّعْيُ فيما يقرِّبه إلى رضا الله تبارك وتعالى، بفعل الطَّاعات والإخلاص في ذلك، واجتنابِ النواهي والمحرَّمات، وهذا محمودٌ ممدوحٌ على لسان خير البَرِيّة محمد عليه أفضَلُ الصَّلاة وأتَمُّ السَّلام[3].

المطلب الثالث: أقوال أهل العلم في فضل "العلم" وشرف أهله:

ومن جميل ما تكلَّم به علماء الإسلام وأئمته الأعلام في بيان أهمية العلم وفضيلة أهله، ما أورده الإمام ابن قَيِّم الْجَوْزِيَّة – رحمه الله تعالى – في كتابه الرائع الماتع "مفتاح دار السعادة" حيث قال:

١) "العلمُ إمامُ العمل، والعملُ تابعٌ له ومُؤْتَمٌّ به، فكلُّ عملٍ لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غيرُ نافعٍ لصاحبه، بل مضرَّة عليه"[4]. قال بعض السَّلَف: "مَن عبد اللهَ بغير علمٍ؛ كان ما يُفسد أكثرَ مما يُصلح، فإذا كان هذا منْزلةُ العلم وموقعه؛ عُلم أنه أشرَفُ شيءٍ وأجَلُّه وأفضَلُه"[5].

---

[1] انظر: المباركفوري، تحفة الأحوذي، ج٧، ص٣٣٩، ٣٤٠.

[2] أخرجه الحاكم في المستدرك، ج١، ص١٦٩، برقم (٣١٢)، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي.

[3] محمد بن عبد الباقي الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، ج٦، ص٢٧٩٢.

[4] ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج١، ص٣٠٢.

[5] المرجع السابق، ج١، ص٣٠٢، ٣٠٣.

٢) والعاملُ بلا علمٍ كالسائر بلا دليلٍ، قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "من فارق الدليلَ ضلَّ السبيلَ، ولا دليل إلا بما جاء به الرسولُ ﷺ"[١].

٣) ومن ثِمار شجرة العلمِ حُسْنُ الخُلُقِ، والدليلُ على ذلك أنَّ السيدة عائشة – رضي الله عنها – لما سُئلت عن خلق النبيِّ ﷺ قالت: "كان خُلُقُهُ القُرْآن"[٢]، فاكتفى بذلك السائل، وقال: "فهَمَمْتُ أن أقوم ولا أسأل عن شيءٍ بعدها"[٣]، فهذه الأخلاقُ هي ثمرةُ شجرةِ العلم.

٤) وقال عمر بن الخطاب ﷺ: "موتُ ألف عابدٍ أهوَنُ من موت عالمٍ بصيرٍ بحلال الله وحرامه"[٤].

٥) وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "ما عُبِدَ الله بشيءٍ أفضَلُ من فقه في الدين".[٥]

٦) وقال عليٌّ بن أبي طالب ﷺ: "العالِم أعظَمُ أجراً من الصائم القائم الغازي في سبيل الله"[٦].

٧) وعن أبي الدَّرْداء ﷺ أنه قال: "مُذاكَرة العلم ساعة خيرٌ من قيام الليلة"[٧].

٨) وقال سعيد بن الْمُسَيَّب[٨] رحمه الله: "ليست عبادة الله بالصوم والصلاة، ولكن بالفقه في الدين"[٩].

٩) وقال سفيان بن عُيَيْنَة[١٠] رحمه الله: "أرفَعُ الناسِ عند الله منْزلةً مَن كان بين الله وبين عباده، وهم الرُّسُل والعلماء"[١١].

---

[١] المرجع السابق، ج١، ص٣٠٢.

[٢] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ص٣٠١، برقم (٧٤٦).

[٣] ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج١، ص٣٨٢.

[٤] المرجع السابق، ج١، ص٣٩٨.

[٥] المرجع السابق، ج١، ص٣٨٨.

[٦] المرجع السابق، ج١، ص٣٨٨.

[٧] المرجع السابق، ج١، ص٣٨٩.

[٨] هو سعيد بن الْمُسَيَّب بن حَزْن القرشي، أبو محمد (١٣ – ٩٤هـ): سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع. توفي بالمدينة. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ٥٤، ٥٥.

[٩] ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج١، ص٣٨٩.

[١٠] هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد (١٠٧ – ١٩٨هـ): الحافظ الثقة، محدِّث الحرم المكي. وُلد بالكوفة وسكن بمكة وتوفي بها. كان واسعَ العلم كبير القدر. له: "الجامع" في الحديث، وكتاب في "التفسير". انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٢، ص٥٩، ٦٠.

[١١] ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج١، ص٣٩٠.

١٠) وقال الإمام مالك بن أنس رحمه الله: "إنَّ أقواماً ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم فخرجوا على أمة محمد ﷺ بأسيافهم، ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك"[١].

خلاصة الفصل:

هذه بعضُ أصولٍ ومصطلحاتٍ ذات صلةٍ وطيدةٍ بمفهوم العلم ومعناه، ومدلول العالِم ومغزاه، والتي لا غِنى عن إيضاحها وبيانها؛ لتتّضح بذلك صورةُ "التَّعالُم"، وينجلي حالُ "الْمُتعالِمين"، فمعرفةُ أصلِ الشيء أولاً وتصوُّره بصورة جيدة، يعرِّفنا بحقيقة ضِدِّه ونقيضِه.

وهذا ما آمُلُ – بإذن الله تعالى – تحقيقه، أرجو المولى تعالى: أن أكون قد وُفِّقْتُ في ذلك، وما ذلك على الله بعزيز، وعليه فقد قمتُ بتعريف "العلم" لغةً واصطلاحاً، وكذلك "الإفتاء"، و"الأدب"، و"الأمانة العلمية"، وضدّها "السرقة العلمية".

كما أني قمتُ كذلك بتعريف مصطلح "التأليف" وبيّنتُ مقاصدَه، و"التصنيفِ" ووضّحتُ مبرّراته، و"التحقيقِ" وذكرتُ شروطَه وأصولَه.

وعرّفتُ كذلك مصطلح "الفتنة" باعتبار أنَّ "التَّعالُم" فتنةٌ من فِتَن العصر التي أخبر الرسول ﷺ بوقوعها قُرْبَ يوم القيامة، كذلك تعريف "التنبُّؤات".

ثم عرّجتُ على تعريف "التَّعالُم" و"الْمُتعالِم" بصورة عامة وجيزة للغاية قبل البَدْء بتفصيل ذلك في الفصل الذي سيلحقه بإذن الله تعالى.

ولأجل ذلك أيضاً، ولنفس الغاية والهدف ثَنَّيْتُ بذكر الأدلة الشرعية من الكتاب والسُّنَّة، وأقوالِ علماء الأمة في فضل العلم وشرف أهله؛ للإتيان بدلائل صادقة ساطعة، وبراهين ظاهرة باهرة لتؤيِّد وبكلِّ وضوحٍ وجلاءٍ وقُوّةٍ، في دراسة أصل هذه الظاهرة وحقيقتها، وتكشف خبايا أهلها وأحوالهم في ضوء ما ورد في حديث النبي ﷺ كما سيتبيّن ذلك لاحقاً بمشيئة المولى تعالى.

---

[١] المرجع السابق، ج١، ص٣٩٢.

الفصل الثاني

مفهوم "التَّعالُم" ومظاهره

المبحث الأول: مفهوم "التَّعالُم".

المبحث الثاني: مظاهر "التَّعالُم".

مفهوم "التَّعالُم"

بما أنَّ موضوع هذا البحثِ يدور حول "التَّعالُم"؛ فلا بُدَّ من تعريف جامع لهذا المصطلح، الذي لم يُعرَف قديماً في عهد السَّلَف بالمفهوم المصطلَح عليه اليوم[١]، لذلك أرى من الضروريِّ أن أقوم في مطالب هذا المبحث بتعريف هذا المصطلح لغةً واصطلاحاً، ثم بتعريف المتّصِف به (أي الْمُتعالِم)، ثم بدراسة ورود هذا المصطلح في القرآن الكريم والحديث النبوي، ثم سوق أقوال الصحابة والتابعين وبعض قدامى العلماء والمعاصرين التي وردتْ في "التَّعالُم".

المطلب الأول: تعريف "التَّعالُم" لغةً واصطلاحاً:

"التَّعالُم" على وزن "التَّفاعُل"، وهو مصدرُ "تَعالَمَ يَتعالَمُ تَعالُماً"، وهو مشتقٌّ من فِعل "عَلِمَ، يَعْلَم، عِلْماً"، و"العلمُ" نقيض: الجهل[٢].

و"التَّعالُمُ" هو: التظاهُرُ بالعلم[٣]، وسيأتي تعريفه المفصل.

ولصيغة "التَّفاعُل"، معانٍ عِدّةٌ عند العلماء[٤]، منها أنها تُستعمَل لـ:

١) الدلالةِ على مشاركة اثنَين فأكثر في أصل الفعل الثُّلاثي نحو: تخاصَمَ زيدٌ وعليٌّ وتضارَبا.

٢) وللدلالة على تكلُّف الفاعل إظهارَ الفعل وهو في الحقيقة غيرُ مُتّصِفٍ به، نحو: تجاهَل وتغابَى وتعامَى.

٣) وللدلالة على حصول الشيء بالتدرُّج، كـ: تواردَت الإبلُ، وتزايَد النِّيلُ.

---

[١] وقد ذكر الأستاذ أبو بكر يوسف لعويسي في مقال له بعنوان "المعالم لمعرفة حد التَّعالُم": إنَّ "مجمع الفقه الإسلامي" التابع لمنظَّمة المؤتمر الإسلامي بجُدَّة، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، قام بدراسة هذا المصطلح، وقرَّر جواز التعامُلِ به في المصنَّفات والخطابات الشرعية. انظر: أبو بكر يوسف لعويسي، المعالم لمعرفة حد التَّعالُم، المنشور في موقع "الأمين موقع سلفي علمي للتعريف بالمصطلحات والعلوم الشرعية".

[٢] انظر: الخليل الفراهيدي، كتاب العين، ج٢، ص١٥٢، والأزهري، تهذيب اللغة، ج٢، ص٣١٥، انظر مادة "علم".

[٣] انظر: "المعجم الوسيط" ص٦٥٥.

[٤] انظر في معاني هذه الصيغة: سيبويه، الكتاب، ج٤، ص٦٦، ٦٩. وابن السراج، الأصول في النحو، ج٣، ص١٢٠. وأحمد بن محمد الميداني، نزهة الطرف في علم الصرف، ص١٦، ١٧. وابن الحاجب، الشافية في علم التصريف، ص٢٠. وأحمد ابن محمد الحملاوي، شذى العرف في فنّ الصرف، ص٤٤.

وبناءً على المعنى الثاني لصيغة "التفاعُل" يكون "التَّعالُم" بمعنى: التَّظاهُر، فنقول: "تَعالَم فلانٌ" إذا أظهر العلمَ وهو ليس كذلك، وعلى هذا يَكمُن فيه معنى الادِّعاء لأجل الظهور والبروز، وكسبِ المال والجاه، ونيلِ الشُّهْرَة والمكانة.

ودلالةُ وزن "التفاعُل" عموماً تكون لإظهار ما ليس واقعاً في الأصل والحقيقة كما أسلفتُ، نقول: "فلانٌ تَجاهَلَ الأمرَ وتَغافَلَه"؛ إذا أظهر من نفسه الجهلَ والغفلةَ تِجاه أمرٍ ما وهما في الأصل والحقيقة منتفيان لديه، كما إذا قلنا: "تحالَم الرجلُ"؛ إذا أظهر الحِلمَ وهو منتفٍ لديه، وهكذا.

فـ"التَّعالُم" هو ادِّعاء العلم بالقول، أو العمل، أو الحال، أو الهيئة، ونحو ذلك، ممن ليس من أهل العلم[1].

أمَّا "الْمُتعالِم": فهو مَن اتَّصف بهذه الصفة القبيحة المذمومة من إظهار العلم وادِّعائه وهو ليس كذلك.

وهذا التعريفُ لـ "التَّعالُم" و"الْمُتعالِم" لم أعثر عليه في القواميس والمعاجم العربية القديمة، إلاَّ أنَّه في بعض كُتُب القدامى استُعملت بعضُ ألفاظٍ بمعنى "التَّعالُم"، مثل لفظة "التَّحاذُق" التي استعملها الجاحظُ[2] في رسائله في ذمِّ أخلاق الكُتَّاب فقال: "فإنَّ أحدهم يَتحاذَق عند نُظرائه بالاستقصاء على مِثله"[3]؛ يعني: أنه يتظاهر بالعلم والمعرفة عندهم وهو في الحقيقة على عكس ذلك.

ومن هذا نستنتج: أنَّ هذا الوزن (أي: التفاعُل) يُستعمَل على وجه العموم لأجل الذَّمِّ؛ وذلك لإخفاء الحقيقة وسترِها وإظهارِ خلافها.

وكذلك لفظة "الْمُتَمَعْلِم"، التي استعملها الإمامُ ابن قَيِّم الْجَوْزِيَّة في نُونْيَّتِه الشهيرة[4] بمعنى "الْمُتعالِم" للجاهل المدَّعي للعلم المظهر له مع أنَّ حقيقته خِلوٌ منه عريٌّ عنه، فقال:

---

[1] انظر مادة "علم" في هذه المعاجم العصرية: الكيرانوي، القاموس الوحيد، ص١١١٩. و"المعجم الوسيط" ص٦٥٥. والمعجم العربي الأساسي، ص٨٦٠.

[2] هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (١٦٣ – ٢٥٥هـ): كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته في البصرة، من مؤلَّفاته: "الحيوان"، و"البيان والتبيين"، و"البخلاء"، و"المحاسن والأضداد"، ومجموع رسائل". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٧٤.

[3] عمرو بن بحر الجاحظ، الرسائل السياسية، ج١، ص٦١١.

[4] ابن قيم الجوزية، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ص٣٠٣.

هذا وإنِّي بَعْدُ مُمْتَحِنٌ بأر بَعَةٍ وكُلُّهم ذَوُوْ أضغانِ
فَظٌّ غَلِيْظٌ جاهِلٌ مُتَمَعْلِمٌ ضَخْمُ الْعِمَامَةِ واسِعُ الأرْدَانِ[1]
مُتَفَيْهِقٌ مُتَشَدِّقٌ مُتَضِلِّعٌ بالْجَهْل ذو ضَلْعٍ مِن العِرفَانِ
مُزْجَى البِضَاعةِ في العلوم وإنَّه زاجٍ مِن الإيهامِ والْهَذَيانِ

حيث وصف – رحمه الله تعالى – "الْمُتعالِم" بالجهل وما يُصاحِبه من أخلاق منحطّة رديئة من الغِلْظَة والفَظاظة، وإظهارِ خلاف الحقيقة والواقع، حيث يُظهِر للناس العلمَ والفقهَ وهو في الأصل متضلِّعٌ بالجهل، قليلُ البضاعة في العلم، فقيرٌ في الفهم، قد زاوَجَ بين الأوهام والهذيان، لكنه في نفسه عالِمٌ كبيرٌ، وفقيهٌ نحريرٌ، وهذا شأنُه وديدنُه ما دام متحلِّياً برداء "التَّعالُم" الذميم.

"التَّعالُم" اصطلاحاً: عرَّفه مجموعة من العلماء المعاصرين بتعريفات مختلفة من ناحية المبنى، لكنها تتّفق عموماً من ناحية المعنى.

١) فعرَّفه الأستاذ محمد خلف سلامة[2] أنه ادِّعاء العلم بالقول، أو العمل، أو الحال، أو الهيئة، ونحو ذلك ممن ليس من أهل العلم[3].

٢) وعرَّفه الشيخ صالح بن فوزان الفوزان[4]: "أنه ادِّعاء العلم نتيجةً للاقتصار على مطالعة الكتب، ومثل هذا يُقال له: (الجاهل المركَّب) وهو الذي يجهل ولا يدري أنه جاهل؛ بل يَظُنّ أنه هو العالِم"[5].

٣) كما عرَّفه الأستاذ أبو بكر يوسف لَعْوِيْسِيّ[6] تعريفاً متكاملاً على صورة مصطلحٍ عصريٍّ حديثٍ كنتيجةٍ لتتبُّعه واستقرائه قائلاً: "التَّعالُم: ادِّعاء الإنسان العلمَ قبل أن

[1] "الأردان" جمع "ردن": هو لِباس يلبَسُه أهل الشام، وهو ثوب مُجَبَّلٌ أَخْضَرُ الْمَنْكِبِين وسائرُه أَبْيَضُ، والأَردانُ أَكمامُه. ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٢٦.

[2] لم أعثر على ترجمته، إلا أنه من أبناء الموصل في العراق، ومن العلماء المتمكِّنين من الحديث النبوي وعلومه، وله كتاب قيم باسم "لسان المحدِّثين"، وهو يحتوي على الكثير من مصطلحات علم الحديث النبوي على الترتيب الهجائي.

[3] محمد خلف سلامة، لسان المحدِّثين، وهو كتاب إلكتروني، انظره في موقع "صيد الفوائد".

[4] هو صالح بن فوزان بن عبد الله، من آل فوزان (من مواليد عام ١٣٥٤هـ): أحد أكابر وأجلة علماء السعودية. وُلد في منطقة القصيم. تخرَّج في كلية الشريعة بالرياض، ثم نال منها درجةَ الماجستير فالدكتوراه في الفقه. وعمل أستاذاً في كلية الشريعة وفي المعهد العلمي في الرياض. وهو عضو في هيئة كبار العلماء. وله مؤلَّفات. انظر ترجمته في "موقع الإمام الآجري".

[5] صالح بن فوزان الفوزان، التَّعالُم وآثاره الخطيرة على الأمة!، مقال منشور في "شبكة سحاب السلفية".

[6] أحد أبرز علماء الجزائر، وله هناك نشاط علمي جم من خلال إلقاء المحاضرات والدروس في الدورات العلمية وفي المساجد، كما له مشاركات علمية قوية في العديد من الشبكات الإسلامية. و لم يتيسَّر لي الوقوف على المعلومات عنه أكثر من هذا.

يتعلَّم، حيث لا يعرف مرتبةَ الدليلِ ولا مناطه، ولا يعرف الفرقَ بين المجمَل والمبيَّن، والمطلَق والمقيَّد، والعامِّ والخاصِّ، والناسخ والمنسوخ، ثم يتجرَّأ على الخوض في كتاب الله، وسُنَّةِ رسول الله ﷺ، وأصولِ الإسلام، ونتيجةً لذلك قد يقع في التكفير، وقد يقع في التفسيق، وقد يقع في التبديع، وربما جمع بين النقيضَيْن وهو لا يُحسِن أن يفرِّق بين الدليل ومناطه والدليلِ ومراتبه"[١].

المطلب الثاني: تعريف "الْمُتعالِم":

أمّا تعريف "الْمُتعالِم" كشخصٍ اتَّصف بهذه الطَّامة العظمى والمصيبة الكبرى؛ وجَرَّه الغرورُ بنفسه والعُجْبُ بها لأن يَلِجَ حظيرةَ الدُّخلاء الْمُتعالِمين، والتي من أشدِّ أخطار الوُلوج إليها: القولُ على الله تعالى بلا علمٍ، ثم التحليلُ والتحريمُ بلا تثبُّت أو رَوِيّة، فهذا أيضاً عرَّفه العديدُ من العلماء بتعريفات مختلفة، وها هي بيانها:

١) فـ"الْمُتعالِم" هو المتشبِّعُ بما لم يُعْطَ، الدخيلُ على العلم وأهله، المتزيِّ بزيّ العلماء ظاهراً، والمخالف المناقض لهم باطناً، تحلَّى بالادِّعاء والكذب، وتعرَّى عن قول الحقّ والصِّدْق، قد يكون حَدَثٌ غِرٌّ صغيرٌ، وربما في السِّنّ شيخٌ كبيرٌ، اعتمد على الصُّحُف والقِمْطِير؛ لذا داؤهما في الأمة خطيرٌ، وشأنُهما عند أُوْلِي العلم ذليلٌ حقيرٌ[٢].

٢) وقد عرَّفه الشيخ الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود[٣] فقال: "الْمُتعالِم هو شخصٌ يُظهِر نفسَه أنه عالِمٌ بالأمور الشرعية ودلائلها، وطرائق الاستنباط فيها، يدَّعي أنه كذلك وليس كذلك، ثم يتكلَّم في مسائل الأمة إمّا في قضاياها الكبار، أو مسائل العلم الشرعية يتكلَّم فيها وهو على هذه الحال وهذه الصفة، حيث إنه قليلُ البضاعة في العلم، أو ناقصُ العلم، أو مُدَّعٍ للعلم، وليس بعالِم"[٤].

---

[١] أبو بكر يوسف لعويسي، المعالم لمعرفة حد التَّعالُم، مقال منشور في موقع "الأمين موقع سلفي علمي للتعريف بالمصطلحات والعلوم الشرعية".

[٢] أبو بكر يوسف لعويسي، المعالم لمعرفة حد التَّعالُم، مقال منشور في موقع "الأمين موقع سلفي علمي للتعريف بالمصطلحات والعلوم الشرعية".

[٣] هو عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود السِّلّمي (من مواليد عام ١٣٧٣هـ): أحد كبار علماء السعودية. وُلد في مدينة "البكَيْرية" من القصيم. تخرَّج في كلية الشريعة في الرياض، وحصل على شهادة الماجستير فالدكتوراه في العقيدة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. ثم عمل أستاذاً في قسم العقيدة في نفس هذه الجامعة. وله مؤلَّفات عديدة. انظر ترجمته في "موقع عبد الرحمن بن صالح المحمود".

[٤] عبد الرحمن بن صالح المحمود، فتنة التَّعالُم، القرص المدمج.

ويمكنني من خلال هذين التعريفَين السابقين أن أُجمِل القولَ في تعريف "الْمُتعالِم" فأقول: إنَّ "الْمُتعالِم" هو ذلك الشخص المدَّعي، الذي تزيَّا بزَيِّ أهلِ العلم، ولبس لباسَ أهل الدِّين والتُّقَى والورع ظاهراً، ادِّعاءً منه وزُوْراً وكذباً، وغِشّاً وتدليساً لعوام المسلمين، وهو في حقيقته عارٍ عن كل تُقًى وصلاحٍ، بعيداً كل البُعد عن فضائل الدين والعلم والأخلاق، سواء كان ذلك من ناحية التمكُّن العلمي الذي يحصل إما بالاستعداد الفطري، والموهبة الغريزية، أو بالمجهود الكسبي، وبذل القوى، أو بكليهما معاً، أو من ناحية الرسوخ الديني حيث تقوى الله، وخشية الرَّبِّ جلَّ في عُلاه، والتي هي الصفةُ اللصيقة بأهل العلم الربانيين الراسخين مِصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وهو في الحقيقة شخصٌ ممقوتٌ منبوذٌ عند علماء الملة والدين، وأهلِ الحقّ والتُّقَى واليقين، ومِن أبغض الخَلْق إلى أهل العلم والفَنِّ، وأربابِ الفكر والمعرفة.

وكيف لا يكون كذلك عند مَن عَلِمَ حقيقةَ شخصِه، ووَقَف على أصله ونفسه، واللهُ تعالى يقول: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣]، واللهُ تعالى جلَّ في عُلاه إنْ أحبَّ عبداً أحبَّه أهل الأرض وأهل السماء، وإنْ أبغض أحداً أبغضه أهل الأرض وأهل السماء.

وصَدَق مَن قال في وصفهم من أحد الأجلة: "الْمُتعالِمون هم الذين ناموا عن العلم، وادّعوه، وبالغوا قبل أن يَبلُغوا، وهؤلاء الذين يدَّعون العلم ويقولون في دين الله تعالى بغير علمٍ وبغير دليلٍ؛ تستهويهم الشهرة، ويَجُرّهم هذا الداءُ الخطيرُ إلى كل شَرٍّ وهلاكٍ، وضلالٍ وإضلالٍ، فلا يتورَّعون عن الرَّدِّ على أيّ سائلٍ، وفي أيّ مسالةٍ، ولا يتمسَّكون أنفسهم عن التعرُّض لأيّ فتوى"[١].

المطلب الثالث: ورود لفظ "التَّعالُم" في القرآن الكريم:

لم يَرِدْ في القرآن الكريم لفظُ "التَّعالُم" صراحةً، لكن بالنظر إلى معناه وفحواه، ومفهومه ومغزاه؛ نجد أنَّ الله تبارك وتعالى قد حذَّر عن هذه الصفة الذميمة الخبيثة أشدَّ ما يكون من التحذير، حيث نَهَى ﷻ عن الكذب والادِّعاء، ومخالفةِ القول للعمل، وعن الخوض فيما ليس للمرء علمٌ

[١] محمد حسان، فضل العلم وخطورة التَّعالُم، انظر "موقع فضيلة الشيخ محمد حسان".

عنه، واعتبر الشارعُ كلَّ ذا داخل في دائرة النفاق، الذي هو أشَدُّ عقوبةً من الشرك والكفر، فالمنافقون في الدَّرْك الأسفل من النار؛ وذلك لأن شرَّ الكافِرِ والمشرك وخُبثهما مأمونٌ منه لعِلْم أهل الإيمان بذلك، فظاهرُهما وباطنُهما سواء، بينما المنافقُ فظاهره يُخالِف باطنَه، فلا يُؤمَن شَرُّه وخُبْثُه بسبب الكذب والخداع والظهور على غير الحقيقة والأصل، وخلافِ الحقِّ والصِّدق، والأدلةُ على ما أسلفتُ ذِكْرَه كثيرةٌ، أذكر منها ما يلي:

١) قال الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦].

ففي هذه الآية نهيٌ صريحٌ من الله جلَّ شأنه من الخوض فيما ليس للمرء علمٌ عنه، فلا بُدَّ للإنسان أن يقف عند حدوده، ويراقب الله تعالى في كل شأنه وأمره، فهو مسؤول عن كل ما نَطَقه لسانه، وسمعتْه أذنه، ورأتْه عيناه، ووعاه قلبُه[١].

٢) وقال الله تعالى ناهياً عن مخالفة القول للعمل، وأنَّ ذلك مما يجلب غضبَ الرَّبِّ جلَّ جلاله، وعظيمَ مَقْتِه، وشديدَ عِقابه، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾. [الصف: ٣].

٣) وقال تعالى في معرض الذَّمّ، مشبِّهاً أولئك الذين أُوتوا الكتاب، ثم لم يعملوا بما فيه بالحمير، التي تَحمِل على ظهورها أطناناً من الأسفار الثقيلة، ثم لا تدري محتواها وما بداخلها، فليس لها إذنْ سِوى التعب والنصب، والذُّلّ والقهر! وهذا هو في الحقيقةِ نصيبُ "الْمُتعالِمين": ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢاۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

٤) و"التَّعالُمُ" ذريعة القول على الله جَلَّ شأنه بلا علم؛ وهذا من أعظم الفواحش وأكبر الذنوب، فقد قال الرَّبُّ تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن

[١] انظر: ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٧٨، ٧٩.

﴿ تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، حيث إنَّ القول على الله تعالى أعظَمُ جرماً من الشرك بالله الذي هو أعظَمُ الذنوب، وهذه نتيجة حتمية للتَّعالُم.

٥) واللهُ جلَّ شأنه قد بيَّن في مُحكَم تنْزيله عِظَمَ عقوبة "الْمُتعالِمين"، الذين يفرحون ويمرحون عند الفوز بالجاه والثناء، وهم لا يستحقّون ذلك، وحذَّر من ذا الفعل الذميم الشنيع أشدَّ ما يكون من التحذير، فقال: ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

٦) واللهُ تعالى نَهَى عن تزكية النفس ومدحِها وإطرائها بلا سببٍ مُوجبٍ لذلك، فما بالُ هؤلاء يُحسنون الظَّنَّ بأنفسهم ويُشبعونها مدحاً وإطراءاً بدونِ وجهِ حقٍّ، مع أنّ الذي ينبغي عليهم ويجب، هو: الحياءُ من الله تعالى ومن الناس، وطلبُ العلمِ، والتفقُّهُ في الدين على هدي السلف الصالح، والسَّيْرُ في طريق علماء الأمة الربانيين، قال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم٣٢].

٧) كما أنَّ الله تعالى نَهَى أهلَ الإيمان نهياً شديداً عن تقديم قول غير الله ﷻ وغير رسول الله ﷺ، على قول الله ورسوله، فإنه متى ما تبيَّن قول الله ورسوله وأمر الله ورسوله؛ وجب اتِّباعه وتقديمه على غيره كائناً من كان، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الحجرات: ١].

٨) والله تعالى نَهَى كذلك عن التقوُّل عليه من تلقاء النفس كذباً وافتراءاً على الله؛ وذلك بتحليل الأشياء وتحريمها تبعاً للأهواء والشهوات، وهذا حرامٌ شرعاً، ومن فَعَل ذلك فله العذاب العظيم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ ﴾ [النحل: ١١٦].

٩) وقد أَمَر المولى تعالى رسولَه ﷺ على اتِّباع ولزوم شريعة الرَّبِّ تبارك وتعالى، فهي كاملةٌ تامّةٌ تدعو إلى كلِّ خيرٍ، وتنهى عن كلِّ شرٍّ، ونهاه عن اتِّباع أهواء أهل الجهل الذين لا يعلمون، حيث قال: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الجاثية:١٨].

١٠) وختاماً... وحتى تتّضح صورة "الْمُتعالِم" جيداً، وتتقارب إلى ذهن القارئ؛ لنبيِّن هذا المثل العظيم الذي ضربه الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم، فقال جلَّ شأنه: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ، وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

ففي هذه الآيات الكريمات ترغيبٌ في العمل بالعلم، وأنَّ ذلك من رِفعة الله تعالى لصاحبه في الدنيا والآخرة، وعصمتِه من الشيطان، وترهيبٌ من عدم العمل بالعلم، وأنَّ ذلك نزول بصاحبه إلى أسفل سافلين، وتسليطٌ للشيطان اللَّعِين عليه، فيتّبع هواه وما يُمليه الشيطان عليه، وفي ذلك من الخذلان والضَّلال الْمُوجبان للعذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

وقد ضرب اللهُ ﷻ مثلَ هذا الرجلِ الضَّالِّ المخذولِ الذي آتاه الله تعالى عِلمَ كتابه فصار عالِماً كبيراً، وحِبْراً نحريراً، ثم انسلخ من الاتّصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، حيث إنَّ العلم بآيات الله يصيِّر صاحبه مُتّصِفاً بمكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويرقى به إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات دُنياً وأخرى، لكن هذا الضَّالّ الْمُضِلّ تَرَك كتابَ الله وراء ظهره، ونَبَذ الأخلاقَ التي يأمر بها كتاب الله، وخَلَعها كما يُخلَع اللباس.

فلمَّا فعل ذلك؛ تسلَّط عليه الشيطان، وصيَّره إلى أسفل سافلين، يدفعه إلى المعاصي دفعاً، وبذلك أصبح من الغاوين الضالّين بعد أنْ هَيَّأ اللهُ له تلك الأسبابَ الموجبة لأن يكون من الراشدين المرشدين، فخذله الله ووكَّله إلى نفسه وإلى الشيطان، ولو شاء الله لرفعه بهذا العلم – كما رفع عبادَه العلماء الربانيين العاملين الراسخين حيث قال تعالى: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾ [المجادلة: ٥٨] – وذلك بأن يوفِّقه للعمل بما آتاه من علمٍ فيرتفع في الدنيا والآخرة، لكنه فعل ما يقتضى الذُّلَّ والخذلان إذْ أخلد إلى الشهوات السُّفْلِيَّة الدَّنِيّة والمقاصد الدُّنْيَويّة المنحطَّة، واتّبع هواه وترك طاعةَ مولاه، فمثلُ هذا في شِدَّة حرصِه على الدنيا، وانقطاعِ قلبه إليها كمثل الكلب لا يزال لاهثاً في كل حالٍ، وهذا لا يزال حريصاً حرصاً يتقطَّع قلبه فيه، لا يسدّ فاقتَه شيءٌ من الدنيا[١].

[١] عبد الرحمن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٣١٨، بتصرف يسير.

المطلب الرابع: ورود لفظ "التَّعالُم" في الحديث النبوي الشريف:

وكما أنه لم يَرِدْ لفظُ "التَّعالُم" صراحةً في القرآن الكريم؛ كذلك في حديث رسول الله ﷺ لم يَرِدْ لفظُ "التَّعالُم" صريحاً، لكن رسول الله ﷺ أخبر به كفتنةٍ من فِتَن آخر الزمان، وتنبَّأ بذلك ﷺ، فقد حذَّر – عليه أفضَلُ الصَّلاةِ وأَتَمُّ السَّلام – من ظهور كَذَبَة آخر الزَّمان ومنافقيه الذين يلبسون للناس مسوح العلم والدين ظاهراً تكسُّباً للمال والجاه، وبواطنهم تَفُوْح منها روائح الْخُبْث والنِّفاق، والكذبِ والزُّوْر، والتي لا تخفى عن ربِّ العالمين، وخاتمِ الأنبياء والمرسَلين، وحَمَلَةِ الملّة والدين من علماء الأمة الربانيين الراسخين الثابتين، وإنْ خَفِيَتْ عن الجَهَلة والعوام، أهلِ التطبيل والتصفيق، فهم كالخفافيش لا نورَ لديهم ولا بصيرةَ لمعرفة دَجَل هؤلاء وكذِبهم، وكشفِ زُوْرهم، فهذا أمرُه إلى الله ورسوله، وعبادِه المؤمنين الصادقين المخلصين، حَمَلَةِ رسالة ربِّ الثقلين، حُماةِ الشريعة والدين، ووَرَثَة تركةِ خاتم النبيين، فإنه – عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ – «لم يُوَرِّثْ دِيْنَاراً وَلاَ دِرْهَماً لَكِنَّهُ وَرَّثَ الْعِلْمَ...»[1].

فعلى أيدي أهل الحقِّ هؤلاء، يكشف اللهُ زَيْفَ أهلِ الباطل وزَيْغَهم، فلا نامت أعين الجبناء...

وإلى بضع أحاديث نبوية شريفة، والتي تحذِّر من هذه الفتنة الشَّعْواء، والبَلِيّةِ النَّكْراء:

١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلمَ يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً؛ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوْساً جُهَّالاً، فَسُئِلُوْا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوْا وَأَضَلُّوْا»[2]، وفي رواية أخرى عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لاَ يَنْزِعُ العِلْمَ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ إِيَّاهُ، وَلَكِنْ يُذْهِبُ بِالْعُلَمَاءِ، كُلَّمَا ذَهَبَ بِعَالِمٍ ذَهَبَ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْعِلْمِ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ لاَ يَعْلَمُ، فَيَضِلُّوْا وَيُضَلُّوْا»[3].

---

[1] كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود في السنن، كتاب العلم، باب في فضل العلم، ص٥٢٣، برقم (٣٦٤١)، والترمذي في الجامع، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ص٦٠٩، برقم: (٢٦٨٢)، كلاهما عن أبي الدرداء ﷺ، وقال الترمذي: "وهو حديث حسن".

[2] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، ص٣٧، برقم١٠٠، ومسلم في الصحيح، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، ص١١٦٤، برقم٢٦٧٣، واللفظ للبخاري.

[3] أخرجه عبد الرزاق الصنعاني، في المصنَّف، ج١١، ص٢٥٤، برقم (٢٠٤٧١)، وأحمد في المسند، ج١١، ص٤٩٨، برقم (٦٨٩٦)، والنسائي، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، في السنن الكبرى، كتاب العلم، باب كيف يُرفَع العلم، ج٢، ص٩١٢،، برقم (٥٨٧٦)، وقال محقق "مسند الإمام أحمد" الشيخ شعيب الأرناؤط: "إسناده صحيح على شرط الصحيحين".

ومعنى الحديث أنَّ الله تعالى لا يقبض العلمَ من بين ظَهْرَاني عباده في الدنيا على سبيل رفعه إلى السماء، أو محوِهِ من صدور العباد؛ بل يرفعه بموت حَمَلَة العلم، وقبضِ أرواح العلماء، وبذلك لا يبقى سِوى الْجَهَلَة، فيتّخذهم الناسُ رؤوساً في العلم بحيث يرجعون إليهم في أمور دينهم ومسائل شرعهم، فيَضِلّون ويُضَلّون.

٢) وعن أنس بن مالكٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا»[١].

وفي هذا الحديث يُخبر رسول الله ﷺ أنَّ من علامات الساعة وأماراتها: رفعُ العلم وقبضُه، وفشوُّ الجهل وثباتُه، وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ على ظهور "التَّعالُم" وانتشاره في آخر الزَّمان قُرْب يوم القيامة.

٣) وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «يُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ والفِتَنُ، ويَكْثُرُ الْهَرْجُ"، قيل: يا رسول الله! وما الْهَرْجُ؟ فقال (أي الرَّاوي): "هكذا بيده فحَرَّفها، كأنه يُريد القَتْلَ"[٢]، وفي رواية أخرى عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَقُوْمَ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ أُمَّتِيْ ثَلاَثُوْنَ دَجَّالاً، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُوْلُ الله!، وحَتَّى يُقْبَضَ الْمَالُ، وَيُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ»، قالوا: وما الهرجُ؟؛ قال: «القَتْلُ القَتْلُ»[٣].

وهنا كذلك يُنبئنا رسولُ الله ﷺ في معرض حديثه عن أشراط الساعة وعلاماته بقبض العلم، وظهورِ الجهل والفِتَن، وقد قَرَن – عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ – بين الجهل والفِتَن، مما يدلّ على أنَّ "التَّعالُم" من الفِتَن العظيمة التي تُبتَلى بها الأمةُ وتُصاب؛ وذلك حين يَقِلّ العلمُ ويَكثُر الجهلُ.

٤) وعن أبي أُمَيَّة الْجُمَحِي ﷺ قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أشراط السَّاعة، فقال: «إنَّ مِنْ أَشْرَاطِهَا: أنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الأَصَاغِرِ»[٤].

---

[١] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل، ص٣٣، برقم (٨٠)، ومسلم في الصحيح، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، ص١١٦٢، برقم (٢٦٧١).

[٢] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، ص٣٤، برقم (٨٥)، ومسلم في الصحيح، كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، ص١٢٥٠، برقم (٢٨٨٨)، واللفظ للبخاري.

[٣] أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الملاحم، باب خبر ابن الصائد، ص٦٠٩،، برقم (٤٣٣٣)، وابن ماجه في السنن، أبواب الفتن، باب أشراط الساعة، ص٥٨٤، برقم (٤٠٤٧)، وأحمد في المسند، ج١٥، ص٥٠٧، برقم (٩٨١٧)، وهو حديث صحيح، انظر: الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، ص٣٢٥، برقم (٣٢٨٧).

[٤] أخرجه عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد، ص٢١، برقم (٦١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٤٩٥، وهو حديث صحيح، قاله الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير وزياداته، ج٢، ص٢٤٣، رقم الحديث (٢٢٠٣).

وهنا يُجيب الرسولُ ﷺ حينما سُئل عن علامات الساعة: أنَّ من علاماتها أن يُطلَب العلمُ عند أسافل الناس وأراذلهم من أصحاب الفِسْق والفجور، ومرتكبي المعاصي والذنوب، فأيُّ فتنةٍ أعظَمُ من هذه الفتنة!

٥) وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَعَلَّمُوْا العِلْمَ لِتُبَاهُوْا بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِتُمَارُوْا بِهِ السُّفَهَاءَ ولاَ تَخَيَّرُوْا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي النَّارِ»[١].

وفي هذا الحديث نهيٌ صريحٌ من رسول الله ﷺ عن طلب العلم لأجل الأغراض الدنيوية الزائلة، والأهداف النفسانية المذمومة، من طلبِ الفخر والمباهاة، أو مجاراةِ الْحُمْقَى والسفهاء، أو نيلِ الشهرة، وتصدُّرِ المجالس، ومَن فعل ذلك فقد تَوعَّده رسول الله ﷺ بدخول النار يومَ القيامة، والعِياذُ بالله تعالى.

٦) وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سَيَكُوْنَ فِي آخِرِ أُمَّتِيْ أُنَاسٌ يُحَدِّثُوْنَكُمْ مَا لَمْ تَسْمَعُوْا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ، وَإِيَّاهُمْ»[٢].

وفي روايةٍ أخرى عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ نَبيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِيْ، إلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حِوَارِيُّوْنَ[٣] وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُوْنَ بسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُوْنَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوْفٌ، يَقُوْلُوْنَ مَا لاَ يَفْعَلُوْنَ، وَيَفْعَلُوْنَ مَا لاَ يُؤْمَرُوْنَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوْ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ. وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيْمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ"[٤].

وفي روايةٍ أخرى كذلك عن جابر بن سَمُرَة ﷺ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إِنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ كَذَّابِيْنَ»، قال سَماك: سمعتُ أخي – وكان أقرَبَ إليه مني – يقول: قال جابر: «فَاحْذَرُوْهُمْ»[٥].

---

[١] أخرجه ابن ماجه في مقدمة السنن، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، ص٣٩، برقم (٢٥٤)، وأبو حاتم محمد بن حبان البُستي التميمي في الصحيح، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، تحقيق: شعيب الأرناؤط، ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ج١، ص٢٧٨، ٢٧٩، برقم (٧٧)، والحاكم في المستدرك، ج١، ص١٦١، برقم (٢٩٠)، كلهم عن جابر بن عبد الله ﷺ، وهو حديث صحيح، قال البوصيري: "هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم"، انظر: "مصباح الزجاجة"، ج١، ص٢٣٥.

[٢] أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء، ص٩، برقم (٦).

[٣] الحواري: هو الناصر للرجل والمختص به، والمعين، والمصافي. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج١، ص٤٤٩.

[٤] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ص٤٢، برقم (٥٠).

[٥] أخرجه أحمد في المسند، ج٣٤، ص٤١٤، برقم (٢٠٨١٩)، وقال محقّقه الشيخ شعيب الأرناؤط: "حديث صحيح".

وفي هذه الأحاديث الثلاثة بيانٌ لصفات أولئك الذين سيظهرون في آخر الأمة المحمدية – وذلك قُرْب السَّاعة حين تبرز الفِتَنُ وتَظهَر الْمِحَنُ – إذ أنَّ من صفاقم الإتيانُ بغرائب الأحاديث وعجائبها، من التي ليست مما لم يَزَلْ يعرفه المسلمون خلفاً عن سلفٍ. كما أنَّ من صفاقم أنهم يقولون ما لا يفعلون، وقد كَبُر ذلك مقتاً عند الله تعالى، ويفعلون ما لا يُؤمَرون من الأمور المبتدَعة، والعقائد الباطلة، والأهواء الفاسدة. كما أنَّ من صفاقم كذلك الكذبُ والادِّعاء، وقولُ الزّور والباطل، وكلٌّ هذا يقع – في الحقيقة – بسبب نقصان العلم وقلةِ أهله، وفشوُّ الجهل وكثرةُ أهله.

المطلب الخامس: أقوال الصحابة والتابعين وبعض قدامى العلماء والمعاصرين في "التَّعالُم":

وقد استنكر جمعٌ من الصحابة والتابعين – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين – ما ظهر في عصورهم الْخِيَرَة من مظاهر الغِشِّ والادِّعاء، والكذب والزُّوْر، ولهم في الإنكار على ذلك أقوالٌ بليغةٌ، ومن ذلك:

(أ) من أقوال الصحابة والتابعين:

وخير من نبدأ بذكره بعض أقوال الصحابة والتابعين:

١) قال عمر بن الخطاب ﷺ: "من تزيَّن بما ليس فيه؛ شانَه اللهُ"[١].

٢) وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: "لا يزال الناسُ بخير ما أخذوا العلمَ عن أكابرهم، فإذا أخذوه عن صغارهم وشِرارهم؛ هلكوا"[٢].

٣) وقال الإمام عامر بن شَراحيل الشَّعْبِي رحمه الله: "ما حدَّثوك عن أصحاب محمد ﷺ، فشُدّ عليه يَدَك، وما حدَّثوك من رأيهم فبُلْ عليه"[٣].

---

[١] ابن قيم الجوزية الدمشقي، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ص٣٦٢. وقال – رحمه الله تعالى – بعد إيراد هذا القول: "هذا شقيقُ كلام النبوة، وهو جديرٌ بأن يخرج من مشكاة المحدَّث الملهَم...، فإنَّ العبد إذا خلصت نيته لله تعالى وكان قصده وهمّه وعمله لوجهه ﷻ؛ كان الله معه، فإنه سبحانه مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون، ورأسُ التقوى والإحسان: خلوص النية لله في إقامة الحقِّ...".

[٢] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج١، ٤٨٩.

[٣] المرجع السابق: ج١، ٥٠٠.

٤) وقال الإمام الأوزاعي[١] رحمه الله: "العلمُ ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ، وما لم يجئ عن واحدٍ منهم؛ فليس بعلمٍ"[٢].

٥) وقال الحافظ الفقيه مَكْحُول الشَّامي[٣] رحمه الله: "تفقُّهُ الرَّعَاعِ فسادُ الدين، وتفقُّهُ السَّفِلَةِ فسادُ الدنيا"[٤].

ويعني بـ"الرَّعَاع" غوغاء الناس، وسُقَّاطهم وأخلاطهم، ويعني بـ"السَّفِلة" أسافلهم، وهم نقيض: أعالي الناس كالعلماء وغيرهم[٥].

٦) وقال الحافظ الفِرْيابي[٦] رحمه الله: "كان سفيان[٧] إذا رأى هؤلاء النَّبَط[٨] يكتبون العلم يتغيَّر وجهه، فقلتُ له: يا أبا عبد الله! نراك إذا رأيتَ هؤلاء يكتبون العلم يشتدّ عليك!، فقال: كان العلمُ في العرب وفي سادة الناس، فإذا خرج عنهم وصار إلى هؤلاء – يعني النَّبَط والسَّفِلَة – غُيِّر الدينُ"[٩].

---

[١] هو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمِد، أبو عمرو الأوزاعي (٨٨ – ١٥٧هـ): المحدِّث الفقيه، إمام الديار الشَّامية في الفقه والزهد. وُلد بـ"بَعَلْبَكْ" وتوفي بـ"بيروت". رحل في طلب العلم إلى العراق والحجاز، وسمع جماعات من التابعين. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٧٨.

[٢] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج١، ٥٠٠.

[٣] هو مكحول بن أبي مسلم شهراب بن شاذل، أبو عبد الله الشامي (ت١١٢هـ): من حفاظ الحديث، وفقهاء الشام، أصله من فارس، وُلد في كابُل. رحل في طلب الحديث وطاف كثيراً من البلدان، واستقرَّ في دمشق وتوفي بها. لم يكن في زمانه أبصرَ منه بالفتيا. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٠٧، ١٠٨.

[٤] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج١، ٥٠٢.

[٥] انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج١، ص٦٦٦، و٧٨٤.

[٦] هو محمد بن يوسف بن واقد الضَّبي – بالولاء – أبو عبد الله الفِرْيابي (١٢٠ – ٢١٢هـ): من حفاظ الحديث، أخذ عن سفيان الثوري، وروى عنه الإمام البخاري، توفي بقيسارية في فلسطين. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٣٧٦.

[٧] هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري التميمي، أبو عبد الله (٩٧ – ١٦١هـ): شيخُ الإسلام، وإمامُ الحفَّاظ، وأمير المؤمنين في الحديث. وُلد بالكوفة وتوفي بالبصرة. وكان آيةً في الحفظ. له من الكتب: "الجامع الكبير"، و"الجامع الصغير" كلاهما في الحديث، وكتاب في "الفرائض". انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٢٠٣، ٢٠٧.

[٨] "النَّبَط: جمعُه: "الأنباط"، وهم المشتغلون بالزراعة، وقيل: هم أخلاط الناس من غير العرب. انظر: "المعجم الوسيط"، ص٨٩٨، مادة: نبط.

[٩] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج١، ٥٠٢، وانظر: الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج١، ص٢٠٧، برقم١٢٠٦.

ويعني هذا: أنَّ العلم الشرعي – ومنه حديثُ رسول الله ﷺ – إذا صار إلى أناسٍ ليس لهم كَرَمُ أصلٍ ولا نُبلُ طبعٍ؛ فربما لا يقدِّرون شرف هذا العلم، فيُذِلُّونه بذلّة نفوسهم، ويتقرَّبون به إلى أهل الدنيا بالتحريف والتأويل على الوجه الذي يناسبهم.

(ب) من أقوال قدامى العلماء:

وسَيْراً على نهج الصحابة والتابعين – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين – في الإنكار على أهل الكذب والباطل؛ لم يقف علماؤنا الربانيون مكتوفِي الأيدي أمام هذا السَّيْل الجرَّار؛ بل قام كلُّ واحدٍ منهم بفريضة الرَّدِّ والإنكار حسب وُسْعِه وطاقته، ومن جميل ما نطق به علماء الإسلام وأئمته الكرام في "التَّعالُم" ما يلي:

١) قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: "فالواجبُ على العالمين أن لا يقولوا إلا من حيث علموا، وقد تكلَّم في العلم مَن لو أمسك عن بعض ما تكلّم فيه منه لكان الإمساكُ أَوْلَى به، وأقرَبَ من السلامة له إن شاء الله"[١].

١) وقال الحافظ عثمان بن خُرَّزاذ[٢] رحمه الله: "يحتاج صاحبُ الحديث إلى خمسةٍ، فإنْ عُدمت واحدةٌ فهي نقصٌ، يحتاج إلى: عقل جيد، ودين، وضبط، وحذاقة بالصناعة، مع أمانة تُعرَف منه"[٣].

وهذا حالُ مَن شرَّفه اللهُ بالعلم، ومهما نقصت فهي نقصانٌ لكماله، فكيف إذا عُدِمَ جلُّها، بل كلُّها، وهذا حالُ "الْمُتعالِم" المتشبِّع بما لم يُعط، فلا عقلَ جَيّدٌ، ولا ضميرَ حَيٌّ، ولا دينَ ولا أمانةَ، ولا ضبطَ ولا حِذْقَ بالصناعة، لكنه استغفالٌ بل استحمارٌ لعقول العوام لإضلالهم وإفسادهم، ومثلُ هذا إذا وَلَج في قنوات العلوم والمعارف؛ فأضحى يدرِّس ويعلِّم، والأدهى من ذلك والأَمَرّ، صار يؤلِّف ويحقِّق؛ فلا نَملِك إلا أن نقول له:

فدَعْ عنك الكتابةَ لستَ منها   ولو سَوَّدْتَ وَجْهَك بالْمِداد

[١] محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، ص٤١.

[٢] هو عثمان بن عبد الله بن محمد بن خُرَّزاذ البصري ثم الأنطاكي أبو عمرو (ت٢٨١هـ): الحافظ الحجة محدِّث أنطاكية. توفي بأنطاكية. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٢، ص٦٢٣، ٦٢٤.

[٣] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص٣٨٠.

٢) وقال الإمام ابن حزم[١] رحمه الله تعالى: "لا آفة على العلوم وأهلها أضرَّ من الدخلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنهم يَجهلُون، ويظنّون أنهم يعلمون، ويُفسدون ويقدِّرون أنهم يُصلِحون"[٢].

٣) وقال الإمام النَّوَوي[٣] رحمه الله: "وليَحذَر كُلَّ الحذرِ أن يشرع في تصنيف ما لم يتأهَّل له، فإنَّ ذلك يَضُرُّه في دينه، وعلمه، وعِرضه"[٤].

٤) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٥] رحمه الله تعالى: "ولا يَحِلّ لأحدٍ أن يتكلَّم في الدين بلا علمٍ، ولا يُعيَّن مَن تكلَّم في الدين بلا علمٍ، أو أَدخَل في الدين ما ليس منه"[٦].

وقال كذلك: "فمن تكلَّم بجهلٍ وبما يخالف الأئمةَ، فإنه يُنهَى عن ذلك، ويُؤدَّب على الإصرار، كما يُفعَل بأمثاله من الْجُهَّال، ولا يُقتَدى في خلاف الشريعة بأحدٍ من أئمة الضَّلالة، وإن كان مشهوراً عنه العلم، كما قال بعض السَّلَف: لا تنظر إلى عمل الفقيه، ولكن سَلْه يَصدُقك"[٧].

٥) وقال الإمام ابن جَمَاعة[٨] رحمه الله: "أمَّا مَن لا يتأهَّل لذلك – أي للتأليف والتصنيف – فالإنكارُ عليه مُتَّجِهٌ، لِما يتضمَّنه من الجهل وتغرير مَن يقف على ذلك التصنيف به، ولكونه يضيع زمانه فيما لم يُتقِنه، ويدع الإتقانَ الذي هو أحرى به منه"[٩].

---

[١] هو أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْم الظَّاهري (٣٨٤ – ٤٥٦هـ): عالِمُ الأندلس في عصره، وأحدُ أئمة الإسلام. وُلد في "قُرْطُبة" وتوفي في بادية "لَبْلَة" من بلاد الأندلس. ومن مؤلَّفاته: "المحلَّى"، و"الإحكام لأصول الأحكام"، و"الفصل في الْمِلَل والنِّحل". انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٣، ص١١٤٦، ١١٥٤.

[٢] ابن حزم، كتاب الأخلاق والسير ومداواة النفوس، ص٦٧.

[٣] هو يحيى بن شرف بن مرِّي النووي، محيي الدين، أبو زكريا الدمشقي (٦٣١ – ٦٧٦هـ): أحد أشهر فقهاء السنة ومحدّثيهم. وُلد في قرية "نوى" في حوران بسوريا وتوفي بها. ومن أشهرمؤلَّفاته في الحديث: "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج"، و"رياض الصالحين"، و"إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة الحق من هدي خير الخلائق" وغيرها. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٤٧٠-١٤٧٤.

[٤] النووي، المجموع شرح المهذب، ج١، ص٥٦.

[٥] هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السَّلام بن تيمية الحرَّاني، أبو العبَّاس، تقيّ الدين، الشهير بـ"ابن تيمية" (٦٦١ – ٧٢٨هـ): الإمام المحدِّث، المجتهد المطلَق، الملقَّب بـ"شيخ الإسلام". وُلد في "حَرَّان" وتوفي بـ"دمشق". طلب العلمَ على أيدي علماء دمشق منذ صغره، وعُني بالحديث عنايةً خاصة. وله مؤلَّفات كثيرة. انظر: الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص٩٤، ١٠٢.

[٦] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٢٢، ص٢٤٠.

[٧] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٢٢، ص٢٢٧.

[٨] هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جَمَاعة الكِناني الْحَمَوي الشافعي، بدر الدين، أبو عبد الله (٦٣٩ – ٧٣٣هـ): قاض، ومن علماء الحديث. وُلد في حماة وتوفي بمصر. وَلِي الحكم والخطابة بالقدس، ثم القضاء بمصر والشام. من مؤلفاته: "المنهل الروي في الحديث النبوي"، و"تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالِم والمتعلِّم". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٢٩٧.

[٩] ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ص٥٥.

(جـ) ومن أقوال العلماء المعاصرين:

وبالنسبة لعلمائنا المعاصرين من أهل العلم والدين فلهم في علاج هذه الظاهرة القِدْحُ الْمُعَلَّى والموقفُ المشرَّفُ الْمُجَلَّى، فلا زالتْ أقلامهم تكتب السطورَ تلو السطور، وتملأ الأوراقَ تتبع الأوراقَ في محاربة هذه الظاهرة السيئة، المسيئة لدين الإسلام وتراث المسلمين، ولا زالتْ كتاباتُهم وتأليفاتُهم تتوارد بين يدي أهل العلم مُثلِجَةً صدورهم مُقِرَّةً أعينهم، فلا خابَتْ جهودهم ولا ضاعَتْ مساعيهم، بل كُلِّلَتْ بعظيم النتائج وباهرِ الثِّمار، ومما جاء عنهم في إنكار هذه الظاهرة، من أقوالٍ بديعةٍ بليغةٍ ورد فيها لفظُ "التَّعالُم" صراحةً، هي:

١) قال المفكِّر الإسلامي **الأستاذ مالك بن نبي**[١]: "والحقيقةُ أننا قبل خمسين عاماً كنا نعرف مرضاً واحداً يُمكِن علاجه، هو الجهلُ والأُمِّية، ولكننا اليوم أصبحنا نرى مرضاً جديداً مستعصياً هو: التَّعالُم، وإنْ شئت فقل: الحِرفية في التعلُّم، والصعوبةُ كلّ الصعوبةِ في مداواته"[٢].

٢) وقال العلامة الجليل **الشيخ عبد الفتّاح أبو غُدَّة**[٣]: "وكثيرٌ من الْمُتعالِمين في هذا الزمان يتساهل في النقل عن الكتب، دون عَزْوٍ، مُوهِماً القارئَ أنَّ ما يُورِده هو من بنات أفكاره، وسَهْرِ أسحاره، ومنهم مَن بلغتْ به الجرأةُ أن ينتحل الكتبَ والمواضيعَ بزعم أنَّ العلم مُشَاعٌ، فخالَفَ بذلك أمانةَ العلم والدين، إذ الكتابُ حقٌّ لمؤلِّفه لا ينبغي أن يعتدي عليه أحدٌ"[٤].

---

[١] هو مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (١٣٢٣ - ١٣٩٣هـ): أحد طليعة المفكِّرين والكُتَّاب الإسلاميين. وُلد في مدينة "تبسة" في أقصى شرق الجزائر. درس بفرنسا في معهد الدراسات الشرقية. عمل مديراً عاماً للتعليم العالي في الجزائر. من مؤلفاته: "الظاهرة القرآنية"، و"شروط النهضة وجهة العالم الإسلامي". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٢٦٦.

[٢] مالك بن نبي، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، شروط النهضة، ط٤، دمشق: دار الفكر، ص١٩٠.

[٣] هو عبد الفتاح أبو غُدَّة بن محمد بن بشير الحلبي (١٣٣٦-١٤١٥هـ): أحد أشهر علماء العالم الإسلامي، وأكابر علماء الحديث في هذا العصر. وُلد في مدينة "حلب" بسورية، وتوفي في الرياض بالسعودية. تخرَّج في كلية الشريعة بجامعة الأزهر بمصر. عمل أستاذاً في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وفي جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض. وله مؤلَّفات بديعة وتحقيقات رائعة لكتب الحديث وغيره. انظر لترجمته: نزار أباظة، إتمام الأعلام، ص١٦١، ١٦٢.

[٤] عبد الفتاح أبو غدة، قيمة الزمن عند العلماء، ص١٧، ١٨.

٣) وقال العالِم النَّبيه **الشيخ محمد عَوَّامة**[١]: "إنَّ جُلَّ المشتغلين الآن في البحث والتأليف والتحقيق هم من غير الدارسين للعلم، المتلقِّين له في المدارس والمعاهد الشرعية؛ بل هم من المتطفِّلين على موائده، الْمُتعالِمين على أهله، وزيادةً على ذلك فإنَّ وسائل الإعلام المرئيّة والمسموعة صارتْ لهم أبواقاً تَرفَع أصواتَهم أمام أهل العلم الصّامِتين، إلاَّ عن قولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون، وحَسْبُنا الله ونِعْم الوكيل، ويا ليت قومي يعلمون!!"[٢].

٤) وقال العالِم النبيل **الشيخ صالح بن فوزان الفوزان**[٣]: "الواجبُ على شباب الأمةِ: الحذرُ من هؤلاء الْمُتعالِمين، والحرصُ على تلقِّي العلمِ عن العلماء العاملين، والرجوعُ إليهم في حلِّ مشكلاتهم؛ فإنّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء، وقد ميَّزهم اللهُ تعالى عن غيرهم بالعلم، فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]. كما أنه يجب ألا يُمكَّن من التدريس والإفتاء إلا مَن عُرِفَ بالعلم، وعُرِفَ مِن أين تلقَّى العلمَ"[٤].

٥) ويقول الشيخ الفاضل **الدكتور حسام الدين عفانه**[٥]: "وآفةُ التَّعالُم قديمةٌ جديدةٌ، فالْمُتعالِمون موجودون في كلّ عصرٍ وأوانٍ، وقد ابتليت الأمةُ بالْمُتعالِمين، الذين يظهرون في لباس العلماء، وحقيقتُهم جهلٌ فاضحٌ، بل جهلٌ مُرَكَّبٌ، فهم جاهلون ويجهلون أنهم جاهلون. وهؤلاء الْمُتعالِمون ذوي ألسنةٍ حِدَادٍ يسلِّطونها على أهل العلم، المتقدّمين منهم والمتأخّرين، فيسفِّهون أقوالَهم ويَلمِزونهم، وينتقصونهم، ويَلصِقون كلَّ مَذَمَّةٍ بهم.

---

[١] هو محمد عوامة (من مواليد عام ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م): العلامة المحدِّث، المؤلِّف والمحقِّق. وُلد في حلب في سورية. لازم أيامَ طلبه للعلم الشيخَ عبد الفتاح أبو غُدَّه وتتلمذ عليه. التحق بكلية الشريعة بجامعة دمشق وتخرَّج فيها بشهادة الليسانس. هاجر إلى السعودية حيث لم يزل مقيماً فيها. وله العديد من المؤلَّفات والتحقيقات لكتب الحديث. انظر ترجمته في موقع "الإثنينية".

[٢] محمد عوامة، مَعالِم إرشادية لصناعة طالب العلم، ص٢٦.

[٣] سبقت ترجمته في المطلب الأول من المبحث الأول في هامش المطلب الأول من المبحث الثاني للفصل الثاني.

[٤] صالح بن فوزان الفوزان، التعالُم وآثاره الخطيرة على الأمة، انظره على موقع "شبكة سحاب السلفية".

[٥] هو حسام الدين بن موسى محمد بن عفانه (من مواليد ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م): أحد أبرز علماء فلسطين المعاصرين. وُلد في قرية" أبو ديس" (قضاء القدس). تخرَّج في كلية الشريعة من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة. ثم حصل الماجستير فالدكتوراه في الفقه وأصوله من جامعة أم القرى بمكة المكرمة. وعمل في سلك التدريس في كلية التربية في جامعة الملك سعود بالرياض، ثم في جامعات فلسطين. وله مؤلَّفات. انظر ترجمته بقلم الأستاذ حذيفة السلفي، في موقع "ملتقى أهل الحديث".

وفي زماننا هذا كَثُر الْمُتعالِمون، خاصةً مع انتشار الإنترنت ووسائل الاتِّصال الأخرى، فتَرَى كتاباتِ الْمتعالِمين وأقوالَهم تَغُصّ بها مواقع كثيرة على الشبكة العنكبوتية، وآفة هؤلاء الْمُتعالِمين أنهم لم يتعلَّموا قبل أن يَتصدَّروا، فهم قد تَزبَّبوا قبل أن يَتَحَصْرَمُوا[1]. وأنَّى لإنسانٍ أن يصير عالِماً قبل أن يتعلَّم، بل قبل أن يتعب في طلب العلم على العلماء، فمن لم يحن ركبتَيْه في مجالس العلماء؛ لا يجوز أن تُحنى عنده الركب، ومن لم يحصل العلمَ كيف له أن يُعلِّم غيرَه؟، ففاقِدُ الشيء لا يُعطيه"[2].

٦) وقال العالِم الضليع **الدكتور الشريف حاتم بن عارف العَوْني**[3]: ولقد سبرتُ بعضَ أحوال المتعلِّمين؛ فوجدتُ أكثرَهم علماً وإنصافاً وتواضُعاً، وأدقَّهم نظراً وفهماً، وأحسنَهم تأليفاً وإبداعاً: هم أصحاب التخصُّصات. في حينٍ وجدتُ أقلَّهم علماً وإنصافاً، وأكثرَهم كِبْراً وتَعالِياً وتَعالُماً، وأبعدَهم عن الفهم والتدقيق وعن الإبداع والإحسان في التأليف: المتفنِّنين أصحاب العلوم – أو سَمِّهم بالمثقَّفين – إلاَّ مَن رَحِمَ ربُّك.

ومِن فضل صاحب التخصُّص الفضل الظاهر، الذي يُقِرّبي عليه الْمُنْصِفُ: أنَّ صاحب التخصُّص لا يثرِّب على المتفنِّن، بل يراه أكثرَ أهليةً منه في أمور كإلقاء المحاضرات والدعوة ومواجهةِ العامة، ويَعتبِره بذلك على ثغرةٍ من ثغرات الإسلام، ويرى أنَّ الأمة في حاجة إلى أمثاله.

وأمَّا أصحاب الفنون، فعلى الضِّدّ من ذلك، فهم أكثَرُ الناسِ تثريباً وعيباً على المتخصِّصين، ولا يرون لهم فضلاً عليهم ولا في العلم الذي تخصَّصوا فيه، ويُنازِعونهم مُسائَلةً وهم بها جهلاء، ويشنِّعون عليهم لعدم معرفتهم ببعض ما لم يتخصصوا فيه.

ولك بعد هذا أنْ تَحكُم: أيُّ الفريقَيْن أدخَلُ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢].

---

[1] أي صاروا "زبيباً" قبل أن يصيروا حصرماً.

[2] حسام الدين عفانة، التعالم وقول النبي ﷺ: «المتشبِّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»، انظره في موقع "شبكة المرقاة".

[3] هو الشريف حاتم بن عارف بن ناصر، من آل عون، العبادلة الأشراف الحسنيين (من مواليد عام ١٣٨٥هـ): أحد علماء الحديث البارزين. وُلد في مدينة الطائف ونشأ فيها. تخرَّج في كلية أصول الدين قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى، ثم حصل منها على شهادة الماجستير فالدكتوراه في الحديث النبوي. ثم انخرط في سلك التدريس في نفس الجامعة. وله إنتاج علمي مميز في علوم الحديث. انظر لترجمته: موقع "ملتقى أهل الحديث" سيرة الشيخ حاتم بن عارف العوني.

ولله ما يُلاقِيه أصحابُ التخصصات من إخوانهم المتفننين!! من عدم فهم الأخيرين لتخصُّصاتِهم، مع كلامهم فيها ومنازعتهم أهلها، بل قد يصل الأمرُ إلى استغلال أصحاب الفنون علاقتهم بالعامة والغوغاء، وانبهارِ هؤلاء بهم؛ فيتطاولون على أصحاب التخصُّصات وعلى علومهم، بما لا يُؤلِم العالِم شيءٌ مثله، وهو الكلام بجهل، وتشويه العلوم"[1].

٧) وقال العالِم الفاضل **الشيخ محمد خلف سلامة**: "والتَّعالُم آفةٌ، شديدٌ خطرُها، عظيمٌ فَتْكُها، إنها إحدى كبار المصيبات التي صُبَّتْ على هذه الأمةِ، ودام بقاؤها في تَزايُدٍ، وإحدى الفِتَن التي يَصعُب تقليلُ شرِّها وضَرَرِها على الأمة على رغم ما يبذله من أجل ذلك كلُّ عاملٍ من العلماء وكلُّ حكيمٍ من الدعاة، وكلُّ مصلحٍ مجاهدٍ"[2].

وهذه بعض أقوالِهم الباهرة العجيبة التي تناولتْ هذه القضيةَ معنًى ودلالةً دون التصريحِ بلفظ "التَّعالُم":

٨) قال المؤرِّخ المفكِّر الأديب **الأمير شكيب الأرسلان**[3]: "ومِن أعظم أسباب تأخُّر المسلمين: العلمُ الناقصُ، والذي هو أشَدُّ جهلاً من الخطر البسيط؛ لأن الجاهل إذا قيَّض اللهُ له مُرشِداً عالِماً أطاعه، ولم يتفلسف عليه. فأمَّا صاحبُ العلم الناقص فهو لا يدري، ولا يقتنع بأنه لا يدري، وكما قيل (ابتلاؤكم بمجنونٍ خيرٌ من ابتلائكم بنصف مجنون)، وأقول: ابتلاؤكم بجاهل خيرٌ من ابتلائكم بشبه عالِمٍ"[4].

٩) وقال العلامة الداعية **الشيخ محمد الخضر حسين**[5]: "فإنَّ فلاح الأمةِ في صلاح أعمالِها، وصلاحَ أعمالِها في صِحَّة علومها، وصِحَّة علومها في أن يكون رجالُها أمناءً

---

[1] الشريف حاتم بن عارف العوني، نصائح منهجية لطالب علم السنة النبوية، ص٣٢، ٣٣.

[2] محمد خلف سلامة، لسان المحدِّثين، وهو كتاب إلكتروني، انظره في موقع "صيد الفوائد".

[3] هو شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان (١٢٨٦ - ١٣٦٦هـ): من أكابر الكُتّاب والأدباء، يُنعَت بـ"أمير البيان"، من سلالة التنوخيين من ملوك الحيرة. وُلد بلبنان وتوفي فيها. أقام مدةً طويلةً في جنيف. وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. ومن أشهر مؤلفاته: "لماذا تأخَّر المسلمون؟"، وتعليقاته على "حاضر العالَم الإسلامي" للمؤلِّف الأمريكي لوثروب ستودارد. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٣، ص١٧٣، ١٧٤.

[4] لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدَّم غيرهم؟: لشكيب أرسلان، ص٧٥.

[5] هو محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر الحسني التونسي: (١٢٩٣ - ١٣٧٧هـ): العالم المصلح المجدِّد، ومن العلماء القلائل الذين جمعوا بين الأصالة والمعاصرة. وُلد بمدينة "نفطة"، وتخرَّج في جامع الزيتونة. ثم رحل إلى مصر والتحق بجامعة الأزهر ونال شهادة العالمية، ثم اختير شيخاً لها في عام ١٣٧١هـ. توفي بالقاهرة. من مؤلفاته: "رسائل الإصلاح"، و"آداب الحرب في الإسلام"، و"خواطر الحياة". (انظر: محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، ج١، ص٥١، ٦٦).

فيما يروون أو يصفون. فمن تحدَّث في العلم بغير أمانةٍ؛ فقد مَسَّ العلمَ بقُرْحَة، ووَضَع في سبيل فلاح الأمة حجرَ عثرةٍ"[١].

١٠) وقال العلامة الأديب **الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد**[٢]: "فحرامٌ والله ثم حرامٌ، على من لا يهتدي لدلالة آي القرآن، ولا يدري السُّنَنَ والآثارَ أن يتسنَّم جنابَ العلم، ويَحِلَّ في حرمه، مِعْوَل هدمٍ لحماه، وخرقٍ لسياجه وحُرمته، وهذا المعثَّر المخذول، عِلْمُه وبالٌ، وسَعْيُه ضلالٌ، نعوذ بالله من الشقاء"[٣].

١١) وقال المحدِّث الفقيه **الدكتور نور الدين عِتْر**[٤] في مقدمة تحقيقه لكتاب "الرحلة في طلب الحديث" للحافظ الخطيب البغدادي، وهو يتحدَّث عن أهداف الرحلة عند المحدِّثين أنَّ منها: طلب العلوّ في السند، والبحث عن أحوال الرواة. ثم قال حفظه الله: "ولو أنَّ الناس وطَلَبة العلم عُنوا في هذا العصر بهذين المقصدَين في حقّ المؤلفات الحديثة، ورجعوا إلى المؤلِّف مصدر الفكرة المنشورة، يبحثون حاله كما كان السلف يفعلون؛ لوجدوا أنّ كثيراً من أصحاب الكتب لا يستحقّ القراءة له، ولاكتفوا بذلك شرّاً كثيراً، لكنه القعود والإخلاد إلى الراحة جَعَل للمطبعة ولدعاية الناشرين التجارية قُوّةً لم تكن تُكتسَب من قبل بالشهوة المفتعلة، أو الألقاب المصطنعة، حيث كانت الرحلة لِلُقْيِ الرجال تَكشِف خباياهم"[٥].

ثم قال – حفظه الله تعالى – تعقيباً على كلامه في الهامش: "لذلك نرى أن يحتاط المسلمُ وطالبُ العلم لدينه من كتابٍ لم يتوثَّق من ورع مؤلِّفه ورُسوخه العلمي، وأن يحرص على التلقِّي المباشر من العلماء الذين عُرِفَ من ورعِهم وعلمِهم ما يجعلهم أهلاً للقدوة، فإنَّ الأمر خطيرٌ، جِدُّ خطيرٌ"[٦].

---

[١] محمد خضر الحسين، رسائل الإصلاح، ج١، ص١٣.

[٢] هو بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله القضاعي: (١٣٦٥ – ١٤٢٩هـ): العلامة الفقيه، العالم النبيه، الأديب الأريب. تخرَّج في كلية الشريعة بالرياض، ثم نال شهادةَ الماجستير ثم الدكتوراة من المعهد العالي للقضاء بالرياض. عمل أميناً للمكتبة العامة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ومدرِّساً في المسجد النبوي الشريف، ثم إماماً وخطيباً فيه، ثم ممثلاً للمملكة العربية السعودية في مجمع الفقه الإسلامي الدولي، ثم رئيساً له. توفي بمدينة الرياض. ومن مؤلَّفاته: "حلية طالب العلم"، و"التعالم وأثره على الفكر والكتاب". (انظر لترجمته: "موقع الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد").

[٣] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٣٣.

[٤] سبقت ترجمته في هامش المطلب السابع في المبحث الأول للفصل الأول.

[٥] نور الدين عتر، في حاشية مقدمة تحقيقه لكتاب "الرحلة في طلب الحديث" للخطيب البغدادي، ص٢٢.

[٦] انظر: نور الدين عتر، في حاشية مقدمة تحقيقه لكتاب "الرحلة في طلب الحديث" للخطيب البغدادي، ص٢٢.

١٢) وقال العلامة الجليل **الشيخ طه السَّاكِت**[1] رحمه الله تعالى: "وها نحن أولاء نرى جُهّالاً في ثياب العلماء يتصدّرون للفتوى والقول على الله بغير علمٍ، ولا يَعدَمون من أتباع كلِّ ناعِقٍ، من يصدِّقهم ويُدافِع عنهم، وهو يجهل الضروري مما افترض الله عليه، وإذا كان هذا وفي الأمة الإسلامية بَقِيّةٌ من أُولي العلم والفضل، فما بالك إذا اضمحلَّت هذه البقيةُ إلى مِعشارها أو أقلّ؟!"[2].

وما أصدَقَ ما تفوَّه به الشاعرُ لله درُّه إذْ قال في وصف "الْمُتعالِم":

وغيرُ تقيٍّ يأمر الناسَ بالتُّقَـــى طبيبٌ يُداوي الناسَ وهو عليلُ!

وبهذا أكون قد وصلتُ إلى خِتام هذا المبحث الذي خصّصتُه لبيان مفهوم "التَّعالُم" وتعريفه لغةً واصطلاحاً، كما تحدّثتُ فيه عما يتعلّق بوُروده في آي القرآن العظيم، وفي حديث الرسول الكريم عليه أفضَلُ الصَّلاة وأتَمُّ التسليم، كذا ما جاء عن ذكره وبيانِه لدى الأئمة والعلماء الربانيين في قديم الزَّمان وحاضرِه الأليم.

****

[1] هو طه بن محمد بن محمد الساكت (١٣٢١ - ١٤٠٢هـ): أحد كبار أساتذة جامعة الأزهر وعلمائها. وُلد في بلدة "ميت عفيف" التابعة لمديرية المنوفية. تخرَّج في جامعة الأزهر متخصّصاً في التفسير والحديث. ثم عمل أستاذاً فيها ثم في جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض،. وله مقالات منشورة في مجلة "الأزهر"، جمعها الأستاذ مجد المكي في كتاب سَمّاه: "من ذخائر السنة النبوية". (انظر لترجمته الكتاب المذكور، ج١، ص٨، ٢٠).

[2] طه بن محمد الساكت، من ذخائر السنة النبوية، ج١، ص٢٤٨.

المبحث الثاني:

مظاهر "التَّعالُم"

إنَّ أبرز المجالات التي ظهر فيها "التَّعالُمُ" وأضحى داءاً مستشرياً فيها – بل عكَّر صفوَها، وكدَّر صفاءَها، وأفسد نقاوتَها، وأذهب حلاوتَها – هي: مجالات العلم وقنوات المعرفة، وهي أرفع المجالات وأسماها، وأقوى القنوات وأرقاها في بِقاع الإسلام لدى المسلمين، وهي القنواتُ المتعلقة بالتدريس والتعليم، والتأليف والتحقيق، والقضاء والإفتاء، وها هو بيانُ كيفية ظهور "التَّعالُم" في هذه القنوات الهامَّة جداً، وسريانُه فيها سريان النار في الهشيم، وما جاء في ذلك من أحاديث نبوية وآثار سَنيّة. وسوف أقوم – بإذن الله تعالى – بتوضيح ذلك كلَّه في ثلاثة مطالب، أولها يختصّ بـ"التَّعالُم" فيما يتعلَّق بمجال التدريس والوعظ والإرشاد، وثانيها يختصّ بـ"التَّعالُم" فيما يتعلَّق بمجال النشر والتأليف والتحقيق، بينما الأخير فيختصّ بـ"التَّعالُم" فيما يتعلَّق بمجال القضاء والإفتاء.

المطلب الأول: "التَّعالُم" فيما يتعلَّق بمجال التدريس والوعظ والإرشاد:

ليس كلّ من تصدَّى لتدريس شريعة الله، وعلوم النُّبُوَّة – في الحقيقة – أهلاً لهذه المرتبة العظمى والمنْزلة العُلى، سواء من ناحية التأهُّلِ العلمي والتفوُّق الذاتي، أو من ناحية التحلِّي بالأمانة والتُّقَى، وخشيةِ المولى جلَّ وعلا، وتطبيقِ شرع الله على نفسه أولاً ثم مناصحةِ أهله وذويه ثانياً.

فنجد المدرِّسَ الْمُتعالِم مُزْجَى البضاعة في العلم، مُفْلِسَ الفهم والحفظ، حتى فيما يتعلَّق بتخصُّصه وما يقوم بتدريسه – خزينته أصفار، وخِزانته بلا أسفار[1] – ثم يدَّعي دعاوى عريضةً، ويتطاول في العلم وعلى أهل العلم، وكم منهم من يتعلَّق بعلوم القرآن والسُّنَّة وهو متمسِّكٌ بنواقض علوم القرآن والسُّنَّة، سواء في الهيئة والْحِلْيَة، أو في الأخلاق والسلوك، أو في العبادة والعمل، وخيرُ ما يمكن أن نصف به أمثالَ هؤلاء بقول القائل لله درّه:

وَصَفْتَ التُّقَى حتى كأنَّكَ ذو تُقَى   وريْحُ الخطايا من ثيابِك تَسْطَعُ[2]

---

[1] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٨٠.

[2] وهو منسوب إلى إسماعيل بن القاسم بن سُوَيد العيني، المعروف بأبي العَتَاهِية (١٣٠ – ٢١١هـ)، أحد الشعراء الْمُكثِرين سريع الخاطر، شعرُه في الحكمة والعظة. وُلد في "عين التمر" بقرب الكوفة وتوفي في بغداد. انظر: الزركلي، الأعلام، ج١، ص٣٢١. لكني لم أجد هذا البيتَ في ديوانه.

وإنَّ هذه – والله – لفتنة عظيمة، وبلية جسيمة، نبَّأنا بها رسولُ الله ﷺ، ومما جاء فيها من أحاديث ما يلي:

١) عن أبي أُمَيَّة الْجُمَحي رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ثَلاثًا: إِحْدَاهُنَّ: أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الأَصَاغِرِ**...»[١].

وقد سُئل الإمام عبد الله بن المبارك[٢] عن الأصاغر؟ فقال: "الذين يقولون برأيهم، فأما صغيرٌ يروي عنه كبيرٌ؛ فليس بصغير".

وقال في ذلك أيضاً: "أتاهم العلمُ من قِبَل أصاغرهم؛ يعني: أهل البِدَع"[٣].

وأُثِرَ عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنه قال: "إنَّ الناسَ لم يَزالُوا بخيرٍ، ما أتاهم العلمُ عن أكابرهم"[٤].

وقال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: "لا يَزالُ الناسُ بخيرٍ ما أَخَذُوا العلمَ عن أكابرهم، فإذا أَخَذُوا عن أصاغِرهم وشِرَارِهم؛ هَلَكُوا"[٥].

وعنه أيضاً قال: "لا يزالُ الناسُ بخيرٍ ما أتاهم العلمُ من أصحاب محمد ﷺ ومن أكابرهم، فإذا أتاهم العلمُ من قِبَل أصاغرهم، وتفرَّقت أهواؤهم؛ هلكوا"[٦].

وهذا من تمام الفتنة، وكُبريات الدَّواهي التي شاعتْ في الأمة وتفشَّتْ حتى أضحتْ داءاً عُضَالاً! لقد ارتفع الوُضَعاء، وعلا ذِكر الصِّغار، وذُلِّلَتْ لهم الأكناف، ووُطِّئَتْ السُّبُل، ودُفِع بهم إلى الصفوف الأمامية، فتصدَّروا المجالس، وتَبَّوؤا المناصب، ولانَتْ لهم المنابر، وأُلْقِيَتْ لهم الأسماء، وتحدَّثوا باسم العامَّة!

وأُهِيْلَ التُّراب على الكبار، وأُسدِل السِّتار على تاريخهم وكفاءاتهم، وأُخِّروا إلى الصفوف الخلفية، فشاخَتْ منْزلتهم، وضَعُف صوتهم، وخَمَل ذكرهم، في زمن الرُّوَيْبِضَة واللُّكَعات[٧].

---

[١] سبق تخريجه في هذا الفصل في هامش المطلب الرابع للمبحث الأول المعنون بـ"مفهوم التعالم".

[٢] هو عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي، أبو عبد الرحمن: (١١٨ – ١٨١هـ): الإمام الحافظ المجاهد، شيخ الإسلام، صاحب التصانيف والرحلات. أفنى عمرَه في الأسفار حاجّاً ومجاهداً وتاجراً، وجمع الحديثَ والفقه. كان من سكان خراسان. توفي وهو ينصرف من عزو الروم. ومن كتبه: "الجهاد"، و"الرقائق". (انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٢٧٤، ٢٧٥).

[٣] عبد الله بن المبارك، كتاب الزهد، انظر حاشية صفحة٣١.

[٤] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٤٩٨.

[٥] المرجع السابق، ج١، ص٤٩٨.

[٦] عبد الله المبارك، كتاب الزهد، ص٢٨١، برقم (٨١٥).

[٧] عبد الستار الشيخ، نبوءات الرسول دروس وعبر، ج٤، ص٤٦٤.

٢) وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**سَيَكُوْنُ فِيْ آَخِرِ أُمَّتِيْ أُنَاسٌ يُحَدِّثُوْنَكُمْ مَا لَمْ تَسْمَعُوْا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ**"[١].

ومعنى الحديث: أنه سيكون في آخر الزَّمان أناسٌ من أمة رسول الله ﷺ يزعمون أنهم هم العلماء، يحدِّثون الناس بما لم يسمعوا به هم، ولا آباؤهم من الأحاديث الكاذبة والأحكام المبتدعة والعقائد الزائفة، كما أنهم يقولون ويروون أشياء ليست فيما لم يزل يعرفه المسلمون خلفاً عن سلفٍ، مع أنَّ الله تعالى قد أكمل دينَه، ووعد بحفظه ونشره، ولم يترك سبيلاً إلى ضياع جزءٍ من أجزائه، فأين كانت هذه الغرائبُ في القرون الأُوَل من سلف هذه الأمةِ؟.

ومعنى قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ»، أي احْذَرُوهم، وأَبْعِدوا أنفسكم عنهم، وأَبْعِدوهم عن أنفسكم، ويشتمل هذا كلَّ الذين يرتادون المنابر المتنوّعة، وتصل أصواتُهم عبرها للجماهير، والحقُّ أن هؤلاء كثيرون جداً، ويبلِّغون رسالاتهم عبر منابر المساجد والإذاعات والتِّلفاز والإنترنيت والندوات والمحاضرات، والصُّحُف والمجلاَّت والكتب.

وإذا كان هؤلاء قد اتَّخذوا هذه المنابر للدعوة إلى الأفكار الضالَّة، والمذاهب المنحرفة، فهم الدعاةُ إلى أبواب جهنّم، فينبغي على أهل العلم والحقِّ تبيينُ حالِهم وتوضيحُ أمرِهم للمسلمين تحصيناً لأبنائهم، ووِقايةً لنشئهم وذُرِّيّاتهم، من ضلالات هؤلاء وانحرافاتهم[٢].

وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى أنَّ العلم لا ينبغي إلا أن يُتلقَّى عن ثقةٍ عُرِفَ بالحفظ والضبط، وشُهِرَ بالصِّدْق والأمانة، وهذا عَلَمٌ من أعلام نُبُوَّة النبي ﷺ، ومعجزةٌ من معجزاته، فقد وقع ما تنبَّأ به رسول الله ﷺ، وظهر الكثيرُ من الكذّابين والجَهَلة أدعياء الدين[٣]، سلَّمنا اللهُ والمسلمين أجمعين.

---

[١] أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط في تحملها، ص٩، برقم (١٥).

[٢] عبد الستار الشيخ، نبوءات الرسول دروس وعبر، ج٤، ص٤٥٦، بتصرف واختصار.

[٣] انظر: همام عبد الرحيم سعيد، موسوعة أحاديث الفتن وأشراط الساعة، ص٤٨٤.

٣) وعن عامر بن سعد ﷺ قال: سألتُ جابر بن سَمُرة عن حديث رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَزَالُ الدِّيْنُ قَائِماً حَتَّى يَكُوْنَ اثْنَا عَشَرَ خَلِيْفَةً مِنْ قُرِيْشٍ، ثُمَّ يَخْرُجُ كَذَّابُوْنَ بَيْنَ يَدِى السَّاعَةِ...**»[١].

ومعنى هذا الحديث: أنَّ من أشراط الساعة وعلاماتِها، وقُرْبِ القيامة وأماراتِها؛ حدوثُ الكثيرِ من الفِتَن والبلايا التي تنبَّأ رسول الله ﷺ بظهورها وفُشُوِّها، ومن ذلك ظهورُ الكذَّابين، ومنهم الجَهَلَة الأدعياء الذين يدّعون العلم ويُخْفُون الجهل، ويأتون بالموضوعات من الأحاديث النبوية، وبذلك يَفترُون على رسول الله ﷺ، ويتقوّلونه – عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ – ما لم يَقُلْ، ويقولون على الله ما لا يعلمون، وغير ذلك من الصفات المذمومة الناتجة عن قِلَّة العلم وكثرةِ الجهل، ثم ومع هذا كله يتصدرّون المجالس، ويتربّعون على كراسي التعليم والإرشاد، إضلالاً للأمة وتضليلاً لها.

وقد نبَّه رسول الله ﷺ إلى ظهور هؤلاء تحذيراً لأمته – عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ – من فتنتهم، والوقوعِ في حِبال أكاذيبهم، وشِبَاكِ مكايدهم ومصايدهم[٢].

وفي رواية أخرى عن جابر بن سَمُرة ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ بَيْنَ يَدِي السَّاعَةِ كَذَّابِيْنَ**»، زاد في حديث أبي الأحوص، قال: فقلتُ له: آنتَ سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم[٣].

والمرادُ بظهور الكذب وفُشُوِّه: كثرةَ الجهل وقِلَّةَ العلم. والمراد بهؤلاء الكذّابين: ظهور جماعةٍ من الكذّابين يَدعُون الناسَ إلى أهواء فاسدة، مُسندِين اعتقاداتهم الباطلة إلى رسول الله ﷺ كأهل البِدَع المضلّة، والمذاهب المنحرفة الباطلة[٤].

وجميعُ هذه الأحاديث تدلّ دلالةً ظاهرةً على انتشار الكذب والسَّفَهِ والطَّيْش والحُمْق في المجتمع المسلم رُوَيْداً رُوَيْداً، وبدأ يزداد ظهوره طولاً وعرضاً، حتى استشرى داؤه، وطغى بلاؤه على منابع العلم ومنابر الفضيلة.

---

[١] أخرجه أحمد في المسند، ج٣٤، ص٤٠١، برقم (٢٠٨٠٥)، وقال محقّقه الشيخ شعيب الأرناؤط: "حديث صحيح".

[٢] للمزيد انظر: محمد تقي العثماني، تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم، ج٥، ١٧٤.

[٣] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل...، ص١٢٦٤، برقم (٢٩٣٢).

[٤] انظر: محمد تقي العثماني، تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم، ج٥، ١٧٤.

وهذا مِن أسوأ مظاهر السَّفَهِ وأخطرِها، حيث تُقتَل الكفاياتُ وتَزوِي المواهبُ، وتَضِيع الجهودُ، وتُصبح الكلمةُ للقادرين على التزلُّف، والساعين وراء مآربهم، وبذلك يتصدَّر المجالسَ أصحابُ الحناجر والمباخر، ويعلو السَّفَلَةُ والإمّعات[1].

٤) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كَيْفَ بِكُمْ وَبِزَمَانٍ – أو يُوْشِكُ أنْ يَأْتِيَ زَمَانٌ – يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيْهِ غَرْبَلَةً؛ تَبْقَى حُثَالَةٌ[2] مِنَ النَّاسِ؛ قَدْ مَرِجَتْ عُهُوْدُهُمْ، وَأَمَانَاتُهُمْ، وَاخْتَلَفُوْا فَكَانُوْا هَكَذَا**» وشبَّك بين أصابعه –[3].

ومعنى الحديث: قوله ﷺ: «يُغَرْبَل النَّاس» أي: أن يذهب خِيارهم، ويبقى شِرارهم وأراذلهم، كأنه نُقِّيَ بالغِرْبال، ويبقى بمقابلهم حُثالَةُ الناس وهم أسافلهم وأصاغرهم ممن اختلطتْ وفَسُدَتْ عهودهم وأماناتهم، فلا يكون أمرُهم سويّاً مستقيماً، بل هم في كل حينٍ على طبعٍ متنوِّعٍ، وعلى عهدٍ مختلفٍ متناقضٍ، يَنقُضون العهود ويَخُونون الأمانات، ومن صفاتهم كذلك أنهم يَمُوجون بعضهم ببعض فلا يُفرَّق فيهم بين الأمين من الخائن، والبَرِّ من الفاجر[4].

وذهابُ الصالحين يكون عند كثرة المعاصي، وتركِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر؛ فإنَّ الصالحين إذا رأوا المنكَر ولم يغيِّروه، وكثُر الفساد؛ عَمَّهم العذابُ مع غيرهم إذا نزل[5]؛ كما جاء في الحديث لَمّا قيل للنبي ﷺ: أَنَهلِك وفينا الصَّالِحون؟ قال: «نَعَمْ! إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»[6].

وذهابُ العلماء والأخيار والصالحين، وقِلَّتُهم، وكثرةُ الفَسَقَة الفُجّار، والكَذَبَة الأشرار، حتى لا يبقى على وجه الأرض إلا شرارُ الناسِ الذين تقوم عليهم الساعةُ، كلُّ هذا مما تنبَّأ عنه رسول الله ﷺ أيضاً، إذْ قال – عليه الصَّلاة والسَّلام – في

---

[1] عبد الستار الشيخ، نبوءات الرسول دروس وعبر، ج٢، ص٣٣٢.

[2] الحثالة: ما سقط من قِشر الشعير والأرز والتمر، والردئ من كل شيء. (انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج١، ص٣٣٢).

[3] أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ص٦١٠، برقم (٤٣٤٢)، وهو حديث صحيح، انظر: الألباني، صحيح سنن أبي داود، ج٣، ص٣٦، برقم (٤٣٤٢).

[4] انظر: شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ج١١، ص٣٣٤.

[5] يوسف بن عبد الله الوابل، أشراط الساعة، ص١٧٨.

[6] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «ويل للعرب من شر قد اقترب»، ص١٢٨٢، برقم (٧٠٥٩).

الحديث المروي عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتَّى يَأْخُذَ اللهُ شَرِيْطَتَهُ[1] مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، فَيَبْقَى فِيْهَا عَجَاجَةٌ[2]، لاَ يَعْرِفُوْنَ مَعْرُوْفاً، وَلاَ يُنْكِرُوْنَ مُنْكَراً»[3].

أي: يأخذ اللهُ أهلَ الخير والدين، ويبقى غوغاء الناس وأراذلُهم، ومَن لا خيرَ فيهم، وهذا عند قبض العلم واتّخاذ الناس رؤوساً جُهّالاً يُفتون بغير علم.[4]

٥) وعن حسن بن عليٍّ – رضي الله عنهما – أنَّ كعب بن عُجْرَة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**إِنَّها سَتَكُوْنُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ مِنْ بَعْدِيْ، يَعِظُوْنَ بالْحِكْمَةِ عَلَى مَنَابِرَ، فَإِذَا نَزَلُوْا اخْتَلَسْتَ مِنْهُمْ، وَقُلُوْبُهُمْ أَنْتَنُ مِنَ الْجِيَفِ، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ؛ فَلَيْسَ مِنِّيْ وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلاَ يَرِدُ عَلَى الْحَوْضِ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ؛ فَهُوَ مِنِّيْ وَأَنَا مِنْهُ، وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[5].

وفي هذا الحديثِ دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ من أشراط الساعة وعلاماتها: ظهورُ الفَسَقَةِ من الأمراء والعلماء من أهل الجاه والرئاسة ممن يَعِظُون الناس بالعلم والحكمة، وهم من أشَدِّ خَلْق الله مخالفةً لِما تقوله ألسنتهم، فيأمرون بالمعروف وهم لا يفعلون، ويَنْهَون عن المنكَر وهم لا يَنْتَهون، وأمثال هؤلاء يبيِّن رسولُ الله ﷺ أنَّ بواطنهم أكثَرُ شرّاً، وأشَدُّ خُبْثاً وعُفونةً، وأنتَنُ رائحةً من جُثَث الأموات.

ومفهوم المخالفة لهذا الحديث يتّضح منه: أنَّ وُلاة الأمر، وعلماء الدين بما أنهم قُدْوَةُ الناس وأُسْوَتُهم فينبغي عليهم أن يكونوا على أقوى ما يكون من التمسُّك بالملة والشريعة، وللدِّين حُرّاساً وحُفّاظاً أقوياء، وحُماةً ورُعاةً أشدّاء أمناء، وإلا فما مقامُ راعٍ وعالمٍ لا تَصلُح به دنيا ولا يقوم به دينٌ.

[1] شريطته: أي: أهل الخير والدين. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج١، ص٨٥٦.

[2] العَجَاجة، جمعُها: العَجَاج: الغوغاء والأراذل ومَن لا خير فيه. (انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج٢، ص١٦٣).

[3] أخرجه أحمد في المسند، ج١١، ص٥٥١، برقم (٦٩٦٤)، وقال محقّقه الشيخ شعيب الأرناؤوط: "رجاله ثقات رجال الشيخين".

[4] يوسف بن عبد الله الوابل، أشراط الساعة، ص١٧٧.

[5] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ج١٢، ص٤٣٥٩، برقم (٣٥٦١٩)، قال الهيثمي: "رجاله ثقات". انظر: مجمع الزوائد، ج٥، ص٣٠٨، برقم (٩٢١٠).

ومنذ نحو أربعة قرونٍ وإلى الآن تشهد الأمةُ الإسلامية تَراجُعاً خطيراً في ميادين العلوم الإسلامية المتنوّعة: من علوم القرآن والقراءات، والسُّنّةِ وعلومها، والفقهِ وأصوله، واللغةِ وآدابها، والتاريخ، والتراجم، والرجال، والاجتماع، والفكر، وغير ذلك...، وأُصيبت الأمةُ بفقر شديد من العلماء المتبحِّرين والأئمة المجدِّدين، المفكِّرين المبدِعين، وطرأ عليها قحطٌ ثقافيٌّ مُخيفٌ صَنَع بها الدواهي.

ومُنِيَ المسلمون بضَعْف الثقافة الدينية الصحيحة الشمولية والمتخصّصة؛ وذلك حين ذهب العلماء، وخفّت مجالس العلم، وتقلَّصت حلقاتُ الدين في المساجد والجمعيّات الإسلامية، فازداد الجهلُ بدين الله انتشاراً، وسَهُلَ على الناس قبولُ كلِّ ما يسمعون أو يُلقَى إليهم من الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ في المجالس، أو الصُّحُف، أو المجلاَّت، أو الإذاعات، أو الخُطَب الجُمَعِيّة[1].

المطلب الثاني: "التَّعالُم" فيما يتعلَّق بمجال النشر والتأليف والتحقيق:

و"التَّعالُم" فيما يتعلَّق بمجال النشر والتأليف والتحقيق هو الأساسُ في هذه الفتنة، وعن طريق هذه القنوات وقع الإضلالُ والتضليلُ لأبناء أمة المصطفى ﷺ من قِبَل هؤلاء الكَذَبَة الْمُتعالِمين، وعن طريق هذه الأوعية – التي هي خيرُ أوعيةٍ لنشر العلم والحقّ والهدى – اتَّخذها مفاليسُ العلم وسائل لنشر الباطل والكذب والضلال، أو في أقلِّ أحوالِهم ذريعةً لكسب الحرام، بسلوك شتّى سُبُلِ الغِشِّ والخداع، والكذب والتزوير... وليس ذا والله إلا تحقيق لِما قد تنبّأ بحصوله رسولُ ربِّ العالمين عليه أفضَلُ الصَّلوات وأتَمُّ التسليم، في آخر زمان هذه الأمة، حيث تُصيبها البلايا والفِتَنُ والنَّوازِلُ والْمِحَنُ، ومنها هذه البَلِيّةُ الشَّعْواء، والمصيبةُ النَّكْراء، ومما جاء في ذلك من أحاديث نبوية جليلة، ما يلي:

١) عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ: تَسْلِيْمُ الْخَاصَّةِ، وَفُشُوُّ التِّجَارَةِ حَتَّى تُعِيْنَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ، وَقَطْعُ الأَرْحَامِ، وَفُشُوُّ الْقَلَمِ، وَظُهُوْرُ الشَّهَادَةِ بِالزُّوْرِ، وَكِتْمَانُ شَهَادَةِ الْحَقِّ**»[2].

[1] عبد الفتاح أبو غدة، في مقدمة تحقيقه لكتاب "المنار المنيف في الصحيح والضعيف" للإمام ابن القيم الجوزية، ص٥، بتصرف يسير.

[2] أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب من كره تسليم الخاصة، ص٣٨٨، ٣٨٩، برقم (١٠٤٩)، وأحمد في المسند، ج٦، ص٤١٦، برقم (٣٨٧٠)، وقال الشيخ الألباني في تحقيقه للأدب المفرد: "حديث صحيح".

وفي رواية أخرى من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ كذلك – عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ ... ظُهُوْرَ الْقَلَمِ**»[1].

٢) وعن عَمْرو بن تَغْلِب ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَكْثُرَ التُّجَّارُ، وَيَظْهَرَ الْقَلَمُ**»[2].

وفي هذه الأحاديث النبوية الشريفة دلالةٌ واضحةٌ ظاهرةٌ، بيِّنةٌ جَلِيَّةٌ على كثرة الكتابة وانتشارها، وظهور القلم وفُشُوّه قُرْبَ يوم القيامة، وأنَّ هذا من أمارات الساعة وأشراطها، والتي قد تحقَّقت كما تنبَّأ بذلك وأخبر رسول الله ﷺ.

يقول الشيخ يوسف الوابل[3]: "والمراد بظهور القلم – والله أعلم – ظهور الكتابة وانتشارها"[4]، وقال – رحمه الله تعالى – في شرح حديث عمرو بن تَغْلِب ﷺ: "ومعناه – والله أعلم – ظهور وسائل العلم، وهي كتبه"[5].

وقال الشيخ حمود بن عبد الله التُّوَيْجِرِيّ[6]: "وقد ظهرت [الكتب] في هذا الزمن ظهوراً باهراً، وانتشرت في جميع أرجاء الأرض، بسبب توفُّر آلات الطباعة والتصوير، التي سَهَّلتْ انتشارَها، ومع هذا: فقد ظهر الجهل في الناس، وقلَّ فيهم العلم النافع، وهو علمُ الكتاب والسُّنَّة، والعملُ بهما، ولم تُغْنِ عنهم كثرة الكتب شيئاً"[7].

---

[1] أخرجه أحمد في المسند، ج٦، ص٤١٦، برقم (٣٨٧٠)، وقال محقِّقه الشيخ شعيب الأرناؤط: "إسناد حسن". والحديث بكامله: «إنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ: تَسْلِيْمَ الْخَاصَّةِ، وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ حَتَّى تُعِيْنَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ، وَقَطْعَ الأَرْحَامِ، وشَهَادَةَ الزُّوْرِ، وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ، وَظُهُوْرَ الْقَلَمِ».

[2] أخرجه أبو داود الطيالسي في المسند، ج٢، ص٤٨٩، ٤٩٠، برقم (١٢٦٧)، وهو حديث صحيح.

[3] هو يوسف بن عبد الله بن يوسف الوابل، لم أقف على ترجمته، إلا أنه من بلاد المملكة العربية السعودية، ومن علمائها البارزين في مجال الدعوة إلى الله، تخرَّج في جامعة أم القرى بمكة المكرمة من كلية أصول الدين، وحصل على شهادة الماجستير في العقيدة من نفس هذه الجامعة. ومن مؤلفاته: "أشراط الساعة".

[4] يوسف بن عبد الله الوابل، أشراط الساعة، ص١٩٠.

[5] المرجع السابق، ص١٩١.

[6] هو الشيخ حمود بن عبد الله بن حمود التويجري (١٣٣٤هـ ١٤١٣هـ): أحد كبار علماء السعودية. وُلد في مدينة "المجمعة". تلقَّى العلم من العلماء والمشايخ. ثم عمل قاضياً. توفي في مدينة الرياض. له نحو خمسين كتاباً، ومن أشهرها: "إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة". انظر: محمد خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ج١، ص١٥٤، ١٥٥.

[7] محمود بن عبد الله التويجري، إتحاف الجماعة بما جاء في الفِتَن والملاحم وأشراط الساعة، ج١، ص٤٢٨، بتصرف يسير.

وهذه الأحاديث – في الحقيقة – قد وردت دالةً على انتشار الكتابة وفُشُوِّ التأليف وظهور القلم خاصةً، مما يدلّ كذلك أيضاً على تناوُل هذا القلمِ العددَ الجمَّ من الناس، سواء كان ذلك باستحقاق وتمكُّن وأهلية، أو بغيره.

والذي يتتبَّع ما تَجُود به الأقلامُ، وما تُنتِجه المطابعُ في البلاد العربية والإسلامية، من كتابات وكتب وصُحُف ومجلاَّت ودوريّات وموسوعات ونحوها، وما تَغُصُّ به المكتباتُ العامة والخاصة في ديار المسلمين، وما تَضِجُّ به مَعارِضُ الكتب؛ لا بُدَّ أن يقول: أنَّ من يتتبَّع ذلك يَدهَش لذلك الكَمِّ الهائل من فُشُوِّ العلم وظهورِ القلم كما وصف بذلك رسولُ الله ﷺ، ونحن نشهد مع أمواج المطبوعات تلك، جهلاً كبيراً بعلوم الشرع، حتى في صفوف عِلْيَة القوم، وحَمَلَةِ الشهادات العليا، فضلاً عن العامّة والأُمِّيِّين والجَهَلَة من الناس[1].

ومما يدلّ على دخول ذوي عدم الأهلية والاستحقاق هذا المجالَ الرفيع الشريف كذلك – على وجه العموم – ما يلي من هذه الأحاديث النبوية الشريفة:

٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سَيَأْتِيْ عَلَى النَّاسِ سَنَواتٌ خَدَّاعَاتٌ**[2]، **يُصَدَّقُ فِيْهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيْهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيْهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيْهِ الأَمِيْنُ، وَيَنْطِقُ فِيْهَا الرُّوَيْبِضَةُ**[3]». قِيْلَ: وَمَنْ الرُّوَيْبِضَةُ؟، قَالَ: «**الرَّجُلُ التَّافِهُ**[4]**، فِيْ أَمْرِ العَامَّةِ**»[5].

وفي رواية أخرى: «**السَّفِيْهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ العَامَّةِ**»[6].

وهذا الحديثُ من تنبُّؤات رسول الله ﷺ العظيمة التي قد تحقَّقت حقّاً، ودلّتْ يقيناً على صِدْق نُبُوَّة المصطفى ﷺ، وأنه – عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ – ما ينطق عن هوى، إنْ هو إلا وحيٌ يُوحَى. حيث أخبرنا – عليه أفضَلُ الصَّلاة وأتَمُّ التسليم – أنه ستكون هناك

---

[1] عبد الستار الشيخ، نبوءات الرسول دروس وعبر، ج٤، ٤٣٣، ٤٣٤.

[2] أي تَكثُر فيها الأمطارُ ويقلّ الرَّيْعُ، فذلك خداعُها؛ لأنهما تُطمِعهم في الخِصْب بالمطر ثم تَخلُف، وقيل: "الخدّاعة" القليلة المطر. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص٤٧٤.

[3] الرويبضة: تصغير "الرابضة"، وهو العاجز الذي رَبَض عن معالي الأمور، وقعد عن طلبها، وزيادة التاء للمبالغة. (ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص٦٢٦).

[4] التافه: الخسيس الحقير. (ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص٦٢٦).

[5] أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، باب شدة الزمان، ص٥٨٣، برقم (٤٠٣٦)، وهو حديث صحيح، انظر: الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، ص٣٢٢، برقم (٣٢٧٧).

[6] أخرجه أحمد في المسند، ج١٣، ص٢٩١، برقم (٧٩١٢)، وهو حديث حسن، قاله محقّق المسنَد الشيخ شعيب الأرناؤوط.

في آخر الزَّمان قُرْبَ القيامة سنواتٌ خدّاعةٌ تنقلب فيه الأمور، وتتبدَّل الأحوال، وتختلّ الموازين، وتضطرب القِيَم عند الناس، فلا يعود الدين – هو الميزان والمعيار – الذي يُعرَف به الحقُّ من الباطل، والخيرُ من الشَّرِّ، فيُصدَّق الكاذبُ، ويُكذَّب الصادقُ، ويُؤتَمن الخائنُ، ويُخوَّن الأمينُ، فيرتفع في المجتمع أراذلُ الناسِ وسَفَلَتُهم، ويتقدَّمون على الأخيار، فيستأثرون دونهم بتولِّي أمور العامة، وإدارة شؤونهم، فيَفسُد حال الناس، وتَسُوء معيشتهم، فيزداد المنكُر ويشيع، ويقلّ الخير ويَنْزوي، ولقد وقع كثيرٌ من هذا في زماننا، فارتفع أسافل الناس، واستبدّوا بالرياسة، بينما هم أَقَلُّ الناسِ صلاحاً وعلماً ومعرفةً بأحكام الشرع، بل إنَّ كثيراً من أولياء الأمور وأعوانهم تظهر عليهم أماراتُ العداء للإسلام والمحادَّاة لشريعته وأخلاقه؛ ولهذا عَمَّ الفساد وكَثُر الظلم[1].

وكم من أمثال هؤلاء قد دخلوا خيرَ قنوات العلوم والمعارف وأشرفَها، وأجلَّ مجالات الفكر والثقافة وأفضلَها من تحقيق كتب التراث وخدمتِها والعنايةِ بها ونشرِها، كذلك ما يتعلَّق بتأليف الكتب الشرعية وتصنيفِها، وكلُّ هذا مع سوء النيّة، وخُبْثِ الطَّوِيّة، وإظهارِ العلم وادِّعائه، وسترِ الجهل وإخفائه، فأيُّ فتنةٍ في الأمة أعظَمُ من هذه الفتنة؟! وأيُّ بليّةٍ أُصِيْبَتْ بها أخطَرُ من هذه البليّة؟!.

يقول الدكتور محمد ولي الله النَّدْوي[2] في كتابه "نبوءات الرسول..." في شرح هذا الحديث ما نصُّه: "صَدَق رسولُ الله ﷺ، فقد أَتَتْ سنوات خدّاعات في زماننا هذا، الذي تغيَّرتْ فيه القِيَمُ فصار اللَّبقُ الكَذَّابُ زعيماً صادقاً، والصَّادِقُ الصريحُ كاذباً مفترياً، كما أصبح الْخَوَنَةُ أُمَناءً، وبالعكس، نسأل الله ا لرُّشْدَ والهداية"[3].

والمقصود بهؤلاء الرُّوَيْبِضَةِ – في الحقيقة – هم: "الأصاغر"، الذين لم يُؤتَوا من العلم إلا قليلاً، ولم يُوْتَوا من الدِّين إلا شيئاً زهيداً، ومن الفقه والفهم إلا نذراً يسيراً، فهم محرومون من كثيرٍ من التقوى والورع والحكمة والبصيرة، قد عَلِمُوا من الدين والحياة

---

[1] انظر: العدوي، إهداء الديباجة ج٣، ص٣٩٦.

[2] هو محمد ولي الله بن عبد الرحمن الندوي: أحد علماء الحديث، وُلد عام ١٩٥٩ في مدينة "بُوْمبائي" في الهند، درس في "دار العلوم لندوة العلماء" بلكنؤ، ثم حصل على شهادة الماجستير ثم الدكتوراه في الحديث النبوي من جامعة الأزهر. عمل محاضراً في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالشارقة في الإمارات العربية المتحدة. ومن مؤلَّفاته: "نبوءات الرسول ما تحقَّق منها وما لم يتحقق". انظر: سيد أحمد زكريا الغوري الندوي، مقدمات الإمام أبي الحسن الندوي، ج١، ص٣٢٣.

[3] انظر: محمد ولي الله الندوي، نبوءات الرسول ما تحقَّق منها وما لم يتحقق، ص٢٧٢.

أشياءَ وجهلوا أكثر، فهم مغرورن متنطِّعون، صَخَّابون متسرِّعون، فِقْهُهم قليلٌ، وبصرهم كليلٌ، وحكمتهم ضعيفةٌ، ورحمتهم عليلةٌ، يتكلَّمون بغير تدبُّرٍ للأمور واستيعابٍ لها ورَوِيَّةٍ بها، ويتلاعبون بالمصطلحات، ويَلْوُوْن أعناق النصوص، ويَحُطّون على الأئمة، ويُكثِرون التجريحَ، ويَهْوَوْن الخلاف، ويسعون للظهور، ويتعنَّتون بالرَّأي، ويتخاشنون على من خالفهم، قد قَذَفتْ بهم الأقدارُ، فقاموا على رؤوس الناس بالتدريس والفتوى، والتصنيف والتأليف، وكلُّ ذلك بالتحدُّث باسم الإسلام والأمة[1].

٤) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوْساً جُهَّالاً، فَسُئِلُوْا فَأَفْتَوْا بغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوْا وَأَضَلُّوْا**»[2].

وفي هذا الحديثِ يُخبرنا رسول الله ﷺ أنَّ الله تعالى لا يَقبض العلمَ من بين الناس على سبيل رفعه من بينهم إلى السماء، أو محوِه من صدورهم، لكن يَرفَع العلمَ بموت حَمَلَةِ العلم، وقَبْضِ أرواح العلماء؛ فإذا حَصَل هذا ووَقَع، ولم يجد العوامُ علماءَ الدين الرَّبّانيين؛ اتَّخذوا رؤساء جَهَلَة يَسألُونهم عن أمور دينهم، فيُفتُوْنَهم بغير علمٍ، وبذلك يُضِلُّون أنفسهم كما يُضِلُّون أولئك السائلين.

قال الإمام النَّوَوي رحمه الله تعالى: "هذا الحديثُ يبيِّن أنَّ المراد بقبض العلم في الأحاديث السابقة المطلَقة ليس هو محوُه من صدور حُفَّاظه، ولكن معناه: أن يموت حَمَلَتُه، و يتّخذ الناسُ جُهّالاً يَحكُمون بجهالاتهم، فيَضِلُّون ويُضَلُّون"[3].

والمرادُ بالعلم هنا علم الكتاب والسُّنّة، وهو العلمُ الموروث عن الأنبياء عليه السَّلام؛ فإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وبذهابهم يذهب العلم، وتموت السُّنَنُ، وتَظهَر البِدَعُ، ويَعُمّ الجهلُ.

وأمّا علمُ الدنيا فإنه في زيادة، وليس هو المراد في الأحاديث؛ بدليل قوله ﷺ: «فَسُئِلُوْا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوْا وَأَضَلُّوْا»، والضَّلالُ إنما يكون عند الجهل بالدِّين، والعلماء

[1] عبد الستار الشيخ، نبوءات الرسول دروس وعبر، ج٤، ص٤٣٦، بتصرف وزيادة.

[2] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، ص٣٧، برقم (١٠٠)، ومسلم في الصحيح، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه...، ص١١٦٤، برقم (٢٦٧٣).

[3] النووي، المنهاج شرح مسلم بن الحجاج، ج١٦، ص٤٤١.

الحقيقيون هم الذين يعملون بعلمهم، ويوجّهون الأمةَ، ويَدُلّونها على طريق الحقِّ والهُدى؛ فإنَّ العلم بدون عملٍ لا فائدةَ فيه، بل يكون وَبالاً على صاحبه، وقد جاء في روايةٍ للبخاري: «وَيَنْقُصُ العَمَلُ»[١].

قال مؤرِّخ الإسلام الحافظ الذهبي[٢] بعد ذكره لطائفةٍ من العلماء في كتابه "تذكرة الْحُفّاظ": "وما أُوْتُوْا من العلم إلا قليلاً، وأما اليوم فما بقي من العلوم القليلة إلا القليل، في أُناس قليل، ما أقلَّ مَن يعمل منهم بذلك القليل، فحسبُنا الله ونِعم الوكيل"[٣].

وإذا كان هذا في عصر الذهبي، فما بالُك بزماننا هذا؟ فإنه كلما بَعُدَ الزمان من عهد النبوة؛ قَلَّ العلمُ، وكَثُرَ الجهلُ؛ فإنَّ الصحابة ﷺ كانوا أعلمَ هذه الأمةِ، ثم التابعين، ثم تابعيهم، وهم خيرُ القرون، كما قال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي؛ ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ»[٤].

وهكذا العلمُ في آخر الزَّمان لا يزال يَنقُص، والجهلُ يَكثُر؛ حتى لا يَعرِف الناسُ فرائضَ الإسلام[٥].

ومن هذا نستنبط أنَّ مرتبة العلم والإفتاء هي مرتبةٌ رفيعةُ الشَّأن، عاليةُ المقام، وهي الرياسة الحقيقية التي لا تَعْلُوها أي رياسة، لكن ينبغي ألا يُقدِم عليها إلا المتأهِّلُ لها، المتمكِّنُ للقيام بها وتحمُّلِ ثِقَلِها، وفي هذا حَثٌّ لأهل العلم على القيام بدور التعليم والإفتاء والدعوة والبلاغ والإرشاد، وذَمٌّ لمن يُقدِم على هذا المجال الخطير بلا علمٍ، أو أهليةٍ[٦].

---

[١] أخرجها في الصحيح، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يُكرَه من البخل، ص١١١٠، برقم (٦٠٣٢).

[٢] هو محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله الدمشقي (٦٧٣ – ٧٤٨هـ): الحافظ المورِّخ، الإمام المحقِّق. مولده ووفاته في دمشق. طاف كثيراً من البلدان، وأخذ من علمائها. وله العديد من المؤلَّفات في الحديث والتاريخ والسير، ومن أشهرها: "تذكرة الحفاظ"، و"سير أعلام النبلاء"، و"ميزان الاعتدال في نقد الرجال". الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٣٢٦.

[٣] الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٣، ص١٠٣١.

[٤] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد، ص٤٨١، برقم: (٢٦٥٢)، ومسلم في الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ﷺ ثم الذين يلونهم، ص١١١٠، برقم (٢٥٣٢).

[٥] يوسف بن عبد الله الوابل، أشراط الساعة، ص١٣٣، ١٣٤.

[٦] انظر: بدر الدين العيني، عمدة القارئ في شرح البخاري، ج١، ص١٩٦، ١٩٩.

ويجب على الأمة أخذُ العلمِ وتلقِّيه عن العلماء العاملين، والفقهاء الراسخين، الذين يؤصِّلون الأفكار السليمة، ويَبنون النفوس القويمة على المناهج الصحيحة، وينشرون ثقافةً تصنع أجيالاً قادرةً على إثبات الفضائل، واحترام الأصول والحقائق بحيث ترتفع إلى مستوى الشمول في القرآن الكريم، وتتواءم مع سماحة الإسلام وصلاحية نظامه لكل ميادين الحياة.

ومن ناحية أخرى ينبغي وبشِدّة محارَبة أولئك الْمُتعالِمين ومقاطَعتِهم، الذين اتَّخذوا العلم سُخْرِيَّةً وجِدالاً، وطلبوه لغير الفقه فيه، والعملِ به؛ بل لطلب الوظائف والمنابر، وتصدُّرِ النوادي والمجالس، اتّصفوا بالعلم وتمسَّكوا بشهاداته وألقابه وهم مِن أسبَقِ الناسِ إلى هدم مبادئه، ومن أسرعِهم إلى فعل الذنوب والمعاصي والكبائر، قد تزيَّنوا للناس بالصلاح والتقوى رجاءَ كسبِ المال والجاه والمناصب والشهرة، من وجوه الخِداع والمكر والغَشّ المختلفة العديدة[1].

٥) وفي نفس المعنى كذلك حديثٌ آخر من رواية عُرْوَة بن الزُّبَيْر ﷺ إذ قال: حَجَّ علينا عبدُ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فسمعتُه يقول: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: **«إنَّ اللهَ لاَ يَنْزِعُ الْعِلمَ بَعْدَ أنْ أَعْطَاهُمُوْهُ انْتِزَاعاً، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بعِلْمِهِمْ، فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ، يُسْتَفْتَوْنَ فيُفْتُوْنَ برَأْيِهِمْ، فَيُضِلُّوْنَ وَيَضِلُّوْنَ»**[2].

٦) وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **«وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، يَنْقُصُ العِلْمُ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ[3]»**[4].

ومعنى الحديث: أنَّ في آخر الزَّمان سيُنقَض العلمُ من أمة رسول الله ﷺ؛ وذلك بموت أهل العلم من العلماء الربانيين، فكُلَّما ماتَ عالِمٌ ولم يَخْلُفه أحدٌ؛ نَقَص من العلم وذَهَب، ونَقَض منه واندرس بقدر موت أولئك العلماء، وبذلك يفشو الجهلُ وينتشر، ويَعُمّ التَّعالُمُ ويَطُمّ.

[1] عبد الستار الشيخ، نبوءات الرسول دروس وعبر، ج٤، ص٤٥٣، بتصرف وزيادة.

[2] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يُذكَر من ذمّ الرأي وتكلّف القياس، ص١٣٢٣، برقم (٧٣٠٧).

[3] الْهَرْجُ: أي القِتال والاختلاط. (ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج٢، ص٩٠١).

[4] أخرجه أحمد في المسند، ج١٦، ص٥٤٠، برقم (١٠٩٢٦) وص٥٨٠، برقم (١٠٩٨٤)، وقال محقّقه الشيخ شعيب الأرناؤط: "حديث صحيح".

فأين أمثال فقهاء الصحابة العِظام، والتابعين الكِبار، وأئمة المذاهب المتبوعين، وتلاميذهم الأفذاذ؟.

وأين نُظَراء أبي الأعلى المودودي[١] ومحمَّد الغَزالِي[٢] وأبي الحسن النَّدْوي[٣] في الدعاة والمفكِّرين؟.

وأين نظراء محمد أبي زُهْرَة[٤]، ومصطفى الزَّرْقاء[٥] في الفقهاء الراسخين؟.

وأين نظراء عبد الحميد الفَرَاهي[٦] والطاهر ابن عاشُوْر[٧] ومُتَولِّي الشَّعْرَاوي[٨] في المفسِّرين؟.

[١] هو أبو الأعلى المودودي (١٣٢١ – ١٣٩٩هـ): وُلد في مدينة "أَوْرَنْغَ آباد" بالهند. تلقَّى العلمَ في البيت على والده. أنشأ الجماعةَ الإسلامية وانتُخب أميراً لها. انتقل إلى باكستان عام ١٩٤٧م واستقرَّ هناك. مُنح جائزةَ الملك فيصل لخدمة الإسلام. توفي في نيويورك. من أشهر مؤلَّفاته: "تفهيم القرآن". انظر: محمد خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ج١، ص٧٣.

[٢] هو محمد الغزالي بن أحمد السَّقا (١٣٣٦ –١٤١٦هـ): وُلد بمحافظة الجيزة بمصر. تخرَّج في أصول الدين بالأزهر، ثم انضمَّ إلى جماعة الإخوان المسلمين. درَّس في جامعة أم القرى بمكة المكرمة. مُنح جائزةَ الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام. توفي بالرياض. ومن أشهر مؤلَّفاته: "فقه السيرة"، و"خلق المسلم"، و"هموم الداعية". انظر: نزار أباظة، إتمام الأعلام، ص٢٦٠.

[٣] هو أبو الحسن علي بن عبد الحي الحسني (١٣٣٣ – ١٤٢٠هـ): وُلد بقرية "تكيّة كلان" قرب مدينة "لكنؤ" وتوفي بها. أكمل دراستَه في "دار العلوم ندوة العلماء"، ثم عمل بها مدرِّساً فرئيساً. نال جائزةَ الملك فيصل العالميّة لخدمة الإسلام. ومن أشهر مؤلَّفاته: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟". انظر: عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة المعاصرة، ص٥٨، ٦٩.

[٤] هو محمد بن أحمد أبو زهرة (١٣١٦ – ١٣٩٥هـ): وُلد بمدينة "المحلة الكبرى" وتوفي بالقاهرة. درس في مدرسة القضاء الشرعي ثم حصل على دبلوم من دار العلوم. ثم عمل فيها مدرِّساً. ومن مؤلفاته: "الأحوال الشخصية"، و"أصول الفقه"، و"تاريخ المذاهب السياسية والاعتقادية". انظر: عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة المعاصرة، ص٧٧١، ٧٨٠.

[٥] هو مصطفى بن أحمد بن محمد الزرقا (١٣٢٢ – ١٤٢٠هـ): وُلد بمدينة "حلب" في سورية، تخرَّج في كليتَي الحقوق والآداب معاً بجامعة دمشق ثم بجامعة القاهرة. درَّس في كليتَي الحقوق والشريعة بجامعة دمشق، ثم في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية. مُنح جائزةَ الملك فيصل العالمية تقديراً لإسهاماته المميّزة في مجال الدراسات الفقهية. توفي بالأردن. وله مؤلَّفات قيمة في الفقه. انظر: عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة المعاصرة، ص١١٤١، ١١٤٨.

[٦] هو عبد الحميد بن عبد الكريم الأنصاري الفراهي (١٢٨٠ – ١٣٤٩هـ): وُلد في قرية "فَرِيْهَة" التابعة لبلدة "أعظم كَرَهْ" في شمالي الهند. تتلمذ على أكابر علماء عصره أمثال المحدّث الشيخ عبد الحي اللكنوي، ومارس التدريسَ في "جامعة عليكرة الإسلامية" في بداية عهدها. توفي بمدينة "بنارس". وله مؤلفات قيمة بالعربية، ومن أشهرها: تفسيره المسمَّى بـ"نظام الفرقان"، و"مفردات القرآن" وغيرهما. انظر: عبد الحي الحسني، نزهة الخواطر، ج٨، ص١٢٦٧.

[٧] هو محمد الطاهر ابن عاشور الشَّاذِلِي (١٢٩٦ – ١٣٩٣هـ): تعلَّم بجامع الزيتونة ثم أصبح من كبار أساتذته. وُلِّي القضاء ثم الإفتاء ثم منصب شيخ الإسلام ثم رئاسة جامعة الزيتونة. توفي بتونس العاصمة. وله مؤلفات قيمة في التفسير والفقه والأدب، ومن أشهرها: "التحرير والتنوير" في التفسير، و"مقاصد الشريعة الإسلامية". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٦، ص١٧٤.

[٨] هو محمد متولِّي الشعراوي (١٩١١ – ١٤١٩هـ): وُلد بقرية "دقادوس" بمحافظة الدقهلية بمصر. تخرَّج في كلية اللغة العربية بالأزهر. عمل مدرِّساً بكلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، ثم وزيراً للأوقاف بمصر. وله العديد من المؤلفات، ومن أشهرها تفسيره. انظر: عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة المعاصرة، ص١٠٠٢، ١٠١٢.

وأين نظراء أحمد شاكر[1] وعبد الفتَّاح أبي غُدَّة[2] وناصر الدين الألباني[3] في المحدِّثين؟.
وأين نظراء مصطفى الرَّافِعي[4] وعليّ الطنطاوي[5] في الكُتّاب والأدباء البارعين؟.
وأين نظراء عبد العزيز بن باز[6] وبكر بن عبد الله أبي زيد[7] في العلماء الربَّانيين، وطائفة قليلة من أمثال هؤلاء الأكابر ممن قُبِضوا ؟.

لقد جاء دور أنصاف العلماء؛ بل شِبْه العلماء، وكثيرٌ منهم اغْتَرَّ بحمل ألقاب "الدكتوراة"، لهم في كتب الدين قراءاتٌ مبتورةٌ، لا تُميِّز غَثّاً من السَّمين، ولا تعرف أصيلاً من الدَّخيل، وقد اقتحموا ميادينَ عديدةً، وأحدثوا فوضى شديدةً، إنَّ كثيراً ممن قُدِّموا للأمة على أنهم علماء، هم في أرفع ما يُمكِن أن نصفهم به أنهم "طَلَبة العلم"، فهم ليسوا من أولئك العلماء الراسخين؛ بل كثيرٌ منهم يجهلون الكثير من أمور الدين، وشؤونِ العبادات، وآدابِ الإسلام وأحكامه ومبادئه وتفصيلاته[8].

وعلى سبيل التأييد والتعضيد لكلِّ ما سبق؛ أُورِد هذا الحديثَ المرويّ عن أبي الدَّرْدَاء ﷺ حيث يقول: كنا مع رسول الله ﷺ، فشَخَص ببَصَره إلى السَّماء، ثم قال: «**هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى لاَ يَقْدِرُ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**»، فقال زِياد بن لَبِيْد الأنصاري ﷺ: كيف يُختَلَسُ منا وقد قرأنا القرآنَ؟، فو الله لنقرأنَّه، ولنُقرِأنّه نساءَنا

[1] هو أحمد بن محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر من آل أبي علياء (١٣٠٩ – ١٣٧٧هـ): وُلد بالقاهرة وتوفي بها. أخذ العلمَ عن كبار علماء عصره. حقَّق العديدَ من كتب الحديث مثل: "مسند الإمام أحمد"، و"سنن الترمذي"، و"صحيح ابن حبان" و لم يُكمِل أياً منها. انظر: الزركلي، الأعلام، ج١، ص٢٥٣.

[2] تقدمت ترجمته في المطلب الخامس في المبحث الأول من الفصل الثاني.

[3] هو محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني (١٣٣٢ – ١٤٢٠هـ): وُلد في مدينة "أشقودرة" في ألمانيا، هاجر بصحبة والده إلى دمشق الشام واستوطنها، أقبل على العلم الشرعي، ونبغ في علم الحديث، توفي بعمان (الأردن). له مؤلفات وتحقيقات كثيرة، ومن أبرزها سلسلته للأحاديث الصحيحة والضعيفة. انظر: عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة، ص١٠٦١.

[4] هو مصطفى صادق بن عبد الرزاق الرافعي (١٢٩٨ – ١٣٥٦هـ): أصله من طرابلس الشام، ووفاته في طنطا بمصر. شعرُه نقيُّ الديباجة ونثرُه من الطراز الأول. ومن كتبه: "تاريخ آداب العرب"، و"تحت راية القرآن"، و"وحي القلم". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٧، ص٢٣٥.

[5] هو علي بن مصطفى بن محمد الطنطاوي (١٣٢٧ – ١٤٢٠هـ): وُلد بدمشق، ودرس على كبار علمائها وشيوخها. حصل على شهادة الحقوق من جامعة دمشق، ومارس المحاماةَ ثم ولي القضاءَ. انتقل إلى مكة المكرمة وأقام فيها إلى أن توفي. وله العديد من المؤلَّفات في الأدب والفكر. انظر: عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة المعاصرة، ص٦٢٦، ٦٣٨.

[6] هو عبد العزيز بن عبد الله بن باز (١٣٣٠ – ١٤٢٠هـ): وُلد في الرياض وتوفي بها. قرأ على أكابر علماء نجد. عيِّن رئيساً للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ثم لرابطة العالم الإسلامية بمكة المكرمة، ثم مفتياً عاماً للمملكة العربية السعودية. وله تعليقات على العديد من الكتب. انظر: عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة المعاصرة، ص٤٤٤، ٤٥٦.

[7] سبقت ترجمته في هامش المطلب الخامس، من المبحث الأول للفصل الثاني.

[8] عبد الستار الشيخ، نبوءات الرسول دروس وعبر، ج٤، ص٤٥٤، ٤٥٥، بتصرف وزيادات.

وأبناءَنا، فقال ﷺ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا زِيَادَا! إنْ كُنْتُ لأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَدِيْنَةِ، هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيْلُ عِنْدَ الْيَهُوْدِ وَالنَّصَارَى فَمَاذا تُغْنِيْ عَنْهُمْ؟**». قال جُبَيْر[١] فلقيتُ عُبادةَ بن الصَّامت ﷺ، قلتُ: ألاَ تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرتُه بالذي قال أبو الدرداء، قال: صَدَق أبو الدرداء، إنْ شِئتَ لأُحَدِّثَنَّك بأوّل علمٍ يُرفَع من الناس: الخشوع، يُوشَك أن تَدخُل مسجدَ جماعةٍ فلا تَرى فيه رجلاً خاشعاً"[٢].

ويقول الحافظ ابن مَنْدَة[٣]: "إنما خَصَّ اللهُ بمعرفة هذه الأخبارِ نفراً يسيراً من كثيرٍ ممن يدّعي علمَ الحديثِ، فأمّا شأنُ الناسِ ممن يدّعي كثرةَ كتابة الحديث، أو متفقّهٍ في علم الشافعيِّ[٤]، وأبي حنيفة[٥]، أو متّبعٍ لكلام الحارث الْمُحاسِبِيِّ[٦] والجنيد[٧]، وذو النُّوْن[٨]، وأهل الخواطر؛ فليس لهم أنْ يتكلَّموا في شيءٍ من علم الحديث إلا مَن أخذه عن أهله، وأهل المعرفة، فحينئذ يتكلَّم بمعرفة"[٩].

٧) وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لاَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيْمَتَانِ، يَكُوْنَ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيْمَةٌ دَعْوَتُهُمَا وَاحِدَةٌ، وَحَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُوْنَ**

---

[١] هو جُبَيْر بن نُفَيْر بن مالك بن عامر الحضرمي، أبو عبد الرحمن، ويقال: أبو عبد الله الحِمْصي (ت٨٠هـ): ثقة من كبار تابعي أهل الشام، أدرك زمانَ النبي ﷺ و لم يره. انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج١، ص٢٩٢.

[٢] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا، ص٦٠٣، برقم (٢٦٥٥)، وقال: "هذا حديث غريب"، والحاكم في المستدرك، ج١، ص٢٩٣، برقم (١٤٨)، وصحَّحه.

[٣] هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى، ابن منده، أبو عبد الله العبدي الأصبهاني (٣١٠ – ٣٩٥هـ): من كبار حفّاظ الحديث، الراحلين في طلبه، المكثرين من التصنيف فيه، كتب عن ألف وسبعمائة شيخ.من أشهر كتبه "فتح الباب في الكنى والألقاب". انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٠٣١.

[٤] هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي الإمام العَلَم، وصاحب المذهب، قد سبقت ترجمته.

[٥] هو النعمان بن ثابت التَّيمي الكوفي، أبو حنيفة (٨٠ – ١٥٠هـ): إمام الأئمة الفقهاء، وأحد الأئمة الأربعة المتبوعين، قال فيه الإمام الشافعي: "الناسُ عيالٌ في الفقه على أبي حنيفة". وُلد ونشأ بالكوفة وتوفي ببغداد. وله مُسنَدٌ جمعه تلاميذه. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٨، ص٣٦.

[٦] هو الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (ت٢٤٣هـ): من أكابر الصوفية، كان عالِماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مُبكياً. وُلد بالبصرة وتوفي ببغداد. وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة، ومن أشهرها: "رسالة المسترشدين". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٢، ص١٥٣.

[٧] هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم (ت٢٩٧هـ): من كبار الصوفية، والعلماء بالدين. مولده ووفاته ببغداد. وهو أول من تكلَّم في علم التوحيد ببغداد. وعدَّه العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٢، ص١٤١.

[٨] هو ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أبو الفيّاض أو أبو الفيض (ت٢٤٥هـ): أحدُ الزُّهَّاد العُبَّاد المشهورين، من أهل مصر. كانت له فصاحة وحكمة وشعر. توفي بجيزة. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٢، ص١٠٢.

[٩] انظر: ابن رجب الحنبلي، شرح علل الترمذي، ج١، ٣٣، ٣٤.

كَذَّابُوْنَ قَرِيْبَ مِّنْ ثَلاثِيْنَ، كُلُّهُمْ يَزْعَمُ أَنَّهُ رَسُوْلُ اللهِ، وَحَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ...»[1].

ففي هذا الحديث إشارةٌ إلى ظهور الكَذَبَة الدجّالين من أدعياء العلم والدِّين، وفيه كذلك إشارةٌ إلى تَناقُص العلمِ وقِلَّتِه، ورفعِه من بين الناس وقبضِه، وبذلك يفشو الجهلُ وينتشر، وتَعُمّ الفتنةُ، وتشتدّ المحنةُ، بفقدان أهل العلم ونُدْرَة حَمَلَته، وكثرةِ الجَهَلَة الأدعياء، ووجودِهم في كل مكانٍ وفي كلّ منصبٍ يَقْضُون ويُفْتُون، ويَدْعُون ويَعِظُون، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، اللهم إنا نعوذ بك من هذه الفتنة الصَّمَّاء.

وأمثال هؤلاء إنْ أمسكوا بزِمام القلم يكتبون ويؤلِّفون، ويصنِّفون ويحقِّقون، في علوم النُّبُوَّة ومعارف الشريعة؛ فلا تَسَلْ عن ضياع العلم ونفاذِه، وذهابِ الدين واندراسِه، على أيدى هؤلاء الجَهَلَة الكذَّابين من أدعياء الدِّين.

٨) وعن مِقْداد بن أَسْوَد ﷺ قال: "أَيْمُ الله، لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ السَّعِيْدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إنَّ السَّعِيْدَ لَمَنْ جُنِّب الْفِتَنَ، إنَّ السَّعِيْدَ لَمَنْ جُنِّب الْفِتَنَ، ولَمَنْ ابْتُلِيَ فصَبَرَ، فَوَاهاً**"[2].

وفي هذا الحديثِ يبشِّر النبيُّ ﷺ ذاك السعيدَ الذي ابتعد عن الفِتَن، وحَذِرَها بالخير والفلاح والسعادة والرشاد، أمّا من اقتربها أو باشَرَها أو سعى إليها؛ فلن يَجْنِ سوى التَّلَهُّفِ والحسرةِ، والتَّأَسُّفِ والنَّدامةِ.

ومن هنا تتّضح أهميةُ توعية المسلمين حول الفِتَن وشُرورِها، ومنها هذه الفتنةُ الشَّوْهاء – فتنة التَّعالُم – والتي غَزَتْ مجتمعَنا الإسلامي، وشَتَّتَتْ شملَ أفرادِه، وفَرَّقَتْ بين أهله، وأَنْهَكَتْ علماءَ الأمة وربّانييها، ردّاً وتعقيباً على مصنَّفات أهل الباطل والضَّلال ومؤلَّفاتِهم وتحقيقاتِهم لكتب التراث التي لا يُريدون من ورائها سِوى نشر آرائهم وأفكارهم الضَّالّة المضِلّة.

٩) وعن معاوية بن أبي سفيان ﷺ يقول: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إلاَّ بَلاءٌ وَفِتْنَةٌ**»[3].

---

[1] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، ص١٢٩١، برقم (٧١٢١).

[2] أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الفتن والملاحم، باب النهي عن السعي في الفتنة، ص٥٩٨، برقم (٤٢٦٣)، وهو حديث صحيح، انظر: الألباني، صحيح سنن أبي داود، ج٣، ص١٣، برقم (٤٢٦٣).

[3] أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، باب شدة الزمان، ص٥٨٣، برقم (٤٠٣٥)، وهو حديث صحيح، انظر: الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، ص٣٢١، برقم (٣٢٧٦).

وهذا الحديثُ فيه دلالةٌ على حدوث المصائب والبلايا والْمِحَن، ووقوع النَّوازل والنكبات والفِتَن في أمة رسول الله ﷺ؛ وذلك في آخر الزمان، حيث يبتعد الناس عن شريعة الله تعالى وسُنَّةِ المصطفى ﷺ، ويتمسَّكون بالآراء والأقوال، ويَستندون إلى المذاهب والفِرَق، ويُسنِدون الأمور إلى غير أهلها ومستحقِّيها، فتَضِلّ الأمَةُ وتَذِلُّ، وتنحرف عن الصراط المستقيم، وتبتعد عن الطريق القويم[١].

وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة صحيحة، منها حديثُ جبريل الطويل الذي رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا كَانَتْ العُرَاةُ الْحُفَاةُ رُؤُوْسَ النَّاسِ؛ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا»[٢].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»، قال: كيف إضاعتُها يا رسول الله؟ قال: «إذا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ؛ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[٣].

ومنها ما رواه حُذَيْفَة بن اليَمَان ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُوْنَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ ابْنُ لُكَعَ[٤]»[٥].

أي: حتى يكون أسعد الناسِ في الدنيا نعيماً وملاذاً ووجاهةً ألئَم الناسِ، وأشئمهم، وأذلّهم، وأخسّهم، وأصغرهم[٦].

وفي روايةٍ أخرى عن عمر بن الخطّاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَغْلِبَ عَلَى الدُّنْيَا لُكَعُ ابْنُ لُكَعَ، فَخَيْرُ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ مُؤْمِنٌ بَيْنَ كَرِيْمَيْنِ»[٧].

---

[١] انظر: صفاء العدوي، إهداء الديباجة بشرح سنن ابن ماجه، ج٣، ص٣٩٦، ٣٩٧.

[٢] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو؟ وبيان خصاله، ص٢٦، برقم (٩).

[٣] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، ص١١٨٤، برقم (٦٤٩٦).

[٤] لكع بن لكع هو: اللئيم ابن اللئيم، أو هو: رديء النسب والحسب، وقيل: من لا يعرف له أصل ولا يحمد له خلق. (المباركفوري، تحفة الأحوذي ج٦، ٣٧٥)، وقيل: اللكع عند العرب: العبد، ثم استعمل في الحمق والذم. (ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج٢، ص٦١٣). والمعنى: أن الذين يتولون أمور المسلمين في آخر الزمان ويتصرفون في أموالهم هم أخس الناس وأحقرهم.

[٥] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب الفتن، باب ما جاء في أشراط الساعة، ص٥٠٧، برقم (٢٢٠٩)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

[٦] يوسف بن عبد الله الوابل، أشراط الساعة، ص١٨١.

[٧] أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ج٧، ص٢١٧، برقم (٧٣١٦)، قال الهيثمي: "رواه الطبراني في الأوسط بإسنادَين، ورجال أحدهما ثقات"، انظر: مجمع الزوائد، ج٧، ص٤٤٤ و٤٤٥، برقم (١٢٤٤٢).

وعن حُذَيْفَة بن اليَمَان ﷺ في قبض الأمانة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدَه! مَا أَظْرَفَهُ! مَا أَعْقَلَه! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمِانٍ»[1].

وهذا هو الواقع بين المسلمين في هذا العصر: يقولون للرجل: ما أعقله! ويَصِفُونه بأبلغ الأوصاف الحسنة، وهو من أفسقِ الناس، وأقلِّهم دِيناً وأمانةً، وقد يكون عدوّاً للمسلمين، ويعمل على هدم الإسلام، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله العليّ العظيم[2].

١٠) وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قيل يا رسول الله! متى نَترُك الأمرَ بالمعروف؟ والنَّهْيَ عن الْمُنكَرِ؟، قال: «**إذا ظَهَرَ فِيْكُمْ مَا ظَهَرَ فِي الأُمَمِ قَبْلَكُمْ**»، قلنا: يا رسول الله! وما ظَهَر في الأُمَم قَبْلنا؟، قال: «**الْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ، والفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكِمْ، والعِلْمُ فِي رُذَالَتِكُمْ**»، قال زيد[3]: تفسير معنى قول النبي ﷺ: «والعلم في رذالتكم»: إذا كان العلم في **الفُسَّاق**"[4].

وهذا الحديثُ أيضاً يدلّ على أنَّ من الفِتَن التي ستظهر قُرْب يوم القيامة: ظهور العلم في أسافل الناس وأصاغرهم، وأحقرهم وأرذلِهم من أصحاب الفِسْق والفُجور، ومُرتكِبِي المعاصي والذنوب، فأيُّ فتنةٍ في الدين أعظَمُ من هذه الفتنة، حيث ارتفاع أسافل الناس عن خِيارهم، واستئثارهم بالأمور دونهم، فيكون أمرُ الناس بيد سفهائهم وأراذلهم ومَن لا خيرَ فيهم، وهذا من انعكاس الحقائق، وتغيُّر الأحوال، وهذا أمرٌ مشاهَدٌ في هذا الزمن، فتَرى أنَّ كثيراً من رؤوس الناس وأهلِ العقد والحلِّ هم أقَلُّ الناسِ صلاحاً وعلماً، مع أنَّ الواجب أن يكون أهل الدِّين والتُّقَى هم المقدَّمون على

---

[1] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الرقائق، باب رفع الأمانة، ص١١٨٤، برقم (٦٤٩٧)، ومسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب، ص٧٣، برقم (١٤٣)، واللفظ لمسلم، والحديثُ بكامله كما يلي: عن حُذَيْفَة بن اليمان ﷺ قال: حَدَّثَنا رسولُ اللَّهِ ﷺ حديثَيْن قد رأيتُ أحدَهما، وأنا أنتظِر الآخرَ، حَدَّثَنا: «أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ، فَعَلِمُوا مِنْ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنْ السُّنَّةِ». ثم حَدَّثَنا عن رَفْع الأمانةِ، قال: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِراً وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ أَخَذَ حَصًى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِيناً حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدَهُ، مَا أَظْرَفَهُ، مَا أَعْقَلَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ».

[2] انظر: يوسف الوابل، أشراط الساعة، ص١٨٢.

[3] هو زيد بن يحيى بن عُبَيد الْخُزَاعي، أبو عبد الله الدمشقي (ت٢٠٧هـ): من الرواة الثقات، وكان من أهل الفتوى بدمشق، روى عنه الإمام أحمد بن حنبل وطبقته، توفي بدمشق. انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج١، ص٦٧٢.

[4] أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، باب في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ص٥٧٩، برقم (٤٠١٥)، وهو حديث ضعيف، انظر: الألباني، ضعيف سنن ابن ماجه، ص٣٦٦، برقم (٨٠٢).

غيرهم في تولِّي أمور الناس؛ لأن أفضل الناس وأكرمهم هم أهلُ الدين والتقوى؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣][١].

ولذلك لم يكن النبي ﷺ يولِّي الولاياتِ وأمورَ الناس إلا مَن هم أصلَحُ الناسِ وأعلَمُهم، وكذلك خلفاؤه مِن بعده، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ؛ منها ما رواه البخاري في الصحيح عن حُذَيْفَة بن اليَمَان ﷺ أن النبي ﷺ قال لأهل نَجْران[٢]: «لأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلاً أَمِيْناً حَقَّ أَمِيْنٍ»، فاستشرف لها أصحابَ النبيِّ ﷺ، فبعث أبا عُبَيْدَة[٣].

وجميعُ هذه الأحاديث – وعلى وجه العلوم – فيها بيانُ أنَّ العلم سيُرفَع من بين الناس، وأنَّ الأمانة ستُرفَع من القلوب، حتى يصير الرجل خائناً بعدما كان أميناً، وهذا إنما يقع لمن ذهبت خشيته لله تعالى، وضَعُفَ إيمانه، وخالَطَ أهلَ الخيانة؛ فيصير خائناً؛ لأن القرين يقتدي بقرينه. ومن مَظاهِرِ تضييع الأمانة كذلك إسناد أمور الناس من إمارةٍ وخلافةٍ وقضاءٍ ووظائف علمية على اختلافها إلى غير أهلها القادرين على تيسييرها، والمحافظةِ عليها؛ لأن في ذلك تضييعاً لحقوق الناس، واستخفافاً بمصالحهم، وإيغاراً لصدورهم، وإثارةً للفِتَن بينهم.

فإذا ضيَّع مَن يتولَّى أمرَ الناسِ الأمانة – والناسُ تَبَعٌ لمن يتولَّى أمرَهم – كانوا مثله في تضييع الأمانة، فصلاحُ حال الولاة والعلماء صلاحٌ لحال الرعية والعوام، وفسادُهم فسادٌ لهم.

ثم إنَّ إسناد الأمر إلى غير أهله دليلٌ واضحٌ على عدم اكتراث الناس بدينهم، حتى إنهم لَيُوَلُّون أمرهم مَن لا يهتمّ بدينهم، وهذا إنما يكون عند غلبة الجهل ورفعِ العلم؛ ولذلك أخبر الصادق المصدوق الرسول الأمين ﷺ أنه ستكون هناك سنوات خدّاعة، تنعكس فيه الأمورُ حيث يُكذَّب فيها الصادق، ويُصدَّق فيها الكاذبُ، ويُخوَّن الأمين، ويُؤتَمن الخائن[٤].

---

[١] يوسف بن عبد الله الوابل، أشراط الساعة، ص١٧٨، ١٧٩.

[٢] مدينة معروفة بالحجاز من شِقّ اليمن، سُمّيت بنَجْران بن زيد بن يَشْجُب بن يَعْرُب، وهو أولُ مَن نزلها. انظر: البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج٤، ص١٢٩٨.

[٣] البخاري، الصحيح، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصادق، ص١٣١٤، رقم الحديث (٧٢٥٤).

[٤] يوسف بن عبد الله الوابل، أشراط الساعة، ص١٣٠، ١٣١.

وقد ظهر هذا الصِّنْفُ من الناس منذ عهودٍ قريبةٍ، وتَفاقَم شرُّه في هذا العصر: فنجد من المحسوبين على الدين أقواماً لا تُرشِّحهم مَعادِنُهم العاطفية ولا الفكرية لأداء رسالته وحملِ أمانته! ونرى كثيرين من الْمُعتنين بالفقه والدراسات الإسلامية والدارسين لها والباحثين والمصنِّفين فيها؛ لا يبتغون بها وجهَ الله تعالى، ولا يقصدون خير الإسلام وأهله، فيبحثون ويؤلِّفون ويتعلَّمون ويتفقّهون لمجرَّد العلم والبحث والدرس، لا للالتزام والعمل والتطبيق، ونجد بَوْناً شاسعاً بين علومهم وواقع حياتِهم ومسلكياتِهم! بل قد دخل في العلوم الإسلامية فئاتٌ من الدارسين ليس عندهم أيُّ التزامٍ بقواعد الدين وأركان الإسلام، إنما دخلوا في مدارسهم ومعاهدهم وكلياتهم وتخصُّصاتهم لنَيْل الشهادات وملءِ الفراغ. والأَدْهَى مِن ذلك أن نجد من الدارسين من يبحث في علوم الإسلام من فقهٍ وتفسيرٍ وحديثٍ وغيرها للتشكيك والنَّيْل من الإسلام والصدِّ عن سبيله، أو لنَيْل الشهادات العليا واستلامِ المناصب والهيمنة على منابر التوجيه والتأثير... وكلُّ ذلك من تغيُّر الزمان، وفسادِ الأحوال، واضطرابِ الموازين[1].

المطلب الثالث: "التَّعالُم" فيما يتعلَّق بمجال الإفتاء والقضاء:

(أ) "التَّعالُم" فيما يتعلَّق بمجال الإفتاء:

أمَّا "التَّعالُم" في مجال الإفتاء فحَدِّثْ عنه ولا حرجَ، فقد عَمَّ البلاءُ وطَمَّ، وذاع المصابُ به وشاع، في حين كان السلف - رحمهم الله تعالى - يتورَّعون فيه مع جلالة قدرهم، وعُلُوِّ منْزلتهم، فيدفعون الفتوى عن أنفسهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ويتوقَّفون فيها خشيةً وورعاً، متمسِّكين في كثير من الأحايين بقول: "لا أدري"، وهم بِحارُ العلم إحاطةً وسَعَةً، وجبالُ المعرفة رسوخاً وثباتاً، ومواقفهم لأجل ذلك معروفةً مشهورةً...

أمّا حال الْمُتعالِمين فعلى العكس والنقيض، حيث التَّهافُتُ إلى الفتوى، والتَّسابُقُ من أجلها وهم من أشَدِّ الناس استنكافاً[2] من قول "لا أدري" - فمن أفتى فهو في النار، كذا رُوي عن سيد الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين - ناسين أو متناسين أنَّ أمرها عظيمٌ، وخطبُها جليلٌ، وإليك ما جاء في شأن هذا من أدلة وأحاديث:

---

[1] عبد الستار الشيخ، نبوءات الرسول دروس وعبر، ج٤، ص٤٦٣، بتصرف وزيادة.

[2] أي: بُعْداً.

١) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كانَ إِثْمُه عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ**»[1].

ومعنى الحديث: أنَّ من أفتى الناسَ وليس بأهل للفتوى فهو آثِمٌ عاصٍ، ومن أقرَّه على ذلك من وُلاة الأمور فهو آثِمٌ أيضاً، ويدلُّ الحديث أنَّ من تصدَّر للفتوى من غير أهلها أَثِمَ إِثْماً شديداً.

قال الإمام ابن الجوزي[2] رحمه الله تعالى: "ويلزم وَلِيَّ الأمرِ منعُهم [عن ذلك] كما فعل بنو أمية، وهؤلاء بمنْزلة من يدلُّ الركبَ، وليس له علمٌ بالطريق، وبمنْزلة الأعمى الذي يُرشِد الناسَ إلى القِبلة، وبمنْزلة مَن لا معرفةَ له بالطِّبّ وهو يُطِبّ الناسَ، بل هو أسوَأُ حالاً من هؤلاء كلِّهم، وإذا تعيَّن على وَلِيِّ الأمر منعُ مَن لم يُحسن التَّطَبُّبَ من مُداواة المرضى، فكيف بمن لم يعرف الكتابَ والسُّنّة، و لم يتفقَّه في الدين؟".

وكان شيخُنا[3] – رضي الله عنه – شديدَ الإنكار على هؤلاء، فسمعتُه يقول: قال لي بعض هؤلاء: أجُعِلْتَ محتسباً على الفتوى؟ فقلتُ له: يكون على الخبّازين والطبّاخين محتسبٌ، ولا يكون على الفتوى محتسبٌ؟!"[4].

٢) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلمَ انْتِزَاعَاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاء، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوْساً جُهَّالاً، فَسُئِلُوْا فَأَفْتَوْا بغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوْا وَأَضَلُّوْا**»[5].

وهذا الحديثُ فيه دلالةٌ واضحة على أنَّ من دلائل قُرْب يوم القيامة وعلاماتِ ذلك: تناوُلُ أهل الجهل لأمر الإفتاء العظيم، وقيامِهم بهذا المنصب الجليل، وذلك حين يُرفَع العلمُ ويُقبَض، ويُنقَص ويُنقَض، بموت أهله وحَمَلَتِه، فيقوم أهلُ الجهل والباطل،

---

[1] أخرجه أبو داود في السنن، كتاب العلم، باب التوقي في الفتيا، ص٥٢٥، برقم (٣٦٥٧)، وابن ماجه في مقدمة السنن، باب اجتناب الرأي والقياس، ص٨، برقم (٥٣)، وأحمد في المسند، (١٧/١٤)، برقم (٨٢٦٦)، كلهم عن أبي هريرة ﷺ، واللفظُ لأبي داود، وقال محقِّق المسنَد الشيخ شعيب الأرناؤط: "إسناده ضعيف".

[2] ستأتي ترجمته في المبحث الأول من الفصل السادس قبل تعريف كتابه "تلبيس وإبليس".

[3] يقصد به: الإمام ابن تيمية.

[4] ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ص٩٠٣.

[5] سبق تخريجه في هامش المطلب الثاني من هذا المبحث.

وذوي الكذب والضَّلال بإفتاء الناسِ أمورَ دينهم، فيُضِلّون أنفسهم كما يُضِلّون أولئك السائلين المستفتين.

"وإذا كان في الحديث تنويهٌ بشأن العلم والعلماء عامّةً، ففيه تنويهٌ أعظَم وأجلّ بشأن الفتوى والمفتين خاصّةً، وحسبُ الفتوى شرفاً وفضلاً أنّ الله – تعالى جَدُّه – تولاَّها بنفسه، ثم ولاَّها خاتمَ أنبيائه ورُسُله، ثم تولاَّها سادةَ الأمة وقادتَها، أَبَرُّها قلوباً، وأعمَقُها علماً، وأقَلُّها تكلُّفاً، أولئك أصحابُ رسول الله ﷺ، فليُعِدَّ المفتون لهذه المنصب عُدَّته، وليعرفوا له خطرَه وجلالته"[1].

٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ تَقَوَّلَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ. وَمَنْ اسْتَشَارَهُ أَخُوْهُ الْمُسْلِمُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ رُشْدٍ؛ فَقَدْ خَانَهُ. وَمَنْ أُفْتِيَ بِفُتْيَا بِغَيْرِ ثَبْتٍ؛ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ**»[2].

٤) وأُثِرَ عن عبد الله بن عبّاسٍ – رضي الله عنهما – أنه قال: "مَنْ أَفْتَى النَّاسَ بِفُتْيَا يَعْمَى عَنْهَا؛ فَإِنَّمَا إِثْمُهَا عَلَيْهِ"[3].

وفي هذا الحديثِ والأثرِ بيانُ ما يترتَّب على الإفتاء بغير علمٍ من الوعيد الشديد، حيث توعَّد رسولُ الله ﷺ من قال عليه ما لم يَقُلْ – عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ – فليتبوَّأ مكانَه من جهنّم، وفي هذا بيانٌ لمنْزلة الإفتاء في الدين، فكما أنَّ المفتي بعلمٍ أجرُه عظيمٌ، كذلك المفتي بغير علمٍ خَطَرُه كبيرٌ.

ومما شاعَ وظهر في هذا الزَّمانِ كثرةُ المفتين بغير علمٍ، وتَجَرُّأ العامة على الفتوى من رجال ونساء، وكان على العاقل أن لا يتجرَّأ على الفتوى بغير علمٍ، فلقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتدافعون الفتوى خوفاً من القول على الله بلا علمٍ، رضي الله تعالى عنهم، بل كان كلٌّ واحدٍ منهم يَوَدُّ أنَّ صاحبه كفاه الفتوى.

ولقد حذَّر الله ﷻ أشدَّ ما يكون من التحذير من القول عليه بلا علمٍ، إذ قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

[1] النص المورَد بين القوسين من كلام الشيخ طه الساكت، من كتابه "من ذخائر السنة النبوية"، انظر: ج١، ص٢٤٨.

[2] أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ص١٠٦، برقم (٢٥٩)، والحاكم في المستدرك، ج١، ص١٨٣، برقم (٣٤٩، ٣٥٠)، والخطيب البغدادي، في كتاب الفقه والمتفقه، ج٢، ٣٢٧، برقم (١٠٤٥)، وقال الألباني: "صحيح لغيره".

[3] أخرجه الخطيب البغدادي في كتاب الفقه والمتفقه، ج٢، ص٣٢٨، برقم (١٠٤٥)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، ج٢، ص٦٥، برقم (١٦٢٦)، وقال محقّقه أبو الأشبال الزهيري: "إسناده صحيح".

ومِمّا يُنسَب إلى النبيِّ ﷺ قولُه: «أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الفُتْيَا أَجْرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ»[١]، أي: كأنّه يسرع إلى النار؛ لأنه لا يُقدِّر عاقبةَ عدمِ إصابتِه الحقَّ؛ وذلك بسُرعته وعدمِ تَرَوِّيه[٢].

لذا كان السَّلَفُ يَعُدّون التَّسَرُّعَ في الإفتاء من غير علمٍ أمارةً من أمارات عدمِ فِقْهِ الرَّجُل؛ ويَهابُوْنَ موقفَ الإفتاء، "ويَكرهُون التَّسَرُّعَ فيه، ويَوَدُّ كلُّ واحدٍ منهم أن يكفيه إيَّاها غيرُه: فإذا رأى بها قد تعيَّنتْ عليه؛ بَذَلَ اجتهادَه في معرفة حُكمِها من الكتاب والسُّنَّة، أو قولِ الخلفاء الراشدين، ثم أفتى"[٣].

وكان التابعيُّ الجليل سعيدُ بن المسيِّب – رحمه الله تعالى – لا يكاد يُفتي إلاَّ قال: "اللَّهم سَلِّمْني وسَلِّمْ مني"[٤].

وأُثِرَ عن الإمام ابن أبي لَيْلى[٥] – رحمه الله تعالى – أنه قال: "أدركتُ عشرين ومئةً من أصحاب رسول الله ﷺ، فما كان منهم محدِّثٌ إلاَّ وَدَّ أنَّ أخاه كَفَاه الحديثُ، ولا مُفْتٍ إلاَّ وَدَّ أنَّ أخاه كَفَاه الفُتْيا"[٦].

وقال الإمام سَحْنُون[٧] رحمه الله تعالى: "أجْرَأُ النَّاسِ على الفُتيا أَقَلُّهم عِلماً[٨]، يكون عند الرَّجُلِ البابُ الواحدُ من العلم؛ يَظُنُّ أنَّ الحقَّ كُلَّه فيه!"[٩].

---

[١] أخرجه الدارمي مرسلاً في مقدمة السُّنَن، باب الفتيا وما فيه من الشدة، ج١، ص٦٢، برقم (١٥٧)، وهذا القولُ لم يصح عن رسول الله ﷺ، وقال الشيخ الألباني: "ضعيف، أخرجه الدارمي في سننه من طريق عبيد الله بن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: فذكره. وهذا إسناد ضعيف لإعضاله، فإن عبيد الله هذا من أتباع التابعين، مات سنة ١٣٦هـ، فبينه وبين النبي ﷺ واسطتان أو أكثر". انظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ج٤، ص٢٩٤.

[٢] انظر تعليق المحقِّق على "سنن الدارمي": (٦٢/١).

[٣] ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ص٣٣.

[٤] المرجع السابق: ص٣٦٨.

[٥] هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى يسار ابن بلال الأنصاري الكوفي (٧٤ – ١٤٨هـ): قاض، فقيه، من أصحاب الرأي. روى عنه سفيان الثوري وطبقته. وُلي القضاء والحكم بالكوفة لبني أمية ثم لبني العباس. له أخبار مع الإمام أبي حنيفة وغيره. توفي بالكوفة. انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٣، ص٦٢٧، ٦٢٨.

[٦] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج٢، ص٢٧٣.

[٧] هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التَّنُوْخي، الملقَّب بـ"سَحْنُون" (١٦٠ – ٢٤٠هـ): قاض، فقيه، انتهت إليه رياسة العلم في المغرب. وُلد في قيروان وتوفي بها. ووليّي القضاء بها واستمرَّ إلى أن مات. روى "المدوَّنة" عن عبد الرحمن بن قاسم عن الإمام مالك بن أنس. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٤، ص٥.

[٨] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج٢، ص٢٧٦.

[٩] المرجع السابق، ج٢، ص٢٧٧.

والجرأةُ في الإفتاء – كما قال الإمامُ ابن قَيِّم الْجَوْزية رحمه الله تعالى – لا تكون إلا من قِلَّة العلم، أو من غزارته وسَعَتِه، فإذا قَلَّ علمُه أفتى عن كلِّ ما يُسْأَل عنه بغير علمٍ، وإذا اتَّسَع علمُه اتَّسَعَتْ فُتْياه[1].

وقال الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى: "أخبرني رجلٌ أنه دخل على رَبِيْعَةَ[2]، فقال: ما يُبكيك؟ وارتاع لبكائه، فقال له: أدخلتْ عليك مصيبةٌ؟ فقال: لا، ولكن اسْتُفْتِيَ مَن لا عِلْمَ له، وظهر في الإسلام أمرٌ عظيمٌ"[3].

قال الحافظ الخطيب البغدادي بعد أنْ أورد هذه القصةَ في كتابه "الفقيه والمتفقه": "ينبغي لإمام المسلمين أن يَتصفَّح أحوالَ الْمُفتِين، فمَن كان يَصلُح للفتوى؛ أقرَّه عليها. ومَن لم يكن مِن أهلها؛ مَنَعه منها، وتقدَّم إليه بأن لا يتعرَّض لها، وأَوْعَده بالعُقُوبة إنْ لم يَنْتَهِ عنها. وقد كان الخلفاء من بني أُمَيَّة يَنصُبون للفتوى بمكة في أيام الموسم قوماً يعيِّنوهم، ويَأمَرون بأن لا يُسْتَفْتَى غيرهم"[4]. وكان يَصِيح الصَّائِحُ في الحاجِّ: لا يُفتي الناسَ إلا عطاءُ بن أبي رَبَاح[5]، فإنْ لم يكن فعبدُ الله بن أبي نَجيح[6]"[7].

ونظراً لخطورة هذا الأمر وأهميته، كان الإمامُ مالك بن أنسٍ يحتاط غاية الاحتياط في الإفتاء، كما أُثِر عنه أنه قال: "ما أجبتُ في الفتوى حتى سألتُ مَن هو أعلَمُ مني: هل يُراني مَوضِعاً لذلك؟، سألتُ ربيعةَ، وسألتُ يحيى بن سعيد[8]، فأَمَراني بذلك. فقيل له: يا أبا عبد الله[9]!

---

[1] ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ص٣٣، ٣٤.

[2] هو ربيعة بن فَرُّوخ التيمي المدني، أبو عثمان، الملقَّب بـ"ربيعة الرَّأي" (ت١٣٦هـ): إمام حافظ، فقيه مجتهد، كان بصيراً بالرأي فلقِّب به، وكان أحفظ الناس للسُّنَّة، وصاحبَ الفتوى بالمدينة، وبه تفقَّه الإمام مالك بن أنس. توفي بالهاشمية من أرض الأنبار. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٥٧، ١٥٨.

[3] ذكره الخطيب البغدادي، في كتابه "الفقيه والمتفقه"، ج٢، ص٣٢٤، برقم (١٠٣٩).

[4] الخطيب البغدادي، كتاب الفقيه والمتفقه، ج٢، ص٣٢٤، برقم (١٠٣٩).

[5] هو عطاء بن أسلم بن صفوان بن أبي رباح (٢٧ – ١١٤هـ): تابعي، من أجلاء الفقهاء. وُلد في "جند" باليمن، ونشأ بمكة. سمع عن عائشة وأبا هريرة وعبد الله بن عباس وغيرهم ﷺ. كان مفتي أهل مكة ومحدِّثَهم، وتوفي فيها. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٩٨.

[6] هو عبدُ الله بن أبي نَجيح المكي، أبو يسار (ت١٣٠هـ): الإمام الثقة المفسر. حدَّث عنه شعبة بن الحجاج والسفيانان وابن عليه وآخرون. كان مفتي أهل مكة بعد عمرو بن دينار. انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٢، ص٤٤٤.

[7] الخطيب البغدادي، كتاب الفقيه والمتفقه، ج٢، ص٣٢٥، برقم (١٠٤٠).

[8] هو يحيى بن سعيد بن فروخ القَطَّان التميمي، أبو سعيد (١٢٠ – ١٩٨هـ): من حفاظ الحديث، والرواة الثقات، من أهل البصرة، كان إليه المنتهى في التثبُّت فيها. له كتاب "المغازي". انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٤، ص ٣٥٧، ٣٥٨.

[9] وهو كنية الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى.

لو نَهَوْك؟، قال: كنتُ أنتهي، لا ينبغي لرجلٍ أن يَرَى نفسَه أهلاً لشيءٍ حتى يَسأَل مَن هو أعلَمُ منه"[1].

أمّا اليوم فالأمرُ عجيبٌ، وحالُ الفتوى غريبٌ، فنجد في بلاد الإسلام في هذا الزمان أُناساً محسوبين على الدين يَتّجرون به، ويَصطادون المال، ويَدّخِرونه لعاجلتهم، ويَذهَلون عن آخرتهم، يتزيّنون بالصَّلاح والتَّقوى، ويرتدون ملابس العلم والْمَشْيَخة، وينادون بالإرشاد إلى العمل الصالح، ويتقرّبون من الحكّام والوُجهاء، رجاءَ أن ينالوا مالاً أو منصباً أو جاهاً، قد اتَّخذوا الدين حِرْفةً، والعِلمَ مَطِيَّةً؛ لرفع خسيستهم، وتحقيقِ مآربهم!

فهؤلاء من شِرار الخَلْق، لا يرفع اللهُ ﷻ لهم عنده ذكراً، ولا يضع لهم في قلوب الناس قبولاً، ولا بينهم منْزلةً ومكانةً، ولا يُباليهم بالةً[2].

(ب) "التَّعالُم" فيما يتعلَّق بمجال القضاء:

أمَّا القضاء فهو أعظَمُ ما يكون في بلاد الإسلام من المناصب وأعلاها، ورجالُه هم خِيْرَةُ علماء المسلمين الربانيين وأفاضلهم... ولعلماء السَّلَف – رحمهم الله تعالى – كثيراً من الكتب التي دوَّنوا فيها شروطَ القُضاة وأوصافهم، وما يجب أن يكونوا عليه، وما يلزم الاجتناب عنه، وعلى رأسهم كتاب الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ في القضاء إلى عامله أبي موسى الأشعري ﷺ[3].

وهذا المجال العظيم الخطير من مجالات الإسلام الهامَّة، قد وَلَجَتْ إليه كذلك مظاهرُ الكذب والخيانة، وهذا مما تنبَّأ عنه رسول الله ﷺ، ومما يدل على ذلك قوله ﷺ في الحديث المروي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَكُوْنُ فِيْ آخِرِ الزَّمَانِ أُمَرَاءٌ ظَلَمَةٌ، وَوُزَرَاءٌ فَسَقَةٌ، وَقُضَاةٌ خَوَنَةٌ، وَفُقَهَاءٌ كَذَبَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْكُمْ ذَلِكَ الزَّمَنَ فَلاَ يَكُوْنَنَّ لَهُمْ جَابِياً وَلاَ عَرِيْفاً[4] وَلاَ شُرْطِيّاً»[5].

---

[1] الخطيب البغدادي، كتاب الفقيه والمتفقه، ج٢، ص٣٢٦، برقم (١٠٤٢).

[2] عبد الستار الشيخ، نبوءات الرسول دروس وعبر، ج٤، ص٤٦٣، بتصرف وزيادة.

[3] انظره في "إعلام الموقعين عن رب العالمين" لابن القيم، ص٦٥، وغيره من كتب التاريخ والسِّيَر.

[4] العَرِيْفُ: وهو القَيِّمُ بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس ما يلي أمورهم. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج٢، ص١٩٠.

[5] أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، ج١، ص٢٠٤، برقم (٥٦٥)، والخطيب البغدادي، في تاريخ بغداد، ج١٢، ٦٣. وقال الهيثمي: "في إسناده داود بن سليمان الخراساني، وقال الطبراني: لا بأس به". مجمع الزوائد، ج٥، ص٣٠١، برقم (٩١٧٧).

وعن سعد بن أبي وَقّاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُوْنَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، كَمَا تَأْكُلُ الْبَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا»[1].

وقد تحقَّق ما تنبَّأ به النبيُّ الصادق ﷺ حيثُ وُجِدَ ويُوجَد ناسٌ منحهم اللهُ ﷻ طلاقةَ اللِّسان وفصاحةَ الكلام، فجعلوها ذريعةً إلى المكسب والمأكل، بطريقة لا يُقِرّها الشرع، حيث يسعون بفصاحتهم وقُوّة كلامهم إلى إبطال الحقِّ وإحقاقِ الباطل، كما لا يَتَلَكَّأُوْنَ عن إعانة الظالم وإظهاره بطلاقتهم في مظهر المظلوم، إذا أرضاهم الظالم بعرضٍ من الدنيا، نسأل الله ﷻ التوفيق والسَّداد[2].

ولعِظَم أمر القضاء وخطرِ شأنه، فقد جاء فيه من الوعيد والتخويف ما لم يأت نظيرُه في الإفتاء وغيره، ومما جاء في ذلك من أحاديث المصطفى ﷺ:

١) ما رُوى عن عائشة – رضي الله عنهما – أنها ذُكر عندها القضاةُ فقالت: "سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**يُؤْتَى بِالْقَاضِي الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى مِنْ شِدَّةِ الْحِسَابِ مَا يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي تَمْرَةٍ قَطُّ**»[3].

وفي هذا الحديثِ دلالةٌ على خطر مرتبة القضاء وعِظَم أمره، حيث يدلُّ مفهوم الحديث على أنَّ القاضي العدل يُحاسِبه الله تعالى يوم القيامة أشدَّ ما يكون من الحساب لدرجةٍ أنه يتمنَّى أنْ لم يكن قد قضى بين اثنين في تمرة قطُّ، فماذا تُرَى سيكون حال مَن تساهَلَ في أمر القضاء بين المسلمين من القضاة؟!

وقد رُوي عن عبد الله بن عمر بن الخطَّاب – رضي الله عنهما – أنه قال: "ويلٌ لدَيَّان[4] مَن في الأرض مِن دَيَّان مَن في السماء يومَ يَلقونه، إلا من أمر بالعدل، وقضى بالحقِّ، ولم يَقْضِ على هوى، ولا على قَرابة، ولا على رغبٍ ولا رهبٍ، وجعل كتابَ الله مِرآةً بين عَيْنَيْهِ"[5].

---

[1] أخرجه أحمد في المسند، ج٣، ص١٥٤، برقم (١٥٩٧)، وقال محقِّقه الشيخ شعيب الأرناؤط: "حسن لغيره، ورجاله رجال الصحيح، إلا أنَّ زيد بن أسلم لم يسمع من سعد".

[2] محمد ولي الله الندوي، نبوءات الرسول ما تحقَّق منها وما لم يتحقق، ص٢٦٩.

[3] أخرجه ابن حبان في الصحيح، ج١١، ص٤٣٩، برقم (٥٠٥٥) والطيالسي في المسند، ج٣، ١٣٢، برقم (١٦٥٠)، وقال الهيثمي: "إسناده حسن"، انظر: مجمع الزوائد، ج٤، ص٢٤٨، برقم (٦٩٨٦).

[4] الدَّيَّان: قيل هو: القَهّار، وقيل: هو الحاكم والقاضي، وهو: فعّال، مِن "دانَ الناسَ"، أي: قَهَرَهم على الطاعة". انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص٥٩٤.

[5] ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ص٣٥.

٢) وعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَا مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ إلاَّ حُبِسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَلِكٌ آخِذٌ بقَفَاهِ؛ حَتَّى يَقِفَهُ عَلَى جَهَنَّمَ، ثُمَّ يَرْفَعَ رَأْسَهُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فإِنْ قَالَ: الْخَطَّاءُ[1]؛ أَلْقَاهُ فِيْ جَهَنَّمَ، يَهْوِيْ أَرْبَعِيْنَ خَرِيْفاً**»[2].

فهذا الحديثُ فيه دلالةٌ على خطر أمر القضاء، وعظيمِ ضَرَرِه للطالب لولايته، والمستشرف له بلا حقٍّ ولا علمٍ ولا أهليةٍ؛ لِمَا في ذلك من التعرُّض للحِرمان من عَوْن الله وتأييده وتوفيقه ونصرِه في الدنيا، أمَّا في الآخرة فأمرُه عسيرٌ، وحسابُه شديدٌ، وعقابُه أليمٌ، إنْ لم يَتّقِ اللهَ تعالى في هذه الأمانة العظيمة التي تتعلّق بنفوس المسلمين وأموالِهم ودمائهم وأعراضِهم.

قال الإمام ابن قُدَامة[3] رحمه الله تعالى: "وفي القضاء خَطَرٌ عظيمٌ، ووِزْرٌ كبيرٌ، لِمن لم يُؤدِّ الحقَّ فيه، ولذلك كان السلف – رحمة الله عليهم – يمتنعون منه أشدَّ الامتناعِ، ويخشون على أنفسهم خطرُه...، وكان يُقال: أعلَمُ الناسِ بالقضاء أشَدُّهم له كراهةً[4].

٣) وعن عبد الله بن بُرَيْدة عن أبيه – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْقُضَاةُ ثَلاَثَةٌ، اثْنَانِ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، رَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّة، وَرَجُلٌ قَضَى بَيْنَ النَّاسِ بِالْجَهْلِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فَهُوَ فِي النَّارِ**»[5].

---

[1] الخطَّاء: بالتشديد للمبالغة، هو من كان ملازماً للخطايا غير تاركٍ لها. (انظر: "مسند أحمد"، حاشية١، ج٧، ١٧٤).

[2] أخرجه ابن ماجه في السنن، أبواب الأحكام، باب التغليظ في الحيف والرشوة، ص٣٣٠، ٣٣١، برقم (٢٣١١)، وأحمد في المسند، ج٧، ص١٧٣، ١٧٤، برقم (٤٠٩٧)، وهو حديث ضعيف. (انظر: الألباني، ضعيف سنن ابن ماجه، ص١٨١، برقم٤٦٠)، وقال محقِّق المسنَد الشيخ شعيب الأرناؤط: "إسناده ضعيف لضعف مجالد – وهو ابن سعيد الهمداني –، ورُوي مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف هو الصحيح، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيحَين". وبناءاً على هذا الحكمِ فالحديثُ موقوف على عبد الله بن مسعود ﷺ.

[3] هو أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد الْجَمَّاعيلي المقدسي الحنبلي، الشهير بابن قُدَامة المقدسي (٥٤١ – ٦٢٠هـ): فقيه محدّث. وُلد بـ"جَمَّاعِيْل" في فلسطين. ثم رحل إلى دمشق ثم بغداد وقرأ على علمائهما. كان حجةً في المذهب الحنبلي. ومن أشهر مؤلَّفاته: "المغني" و"المقنع" و"العمدة" في الفقه الحنبلي. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٣٧٢، و١٣٨٠.

[4] ابن قُدامة المقدسي، المغني، ج١١، ص٣٧٤.

[5] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي، ص٣٢١، برقم (١٣٢٢)، وأبو داود في السنن، كتاب القضاء، باب في القاضي يخطي، ص٥١٣، برقم (٣٥٧٣)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب القضاء، باب التغليظ في الحكم، ج٢، ص٩١٥، برقم (٥٨٩١)، وابن ماجه في السنن، أبواب الأحكام، باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق، ص٣٣١، برقم (٢٣١٥)، والحاكم في المستدرك، ج٤، ص١٠١، برقم (٧٠١٢)، وصحَّحه ووافقه الذاهبي.

ويُشير هذا الحديثُ إلى أنَّ القاضي إذا كان عالِماً صالحاً، وبَذَل وُسْعَه في تحرِّي الحقِّ والقضاء بالعدل؛ فهو مأجورٌ وإنْ أخطأ. أمَّا إنْ أصاب فله أجران: أجرُ اجتهاده وتحرِّيه العدلَ، وأجرٌ لإصابته.

وأمَّا إذا قَبِلَ ولايةَ القضاء وهو غيرُ عالِمٍ، وأقدم على القضاء بجهلٍ؛ فإنه آثِمٌ، وهو أحدُ القاضِيَيْن اللذَين أخبر النبيُّ ﷺ أنه في النار.

٤) وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ طَلَبَ قَضَاءَ الْمُسْلِمِيْنَ حَتَّى يَنَالَهُ، ثُمَّ غَلَبَ عَدْلُهُ جَوْرَهُ؛ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ غَلَبَ جَوْرُهُ عَدْلَهُ؛ فَلَهُ النَّارُ**»[١].

ومعنى الحديث: أنَّ مَن سعى في طلب مرتبة القضاء حتى يُدرِكه، ثم حين يقضي بين المسلمين؛ كان عدلُه في حكمه أكثرَ من ظُلمه؛ فهذا وَعَده رسولُ الله ﷺ بدخول الجنَّة. ومَن كان قد غلب ظلمُه عدلَه في حُكمه بين المسلمين؛ فهذا مما يُوجب له النار، وفي هذا دلالةٌ على خطر طلب القضاء لمن لا يجد في نفسه أهليةً لذلك[٢].

٥) وعن عبد الله ابن عبّاس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ مَعَ الْقَاضِيْ مَا لَمْ يَجُرْ، فَإِذَا جَارَ تَخَلَّى عَنْهُ وَلَزِمَه الشَّيْطَانُ**»[٣].

ومعنى الحديث: إنَّ الله تعالى مع القاضي المسلم العَدْل بالنُّصْرة والإعانةِ والتوفيقِ والسَّدادِ ما لم يَظلِم. فإذا ظَلَم؛ تخلَّى عنه بتركه وخِذلانه، وترك مددَه وعونَه ونصرتَه؛ وبذلك يَلزَمه الشيطان بالإضلال والتضليل، فلا ينفكّ عن تحريفه وتضليله عن جادَّة الحقِّ والصواب.

٦) وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ وَلِيَ القَضَاءَ، أو جُعِلَ قاضِياً بَيْنَ النَّاسِ؛ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّيْنٍ**»[٤].

---

[١] أخرجه أبو داود في السنن، كتاب القضاء، باب في القاضي يخطئ، ص٥١٣، برقم (٣٥٧٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨٨/١٠) برقم (١٩٩٥٢)، واللفظ لأبي داود، وهو حديث ضعيف، انظر: الألباني، ضعيف سنن أبي داود، ص٢٨٥، برقم (٣٥٧٥).

[٢] انظر: العظيم آبادي، عون المعبود ج٩، ص٣٥٣، ٣٥٤.

[٣] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب الأحكام، باب ما جاء في الإمام العادل، ص٣٢٢، برقم (١٣٣٠)، وابن ماجه في السنن، أبواب الأحكام، باب التغليظ في الحيف والرشوة، ص٣٣١، برقم (٢٣١٢)، واللفظُ للترمذي، وقال: "هذا حديث حسن غريب".

[٤] أخرجه أحمد في المسند، ج١٢، ص٥٢، برقم (٧١٤٥)، والترمذي في الجامع، أبواب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي، ص٣٢١، (١٣٢٥)، وأبو داود في السنن، كتاب القضاء، باب في طلب القضاء، ص٥١٣، برقم (٣٥٧١)، وابن ماجه في السنن، أبواب الأحكام، باب ذكر القضاء، ص٣٣٠، برقم (٢٣٠٨)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب القضاء، باب التغليظ في الحكم، ج٢، ص٩١٥، برقم (٥٨٩٢)، واللفظ للترمذي، وقال: "هذا حديث حسن غريب".

ومعنى هذا الحديث: أنَّ من تولَّى القضاءَ؛ فقد تعرَّض لهلاك دينه، فالذَّبْحُ بالسِّكِّين مُهلِكٌ، وبغير السكِّين فيه مع الهلاك شِدَّة التعذيب والإيلام.

ولهذا مثَّل النبيُّ ﷺ حالَ من يتولَّى القضاءَ بالمذبوح بغير سكّينٍ ليكون أبلغَ في بيان خطرِه، فيتوقَّاه، ويَنْزجِر عنه.

قال الإمام الخطَّابي[١]: "معناه: التحذير من طلبِ القضاء، والحرصِ عليه"[٢].

فيدلّ ما جاء في هذا الحديث على: أنَّ خطر القضاء كبيرٌ، وضَرَرُه عظيمٌ؛ لأنه قلَّما عَدَل القاضي بين الخصمَين، لأن النفس مائلةٌ إلى من يحبّه أو يخدمه، أو مَن له منصبٌ يتوقَّى جاهَه، أو يخاف سلطنتَه، وربما يميل إلى قبول الرشوة وهو الداء العُضَال[٣].

٧) وعن عبد الله بن أبي أَوْفَى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ مَعَ القَاضِي مَا لَمْ يَجُرْ، فَإِذَا جَارَ؛ وَكَلَهُ إِلَى نَفْسهِ**»[٤].

وفي هذا الحديثِ بيانٌ أنَّ اللهَ تعالى مع القاضي العادل المعظِّم لحدود الله، يؤيِّده ويسدِّده ويُفهمه، ما لم يَجُرْ؛ أي ما لم يظلم، ويَتَّبِع الهوى، ويتجاوز حدودَ الله تعالى، ويَخُوْن الأمانةَ التي وَلِيَها. فإنه إنْ فعل ذلك؛ وَكَّله تعالى إلى نفسه، ومَن وُكِّلَ إلى نفسه؛ حُرِمَ التوفيق من الله تعالى، فلا يَجني إلا الخُذلان.

ولقد صَدَق نبيُّ الله شعيب – عليه السَّلام – حين قال: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، أي: وما رُشْدي وفلاحي إلا بيد الله تعالى.

وفي هذا الحديثِ جوازُ قبول ولاية القضاء لِمن أخذها بحقِّها، واتَّقى اللهَ فيها؛ لأن معيّة الله تعالى المشار إليها في الحديث معيّةٌ خاصةٌ، لا تكون إلا لعبدٍ يُحبّه اللهُ ويرضى عنه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:

---

[١] هو حَمْد بن محمد بن إبراهيم ابن الخطاب البستي، أبو سليمان (٣١٩ – ٣٧٧هـ): فقيه محدِّث لغويّ، من أهل "بُسْت" من بلاد كابُل. له "مَعالِم السنن" في شرح سنن أبي داود، و"بيان إعجاز القرآن"، و"إصلاح غلط المحدثين"، و"غريب الحديث". انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٣، ص١٠١٨، ١٠٢٠.

[٢] الخطابي، معالم السنن، ج٤، ص١٥٩.

[٣] انظر: علي القاري الهروي، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج١٣، ١٢٤.

[٤] أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الأحكام، باب التغليظ في الحيف والرشوة، ص٣٣١، برقم (٢٣١٢)، وهو حديث حسن، انظر: الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، ج٢، ص٢٥٠، برقم١٨٨٤.

١٢٨]، وغير ذلك من الآيات التي تُشير إلى هذا النوع من المعيّة، وهي معيّةُ تأييدٍ وتوفيقٍ وتسديدٍ"[1].

ومثلُ هذا الأمرِ الجليلِ الذي عظَّم الإسلامُ شأنَه، "إذا دخله مُتعالِمٌ بتصرُّفاته السقيمة، ومعلوماتِه الضئيلة، وعقليتِه الهزيلة؛ صار تُكْأَةً لاستعداء العِداء على تحكيم شريعة ربِّ الأرض والسماء، ولا تَسَلْ عن اضطراب حبل الأحوال، وتتابُعِ الأهوال. وفيما دُوِّنَ في صفحات التاريخ عبرةٌ لِمن اعتبر، وعِظَةٌ لِمن ادَّكَرَ"[2].

خلاصة الفصل:

وهذا الفصل – وهو الثاني من حيث الترتيب – فقد قمتُ فيه – بتوفيق الله تعالى ومَنِّه، وعظيمِ فضله وإحسانه – بتعريف "التَّعالُم" كفتنةٍ من فِتَن آخر الزمان، التي نبَّأ رسولُ الله ﷺ بظهورها وانتشارها عند رفع العلم وفُشُوِّ الجهل، لغةً كما ورد في كتب أهل لغة العرب من القدماء والمعاصرين، ثم تعريفِه اصطلاحاً كما جاء في تعريفات أهل العلم ممن قاموا بمعالجة هذا الموضوع وبلورتِه من أولئك الذين تَعايَشُوا مع هذه القضية وأمثالها، وعاصروها واكْتَوَوْا بنيرانها، لكنهم لم يقفوا أمامها مكتوفي الأيدي ومُلْجَمي الألسنة؛ بل – وجزاهم الله تعالى على ذلك خيرَ ما جزى أهلَ علمٍ عن أمتهم – كانت لهم جهودٌ مشكورةٌ ومساعٍ جادّةٌ في إبراز هذه القضية وإظهارِها، وبيانِها وتعريفِها، وتناوُلِها بالدراسة والتحليل مع تقديم العلاج والحلول لوقف انتشارها وحَدِّ سريانها في المجتمع بأكمله.

كما بيّنتُ في المبحث الثاني لهذا الفصل أيضاً تلك المجالات التي ظهر فيها "التَّعالُم" واستشرى فيها، وكما رأينا أنها من أهمِّ قنوات العلم ومجالات المعرفة لدى المسلمين من تدريس وتعليم، وتأليف وتحقيق، وإفتاء وقضاء، وكيف أنّ هذه المجالات الهامَّة إذا دخلها "التَّعالُمُ" فإنه يُفقِدها هيبتَها ووقارَها، ويُنقِص من قَدْرها وشأنها، ويجرح عِزَّها وكرامتَها، فلا بُدّ من تنظيف هذه القنواتِ وتنقيتِها من مثل هذه الشوائب الكَدِرَة، والرَّواسِب العَكِرَة؛ لتعود قنواتُ العلمِ صافيةً نقيةً معتزّةً بثقة الإسلام، مفخرةً للمسلمين.

---

[1] انظر: العدوي، إهداء الديباجة، ج٣، ص٢٦٤، ٢٦٥.

[2] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٥٤ و٥٥.

الفصل الثالث

شخصية "الْمُتعالِم"

المبحث الأول: دوافع "التَّعالُم" وأسبابه.

المبحث الثاني: صفات الْمُتعالِم.

دوافع "التَّعالُم" وأسبابه

وإنْ أتينا لنبحث عن أسباب ظهور هذا الدَّاء، ودوافع انتشار هذا البلاء المؤدِّي إلى عظيم الهبوط، وسحيقِ الانحطاط، في ضوء الأحاديث النبوية السابقة المتعلّقة بهذه القضية، والتي أوردتها مفصَّلةً في الفصل السابق؛ فسوف نجد أنها – وكما ذكر أهل العلم وأُوْلِي المعرفة – تتلخَّص فيما يلي:

الدافع الأول: التأكُّلُ بالعلم واتِّخاذُه وسيلةً للارتزاق:

إنّ من أقوى دوافع "التَّعالُم" وأسبابه: التأكُّلُ بالعلم، وطلبُ المال ليس إلا ذلك، ولهذا يركبون لجلبه الصَّعْبَ والذَّلول[1]. وشهوةُ المالِ مركَّبةٌ في فطرة بني آدم، وهذا شيءٌ مفروغٌ منه، لكن أن يكون العلمُ الشرعيُّ وسيلةً لكسبه، وذريعةً لحصوله دون أن يكون هناك إخلاصٌ لله تعالى، واحتسابُ الأجر، واستحضارُ النِّيّة الصادقة، والعملُ به للآخرة، ونيلُ مرضاة الله؛ فهذا ما يدلّ على دناءة النفس وخساسة الطبع؛ لأن العلم الشرعيّ طلبُه وبذلُه لا بُدّ فيه من إخلاص النية لوجه الله ﷻ، ونيلِه لحصول الخشية والتُّقَى والعمل به للآخرة، أما اتِّخاذه سُلَّماً لنيل المآرب الدنيويّة الفانية، وكسب الملذَّات الدنيئة الزائلة بأقصر طريقٍ وأيسره؛ فهذا مما توعَّد ربُّ العالمين فاعِلَه وسالِكَه بالعذاب الشديد والعِقاب الأليم، ومما جاء في هذا المعنى من كلام المصطفى ﷺ:

١) ما رُوي عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً، مِمَّا يُبْتَغَى به وَجْهُ اللهِ تعالى، لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيْبَ عَرَضاً مِن الدُّنْيا؛ لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّة[2] يَوْمَ القِيَامَةِ»[3].

---

[1] بكر عبد الله أبو زيد، الرقابة على التراث، ص١٨٦.

[2] عَرْفُ الجنة: أي: رِيحُها الطيبة. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج٢، ص١٩٠.

[3] أخرجه أبو داود في السنن، كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله، برقم (٣٦٦٤)، وهو حديث صحيح، قاله المنذري في "الترغيب والترهيب"، ج١، ص١٥٣.

٢) كما رُوي عنه ﷺ كذلك أنه قال: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ اللهِ؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[١].

٣) وقال الحسن البصري[٢] رحمه الله تعالى: "عقوبة العالم موتُ قلبه، قيل له: وما موتُ القلب؟ قال: طلبُ الدنيا بعمل الآخرة"[٣]. وقال في موضع آخر: "من أفرط في حُبّ الدنيا؛ ذهب خوف الآخرة من قلبه، ومن ازداد علماً ثم ازداد على الدنيا حرصاً؛ لم يَزْدَدْ من الله إلا بُغْضاً، و لم يزدد من الدنيا إلا بُعْداً"[٤].

٤) وقال بعض الصالحين: "اللَّهم! إني أشكو إليك ظهورَ البَغْي والفساد في الأرض، وما يَحُوْل بين الحقِّ وأهلِه من الطمع[٥]"[٦].

الدافع الثاني: الخلطُ وعدمُ التفريق بين أهل العلم والتمكُّنِ وذوي الرسوخِ والثباتِ، وبين طَلَبة العلم المبتدئين وغيرهم:

فهناك خلطٌ وعدمُ تفريقٍ بين العالِم الراسخ في العلم وبين طالب العلم، وهناك خلطٌ بين العالِم والداعية وبين العالِم والواعظ وبين العالِم المتمكِّن في الدين والعلم، وبين المتخصِّص في مجال واحد فقط، مع العلم بأنَّ هذه العلوم تتداخل مع بعضها البعض، فالعالِمُ الرباني هو طالب علمٍ يطلب العلمَ خالصاً لوجه الله تعالى، وهو معلِّم وداعية، وموجِّه ومربٍّ، وهو واعظ ومتخصِّص.

لكن المشكلة فيمن غلب عليه واحدٌ من تلك الأمور، فقد يغلب على الإنسان أن يكون داعيةً أو واعظاً، أو معلِّماً مربِّياً دون أن يكون راسخاً في العلم، فالمشكلة أنَّ كثيراً من العوام لا يفرِّقون بين هذه الفئات الغالب عليها التخصُّصُ في مجال واحد، وبين العلماء المتمكِّنين من العلم الراسخين فيه، وهنا يقع التَّعالُم، بل إنَّ العامة قد تكون سبباً كبيراً في وجود مثل هذا التَّعالُم.

---

[١] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب فيمن طلب بعلمه الدنيا، ص٦٠٣، برقم (٢٦٥٥)، وابن ماجه في مقدمة السنن، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، ص٤٠، برقم (٢٥٨)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب العلم، باب من تعلَّم العلمَ لغير الله ﷻ، ج٢، ص٩١٢، برقم (٥٨٧٩)، واللفظ للترمذي، وقال: "حديث حسن غريب".

[٢] هو الحسن بن يَسَار البصري، أبو سعيد (٢١ – ١١٠هـ): سيد التابعين، وأحد العلماء الفقهاء الفصحاء. وُلد في المدينة وتوفي بالبصرة، استمع إلى الصحابة الذين استقروا فيها. قال الإمام الغزالي: "كان الحسنُ البصري أشبهَ الناسِ كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربَهم هَدْياً من الصحابة". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٢، ص٢٢٦.

[٣] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٥٣٨.

[٤] المرجع السابق، ج١، ص٥٣٩.

[٥] يعني بذلك ما يحول بين الحقِّ وأهل الحقِّ والعلم، من حُبّ المال والجاه، والطمعِ في الرئاسة والشهرة، والحرصِ على المظاهر الدنيوية الفانية الزائلة.

[٦] المرجع السابق، ج١، ص٥٣٨.

وإنّ التفريق بين التخصصات المختلفة لازمٌ وضروريٌّ، وإنزال كل فردٍ منْزلته اللاَّئقة به ضروريٌّ كذلك، ويؤيِّد هذا موقفُ رسول الله ﷺ من أهل المواهب المختلفة، وذوي القدرات المتباينة، فليس كل أهل العلم سواء من حيث الرسوخ والتمكُّن، وصلاحية الأخذ والعطاء.

كما أنَّ ليس كل طلبة العلم سواء من حيث الفهم والاستيعاب، وقوةِ الحفظ والضبط، وفي هذا المعنى يُروَى عن رسول الله ﷺ من حديث زيد بن ثابت ﷺ إذ قال: "سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيْثاً فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَه، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهَ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيْهٍ»[1] .

وفي رواية أخرى عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: "سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئاً فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»[2].

ويَحضُرني في هذا المقام قولٌ ذهبيٌّ لأحد أعلام العصر وأساتذته ممن له خبرةٌ عميقةٌ وممارسةٌ طويلةٌ في كِلي مجالَي التدريس والتأليف، وهو الأستاذ الدكتور فاروق حَمَادة[3]، أنقله هنا بأكمله لقيمته وأهميته ونفاسته، يقول حفظه الله تعالى:

"إنّ من قضية المنهج وسلامته: أن تضع الأمةُ ومفكِّروها وعقلاؤها كلَّ علمٍ في مكانه، وكلَّ عالِمٍ في مجاله وميدانه، وإلا فسيكون العلمُ والمعرفةُ أداةً للترويع والتدمير والتأخير، وهي قضيةٌ جدُّ خطيرة. وإنَّ الأمة ستضلّ وستنتحر إذا لم تفرِّق بين الخطيب الْمِصْقَع الذي يجري وراء الكلمة المؤثِّرة ليَهُزَّ بها أوتارَ قلوب سامعيه، ويجعلهم يتجاوبون معه، ويندفعون نحوه.

---

[1] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، ص٦٠٣، برقم: (٢٦٥٦)، وقال: "حديث حسن".

وقال المحدِّث الشيخ عبد الرحمن المباركفوري في شرح الحديث: "«فرُبَّ حامِلِ فقهٍ» أي: عِلْمٍ «إلى مَنْ هُو أفقَهُ منه»، أي: فرُبَّ حامِلِ فقهٍ قد يكون فقيهاً، ولا يكون أفقَهَ، فيَحمِل الفقهَ ويَحفَظُه حتى يبلِّغه إلى مَن هو أفقَهُ منه فيَستنبط منه ما لا يَفهَمه الحامِلُ، أو يَحمِلُه إلى مَن يَصِير أفقَهَ منه، وفيه إشارةٌ إلى فائدة النَّقل والدَّاعي إليه. والله أعلم. انظر: ا لمباركفوري، تحفة الأحوذي، ج٧، ص ٣٤٨.

[2] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، ص٦٠٣، برقم: (٢٦٥٧)، وقال: "حديث حسن صحيح".

[3] هو فاروق بن محمود بن حسن حَمادة (من مواليد عام ١٩٥٠م): أحد علماء الحديث المشهورين، وأبرز المؤلفين المحققين في مجال الدراسات الحديثية. وُلد في حمص في سورية، تخرَّج في كلية الشريعة من جامعة دمشق، ثم نال شهادةَ الماجستير فالدكتوراه في الحديث النبوي من دار الحديث الحسنية بالرباط في المغرب. عمل أستاذاً في الجامعات المغربية. ومن مؤلَّفاته: "منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً وتحقيقاً"، و"المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل دراسة منهجية في علوم الحديث". انظر ترجمته في آخر كتابه "المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل"، ص٤١٣ و٤١٤.

وبين الباحث الذي يحقّق الأفكارَ ويردُّها إلى مظانِّها، ويبيِّن صوابَها من خطئها، وقويِّها حجةً من ضعيفها.

وبين الواعظ الذي يرقّق القلوبَ، بما صحَّ وضَعُف، بل وبما تَهالَكَ وسَخُف، يُبكيهم تارةً، ويُضحِكهم أخرى.

وبين المفكِّر الذي يتأمّل ويستنبط، ويبني أفكاراً من خلال تجاربه وتجارُب غيره وتأمُّلاته، وقراءاته ودراساته، وقد تكون أفكاره صحيحةً صائبةً، وقد تكون مجانبةً للصواب، ولكنها على كل حالٍ اجتهادُه وأفكارُه وإليه تُنسَب.

وبين الأصولِيِّ الذي يضبط مسالكَ الفكر، ويبيِّن صحيحَه من سقيمه، ومتماسكَه من واهنه...

وبين الداعية الذي يدلّ الناسَ على الله، بالعقل تارةً، وبالعاطفة تارةً أخرى بالتقريب والتمثيل، بالصحيح والعليل...

وبين الفقيه الذي يجول في المصادر والأصول، ويُطيل النظرَ، ويقلِّب صفحاتِ الفكر، ثم يقدِّم ذلك في كلمات معدودات: هذا حلالٌ أو هذا حرامٌ.

وبين المحدِّث الذي يُجيد معرفةَ الأسانيد ورجالها، وجرحَها وتعديلها، وتصحيحها وتضعيفها،... ويعجز في كثير من الأحيان عن إدراك الْمَغْزَى أو إقامة الدليل على صحة المعنى.

وبين المؤرِّخ الذي نَقَب في شِعاب الماضي مع الحِيَل والمؤامرات، والمكائد والغارات، والسفارات والمراسلات، ولا ينصرف ذهنه إلا لقيام الدُّوَل وحروبها، ورجالها وأعمالها...

وبين لُغَوِيٍّ أديبٍ يلهث وراء الكلمة وإعرابها، وبلاغتها ونحوها وصرفها، ودلالتها وشاهدها...

وبين عروضيٍّ يعرف الشعرَ وأوزانه، وعِلَله وزحافاته، وأوتاده وأسبابه، وخليله وأخفاشه...

وبين قارىءٍ يُجيد الترنُّمَ والتطريب، وأداء الكلمة من مخارجها الصحيحة، ولا يعدو ذلك إلى فهمٍ سليم أو قبس من علم مستقيم.

ورحم اللهُ الإمامَ الشافعي إذ يقول: "وقد تكلَّم في العلم مَن لو أمسك عن بعض ما تكلَّم فيه منه؛ لكان الإمساكُ أَوْلَى به، وأقرَبَ من السلامة إن شاء الله"[1].

---

[1] محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، ص٤١، فقرة رقم (١٣٢).

إنّ الأمة التي لا تضع كلَّ واحدٍ في مكانه، وترجع إليه في محض تخصُّصه؛ لن يتقدَّم فيها العلمُ. وكذلك مَن وضع نفسَه في غير ميدانه؛ أتى بالأعاجيب، وسيكبر العلم بذلك عشوائياً، على دَخَنٍ وشوائب، وسيُصبح عائقاً عن الوصول إلى الحقِّ الذي يتطابق مع نواميس الكون والنفس.

هل قرأتَ أيها القارئ فتوى في حلال أو حرام للجاحِظ العلامة الإمام في ميدانه؟! وهل رأيتَ كتاباً في التفسير ليحيى بن مَعين[1] إمام الجرح والتعديل ناهيك عن الحلال والحرام؟! وهل رأيتَ كتاباً في اللغة لأمير المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل البخاري؟! وقد عَوَّل في صحيحه العظيم على أبي عُبَيْدة مَعْمَر بن المثنَّى اللُّغَوِي[2] ولامَه اللائمون على ذلك، ولكنه إمامٌ في اللغة واعتمده في تخصُّصه.

وهل وجدتَ كتاباً في الأصول لابن إسحاق[3] إمام أهل المغازي والسِّيَر؟! وهل وجدتَ واحداً من هؤلاء المنارات في تلك القرون دَرَج في غير ميدانه، أو احتطب من غير رَبْعِه وبُستانه؟!!.

إنَّ قضية المنهج إذا اختلَّت ستُعطي لا محالةَ معرفةً شَوْهاء، فما بالُها اختلَّتْ تلقِّياً للمعرفة وأخذاً للعلم؟! وعطاءاً وأداءاً؟! فمن يتعاطى ما ليس له بتخصُّصٍ أو ميدانٍ يَغتال الحقيقةَ، ويُسيئ إلى الأمة"[4].

ولفضيلة الداعية الحكيم المفكِّر المربِّي الشيخ أبي الحسن النَّدْوي محاضرةٌ علميةٌ قيمةٌ عظيمةٌ حول ضرورة حُسْنِ اختيار المعلِّم لمنصب التعليم والتوجيه العظيمَين، وأهميةِ ذلك للناشئة والأجيال، أنقُلُ بعضَ مقتطفاتٍ منه لجلالة تلك الكلماتِ وخطورتِها خصوصاً في مثل هذا

---

[1] هو يحيى بن مَعِين بن عَوْن البغدادي، أبو زكريا (١٥٨ – ٢٣٣هـ): أحد أئمة الحديث ورجاله، نعته الحافظُ الذهبي بـ"سيد الحفاظ"، والحافظُ ابن حجر بـ"إمام الجرح والتعديل". وُلد بقرية "نقيا" قُرب الأنبار في العراق وتوفي بالمدينة. ومن كتبه: "التاريخ والعلل"، و"معرفة الرجال" وغيرهما. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٢، ص٢٨٠.

[2] هو أبو عُبيدة مَعْمَر بن المثنَّى التيمي البصري (١١٢-٢٠٨هـ): النحوي اللغوي. ولد في البصرة، وهو أول من صنّف في غريب الحديث. وكان من أجمع الناس للعلم وأعلمهم بأيام العرب وأخبارها، وأكثر الناس رواية. وله نحو مائتين من المصنفات، ومنها: "مجاز القرآن"، و"إعراب القرآن". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٧، ص٢٧٢.

[3] هو محمد بن إسحاق بن يَسَار المطلبي المدني (ت١٥١هـ): أحد حفاظ الحديث، ومن أقدم مؤرِّخي العرب، من أهل المدينة، سكن بغداد فمات بها. قال ابن حبان: "لم يكن أحد بالمدينة يقارب ابنَ إسحاق في علمه، أو يُوازيه في جمعه، وهو من أحسن الناس سياقاً للأخبار". انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٦٣.

[4] فاروق حمادة، منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً ومنهجاً، ص١٠، ١١.

الشأن العظيم، يقول رحمه الله تعالى: "إنَّ مسألة اختيار المعلِّمين ليستْ بسيطةً سهلةً، كما يَظُنُّ كثيرٌ من رجال المعارف، ليس أساسُه العلمَ وحدَه، والْمَقْدِرةَ التعليمية، والمؤهَّلات العلمية فحسب؛ بل يجب أن تكون للسِّيرة والخُلُق والمبدأ والغاية، والإيمان والعقيدة: المكانة الأولى، والأهمية الكبرى في اختيار المعلِّم.

ويجب أن تكون هذه العقيدةُ متغلغلةً في الأحشاء، قد مَلَكَتْ عليه فكرَه ومَشاعِرَه، وجعلتْ منه داعيةً لا يَمَلُّ ولا يَكِلُّ، ومؤمِناً لا يَرتاب ولا يتشكَّك؛ وذلك مَثَلُ المعلِّم الكامل الذي يَسعَد به نظامُ التعليم، ويؤدِّي مهمتَه بنجاحٍ وسهولةٍ.

وإني لا أَعرِفُ أمانةً أكبَرَ مسؤوليةً، وأشَدَّ خطراً، وأعمَقَ أثراً في مستقبل الأُمّةِ وحياتِها، من المعارف، فزَلَّةٌ من زَلاَّتها قد تؤدِّي أمةً بأسرها في هاويةٍ، وقد تؤدِّي بها إلى الاضمحلال والتفسُّح والفوضى في الأخلاق والاجتماع، والسياسة والتعليم، واللاَّدينية والإلحاد، كذلك يمكنها وحدها أن توجِّه العقولَ والنفوسَ توجيهاً صالحاً، وتُنشِئ الأمةَ نشأةً جديدةً، وتبني لها مسقبلاً باهراً.

وليس من الشرفِ والرجولةِ الفرارُ من المسؤلية المشرِّفة؛ بل الشرفُ والرجولةُ وعُلُوُّ الهمةِ: الاضطلاعُ بهذا العبء، الذي ألقتْه الأمة على كاهلها، وأن تساهم في نهضة الأمة بالقسط الأكبر؛ بل تضع أساسَها الذي سيقوم عليه بناءُ المجتمع"[1].

الدافع الثالث: ضَعْفُ الإيمان والتقوى، وضَعْفُ مراقبة الله ﷻ فيما يقوله الإنسان:

إنَّ أهل العلم الربانيين لا يُقدِمون على الخوض في مجالات علوم الشريعة إلا وهم مِن أشَدِّ الناسِ خشيةً لله ربّ العالمين، ومراقبةً لفاطر السماوات والأرضين، فهم إنْ نطقوا؛ نطقوا بالحقّ لبيان الحقّ، وإنْ كتبوا ودوَّنوا فلأجل إظهار الحقِّ ومحقِ الباطل؛ متمسِّكين في كل ذلك بزِمَام الصِّدْق والتُّقَى، وعظيمِ الإخلاص والإيمان، في كل وقفةٍ وحركةٍ، وفي كل آنٍ وحينٍ، مخالفين بذلك أهلَ النفاق والرياء، والكذب والادِّعاء، مَن قال عنهم رسولُ الله ﷺ في الحديث المروي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خَصْلَتَانِ لاَ تَجْتَمِعَانِ فِي مُنَافِقٍ: حُسْنُ سَمْتٍ، وَلاَ فِقْهٌ فِي الدِّيْنِ»[2].

---

[1] أبو الحسن الندوي، أبحاث حول التعليم والتربية الإسلامية، ص٢٢٦، ٢٢٧.

[2] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ص٦٠٩، برقم (٢٦٨٤)، وقال: "هذا حديث غريب".

بينما الإقدامُ على ادِّعاء العلم دون الاتِّصاف به حقيقةً بل تَشَبُّعاً وزُوْراً وكذباً؛ فهذا لا يتجرَّأ عليه، إلا مَن ضَعُف لديه الوازعُ الديني، وتخلخلتْ عنده الرِّقابة الذاتية، وغابَ عنه الوعي الديني اللازم لتبصير النفس وتنوير الضمير.

حيث إنّ وجود الوازع الديني يمنع مِن الفُتيا بغير علمٍ، والخوضِ في المجالات الشرعية كتابةً وتأليفاً بغير أهلية، أمّا إذا ضَعُفَتْ التقوى في القلوب، وغابَ الوازعُ الديني من النفوس؛ فمَن يمنع من الجرأة على الفُتيا بغير علمٍ، والخوضِ في الكتابة والتأليف في العلوم الشرعية بلا استحقاق وبلا أهلية[1].

وإنّ وقوع هذا الأمر – في الحقيقة – وحصولَه لهو مِن أعظم ما كان يخافه رسولُ الله ﷺ إذ يُروَى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الأَئِمَّةُ الْمُضِلُّوْنَ»[2].

الدافع الرابع: اتِّباعُ هوى النفسِ وشهواتِها والإعجابُ بها:

وهذا من أخطر الْمَزالِق في هذا الباب، وهو مدخلٌ كبيرٌ جداً لهذه الفتنة العظيمة، ويكون الهوى في أمرين:

١) اتِّباعُ هوى النفس وحظوظها.

٢) اتِّباعُ هوى الآخرين وما يريدونه.

وقد نَهَى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ عن اتِّباع أهواء الناس وموافقتهم إلى ما يدعونه من الباطل؛ لأن هناك من يوجد من دعا رسولَ الله ﷺ إلى موافقة أهوائهم وشهواتهم وواقعهم الفاسد، فكيف بحَمَلَته ووَرَثَته من أهل العلم الذين يُواجهونهم الآن، والدليلُ على ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨]، وهنا يظهر الفرقُ بين أهل العلم وبين الْمُتعالِمين، فأهلُ العلم الربانيين يتكلَّمون حسب ما جاء في الشريعة والملة، أمَّا الْمُتعالِمون فيتكلَّمون ويناقشون ويُفتون على حسب ما يُوافِق أهواء الناس ويُرضيهم.

ودليلٌ ثانٍ على ما ذكرنا، قول الله تعالى مخاطباً نبيَّه داود عليه السَّلام: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾، فهنا يخاطب اللهُ عز وجل

[1] أبو صعليك، جهود المعاصرين في خدمة السنة النبوية المشرفة، ص١٠٧، بتصرف.

[2] أخرجه أحمد في المسند، ج٤٥، ص٤٧٨، برقم (٢٧٤٨٥)، وهو صحيح لغيره، قاله محقِّق المسنَد الشيخ شعيب الأرناؤوط.

داود – عليه السَّلام – قائلاً له: أي: جعلناك قائماً بتحكيم شريعة الله، فلا تتبع الهوى فيُضّلوك عن شريعة الله.

فإنّ أخطَرُ شيءٍ على الرجل في المعرفة وعلم الحقِّ: أن يجعله تابعاً لرأيه وهواه، ورغباته وأفكاره التي عَبَّها سابقاً، ولهذا جاء التحذير في القرآن الكريم من الهوى، والانسياق وراء الهوى[1].

الدافع الخامس: فُقْدان المنهج العلمي التأصيلي المناسب الصحيح:

إنَّ عدم تلقّي العلم عن العلماء الراسخين الربانيين المتقنين بالتدرُّج العلمي الصحيح، والمنهجِ التأصيلي المناسب؛ من أقوى أسباب حصول "التَّعالُم" ودوافِعه، فقضيةُ المنهج في طلب العلم أمرٌ مهمٌّ وخطيرٌ جداً، وقد نبَّه إلى عِظَم هذا الأمرِ وخطورتِه، ونَوَّه بأهميته وضرورته في حياة الطالب العلمية كثيرٌ من أكابر علماء المسلمين وعظمائهم في الغابر والحاضر، ومن علمائنا المعاصرين الَّذين قاموا بجهدٍ وافرٍ مشكورٍ في خدمة السُّنَّة وعلومها وهو الأستاذ الدكتور فاروق حمادة، يقول متحدِّثاً عن قضية المنهج، ومنوِّهاً بأهميتها في حياة طالب العلم: "وإني كنتُ ولا زلتُ أؤكِّد على قضية المنهج في كل مناسبةٍ تسنح لي أداءً لحقّ العلم، واهتداءاً بالقرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الشريفة، وتأثُّراً بسلفنا الصالح والمصلح الذي شادَ الحضارةَ ورفع سَماكَها، واللهُ تعالى يقول: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣].

والعادُّون: هم الذين يَعُدُّون السِّنين والأعوام والشهور والأيام، وهذا تخصُّصٌ قائمٌ بذاته يُرجَع فيه إلى أهله، كما أرشد الحقُّ تعالى، ونطقوا بذلك أمامه ﷻ.

ولعلَّ الالتزام الصارم بالمنهج تلقّياً وأداءاً؛ أخذاً للعلم وتدريساً وتصنيفاً وعطاءاً، يطوي كثيراً من المراحل، ويُطيل أعمارَ الأفراد والأمة بما يجدونه من سَعَةٍ في الزمن والجهد، وبما يَتجنَّبون من رَهَقٍ ومشقَّةٍ"[2].

كما نوَّه بضرورة المنهج العلمي الصحيح كذلك، وأشار إلى أهميته المحدِّثُ الشيخ محمد عَوَّامة، إذ قال في كتابه النافع "مَعالِم إرشادية لصناعة طالب العلم" ما نَصُّه: "إنَّ أهمية المنهج وخطورتَه يُدرِكه طالبُ العلم الذي يعيش آلامَ انتهاكِ حُرُماتِ العلم والدِّين، ممن يَحمِلون ألقاباً

---

[1] فاروق حمادة، منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً ومنهجاً، ص٦٠، بتصرف يسير.

[2] المرجع السابق، ص١٢.

علميةً لكنها خَلاّبة![1]، فهؤلاء هم الذين يُدركِون ضرورةَ الحثّ على الرجوع إلى منهج علمائنا السابقين في طلب العلم وتحصيله، ليَرَى المسلمون من جديدٍ أهم يعيشون بين علماء عامِلِين، راسخِين صادِقِين، يتمثَّل فيهم العلمُ الحقُّ، والإسلامُ الحيُّ، والأُمَّةُ بآمالها وآلامِها، يعيش الواحدُ منهم للأمة لا لنفسه.

وإنَّ غياب المنهج الصحيح لطلب العلم عن أذهان الناس في هذه العقود الأخيرة من الزَّمن؛ رَفَع عندهم أُناساً كثيرين غير متأهِّلين للرِّفْعَة، وخَفَّض وغَيَّب عن السَّاحة العلمية بعضَ الرُّفعاء المتأهِّلين للصَّدارة العلمية، كما أظهر على السَّاحة العلمية أناساً كثيرين من أنصاف المتعلِّمين، كان لهم على العلم وَيْلاتٌ ووَيْلاتٌ!"[2].

ولبعضهم أبياتٌ جميلةٌ في ذَمّ مَن لم يَتّخِذ لنفسه منهجاً علمياً لطلب العلم فأخذه عن الكُتب دُوْن مُلازَمةٍ لشيخٍ مُتْقِنٍ أو أستاذٍ بارعٍ، يقول فيها:

يَظُنُّ الْغَمْرُ[3] أنَّ الْكُتُبَ تَهْدِي ... أخَا فَهْمٍ لإدْرَاكِ الْعُلُوْمِ
ومَا يَدْرِي الْجَهُوْلُ بأنَّ فِيْهَا ... غَوَامِضَ حَيَّرَتْ عَقْلَ الفَهِيْمِ
إذا رُمْتَ الْعُلُوْمَ بغَيْـــرِ شَيْخٍ ... ضَلَلْتَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيْمِ
وتَلْتَبِسُ الأُمُوْرُ عَلَيْكَ حَتَّى ... تَصِيْرَ أَضَلَّ مِن "تُوْمَا الْحَكِيْمِ[4]"

الدافع السادس: مَكْرُ الأعداء بالمسلمين:

وذلك باتِّخاذ بعض طلبة العلم الضِّعاف مَطِيّةً لأغراضهم ومآربهم، والنفخِ في شواذّ أقوالهم وآرائهم، نكايةً بالمسلمين، وهذا في الحقيقة هو دأبُ المستشرقين، وعزمُ المستعمرين، وما تناوُلهم لتراث المسلمين بالتحريف والتشويه بدعوى التحقيق والتدقيق إلا أساس دسائس الكافرين، لتبديل هذا الدينِ وتحريفِه والصَّدِّ عنه، وتفريقِ أهله وذويه، وتفجيرِ الصراع بينهم، وهذا هو

[1] ويقصد المؤلِّفُ بقوله: "يحملون ألقاباً علميةً خلابةً": بأولئك الذين يسعون لتغييب أهميةِ المنهج عن أذهان الناس، لئلا يُكشَف حالهم وعُوَارُهم، فيُطرَدون عن الساحة العلمية، هم ومَن جَرَّأهم على اقتحام كرامة العلم. (من كتاب "معالم إرشادية لصناعة طالب العلم" للشيخ محمد عوامة، ص٢٨، بتصرف يسير).

[2] محمد عوامة، معالم إرشادية لصناعة طالب العلم، ص٢٦ إلى ٢٨.

[3] الغَمْرُ: غِرٌّ، هو مَن لم يجرِّب الأمورَ.

[4] كان طبيباً، ولكن تطبُّبه كان من الكتب، قد وقع التصحيفُ في بعض كتبه فكان يقرأ "الْحَيَّة السَّوْداء شفاءٌ من كلِّ داءٍ"، تصحَّفت كلمةُ "حَبَّة" إلى "حَيَّة"، فماتَ بسبب تطبُّبه خلقٌ كثيرٌ. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج٢، ص٦٣.

دَيْدَنُهم أينما حَلّوا وحيثما ارتحلوا، وعلى وجه الخصوص مع أمةٍ لها مجدُها التاريخي وحضارتُها العريقة، ولهم في حِقد المسلمين ونفرتِهم وغِشِّهم وتدليسِهم ماضٍ قديمٌ تليدٌ[1].

وليس العجبُ من هؤلاء الْمَكَرَة الخادعين، من أعداء الإسلام والمسلمين؛ بل العجبُ كل العجب من أولئك المتأثِّرة الضعفاء من أبناء شريعة الإسلام الغَرّاء، ممن تأثَّروا بأفكار الغرب وآرائهم، وانصهروا انصهاراً كلياً أو جزئياً، في بوتقة دعاويهم ودسائسهم، وحقّاً صَدَق رسولُ الله ﷺ إذْ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ[2] مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً بشِبْرٍ، وذِرَاعاً بذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوْا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوْهُ»[3].

الدافع السابع: ظهورُ وسائل الإعلام المختلفة المرئية والمسموعة والمقروءة، والفضائيات المتنوّعة باتجاهاتها العديدة المتغايرة:

إنّ ما نشاهده في هذه الأيام من ظهور وسائل الإعلام والفضائيات، وغالبُها تَحرِص على أن تكون لها برامج إسلامية، فتجدهم يستضيفون مَن يتكلّم في المسائل الشرعية، أو يُفتي ويُجيب على المسائل وأسئلة الناس، أو يستضيفون المستشارين في الأمور الشرعية، فلكثرتِها كَثُرَ المفتون والمتكلِّمون في العلوم الشرعية بعلمٍ وبغير علمٍ.

وأصبحنا نرى الكثير من هؤلاء قد تَرامَوْا على شاشات الفضائيات، وتَكالَبُوْا للحديث في البرامج والإذاعات، بحيث إذا طُرحت مسائلُ فقهية وشرعية؛ وجدنا المختصَّ منهم وغير المختصِّ يخوض فيها، ويَتمنطَق متحدِّثاً عنها، مُدَّعِياً أنَّ لديه علمها وحُكْمها، وهو في الحقيقة بعيد بُعْدَ المشرِقَيْن عن البحث والاطِّلاع في أصول الشريعة ومُحَكَّماتها، فأنَّى له الخوضُ في فروع الشريعة ومسائلها[4].

الدافع الثامن: التَّسَاهُلُ في الفتوى، والتَّتَبُّعُ للرُّخَص الغُثائية الضعيفة والآراء الشّاذة المهجورة:

إنَّ التساهُلَ في الفتوى، وتتبُّعَ الرُّخَصِ، أنشأتْ في الحقيقةِ ظاهرةَ "التَّعالُم"، فالشخصُ الْمُتعالِمُ الذي يريد أن يَتّصِف بوصف العالِم يأتي بمسألة شاذّة فيتتبَّع رخصةً ضعيفةً شاذَّةً، وقولاً فقهياً

---

[1] بكر بن عبد الله أبو زيد، الرقابة على التراث، ص٢٨٦، بتصرف يسير.

[2] السَّنَنُ: الطريقة. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج١، ص٨١٤.

[3] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ص٦٣٥، برقم (٣٤٥٦)؛ ومسلم في الصحيح، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، ص١١٦٢، برقم (٢٦٦٩).

[4] خباب مروان الحمد، انظروا عمن تأخذون دينكم، هو مقال مودَع في موقع "صيد الفوائد".

مهجوراً، ثم ينشره بين الناس داعياً إليه، فيَظُنّونه عالِماً، وخاصةً إذا صاحَبَ ذلك هوى النفسِ وحبُّ الظهورِ والبروز، وطلبُ المكانةِ والشهرة.

"ومن ملامح الميل مع الهوى والرأي: تصيُّدُ الآراء الشّاذة، والأقوال الضعيفة، والتفسيرات المنحرفة، وقد يكون ذلك نصراً لشهوةٍ خفيةٍ أو رأيٍ دُفِعَ إليه، أو تسويغاً لحالة راهنة، أو إرضاءاً لفئةٍ أو شخصٍ، أو دفعاً في اتّجاه معيَّن أو غير ذلك مما يَكثُر في حياة الناس أفراداً وجماعةً"[1].

وقد أكَّد علماء الإسلام على هذه القضيةِ تأكيداً عظيماً لِما لها من شأنٍ علميٍّ ومعرفيٍّ جليلٍ، عندما قالوا: "ومَن تتبَّع رُخَصَ المذاهب وزَلاّتِ المجتهدين؛ فقد رَقَّ دينه"[2].

وكما ذُكر عن الإمام الأوزاعي قولُه: "مَن أخذ بقول المكيِّين في الْمُتْعَة، والكوفيِّين بالنَّبيذ، والمدنيِّين في الغِناء، والشاميِّين في عِصمة الخلفاء؛ فقد جمع الشَّرَّ.

وكذا مَن أخذ مِن البيوع الرَّبوية بمن يتحيَّل عليها، وفي الطَّلاق، ونكاح التحليل بمن توسَّع فيه، وشِبه ذلك، فقد تعرَّض للانحلال، فنسأل الله تعالى العافيةَ والتوفيق"[3].

ومن طريف ما جاء في هذا ما رواه الإمام أبو العباس ابن سُرَيْج[4] عن إسماعيل القاضي[5] قال: "دخلتُ مرةً على الخليفة المعتضد بالله[6]، فدفع إليّ كتاباً، فنظرتُ فيه، وكان قد جُمِعَ له فيه الرُّخَصُ من زَلَلِ العلماء، وما احتَجَّ به كلٌّ منهم لنفسه، فقلتُ: مصنِّف هذا زنديقٌ، فقال: ألم تَصِحَّ هذه الأحاديثُ؟ قلتُ: بلى!، ولكن من أباح الْمُسْكِرَ لم يُبِحِ المتعةَ، ومن أباح المتعةَ لم يُبْحِ الغناءَ والمسكرَ، وما من عالِمٍ إلا وله زَلّةٌ، ومن جمع زَلَلَ العلماءِ ثم أخذ بها؛ ذهب دينُه"، فأحرق (أي الخليفة) الكتابَ[7].

---

[1] فاروق حمادة، منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً ومنهجاً، ص٦٠.

[2] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٩٠.

[3] المرجع السابق، ج٨، ص٨١.

[4] هو أحمد بن عمر بن سُرَيج البغدادي، أبو العباس (٢٤٩ – ٣٠٦هـ): فقيه الشافعية في عصره. مولده ووفاته في بغداد. ولي القضاء بشيراز، وقام بنصرة المذهب الشافعي فنشره في أكثر الآفاق. انظر: الزركلي، الأعلام، ج١، ص١٨٥.

[5] هو إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الجهضمي الأزدي (٢٠٠ – ٢٨٢هـ): من فقهاء المالكية، جليل التصانيف. وُلد في البصرة وتوفي ببغداد. كان قاضي القضاة لبغداد. ومن تصانيفه: "المؤطأ"، و"أحكام القرآن"، و"و"المبسوط في الفقه"، و"شواط المؤطا". انظر: الزركلي، الأعلام، ج١، ص٣١٠.

[6] هو أحمد بن طلحة بن جعفر، أبو العباس المعتضد بالله (٢٤٢ – ٢٨٩هـ): خليفة عباسي، وأحدُ رجال بني العباس. وُلد ومات في بغداد. وكان عارفاً بالأدب، موصوفاً بالحلم إلا في مواضع الشدة. انظر: الزركلي، الأعلام، ج١، ص١٤٠.

[7] ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج١١، ص٨٧.

الدافع التاسع: التَّسَابُقُ إلى مجاملة المخلوقين من أهل الرئاسة والنفوذ:

ومن الأسباب كذلك: التسابُقُ إلى مجاملة المخلوقين ولو على حساب العلم والحقِّ والدين، وهذا من أخطَرِ أسباب وجود ظاهرة "التَّعالُم"، والوقوعِ في الزَّلَل والخَطَل، والخوضِ – والعياذ بالله – في تلك المسائل التي تُصادِم النصوصَ الشرعية.

وهذه الحالةُ – وهي مسابقة المخلوقين ومجاراتهم – خطيرةٌ جداً، ومن أخطَرِها مجاملةُ الحكّام فيما يهوونه ويشتهونه، فالحكّامُ كلهم – إلا مَن عصمه الله تعالى – يريدون العلماء، والحقُّ أنهم لا يريدون من العلماء إلا أن يكونوا على هواهم، وأن يُفتوهم بما يريدون، فعلى العالِم أن يتّقي الله ﷻ في علمه وفيما يقول، وأن يكون كَيِّساً فَطِناً حكيماً لطيفاً يدعو الناسَ إلى التُّؤَدة، وإلى الخير، وإلى الاجتماع، وعدم الفُرْقة، لكن عليه أيضاً أن يبيِّن للناس الحقَّ الذي دعا إليه الشرعُ.

ومنها كذلك مجاملةُ بعض المتنفِّذين[1] في بعض الأماكن والمراكز والمراتب، إمّا مسؤول أو وزير أو مدير أو رئيس تحرير صحيفة أو صاحب محطّة فضائية أو غير ذلك، فهؤلاء كثيراً ما يبحثون عمن يجاملهم من العلماء، فلا ينبغي للعالِم أن يُجامِل صاحبَ محطّةٍ فضائيةٍ أو غيرها، خاصةً إنْ كانت تلك المحطات الفضائية متعلقةً بالانحرافات الفكرية والثقافية، أو المحطّات البِدَعِيّة التي تُزيِّن للناس مختلفَ البِدَعِ والأمور الباطلة، فلا يجوز بأيِّ حالٍ من الأحوال مجاملتهم وموافقة آرائهم وأهوائهم.

الدافع العاشر: مُجامَلة عامة الناس ومسايرتُهم:

إنَّ مجاملة عامة الناس ومسايرتَهم في آرائهم وأفكارهم، ومجاراتَهم في شهواتهم ورغباتهم لهو من أهمِّ أسباب ظهور فتنة "التَّعالُم" وبُروزها، فالعالِمُ ينبغي أن يكون عالِمَ مِلَّةٍ، وليس عالِمَ أُمَّةٍ، فعالِمُ الأمة ينظر ما ذا تريد الأمة منه، فيُوافِق بذلك أهواؤها وشهواتها، وعالِم الملة هو مَن يقود الأمةَ إلى الملة، أي يقودهم إلى تحكيم كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ[2].

ولقد قرَّر القرآنُ الكريم وفَرَض على المسلم أن يقول الحقَّ، ولو خالف هواه أو رغباتِ الناس: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، وأكَّد النبيُّ ﷺ في بيعته لأصحابه: "بايَعْنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة... وأن نقول بالحقِّ حيثما كنا، لا نخاف في الله لومةَ لائمٍ[3]" [4].

---

[1] أي: أهل الجاه والسلطة والنفوذ.

[2] انظر: محمد بن صالح العثيمين، شرح رياض الصالحين، ج٤، ص٣٠٨.

[3] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، ص١٣٠٤، برقم (٧١٩٩) وهو حديث موقوف على عُبادة الصامت ﷺ.

[4] فاروق حمادة، منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً ومنهجاً، ص٦٠.

ومن هذا كلِّه، يظهر لنا أنَّ العلم إنْ لم يكن علماً صحيحاً نافعاً فإنه يكون سبباً عظيماً للفتنة والفساد، ويكون بلاءاً ووَبَالاً على صاحبه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ [الشورى: ١٤]، فهذه مشكلة عظيمة وطامَّة كبرى عصيبة.

تلك عشرة كاملة، سُقْتُها هنا؛ ليُعلَم مدى خُطورة هذه الدوافع والأسباب[١]، وأثرها الخبيث على الأمة الإسلامية الجمعاء في دينها وعقيدتها، وفكرِها وثقافتها، وعلومِها ومعارفها، وتُراثِها وأبنائها، فَلَذات الأكباد وثَمَرات الْمُهَجِ والقلوب.

****

[١] وهي في الحقيقة مما ذكره الشيخ الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود، في محاضرته المعنونة بـ"فتنة التعالُم"، المنعقدة في "جامع الشيخ سعد بن ظافر آل مفتاح" بمدينة الرياض، وذلك في الفترة ما بين ١٢ إلى ٢٩ من جمادى الأولى عام ١٤٣٢هـ، وقد ذكرتُ تلك الدوافعَ والأسباب من تلك المحاضرة بشيءٍ من التصرف والزيادة، وقد توصّلتُ إليها عبر القرص المدمج المعنوان بـ"فتنة التعالُم"، وهو من إنتاج "تسجيلات الراية الإسلامية" بالرياض.

المبحث الثاني:

صفات الْمُتعالِم

ومن خلال تتبُّعي واستقرائي لأقوال الأئمة والعلماء ممن تناولوا قضية "التَّعالُم"؛ يُمكِنني تصنيف صفات "الْمُتعالِم" وأماراته التي تظهر فيه بارزةً واضحةً جليةً، إلى خمس صفات رئيسة هي:

أولاً: الكَذِبُ والادِّعاءُ والتَّشَبُّعُ بما لم يُعْطَ:

و"الكذبُ" في الأصل هو نقيض "الصِّدْق"، وهو علامةٌ على ضعف الإنسان وعدمِ قُوَّتِه؛ لذا فهو باطل مناقض للحقّ واليقين والثبات[1].

وهو كذلك من صفات المنافقين التي نَهَى اللهُ تبارك وتعالى المؤمنين عن اقترابها فضلاً عن ارتكابها، وإذا كان الحقُّ تبارك وتعالى قد أمر عمومَ المسلمين أجمعين اجتناب الكذب وقول الزُّوْر، فالأمرُ أشَدُّ في حقّ أهل الدين والعلم، حيثُ أمر المولى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، لا مع المنافقين، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، أي: كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم. ويقتضي مفهومُ المخالفة من هذه الآية التحذير من الكذب والنَّهْي عنه والبُعْد عن أهل الكذب والباطل واجتنابهم.

وقد قسَّم اللهُ ﷻ الناسَ إلى صادق ومنافق، فقال جلَّ شأنه: ﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [الأحزاب:٢٤].

والإيمانُ أساسُه الصِّدْق، فلا يجتمع كذبٌ وإيمانٌ إلا وأحدُهما يُحارِب الآخرَ، قال بعض أهل العلم: "وبالصِّدْق تميَّز أهلُ النِّفاق من أهل الإيمان، وسُكّان الجِنان من أهل النيران، وهو سيفُ الله في أرضه، الذي ما وُضع على شيءٍ إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أزاله وصرعه"[2].

---

[1] انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٥٠.

[2] مجد الدين محمد يعقوب الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج٣، ص٣٩٧، ٣٩٨.

كما أنَّ الله تعالى أخبر أنه لا ينفع العبدَ يوم القيامة ولا يُنجيه من عذابه إلا صِدْقُه، قال تعالى: ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٩].

كما أنَّ في كتاب الله تبارك وتعالى وسُنَّةِ رسول الله ﷺ من النهي الصريح عن الكذب، وبيانِ جزاءِ الكذَّابين ما يكون كافياً لردع الناس عن الكذب وزجرِهم عن ذلك، فضلاً عن المنتسبين إلى الدين والعلم، ومن تلك الأدلة:

١) نفيُ الله تبارك وتعالى الإيمان عن أهل الكذب، حيثُ قال: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٠٥].

٢) وجعلُ ذلك من سمات المنافقين، وقد شهد الله تعالى عليهم بذلك فقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١].

٣) وقد بيَّن رسول الله ﷺ كذلك أنَّ الكذب من أظهر صفات المنافقين، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[1].

٤) ومن جزاء الكذبِ أنَّ الكذَّاب لا يُعرَف بالكذب بين أهل الأرض فقط وإنما هو كذلك عند الله تعالى في السماء يُكتَب كذّاباً، فعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِيْ إِلَى الْبِرِّ، وإِنَّ البِرَّ يَهْدِيْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقَ حَتَّى يَكُوْنَ صِدِّيْقاً. وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِيْ إِلَى الْفُجُوْرِ، وَإِنَّ الْفُجُوْرَ يَهْدِيْ إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذَبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً"[2].

[1] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، ص٢٢، برقم (٣٣)، ومسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب خصال المنافق، ص٤٦، برقم (٥٩).

[2] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ وما يُنهى عن الكذب، ص١١١٩، برقم (٦٠٩٤) واللفظ له، ومسلم في الصحيح، كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، ص١١٣٨، برقم (٢٦٠٧).

٥) والكذبُ شَكٌّ وريْبَةٌ، نقيضُ الصِّدْق، فهو حقٌّ وطمأنينةٌ، وفي هذا المعنى رُوي عن حسن بن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنهما: "حفظتُ من رسول الله ﷺ: «دَعْ مَا يُرِيْبُكَ إِلَى مَا لاَ يُرِيْبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِيْنَةٌ وَالْكَذِبَ رِيْبَةٌ»[١].

و"التَّعالُمُ" في الحقيقة ما هو إلا كذبٌ وادِّعَاءٌ، ونِفاقٌ ورياءٌ، وتشبُّعٌ بما لم يُعطاه المرءُ، والعِياذ بالله.

ولهذا في الواقع مظاهر عديدة، فمنها:

١) التعلُّقُ بادِّعاء العلم الشرعي دون أن يكون في الأصل كذلك: فكلُّ من أقدم بالجرأة على ما ليس له بأهل وادَّعى ذلك من تأليف أو تحقيق أو إفتاء أو قضاء أو تدريس في العلم الشرعي؛ استحقَّ اسمَ الذنب، و لم يحلَّ قبول تأليفه وتحقيقه ولا فتواه ولا قضائه، هذا حكمُ دين الإسلام.

وإنْ رَغِمَتْ أنوفٌ من أُناسٍ فقُلْ يا رَبِّ: لا تُرغِم سِواها[٢]

وذلك لأنَّ جميع تلك المجالات لا بُدَّ فيها من تحقُّق الدِّين والمعرفة الحقّة، وثبوتهما بالدليل القاطع، والبرهان الساطع، "فإنَّ هذا العلمَ دينٌ فانظروا عمن تأخذون دينكم" كما قال الإمام ابن سيرين رحمه الله تعالى[٣].

وأيُّ كذبٍ وادِّعاءٍ أعظَمُ من افتراء وادِّعاء المنتسب إلى العلم وهو في الحقيقة لا علمَ له أو ناقصُ العلم، ومع ذلك يُقدِم ويتجرَّأ ويتجاسر على الإفتاء والقضاء، ويُبادِر ويتوثَّب إلى التأليف والتحقيق "مع الجهل وقِلَّةِ الخبرة وسُوءِ السيرة وشُؤْمِ السريرة، وهو بين أهل العلم مُنكَرٌ أو غريبٌ، فليس له في معرفة الكتاب والسُّنَّة، وآثار السَّلَف أيُّ نصيب"[٤].

بل إنَّ منهم مَن هو مُزْجَى البضاعة في اللغة، قليلُ المعرفة في الفقه، لا يدري الحلالَ والحرام، فضلاً عن إدراك مقاصد الشريعة وأحكام الملة "أفهؤلاء الغُثاء هم الذين يَحفظُون على الأمة دينها؟، كلاَّ والله!!!"[٥].

---

[١] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب صفة القيامة، باب حديث اعقلها وتوكّل، ص٥٧٢، برقم (٢٥١٨)، وقال: "حديث حسن صحيح".

[٢] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٢٤، بتصرف يسير.

[٣] أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح، باب بيان أن الإسناد من الدين، ص١٠، برقم (٢٦).

[٤] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ٤٠، ٤١.

[٥] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١١، ص٩٩.

وفي وصف هذا الحال يقول الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى: "وأمّا اليوم فقد اتَّسع الخرقُ، وقلَّ تحصيل العلم مِن أفواه الرجال، بل ومن الكتب غير المغلوطة، وبعضُ النَّقَلة للمسائل قد لا يُحسِن أن يتهجَّى[1]".

٢) دعوى العلم والتحقيق ببذل المال والجاه دون أن يكون له أيُّ دورٍ في ذلك: كما يفعله بعضُ أهل الثروة والجاه من دعوى العلم والتحقيق وبذلِ جهودٍ في خدمة الكتب وإحياء التراث ببذل أموال أو جاهٍ لمن يقوم لهم بتحقيق كتابٍ أو تحضير مؤلَّفٍ، ويَرسُم على غلافه وبلا أدنى حياءٍ: "تحقيق فلان" أو "تأليف فلان"، واللهُ يعلم إنه لكاذبٌ، والمريضُ بهذا التَّعالُم يعلم أنه كاذبٌ، مخاتلٌ لنفسه مخادعٌ[2].

٣) السرقات العلمية: ومن صُوَر الادِّعاء والغِشِّ كذلك لدى الْمُتعالِمين "السرقات العلمية"، وفيه يقول الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد: "أنَّ هذا الصِّنْف من الْمُتعالِمين مُفلِسٌ من المال والجاه والعلم، يسعى لبناء مجدٍ موهومٍ، فيسرق كتابَ هذا، ويشتري جهدَ ذاك، ويُخرِج للناس عشراتِ المؤلَّفات وهو مُفلِسٌ منكودٌ، ومُفتَضحٌ منبوذٌ"[3]، وإنَّ "الكسَّاح الصادق أسعَدُ من الْمُتعالِم الكاذب"[4].

٤) التمسُّكُ بالآراء الفقهية الشَّاذّة أو الرُّخَص الغُثائية الجوفاء: ومن مظاهر الكذب لدى الْمُتعالِمين التمسُّكُ بالآراء الفقهية الشّاذة، والأقوالِ الفَجَّة الغريبة، والرُّخَصِ الضعيفة الجوفاء وإفتاء الناس بها، وفيها من الإضلال والتضليل ما الله به عليم، كما أنه يُعَدّ كذلك من القول على الله بلا علمٍ، وهذا جرمٌ عظيمٌ، وذنبٌ كبيرٌ.

ثانياً: الغِشُّ والتدليس والخداع:

"الغِشّ" في الحقيقةِ نقيضُ "النُّصْح"، وهو مأخوذ من "الغَشَش" وهو المشرب الكَدِر[5]. وهو من كبائر الذنوب التي توعَّد الله فاعِلَه بالعذاب الشديد، والعِقاب الأليم، وإذا كان الحقُّ تبارك وتعالى قد توعَّد فاعلَه في باب المعاملات بدخول نار جهنّم، فكيف بمن يَغُشّ المسلمين في أشرف ما شرَّف اللهُ به البشريةَ جمعاء، وأكرمِ ما كرَّم اللهُ به أهلَ خشيته ومحبته، ألا وهو

---

[1] المرجع السابق، ج١١، ٣٧٧.

[2] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٧٩، ٨٠.

[3] المرجع السابق، ص٨٠، بتصرف.

[4] المرجع السابق، ص ٨٠.

[5] ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ٣٢٣.

"العلم"، حيثُ قال الله جلَّ في عُلاه: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: ١،٣].

فهذا في باب المعاملات التجارية، فمن باب أَوْلَى اجتنابه والابتعاد عنه في دوائر العلم وحلقات المعرفة، كما أنَّ خداع المسلمين والتعامُل معهم بالكذب والباطل والزُّوْر كلٌّ هذا من صفات المنافقين وليس المسلمين، حيثُ قال الله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]، كما بيَّن أيضاً رسول الله ﷺ أنَّ الغِشّ والخداع والمكر كُلَّها من صفات أهل الفسق والفجور، حيث رُوي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ غِرٌّ[1] كَرِيْمٌ، وَالْفَاجِرُ خَبٌّ[2] لَئِيْمٌ»[3].

وحقيقةُ "الغِشّ" في الأصل هو التشبُّعُ بما لم يُعطاه الْمَرْءُ، لكنه الإظهار على غير الواقع والحقّ والصِّدْق، وقد ورد النهي الشديد عن هذا في شريعة الإسلام، فعن أسماء – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ الزُّوْرِ»[4].

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: "قوله «الْمُتَشَبِّع» أي: المتزيِّنُ بما ليس عنده، يتكثَّر بذلك، ويتزيَّن بالباطل. وأمَّا حكمُ التثنيةِ في قوله «ثَوْبَي زُوْر» فللإشارة إلى أنَّ كَذِب المتحلِّي مثنى؛ لأنه كذبٌ على نفسه بما لم يأخذ، وعلى غيره بما لم يُعْطِ، وكذلك شاهدُ الزُّوْرِ، يظلم نفسَه ويظلم المشهودَ عليه"[5].

---

[1] الغِرُّ: أي ليس بذي نُكَر، فهو ينخدع لانقياده ولينه، وهو ضد "الْخِبّ". انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج٢، ص٢٩٧.

[2] الْخَبُّ: الخدَّاع، وهو الْجُرْبُزُ الذي يسعى بين الناس بالفساد. وقد تُكسَر خاؤه، فأما المصدر فبالكسر لا غير. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج١، ص٤٦٦.

[3] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في البخل، ص٤٥٦، برقم (١٩٦٤)، وأبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في حسن المعشرة، ص٦٧٨، برقم (٤٧٩٠) واللفظ له، وهو حديث حسن، انظر: الألباني، صحيح سنن الترمذي، ج٢، ١٨٧، برقم (١٥٩٩).

[4] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب النكاح، باب المتشبع بما لم ينل، ص٩٨٢، برقم (٥٢١٩)، ومسلم في الصحيح، كتاب اللباس، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره، ص٩٥١، برقم (٢١٢٩)، واللفظ له.

[5] ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٩، ص٣٩٦، ٣٩٧.

وقال: "في التثنية إشارةٌ إلى أنه كالذي قال الزُّوْرَ مرَّتَين، مبالغةً في التحذير من ذلك"[1].

وقال الإمام النَّوَوِيّ: "قال العلماء: معناه المتكثِّر بما ليس عنده بأن يظهر أنَّ عنده ما ليس عنده، يتكثَّر بذلك عند الناس، ويتزيَّن بالباطل، فهو مذمومٌ كما يذمّ من لَبِسَ ثَوْبَي زُوْرٍ.

قال أبو عُبَيْد[2] وآخرون: هو الذي يلبس ثيابَ أهلِ الزُّهْد والعبادةِ والوَرَعِ، ومقصودُه أنْ يُظهِر للناس أنه متصفٌ بتلك الصفة، ويُظهِر من التخشُّع والزهد أكثر مما في قلبه؛ فهذه ثيابُ زُوْرٍ ورياءٍ"[3].

وورد في حديثٍ آخر قولُ النبيِّ ﷺ: «وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةً لِيَتَكَثَّرَ بِهَا؛ لَمْ يَزِدْهُ اللهُ تَعَالَى إلاَّ قِلَّةً»[4]، وقال القاضي عياض[5] في شرح هذا الحديثِ: هذا عامٌّ في كلِّ دعوى يتشبَّع بها المرءُ بما لم يُعْطَ من مالٍ يحتال في التحمُّل به من غيره، أو نسبٍ ينتمي إليه ليس من جزْمه[6]، أو علمٍ يتحلَّى ليس من حَمَلَتِه، أو دينٍ يُرائي به ليس هو من أهله، فقد أعلم ﷺ أنه غيرُ مباركٍ له في دعواه، ولا زاكٍ ما اكتسبه بها"[7].

وخلاصة الأمر أنَّ قول النبي ﷺ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ الزُّوْرِ» معناه: ذمُّ المتزيِّن بما ليس عنده يتكثَّر بذلك ويتزيَّن بالباطل، ولا شكَّ أنَّ "التَّعالُم" داخلٌ في دلالة الحديث، وأنَّ "التَّعالُم" من أخلاق السفهاء الجهلاء.

ولـ"الغِشّ" و"الخداع" مظاهرٌ عديدةٌ لدى أهل التَّعالُم، فمنها:

١) ادِّعاءُ علمِ ما لم يعلم، أو إتقانُ ما لم يُتقِن: وهذا جميعه غِشٌّ وخداعٌ يُعَدّ حجاباً كثيفاً عن العلم[8].

---

[1] المرجع السابق، ج٩، ص٣٩٧.

[2] هو القاسم بن سَلاَّم الهروي الأزدي الخراساني البغدادي، أبو عُبَيد (١٥٧ – ٢٢٤هـ): من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه. وُلد في هُراة وتعلَّم بها. رحل في طلب العلم إلى مصر والعراق والحجاز. وهو أول من صنَّف في غريب الحديث. توفي بمكة. ومن مصَّفاته: "الغريب المصنَّف". انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٢، ص٤١٨.

[3] النووي، المنهاج شرح مسلم بن الحجاج، ج١٤، ص٣٣٦، ٣٣٧. وانظر كذلك: محمد تقي العثماني، تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم، ج٤، ص١٢٠.

[4] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عُذِّب به في النار ...، ص ٦١، برقم (١١٠)، عن ثابت بن الضحاك ﷺ.

[5] هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، أبو الفضل (٤٧٦ – ٥٤٤هـ): عالِمُ المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته. وُلد في "سبتة" وتوفي بمراكش. وُلِّي قضاء "سبتة"، ثم قضاء غرناطة. من أشهر تصانيفه: "إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم"، و"الشفا بتعريف حقوق المصطفى". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٩٩.

[6] الجِزْمُ: القطعان. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٢٧٨.

[7] عياض بن موسى اليحصبي السبتي، إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج١، ص٣٩١.

[8] بكر بن عبد الله أبو زيد، حلية طالب العلم، ص١٩٨.

٢) التَّنَمُّرُ بالعلم: وهو ما يتسلَّى به المفلسون من العلم، حيثُ يراجع مسألةً أو مسألتَين فإذا كان في مجلسٍ فيه مَن يُشار إليه أثار البحثَ فيهما ليُظهِر علمَه[١].

٣) تحبيرُ الكاغد: وهو التأليفُ الخالي من الإبداع، وهذا هو دأبُ الْمُتعالِم، حيثُ يشتغل بالتصنيف ويدّعي التأليفَ والتحقيقَ قبل استكمال أدواته، واكتمالِ أهليته، والنضوجِ على يدي الأشياخ والعلماء من أهل التحقيق والتدقيق، وهذا كلُّه في الحقيقة ليس إلا تسجيلُ عارٍ وإبداءُ شَنَارٍ لا يجني من ورائه سِوى الذُّلِّ والمهانة والفضيحة المؤلِمة في الدنيا والآخرة[٢].

٤) انتحالُ كتبِ أهل العلم وسرقتُها: وهو إمّا كاملاً برُمَّتها، أو بسرقة وانتحال بعضٍ من أبحاث الكتب والفصول وإفرادها بالطبع، مع تغيير الأسماء والعناوين دون الإشارة إلى أنها مستلّةٌ من كتاب كذا وكذا، بل الرسمُ على الغلاف وبكل جرأةٍ ووقاحةٍ: "تأليفُ فلانٍ"، أو "تحقيقُ فلانٍ"؛ فهذا كلُّه غَرَرٌ وغِشٌّ وخداعٌ وتدليسٌ وتلبيسٌ لعوامّ المسلمين، وقد بلغ العبثُ والتلاعُبُ فيه حدّاً جاوز طَوْرَه، وازدحمتْ عليه ممارسات المتأكِّلين، وتكسَّرتْ منهم النصال على النصال من كُتُبِيِّيْن ووَرّاقين ومحقِّقين ومؤلِّفين في فوضى لا نعلم لها على وجه الأرض مِن رادعٍ[٣].

ثالثاً: التشغيبُ والتَّطاوُلُ باللِّسان والتَّسلُّطُ به على العباد:

وهذه كذلك من أظهَرِ صفات الْمُتعالِم وعلاماته؛ لأنه في الحقيقة وارثٌ لِمَا لم يُورَّث؛ ولذا تسلَّط على العباد بداء الفُحْشِ والبَذاء، وحُرِمَ من ميراث الأنبياء في عِفّة اللسان وصيانته من الْخَنَا[٤] وقولِ السوء، وفيه وفي أمثاله يقول الشاعر:

يُمارِس نفساً بين جنبَيْه كزّةً إذا همَّ بالمعروف قالت له مهلاً[٥]

وإنّ هذه الصفة البغيضة والعلامة المذمومة لهي مما نَهَى الرَّبُّ تبارك وتعالى النَّهْيَ الشديدَ عنها، وحذَّر فاعِلَها بالعذاب الأليم، حيثُ قال جلَّ في عُلاه: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [همزة: ١].

---

[١] المرجع السابق، ص١٩٨.

[٢] المرجع السابق، حلية طالب العلم، ص١٩٩، بتصرف يسير.

[٣] المرجع السابق، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٧٥، ٧٦، بتصرف يسير.

[٤] الْخَنَا: الفُحْشُ في الكلام. انظر: إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، ص٢٦٠، مادة "خنا".

[٥] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٦١، بتصرف يسير.

وهذه الصفاتُ في الحقيقة دلالاتٌ واضحةٌ، وعلاماتٌ بارزةٌ على خِفَّة المرء وحُمْقِه وسفاهةِ عقله وطيشِ نفسه، وإلا فإنَّ الحكمة والحِلْم والهيبة والوقار كل ذا قائد أهل العلم إلى طريق الربانية السوية، طريق أهل الخشية والتُّقَى من أُوْلِي الإيمان واليقين، والتي نهايتها جَنّات عدن خالدين فيها أبداً، ومما ورد في حديث رسول الله ﷺ في ذَمّ هذه الصفات ما يلي:

١) ما رُوي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يَأْتِيْ فِيْ آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ، حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُوْلُوْنَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُوْنَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ، لاَ يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ»[١].
والمرادُ بـ"سفهاء الأحلام" في الحديث: أي: ضعفاء العقول ثم هم يتجرّؤون ويخوضون في قول خير البرية أي في القرآن الكريم[٢].

٢) ومما جاء كذلك في ترغيب المؤمنين وبخاصة علماء الملة والدين في الحِلم والرِّفق وترك العجلة والتهوُّر والطيش ما رُوي عن جرير بن عبد الله البَجَلِيّ ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْخُرْقِ[٣]، وإِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً أَعْطَاه الرِّفْقَ، مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يُحْرَمُوْنَ الرِّفْقَ إلاَّ قَدْ حُرِمُوْا»[٤].

٣) ومما أُثر عن علماء المسلمين قولُ الإمام ابن حبان[٥]: "علامة الْحُمْق: سرعة الجواب، وتركُ التثبُّت"[٦]. وقال الإمام اللُّغَوي خليل بن أحمد الفراهيدي[٧]: "الناس أربعة... وذكر منهم رجلٌ لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري؛ فذاك أَحمَقٌ فارفضوه"[٨].

---

[١] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ص٦٥٨، ٦٥٩، برقم (٣٦١١).

[٢] نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، ج١٠، ص٤٨٦٩، انظر حاشية رقم (٣).

[٣] الْخُرْقُ: الجهل والحُمْق. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج١، ص٤٨٥.

[٤] أخرجه الطبراني، في المعجم الكبير، ج٢، ٥٧٥، برقم (٢٢٧٤)، قال الهيثمي: "رجاله ثقات". مجمع الزوائد، ج٨، ص١٠، برقم (١٢٦٤٣).

[٥] هو محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم البُسْتِي (ت٣٥٤هـ): محدِّث ومؤرِّخ، وأحد المكثيرين من التصنيف. وُلد في "بُسْت" من بلاد "سجستان". رحل في طلب العلم إلى بلاد كثيرة. تولّى قضاءَ سمرقند مدةً. توفي بنيسابور. ومن أشهر مصنَّفاته: "المسنَد الصحيح" المعروف بـ"صحيح ابن حبان". انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٣، ص٩٢٠.

[٦] نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، ج١٠، ص٤٤٥٦.

[٧] هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري (١٠٠ – ١٧٠هـ): أحد أئمة اللغة، ومنشئ علم العروض. وُلد ومات في البصرة. وهو أستاذ سيبويه. ومن تصانيفه: "كتاب العين" وهو أوّل معجم في العربية، و"كتاب العروض". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٢، ص٣١٤.

[٨] نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، ج١٠، ص٤٤٥٦.

وحقّاً إنّ الْحُمْق والسَّفاهة، والطَّيش والعَجْلة: أسقامٌ مُزمِنةٌ، وأدواءٌ عصيبةٌ، لا علاجَ لها ولا دواء.... ومما رُوي في هذا المعنى قولُ أحدهم:

لكلِّ داءٍ دواءٌ يُستَطَبّ به   إلا الحماقة أعيتْ مَن يُداويها

ومن الْحُمْق والسفاهة، والشغب والشراسة: استطالةُ المرء في أعراض المسلمين، والتلفُّظُ بالشتائم والسِّباب خاصةً إنْ كان ذاك في حقّ أهل العلم والدين، وحَمَلة شريعة ربِّ العالمين، وما ذاك إلا لنقص ورعهم وتُقَاهم وقِلَّةِ خشية ربِّ العالمين في قلوبهم، والدليلُ على هذا ما رُوي عن سعيد بن زيدٍ ﷺ النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا الاسْتِطَالَةَ فِي عِرْضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ»[1]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيْمٌ، وَالْفَاجِرُ خَبٌّ لَئِيْمٌ»[2].

والتشغيبُ والتطاوُل، والسَّبُّ والشتم، واللعن والقذف، كلٌّ هذا من صفات أهل الباطل والضَّلال، وذوي الفِسْق والفجور، الذين نَسُوا الله واليومَ الآخر، وغاب عنهم وخَفِيَ وعدُ الله ووَعِيْدُه، والعقابُ الأليم والعذاب الشديد، الذي ينتظر أهلَ الفُحْشِ والتفحُّش؛ لذا طالت ألسنتهم، ونالت بالعيب والثَّلْب كِرامَ العلماء الأبرار، وعِظام شرفاء الرجال، لكنَّ الله تعالى لهم بالمرصاد، فهو وحده حسيبُهم، وهو ﷻ طليبُهم...

ومن مظاهر التشغيب لدى الْمُتعالِمين كذلك:

١) دفاعُهم عن تَعالُمهم الكاذب ودعاويهم المزرية الفاضحة أشَدَّ ما يكون من الدفاع بل الاستماتة في سبيل ذلك بأعظم ما يُمكنهم قوله وفعله لأجل ذلك، وما أصدَقَ ما وصف به هذا الحالَ شيخُ الغَيْرَةِ على العلم وأهلِه[3] إذْ يقول: "أمَّا في هذا الزمان، فقد ابْتُلي أهله بلُسُنٍ جهال، ادّعوا العلم، وكافحوا عن دعواهم بالصَّلف واللسانة، والشغب والشراسة، وإذا لم يكن مع اللسان عقلٌ يَحجُزه دلَّ على عيب صاحبه، فترى الفردَ من هذا الصِّنف المريض يخوض في غِمار العلم، بواحدة يسمعها، وثانية ينتحلها، وأخرى يدّعي قراءها، ثم ويا للخيبة يُضفي على نفسه من الألقاب، ويجنِّد نفسَه للكفِّ عنها، والاحتفاظ بها ما هو شُغْلُه الشاغل؛ لأنها رسوله إلى العامة، وأحبولته التي يصطاد بها ما يحمل هَمَّه من عرضٍ زائلٍ وجاهٍ موهومٍ"[4].

---

[1] أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في الغيبة، ص٦٨٨، برقم (٤٨٧٦). وهو حديث صحيح، انظر: الألباني، صحيح سنن أبي داود، ج٣، ص١٩٧، برقم (٤٨٧٦).

[2] سبق تخريجه في هامش مطلع هذا المبحث.

[3] وأقصد به الشيخَ بكر بن عبد الله أبا زيد.

[4] بكر بن عبد الله بن أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٩٢، بتصرف يسير.

٢) ومن مظاهر التشغيب كذلك: الرَّدُّ على علماء المسلمين، والحطُّ من شأنهم ومرتبتهم، والتطاوُلُ في أعراضهم بألسنة سليطة، وأَنْفُسٍ متسلطةٍ، من أجل شُبَهٍ حقيرة خطّافة، وشهواتٍ دخيلة مذمومة[١]، وبعضُها في الحقيقة لا تَعْدو كونها من إثارات المستعمرين، ودسائس المستشرقين من أهل الكفر والحِقد الدفين لشريعة الإسلام وملة المسلمين، ومثلُ هذا "يتعالج بقرض الأعراض، والتمضمض بالاعتراض، وإبرازه باسم العلم وحَمَلته، فيُنعِم الناظرُ في الكتاب مؤلَّفاً من مئات الصفحات فلا يرى إلا حَمْلَةً في كل جملةٍ من كيل القذائف، وسلِّ السخائم على حَمَلة السُّنّة وأوعية العلم في الغابر والحاضر، فإنّا لله وإنا إليه رجعون"[٢].

ويَعلَم أمثالُ هؤلاء أنَّ عقوبة الوقوع في أعراض علماء الأمة الربانيين أليمةٌ شديدةٌ، وهي واقعةٌ لا محالة في الدنيا قبل الآخرة، بل إنَّ من عاجل عقوبته "موتُ قلبه، ورؤيته القبيح حسناً، وذهابُ رصيده من القبول له في الأرض، وتخلُّفِه عن أقرانه في القيمة العلمية والأدبية رغم تحرُّقه وشدة تطلُّعه"[٣].

ومما قاله الإمام النَّوَويّ – رحمه الله تعالى – في التحذير من الوقوع في أعراض العلماء وخطورة ذلك على المرء قوله: "واعلمْ يا أخي! وفَّقنا اللهُ وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتّقيه حقّ تُقاته: أنّ لحوم العلماء مسمومةٌ، وعادة الله في هَتْك أستار منتقصيهم معلومةٌ، وأنَّ مَن أطلق لسانَه في العلماء بالثلب؛ بلاه الله قبل موته بموت القلب ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] "[٤].

نعم! إذا وجد المرءُ خطأً لأحد علماء المسلمين، أو وهماً، أو غلطاً وكان هو ممن أكرمه الله تعالى بالعلم النافع والعمل الصالح فليُبادِر إلى بيان الخطأ، وتصحيح الغلط والوهم بالدليل والتعليل، غير أنه ينبغي عليه اجتناب التشغيب والتنقُّص، فإنّ هذا لا يفعله إلا "مُتعالِمٌ يريد أن يُطِبَّ زُكَاماً فيُحدِث به جُذَاماً"[٥].

---

[١] وقد أَلَّف الشيخ بكر عبد الله أبو زيد في هذا الموضوع رسالةً جليلةً ماتعةً عنونها بـ"براءة أهل السنة من الوقيعة في علماء الأمة".

[٢] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٩٠، بتصرف يسير.

[٣] المرجع السابق، ص٩١.

[٤] النووي، التبيان في آداب حملة القرآن، ص٥٠.

[٥] بكر بن عبد الله أبو زيد، حلية طالب العلم، ص١٩٩.

رابعاً: ادّعاءُ العلمِ والتزيُّدُ منه والتكاثُرُ دون ابتغاء العمل به:

إنَّ عدم العمل بالعلم سببٌ رئيسٌ من أسباب مَحْق بركةِ العلم، ومن أسباب قيام الحجة على صاحبه، ولقد ذمَّ اللهُ تبارك وتعالى من كان هذا شأنه فقال جلَّ من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣]؛ ولذا كان السَّلَف – رحمهم الله تعالى – أحرصَ الناسِ على العمل بما يَعلمُون، وهذا من دلائل تمكُّنهم من العلم الشرعي ورسوخِهم في الدين وثباتِهم على سواء الصِّراط المستقيم، صِراط الله الهادي إلى جنات النعيم.

أمّا أهل مخالفتهم ومَن هم على العكس والنقيض – ونقصد بذلك أهل التَّعالُم الذين يُظهِرون خلاف ما يُبطِنون – فهم من أشَدِّ الناسِ مخالفةً لهم، حيث تُخالِف أقوالُهم أعمالَهم، وتُناقِض آراءُهم وأفكارُهم – وما يَهتِفون به من قِيَمٍ وأصولٍ في كل مجلسٍ ونادٍ – سِيَرَهم وفِعالَهم.

وهذا في الحقيقة من أحد أكبَرِ أسبابِ بُغْض الناس وكراهيتهم الشديدة، واحتقارِهم العظيم لأهل الادِّعاء، حيث إنهم لا يجدون فيه القدوة الحسنة الصالحة، بل كلُّ ما يقوله ويَعِظه ويُدَنْدِنُ به ليلَ نهارٍ، أو كلُّ ما يكتبه ويدوِّنه من كتبٍ ومؤلَّفاتٍ يذهب هباءً منثوراً، لا يجد له أُذُناً صاغيةً، ولا قلوباً واعيةً، ولا أَنْفُساً متقبِّلةً مسرورةً، بل كلُّ كلامه وكتاباته تكون كالماء سالَ على صخرةٍ صمّاءٍ بلا نحتٍ ولا أثرٍ، وقد رُوي عن الإمام مالكٍ بن أنسٍ – رحمه الله تعالى – أنه قال: "قرأتُ في التوراة: إنَّ العالم إذا لم يعمل بعلمه؛ زلَّتْ موعظته عن القلوب كما يزلُّ القطرُ عن الصفا"[1].

وإذا كان الرَّبُّ جلَّ شأنه يَمقُت مَن كانت هذه صفته، فمن مَقْتِ الله تعالى كذلك إلقاء البُغض في قلوب خَلْقِه، ورفعِ القبول له من الأرض، وهذا كلُّه يَحصُل في الدنيا، أمّا في الآخرة فالجزاءُ ما توعَّد اللهُ به أهلَ مخالفةِ القولِ العملَ من العذاب الشديد والعقاب الأليم، كما يُروى عن أبي جعفر محمد بن علي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴾ [الشعراء:٩٤]، إذ قال في تفسيره: هم "قومٌ وصفوا الحقَّ والعدل بألسنتهم وخالفوه إلى غيره"[2].

[1] الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم والعمل، ١٦٢.

[2] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٥٤٥.

والعلمُ الشرعيُّ في الحقيقة لا يُطلَب إلا للعمل به، وهو المقصودُ الأعظَمُ من طلب العلم، كما قال الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى: "والعلمُ يُراد للعمل، كما العملُ يُراد للنجاة، فإذا كان العملُ قاصراً عن العلم كان العلمُ كَلاًّ على العالِم، ونعوذ بالله من علمٍ عاد كَلاًّ، وأورث ذُلاًّ، وصار في رقبة صاحبه غِلاًّ"[1].

ومما ورد في هذا المعنى أيضاً قولُ الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ تَزُوْلُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيْمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيْمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيْمَ أَنْفَقَهُ؟، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيْمَ أَبْلاَهُ؟»[2].

وقال الإمام الفقيه العابد سهل بن مُزاحِم[3] رحمه الله تعالى: "الجاهل لا يُعذَر بجهالته، لكنَّ العالِم أشدُّ عذاباً إذا ترك ما عَلِمَ، فلم يَعمَل به"[4].

ومما رُوي عن أسامة بن زيد ﷺ في هذا المعنى قولُ النبيِّ ﷺ: «يُجَاءُ بالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِيْ النَّارِ، فَتَنْدلِقُ أَقْتَابُهُ فِيْ النَّارِ، فَيَدُوْرُ كَمَا يَدُوْرُ الْحِمَارُ بِرَحَاهِ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُوْلُوْنَ: أَي فلانُ مَا شَأْنُكَ! أَلَيْسَ كُنْتَ تَأمُرُ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قال: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوْفِ وَلاَ آتِيْهِ، وأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وآتِيْهِ»[5].

وفي شِدَّة ما يلقاه العالِمُ غير المنتفع بعلمه؛ يقول منصور بن زاذان[6]: "نُبِّئْتُ أنَّ بعض مَن يُلقى في النار يتأذَّى أهلُ النار بريحه، فيقال له: ويلك! ما كنتَ تعمل؟ ما يكفينا ما نحن فيه من شَرٍّ حتى أُبْتُلِيْنا بك ونَتْنِ رِيْحِك؟، قال: فيقول: إني كنتُ عالِماً فلم أنتفع بعلمي"[7].

وصاحِبُ العلم هو من أوائل من يُقضَى من الناس يوم القيامة، وقد جاء فيه من الوعيد الشديد إنْ كان قد خالف قولُه فعلَه، و لم يمتثل ويعمل بما منحه الله تعالى من العلم والمعرفة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ قال: «أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ»، فذَكَر

---

[1] المرجع السابق، ج١، ص٥١٥.

[2] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب الزهد، باب في القيامة، ص٥٥٠، برقم (٢٤١٦)، وقال: "هذا حديث غريب".

[3] لم أعثر على ترجمته في كتب التراجم المعتبرة.

[4] الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم والعمل به، ص١٥.

[5] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، ص٥٩٩، برقم (٣٢٦٧)، ومسلم في الصحيح، كتاب الزهد، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله...، ص١٢٩٣، برقم (٢٩٨٩)، واللفظ للبخاري.

[6] هو منصور بن زاذان الواسطي، أبو المغيرة الثقفي (ت١٢٩هـ): أحد الرواة الثقات، والعباد الزهاد. انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٤، ص١٥٦.

[7] الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم والعمل، ص٥٢.

منهم: «رَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وعَلَّمَهُ، وقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعَرَفَها. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيْهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيْكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هو قَارِئٌ، فَقَدْ قِيْلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[١].

ومما أُثِر عن السَّلَف – رحمهم الله تعالى – في شِدَّة حرصِهم على العمل بالعلم، وعدمِ مخالفة القول للفعل ما يلي:

١) قال عمر بن الخطاب ﷺ: "لا يَغرُركم مَن قرأ القرآنَ إنما هو كلامٌ نتكلَّم به، ولكن انظروا من يعمل به"[٢].

٢) وقال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: "يا حَمَلة العلم! اعملوا به، فإنما العالِمُ من عَمِلَ"[٣].

٣) وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: "إني لأحسب الرجلَ ينسى العلمَ بالخطيئة يعملها، وإنما العالِم من يخشى الله، ثم تلا: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]"[٤].

٤) وقال أبو الدرداء ﷺ: "إنَّ أخوف ما أخافُ إذا وقفتُ على الحساب أن يُقال لي: قد عَلِمْتَ فماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟"[٥].

٥) وقال الإمام الزُّهْرِيّ[٦] رحمه الله تعالى: "لا يرضينَّ الناسَ قولُ عالِمٍ لا يَعمَل، ولا عاملٍ لا يَعلَم"[٧].

٦) وقال الحافظ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) – رحمه الله تعالى – في بيان مَنْزِلة العمل بالعلم: "إنِّي مُوصِيك يا طالب العلم بإخلاص النِّيَّةِ في طلبه، وإجهادِ النَّفْسِ على العَمَل بِمُوْجبه؛ فإنَّ العِلم شَجَرَةٌ والعملَ ثَمَرَةٌ، وليس يُعَدُّ عالِماً مَن لَمْ يَكُنْ

[١] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ص٨٥٢، ٨٥٣، برقم (١٩٠٥).

[٢] الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم والعمل، ص٧١.

[٣] المرجع السابق، ص٢٢.

[٤] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٥٥٧.

[٥] المرجع السابق، ج١، ص٥٥٧.

[٦] هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شِهَاب الزهري، أبو بكر: (٥٨ – ١٢٤هـ): أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء. تابعيٌّ، من أهل المدينة. نزل الشام واستقرّ بها. توفي بشَغْب، آخر حدّ الحجاز وأول حد فلسطين. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٠٨، ١١٠.

[٧] الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم والعمل، ص٢٢.

بعِلمه عامِلاً...، فإذا كان العملُ قاصِراً عن العلم؛ كان العِلمُ كَلاًّ[١] على العالِم، ونعوذ بالله من علمٍ عادَ كَلاًّ، وأَوْرَثَ ذُلاًّ، وصار في رَقَبَة صاحبه غُلاًّ[٢]..."[٣].

فالعملُ بالعلم من صفات المؤمنين الصادقين، وأهلُ العلم الربانيين، بينما التفوُّهُ بالألفاظ، والتكثُّرُ من الكلام، والتزيُّدُ من الحديث كلُّ ذا من علامات المنافِقين، كما قال أحد الفضلاء من أهل العلم والمعرفة: "علمُ المنافق في قوله، وعلمُ المؤمن في عمله"[٤].

كذلك القولُ بلا عملٍ من أمارات السُّفهاء الذين لا يُدرِكون عواقب الأمور ونتائج الأشياء، وفي هذا المعنى يُرْوَى عن الحسن البصري إنه قال: "هِمَّةُ العلماء الرعاية، وهِمَّةُ السفهاء الرواية"[٥].

وأهلُ العلمِ يُدركون هذا حقَّ الإدراك، ويعرفونه حقَّ المعرفة، ولذا هم من أحرَصِ الناسِ على العمل بالعلم، واستعمالِ السُّنَن، والاقتداءِ بالهدي المصطفوي حسب الوُسْعِ والاستطاعة، ومثلُ هؤلاء يؤتيهم اللهُ تعالى ويورِّثهم عِلْمَ ما لم يعلموا، كما وعدهم الله بذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقيل في تفسير الآية: "الذين يَعملُون بما يَعلَمون نهديهم إلى ما لا يَعلَمون"[٦].

فهؤلاء هم أهل العلم حقّاً، وليس من يدّعي العلمَ ويُكثِر من الرواية منه، قال الإمام إبراهيم الخوَّاص[٧]: "ليس العلمُ بكثرة الرواية، إنما العالِم من اتَّبع العلمَ واستعمله، واقتدى بالسُّنَن وإنْ كان قليلَ العلم"[٨].

---

[١] "الكَلّ": يعني: الثَّقِيل لا خيرَ فيه، كما في التنْزيل العزيز: ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ ﴾ [النحل: ٧٦]. (انظر: "المعجم الوسيط"، ص٨٣٢).

[٢] "الغُلّ": هو طَوْقٌ من حديد أو جلدٍ يُجعَل في عُنُق الأسير أو المجرِم أو في أيديهما، وجمعُه "أغلالٌ". انظر: "المعجم الوسيط"، ص٦٩٢.

[٣] الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم العمل، ص١٤، ١٥.

[٤] المرجع السابق، ص٣٨.

[٥] المرجع السابق، ص٣٥.

[٦] المرجع السابق، ص٣٠.

[٧] هو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل أبو إسحاق الخواص (ت٢٩١): صوفي، كان أوحدَ المشايخ في وقته، من أقران جنيد البغدادي. وُلد في "سُرّ مَن رأى" وتوفي في جامع الري. له كتب. انظر: الزركلي، الأعلام، ج١، ص٢٨.

[٨] الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم والعمل، ص٣٠.

وقال الحافظ الذهبي: "العلمُ ليس هو بكثرة الرِّواية، ولكنه نُوْرٌ يَقذِفه اللهُ في القلب، وشَرْطُه: الاتِّباعُ، والفِرارُ من الْهَوَى والابتداع"[1].

وقد كَثُر شكوى العلماء قديماً وحديثاً من هؤلاء الْمُتعالِمين الذين يدّعون العلم دُون التحلِّي بالعمل، فهذا الإمام الذهبي – رحمه الله تعالى – يقول: "وأمّا اليوم فما بقي من العلوم القليلة إلا القليلُ، في أُناسٍ قليلٍ، ما أَقَلَّ من يعمل منهم بذلك القليل، فحسبُنا الله ونِعم الوكيل"[2].

وهذا الإمام ابن قيِّم الجوزية – رحمه الله تعالى – يقول: "ومَن له خبرةٌ بما بعثه الله به رسولَه ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابُه رأىٰ أنَّ أكثر مَن يُشار إليهم بالدِّين هم أَقَلُّ الناسِ ديناً، والله المستعان. وأيُّ دينٍ وأيُّ خيرٍ فيمن يرى مَحارِمَ الله سبحانه تُنتَهك، وحدودَه تُضاع، ودينَه يُترك، وسُنَّةَ رسولِ الله ﷺ يُرغَب عنها، وهو باردُ القلبِ، ساكتُ اللِّسانِ؟ شيطانٌ أخرَسُ! كما أنَّ المتكلِّم بالباطل شيطانٌ ناطقٌ، وهل بليةُ الدين إلا مِن هؤلاء الذين إذا سَلِمَتْ لهم مآكلُهم ورياساتُهم فلا مبالاةَ بما جرى على الدين؟ وخيارُهم المتحزِّن المتلمِّظ[3]، ولو نُوزِع في بعض ما فيه غضاضةٌ عليه في جاهه أو ماله؛ بذل وتبذَّل، وجدّ واجتهد، واستعمل مراتبَ الإنكار الثلاثة بحسب وُسْعِه.

وهؤلاء – مع سقوطهم من عين الله، ومَقْتِ اللهِ لهم – قد بُلوا في الدنيا بأعظم بليةٍ تكون وهم لا يشعرون، وهو موتُ القلوب؛ فإنَّ القلب كلما كانت حياتُه أَتَمَّ؛ كان غضبُه لله ورسولِهِ أقوى، وانتصارُه للدين أكمَلَ"[4].

ونختم هذه الأقوال بما ذكره الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد عن هؤلاء في عصرٍ كَثُرَ فيه التَّناقُضُ وزاد، يقول رحمه الله تعالى: "وأمَّا التفريطُ في العمل: فكم رأى الرّاؤون وجوهاً يعلوها ذُلُّ المعصية، والافتقارُ إلى السَّمْت الصالح، والْهَدْي الحسن، فكم من متصدِّرٍ للعلم في أيّ من

---

[1] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص٣٢٣.

[2] الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٢، ص١٠٣١.

[3] المتلمِّظ: هو من تتبَّع بلسانه بقيةَ الطعام في فمه، وأخرج لسانَه فمسح به شفتَيه. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٤٦٢.

[4] ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين ص٣٦٢.

مجالاته وهو – قَرَنْدَلٌ[1]– متختِّمٌ بالذَّهَب، شاربٌ للتَّبَغ[2]، صانعٌ للقَزَع[3]، بل لا يشهد الصلاةَ جماعةً إلا لِماماً!!"[4].

خامساً: الاستماتة وراء الشهرة والظهور إعجاباً بالنفس وتِيْهاً وغروراً:

إنَّ حُبّ الشهرة والظهور مرضٌ عصيبٌ، كما أنَّ تمنِّي التصدُّرِ والرئاسةِ أيضاً داءٌ وَبِيْلٌ، قَلَّ أن يَسلَم منه إلا من عَصَمه الله تعالى، وقد قال الإمام الشَّاطبي[5] رحمه الله تعالى: "حُبُّ الرئاسةِ آخر ما يَخرُج من قلوب الصِّدِّيقين"[6].

لكن ينبغي على أهل العلم إخلاصُ النية لوجه الله تعالى، والمجاهدةُ في سبيل ذلك حتى يُعينه الله ﷻ، ويبلِّغه مأربَه، وكلٌّ ذا يسيرٌ على من يسَّر اللهُ تعالى له ووفَّقه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وهذه في الحقيقة دأبُ المؤمنين الصالحين الصادقين، والعلماء المتّقين الربّانيين، وهم بذلك يَمتثِلون أمر المولى تبارك وتعالى في إخلاص العبادة لوجه الله تعالى خالصةً له وحده دون سِواه، حيث قال جلَّ من قائلٍ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥].

وإنَّ أَوْلَى ما يجب فيه الإخلاصُ وأخَصُّ: طلبُ العلم في سبيل الله تعالى خالصاً له وحده دون سِواه. أمَّا طلبُ العلم لنيل الأغراض الدنيوية الزائلة الفانية من مالٍ أو جاهٍ، أو طلب شهرةٍ ومكانةٍ، ونيلِ عِزٍّ ورئاسةٍ فكلٌّ هذا مما توعَّد اللهُ تبارك وتعالى فاعِلَه بالعذاب الأليم الشديد، ومما ورد في ذلك عن كَعْب بن مالكٍ ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ طَلَبَ الْعِلمَ لِيُجَارِي بِهِ الْعُلَمَاءَ، أوْ لِيُمَارِي بِهِ السُّفَهَاءَ، أوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوْهَ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ»[7].

---

[1] هو في لهجة المصريين حالق لحيته كما في "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" للسخاوي، انظر: ج١٠، ص١٠١.

[2] هو نباتٌ من الفصيلة الباذنجانية يُستعمَل تدخيناً وسعوطاً ومضغاً. انظر: المعجم الوسيط، ص١٠٢.

[3] القزع: حَلْقُ الرأس وتركُ بعض شعره متفرّقاً في مواضع منه. انظر: المعجم الوسيط، ص٧٦٧.

[4] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٣٥.

[5] هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت٧٩٠هـ): أصولي حافظ، من أهل غرناطة، كان من أئمة المالكية. من أشهر كتبه: "الموافقات" و"الاعتصام"، انظر: الزركلي، الأعلام، ج١، ص٧٥.

[6] الشاطبي، الاعتصام، ج١، ص١٩٧.

[7] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا، ص٦٠٣، برقم (٢٦٥٤)، عن كعب بن مالك ﷺ، وقال: "هذا حديث غريب".

وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ وَجْهِ اللهِ؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[١].

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فذكر ثلاثةً، ومنهم: «رَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قال: فَمَا عَمِلْتَ فِيْهَا؟ قال: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُه وقَرَأْتُ فِيْكَ القرآنَ. قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّك تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَال: عَالِماً، وقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيْلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[٢].

ورُوِي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً، مِمَّا يُبْتَغَى به وَجْهُ اللهِ تَعَالَى، لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيْبَ عَرَضاً مِن الدُّنْيا؛ لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّة يَوْمَ القِيَامَةِ»[٣].

وقد كان السلفُ – رحمهم الله تعالى – مِن أعظَمِ الناسِ هرباً وفراراً من الشهرة والظهور، وأخوفِهم على أنفسهم من أن تدنِّسها طلبُ المحامد الفانية، ونيلُ المآرب الزائلة، وابتغاءُ المدائح الدنيوية العاجلة، وأحوالُهم وأقوالهم في هذا خيرُ شاهدةٍ على صِدْق نِيَّاتِهم وحُسْنِ سِيَرِهم، ومما جاء عنهم:

١) عن عليّ بن أبي طالبٍ ﷺ قال: "يا حَمَلة العلم! اعملوا به، فإنّما العالِم مَن عَمِل، وسيكون قومٌ يحملون العلم يُباهي بعضُهم بعضاً حتى إنّ الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره، أولئك لا تصعد أعمالُهم إلى السماء"[٤].

٢) وعن مالك بن دينارٍ[٥] – رحمه الله تعالى – أنه قال: "إنّ العبد إذا طلب العلمَ للعمل؛ كسره علمُه. وإذا طلبه لغير ذلك؛ ازداد به فجوراً أو فخراً"[٦].

٣) وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى: "من طلب العلمَ ابتغاءَ الآخرة؛ أدركها. ومن طلب العلمَ ابتغاءَ الدنيا؛ فهو حظُّه منه". وقال الزهري: "فذاك حظُّه منها"[٧].

---

[١] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا، ص٦٠٣، برقم (٢٦٥٥)، وابن ماجه في مقدمة السنن، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، ص٢٥٨، برقم (٢٥٨)، وقال الترمذي:"هذا حديث حسن غريب".

[٢] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ص٨٥٢، برقم (١٩٠٥).

[٣] سبق تخريجه في المبحث الأول من الفصل الأول المعنون بـ"شخصية الْمُتعالِم".

[٤] الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم والعمل، ص٢٣.

[٥] هو مالك بن دينار البصري، أبو يحيى (ت١٣١هـ): من رواة الحديث. كان وَرِعاً، يأكل مِن كسبه، ويكتب المصاحف بالأجرة. توفي بالبصرة. انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٤، ص١١.

[٦] الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم والعمل، ص٣٢.

[٧] المرجع السابق، ص٦٦.

٤) وعن حَمَّاد بن سَلَمة[١] رحمه الله تعالى: "من طلب الحديثَ لغير الله تعالى؛ مُكِرَ به"[٢].

٥) ولقد ذمَّ الحافظُ الذهبي – رحمه الله تعالى– مَن يَطلُب العلمَ دُوْن إخلاصٍ، فقال: "مَن طَلَب العلمَ للعمل؛ كَسَره العلمُ، وبَكَى على نفسه. ومَن طَلَب العلمَ للمَدارِس، والإفتاء، والفَخْرِ، والرِّياء؛ تَحامَقَ، واختالَ، وازْدَرَى بالناس، وأهلكه العُجْبُ، ومَقَتَتْه الأَنْفُسُ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، أي: دَسَّسها بالفُجور والمعصية"[٣].

أمَّا حالُ الْمُتعالِمين فعلى العكس والنقيض، حيث الاستماتةُ في سبيل الشهرة والظهور، والجريُ وراء الأضواء والمديح، والأعجَبُ من ذلك وأمَرُّ أنّ كلَّ ذلك السعي اللاهث، والجري المستميت قد يكون بلا أهليةٍ ولا استحقاقٍ في أيّ من مجالات العلم المختلفة وقنواتِ المعرفة المتنوِّعة، يقول الإمام بدر الدين ابن جَمَاعة ذاكراً أدب العالِم في درسه قال: "ألاَّ ينتصب للتدريس إذا لم يكن أهلاً له، ولا يذكر الدرسَ من علمٍ لا يعرفه، فإنّ ذلك لعبٌ في الدين، وازدراءٌ بين الناس، قال النبيُّ ﷺ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُوْرٍ[٤]»"[٥].

يقول الزاهد أبو بكر الشِّبْلي[٦]: "من تصدَّر قبل أوانه؛ فقد تصدَّى لهوانه"[٧].

ونُقل عن الإمام أبي حنيفة النُّعْمان أنه قال: "مَن طلب الرياسةَ في غير حينه؛ لم يزل في ذُلٍّ ما بقي"[٨].

---

[١] هو حماد بن سلمة بن دينار البصري الرَّبَعي، أبو سلمة (ت١٦٧ه): أحدُ رجال الحديث الثقات، ومن حفاظ الكبار، كان فقيهاً في الدين، وإماماً بالعربية، فصيحاً مفوّهاً، وشديداً على المبتدعة. ساء حفظُه في آخر عمره. انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج١، ص٤٨١، ٤٨٢.

[٢] ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ص٤١.

[٣] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص١٩٢.

[٤] سبق تخريجه في هامش مطلع هذا المبحث.

[٥] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب النكاح، باب المتشبع بم لم ينل، ص٩٨٢، برقم (٥٢١٩)، ومسلم في الصحيح، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره، ص٩٥١، برقم (٢١٣٠) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

[٦] هو دُلَف بن جحدر، أبو بكر الشِّبْلي (٢٤٧ – ٣٣٤ه): أحد الزهاد النُّسّاك، كان في مبدأ أمره والياً في "دنباوند" من نواحي رستاق الرَّيّ، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح. توفي ببغداد. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٢، ص٣٤١.

[٧] ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص٦٥.

[٨] ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص٦٥.

واللَّبِيْبُ من صانَ نفسَه عن تعرُّضها لِما يُعَدّ فيه ناقصاً، أو بتعاطيه ظالماً، أو بإصراره عليها فاسقاً، فإنه متى ما لم يكن أهلاً لِما يقتضيه عُرف مثله كان بإصراره على تناول ما لا يستحقّه فاسقاً.

وأقَلُّ مَفاسِد ذلك: أنّ الحاضرين يفقدون الإنصاف، لعدم من يرجعون إليه عند الاختلاف؛ لأن رَبَّ الصَّدْرِ لا يعرف المصيبَ فينصره، أو المخطئَ فيزجره، وقيل لأبي حنيفة – رحمه الله تعالى – في المسجد حلقةٌ ينظرون في الفقه، فقال: "لهم رأسٌ"؟ قالوا: لا، قال: "لا يفقه هؤلاء أبداً"[1]"[2].

ولبعضهم[3] في تدريس من لا يَصلُح:

تَصَدَّر للتدريس كُلُّ مُهَوِّسٍ جَهُوْلٍ تَسَمَّى بالفقيه المدرِّسِ
فحُقَّ لأهل العلمِ أن يَّتَمَثَّلُوْا ببيتٍ قديمٍ شاعَ في كلِّ مجلسِ
لقد هَزُلَتْ حتى بَدا مِن هُزَالِها كُلاَها وحتى استامها كلُّ مُفلِسِ[4]

وهذا كما قيل: حُبُّ الظهور يقصم الظهورَ.

وجميعُ ما ذكرناه سابقاً يتعلَّق بمجال التعليم والتدريس، أمّا إنْ تبصَّرنا في مجال التأليف والتحقيق فحَدِّثْ عنه ولا حرجَ، حيث شغفُ المبتدئين وهم في أوائل طلبهم للعلم، وفي أول خطوةٍ منه بالتأليف والتحقيق، والبدار إليهما، والتعلُّق بهما، والرسمُ على أغلفة الكتب: "تأليف فلانٍ"، و"تحقيق فلانٍ"، ومن هؤلاء من لم يَدرُس على شيخٍ ولم يتمكَّن من علمٍ أو تخصُّصٍ، لكن كلُّ هذا من شِدَّة العُجْب والتِّيْه، والفخر والغرور[5]، قال الإمام الأوزاعي رحمه الله تعالى: "كان هذا العلمُ كريماً بملاقاة الرجال، فلما صار في الكتب؛ صِرْتَ تجده عند العبد والأعرابي"[6].

---

[1] والمقصودُ بقول أبي حنيفة رحمه الله تعالى: "لهم رأسٌ"؛ أي: ألهم إمامٌ وشيخٌ يَرجعون إليه للعلم والفقه وعند الاختلاف، فلمَّا أُجيبَ بالنفي؛ قال: "لا يفهم مثلُ هؤلاء العلمَ أبداً"، بإعجابهم بأنفسهم وغرورِهم بها وحبِّهم للظهور والبروز، وكلُّ هذه الصفات مانعةٌ عن الفهم، حاجزةٌ عن الفقه في العلم.

[2] المصدر ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص٦٦.

[3] هو الإمام النَّحْوي أبو الحسن علي بن أحمد الفالِي (ت٤٤٨)، كما ذكره الإمام ابن الجوزي في كتابه "المنتظَم في تاريخ الأمم والملوك"، ج١٦، ص١٠.

[4] ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص٦٦.

[5] بكر بن عبد الله بن أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٥٨، بتصرف يسير.

[6] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٧، ص١١٤.

وفي هذا المعنى يقول الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله تعالى: "ومن التَّعالُم شَغَفُ المبتدئين بالتأليف، والبدايةُ مزلّةٌ، وهذا عينُ تَشَيُّخ الصَّحَفِيَّة، إذ تعلُّمُه حقيقةً مجذوباً، فتراه يخوض غِمار التأليف، فيما وصل إليه الأكابر بعد قطع السِّنين في مثافنة الأشياخ ومسكِ الدفاتر ثم يأتي هذا: المجذوب الطَّرِيّ[1] ويُثافِن مؤلَّفاتِهم والمطابعُ تُفرِز كلَّ يوم لنا قراطيس ورُزَماً.

إن لم يكن هذا هو الاحتراق في الغرور، فما أدري له سبباً سواه، فنعوذ بالله من هذه الفتنة الصمّاء.

والتأليفُ المقبولُ لا بدّ أن يكون بقلم من اتّسعت مَدارِكه، وطال جِدُّه وطلبُه، والصَّنْعَةُ بصانعها الحاذق، ومعلِّمها البارع"[2].

ومن هؤلاء الصحفية الأشياخ الْمُتعالِمون من ينتسب إلى سُنَّة المصطفى ﷺ، ويدَّعي خدمتَها من خلال التأليف والتحقيق فيه، ويتعلَّق بذلك أشَدَّ ما يكون من التعلُّق وهو عاضٌّ بالنواجذ على نواقض السنة النبوية المشرَّفة، ومتمسِّكٌ بأقوى ما يكون مخالفةً للهدي المصطفوي، والسَّمْت المحمدي، "وقد ركب لذلك الصعبَ والذَّلول، وأتى فيه بالعجائب، وتطاوَلَ إلى ذلك وهو لا يَعرِف من العربية حرفاً، ولا من الفقه فرعاً، ولا في الاصطلاح نوعاً، وعند المفاتحة يضيق ذرعاً، ويوسِّعك لوماً وقدحاً، وهذا شأنُ مَن يقتحم قحماً ليس برجالها، ويلبس ثيابَ الكُبَراء متعثِّراً بأذيالها، فإلى الله الشَّكوى مِن تطاوُل هؤلاء الرَّكالة على ينبوع الإسلام"[3].

وقد اشتكى من وجود بعض هؤلاء في القديم كذلك أئمةُ الإسلام وشيوخُه الأعلام، ومنهم الحافظ الخطيب البغدادي، فقد قال – رحمه الله تعالى – في فاتحة كتابه الجامع: "وقد رأيتُ خَلْقاً من أهل هذا الزمان ينتسبون إلى الحديث، ويعدّون أنفسهم من أهله، المتخصِّصين بسماعه ونقله وهم أبْعَدُ الناسِ مما يدّعون، وأقَلُّهم معرفةً بما إليه ينتسبون، وهم مع قِلّة كتبهم له، وعدمِ معرفتهم به أعظَمُ الناسِ كِبْراً، وأشَدُّ الخَلْقِ تِيْهاً وعُجْباً"[4].

---

[1] هو من لا شيخَ له، كما ذكره الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه "التعالم وأثره..."، انظر صفحة ٨١.

[2] بكر بن عبد الله بن أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٨١.

[3] المرجع السابق، ص٥٨.

[4] الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق وآداب السامع، ج١، ص٧٧.

ومنهم كذلك الحافظُ الذهبي – رحمه الله تعالى – في السِّيَر في ترجمة هشام الدُّسْتُوائي قولَه: "وقومٌ طلبوه – أي العلمَ – بنيةٍ فاسدةٍ لأجل الدنيا، وليُثْنَى عليهم، فلهم ما نَوَوْا، قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مَنْ غَزَا ولا يَنْوِيْ فِي غَزَاتِهِ إلاَّ عِقَالاً فَلَهُ مَا نَوَى»[1].

وترى هذا الضربَ لم يستضيؤا بنور العلم، ولا لهم وقعٌ في النفوس، ولا لعلمهم كبيرُ نتيجةٍ من العمل، وإنما العالِمُ من يخشى اللهَ تعالى.

وقومٌ نالوا العلم، وولوا به المناصبَ، فظَلَمُوا وتركوا التقيُّدَ بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فتبّاً لهم، فما هؤلاء بعلماء"[2].

وإنْ تمعنّا في جميع هذه الأحوال والأقوال الغابرة والحاضرة؛ نجد أنَّ العِلَّة عند هؤلاء المدّعين واحدةٌ، وهي: الاستماتةُ المفرَطة اللاَّهثة في سبيل الظهور والشُّهرة، ونيلُ الجاه والمكانة ليس إلا ذلك، ورسولُ الله ﷺ يقول: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِيْ يُرَائِيْ اللهُ بِهِ»[3].

وفي كتاب المحدَّث الملهَم[4] أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: "فمن خَلُصَت نيته في الحقّ ولو على نفسه؛ كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيَّن بما ليس فيه شانَه الله"[5].

خلاصة الفصل:

وفي هذا الفصل وهو الثالث ترتيباً، قمتُ في المبحث الأول منه – بفضل الله ومنِّه – بذكر دوافع هذا البلاء الخطير وأسبابه، وهي – تَكمُن كما سبق بيانُها – في أمور شتّى عديدة، وهي: التأكُّلُ بالعلم واتِّخاذه وسيلةً للكسب والارتزاق. وحصولُ الخلطِ وعدمُ التفريق بين أهل العلم والتمكُّن وذوي الرسوخ والثبات وبين طلبة العلم المبتدئين وغيرهم. وضَعْفُ الإيمان والتقوى لدى الشخص الْمُتعالِم، وكذلك ضعفُ مراقبة الله ﷻ فيما يقوله وما يفعله. واتِّباعُ هوى النفسِ وشهواتها والإعجابُ بها. وعدمُ تلقِّي العلمِ عن العلماء الراسخين بالتدرُّج العلمي

[1] أخرجه النسائي في المجتبى، كتاب الجهاد، باب من غزا في سبيل الله ولم ينو من غُزاته إلا عقالاً، ص٤٣٢، برقم (٣١٤٠)، وابن حبان في الصحيح، ج١٠، ص٤٩٥، برقم (٤٦٣٨)، والحاكم في المستدرك، ج٢، ص١٢٠، برقم (٢٥٢٢) وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وأحمد في المسند، ج٣٧، ص٣٦٥، برقم (٢٢٦٩٢)، وكلهم عن عُبادة بن الصامت ﷺ، وقال محقق المسنَد الشيخ شعيب الأرناؤط: "حديث حسن لغيره".

[2] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٧، ص١٥٢.

[3] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة، ص١١٨٥، برقم (٦٤٩٩). ومسلم في الصحيح، كتاب الزهد، باب تحريم الرياء، ص١٢٩٦، برقم (٢٩٨٦)، وكلاهما عن جُنْدُب العَلَقِي ﷺ.

[4] أقصد به خطابَه الموجَّه إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري، الذي كان والياً على الكوفة في خلافة عمر رضي الله عنهما.

[5] ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج٢، ص١٥٩.

الصحيح والمنهج التأصيلي المناسب. ومكرُ الأعداء بالمسلمين باتِّخاذ بعض طلبة العلم الضِّعاف مطيةً لأغراضهم ومآربهم. وظهورُ وسائل الإعلام المختلفة والفضائيات المتنوّعة باتِّجاهاتها العديدة المتغايرة. والتساهُلُ في الفتوى والتتبُّع للرُّخَص الغثائية الضعيفة والآراء الشّاذة المهجورة. والتسابُقُ إلى مجاملة المخلوقين من أهل الرئاسة والنفوذ. ومجاملةُ عامة الناس ومسايرتُهم في آرائهم وأفكارهم، ومجاراتُهم في شهواتهم ورغباتهم.

كما ثنّيتُ في المبحث الثاني منه بذكر صفات "الْمُتعالِم" حسبما ظهر لي من خلال تتبُّعي واستقرائي لأقوال أهل العلم أُوْلِي الاختصاص ممن تناولوا هذه القضية دراسةً وتحليلاً، ومعالجةً لها؛ ونتيجةً لذلك توصّلتُ إلى أنه يمكن تصنيف أبرز صفات "الْمُتعالِم" وأظهَرِ أماراته إلى خمس صفاتٍ أساسية، والتي يُعرَف من خلال الاتِّصاف بها، وهي: الكذبُ والادّعاء والتشبُّع بما لم يُعْطَ. والغِشُّ والتدليس والخِداع. والتشغيبُ والتطاوُل باللسان والتسلُّط به على العباد. وادّعاءُ العلم والتزيُّد منه والتكاثُر دون ابتغاء العمل به. والاستماتةُ وراء الشهرة والظهور إعجاباً بالنفس وتِيْهاً وغروراً.

الفصل الرابع

أخطار انتشار "التَّعالُم" ونتائجه

المبحث الأول: خطر "التَّعالُم" على الفرد "الْمُتعالِم" نفسه في الدنيا والآخرة.

المبحث الثاني: خطر "التَّعالُم" على الأمة جمعاء.

خطر "التَّعالُم" على الفرد "الْمُتعالِم" نفسه في الدنيا والآخرة

ولـ"التَّعالُم" خطرٌ عظيمٌ، وأثرٌ جسيمٌ على مستوى الفرد الواحد – والذي هو "الْمُتعالِم" نفسُه – في دنياه وآخرته، كذا له نتائجه الفظيعة، ومخلَّفاته السحيقة على الأمة قاطبةً، في أغلى نفائسها، وأبْهَى كنوزِها، وأشرفِ ممتلكاهَا، وأنضرِ ذخائرها؛ ألا وهي: تراثُ المسلمين من كُتُبهم، ومخطوطاهم الْمَلْئى بعلومهم ومعارفهم، وفكرِهم وثقافاتِهم، كما يُحارِبها أيضاً في أخصِّ خصائصها، وأقوى قِوامها، وعِماد غَدِها المشرِق، ومستقبلها الباهر؛ ألا وهي: عقولُ أبنائها، وأفكارِ نشئها، فلذاتِ الأكباد، وثمراتِ القلوب والأرواح[1].

فلننظر إذاً كيف ذلك، وهذا ما سأبيِّنه – بإذن الله تعالى – في هذا المبحث الذي يشتمل على مطلبَين، فأخصّ أولهما بذكر مَخاطِر "التَّعالُم" وآثارِه على الفرد الْمُتعالِم نفسِه في الدنيا قبل الآخرة، ثم أذكر في الثاني مخاطرَ "التَّعالُمِ" على الفرد في الآخرة.

المطلب الأول: خطر "التَّعالُم" على الفرد "الْمُتعالِم" في الدنيا:

ويمكننا أن نُجمِل ذلك في عدة أمور، هي:

١) "التَّعالُم" ذريعةٌ إلى اتّصاف النفس بأدواءٍ مُزمِنةٍ حقيرةٍ، وأخلاقٍ رذيلةٍ مذمومةٍ، وصفاتٍ منحطّةٍ رديئةٍ، وعلى رأسها: الكذبُ والادّعاء، والكِبْرُ والغرور، والعُجْبُ بالنفس، واحتقارُ الآخرين، وطلبُ مَحمَدة الناس وثنائهم، والتشبُّعُ أمامهم بما لم يُعْطَ، والتزيُّنُ لهم بما ليس فيه، وغيرُ ذلك من خصالٍ دَنيَّةٍ رَدِيَّةٍ، مما جاءت الشريعة الإسلامية الغَرّاء بالنهي عنها والتحذير منها؛ لأنها تجعل صاحبَها المتصفَ بها مذموماً لدى الناس منبوذاً، بغيضاً حقيراً مكروهاً، وأيُّ جنايةٍ أعظَمُ على النفس من هذه! حيثُ يعيش المرءُ من هؤلاء كاسفَ البالِ، ذليلَ النفسِ، بطلبه العِزَّ من غير وجهه، ووُلُوجه الميدانَ من غير بابه، وتزيُّنه بما ليس فيه، بلا استحقاقٍ ولا أهليةٍ؛ فكان من أمرِه أن أذلَّه اللهُ وشانَه، وفضح أمرَه وهَتَك سِتْرَه، وهذا جزاءُ كلٍّ من كذب وغَشَّ وادَّعى، وتشبَّع بما لم يُعْطَ...

[1] ولمعرفة المزيد من أخطار "التعالُم" وآثار انتشاره ونتائج ذلك على الفرد والمجتمع بلسان حال أهله ومقالهم؛ يُرجَع إلى كتاب "إلى كل طالب علم ... إلى كل جاهل حكايتي (حكاية من تزبَّب قبل أن يتحصرم) " للشيخ أحمد بن نجاء الرحيلي.

ولعلمائنا الأجلة – رحم الله موتاهم، وحفظ أحياءهم، ووفّقهم وسدَّد خُطاهم – في الماضي والحاضر من الأقوال الباهرة العجيبة، المؤثِّرة البليغة في ذمّ هذه الأخلاق الرديئة، وحثٍّ طَلَبَةِ العلم على الابتعداد عنها ما يستحق أن يُسطَّر بماء الذهب، ويُدوَّن مخلَّداً في صفحات التاريخ من ذلك قول الإمام ابن حزم الظاهري رحمه الله تعالى: "من امتُحن بالعُجْب، فليفكِّر في عيوبه، فإنْ أُعجب بفضائله، فليفتِّش ما فيه من الأخلاق الدنيئة، فإنْ خَفِيَتْ عليه عيوبُه جملةً حتى يظنّ أنه لا عيبَ فيه، فيَعلَم أنَّ مصيبته إلى الأبد، وأنه أتَمُّ الناسِ نقصاً وأعظَمُهم عيوباً وأضعَفُهم تمييزاً، وأوّل ذلك: أنه ضعيفُ العقل جاهلٌ، ولا عيبَ أشَدُّ من هذين؛ لأن العاقل هو مَن ميَّز عيوبَ نفسه فغالَبَها وسعى في قَمْعها، والأحمَقَ هو الذي جهل عيوبَ نفسه: إمّا لقلة علمه وتمييزِه وضَعْفِ فكرته، وإما لأنه يقدِّر أنَّ عيوبه خصالٌ!"[1].

ومِن قبلُ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: "مَن تزيَّن بما ليس فيه؛ شانَه اللهُ"[2].

وأنه لَمِن العَبَث حَقّاً في "العلم أن يعرض شخصٌ إلى تحقيق مخطوطٍ أو تأليفِ كتاب بعيدٍ عن تخصُّصه، ويَدخُل في علومٍ ليس من أهلها، ويُقدِم على كتبٍ لا يَفقَه منها قليلاً ولا كثيراً. وقد جاء في هذا المعنى الحديثُ الشريف: «لاَ يَنْبَغِيْ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ»، قالوا: وكيف يُذِلُّ نفسَه؟ قال ﷺ: «يَتَعَرَّضُ مِنَ البَلاَءِ لِمَا لاَ يُطِيْقُ»[3].

ومن أعظم البلاء أن يَدخُل ميدانَ العلمِ الذي تتقارع فيه الأفهامُ، وتتزاحم على مناهله الأعلامُ، أغمارٌ لا يَدرُون فيه ما يصنعون"[4].

٢) ومَن تحلَّى بهذه الأوصاف فقد وَطَّن نفسَه، وظَنَّ بها أنها غير محتاجةٍ إلى الرُّقِيّ والكمال، والجِدّ والاجتهاد، والسَّعيِ والمثابرة؛ لأنه وفي داخل نفسه وقرارةِ ذاته، قد بلغ كلَّ ذلك؛ بل وأعظم مِن ذلك، وهنا يتوقّف عن إكمال المسيرة وبذل المجهود لنيل المنشود... فهذا عائقٌ عظيمٌ، وحاجزٌ خطيرٌ عن طلب العلم، والتحلِّي بعُلُوِّ الهمة فيه، وهذه خسارةٌ كبيرةٌ... وما أعظَمَها من خسارةٍ، وبليةٌ... وما أفدَحَها من بليةٍ!.

---

[1] ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص٦٦.

[2] ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ص٣٦٢.

[3] أخرجه الترمذي في السنن، أبواب الفتن، باب لا يتعرض من البلاء لما لا يطيق، ص٥١٨، برقم (٢٢٥٤)، وابن ماجه في السنن، أبواب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ص٥٧٩، برقم (٤٠١٦)، وأحمد في المسند، ج٣٨، ص٤٣٥، برقم (٢٣٤٤٤)، كلهم من حديث حذيفة بن اليمان، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب".

[4] فاروق حمادة، منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً وتحقيقاً، ص١٠١، بتصرف يسير.

ومثلُ هذا هو في الحقيقة مما استعاذ منه رسولُ الله ﷺ، وأمر أمتَه بالاستعاذة منه، حيث قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «اللَّهُمَ إِنِّيْ أَسْأَلُكَ عِلْماً نَافِعاً، وَأَعُوْذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ»[1].

ولو تمعنّا في هذا؛ لوجدنا أنَّ قِصَر همة "الْمُتعالِم" وخِسَّةَ عزيمته، ووُقوفَه عن الإكمال، ونُكوصَه عن طلب الكمال، كلٌّ ذا في حدِّ ذاته عقوباتٌ ربّانية عاجلة، يقول الشيخ بكر عبد الله أبو زيد رحمة الله عليه: "ومن تعجيل العقوبة له: تخلُّفُه عن أقرانه في القيمة الأدبية، رُغْم تحرُّقِه، وشدةِ تتطلُّعه"[2].

ويقول الإمام الشَّوْكَانِي[3] رحمه الله تعالى: "وهكذا جَرَتْ عادةُ الله في عباده، فإنه لا ينال مَن أراد الدنيا بالدين، إلا وبالاً وخسراناً، عاجلاً وآجلاً، خصوصاً مَن كان مِن الحاملين لحجة الله، المأمورين بإبلاغها إلى العباد، فإنَّ خيره في الدنيا والآخرة مربوطٌ بوُقوفه على حدود الشريعة، فإنْ زاغَ عنها زاغَ عنه[4]. وقد صرَّح الله سبحانه بما يُفيد هذا في غير موضعٍ من كتابه العزيز، فأنت أيها الحامل للعلم لا تزال بخير ما دُمْتَ قائماً بالحجّة، مُرشِداً إليها، ناشراً لها، غيرَ مستبدِلٍ بها عرضاً من أعراض الدنيا، أو مرضاةً من أهلها[5]".

٣) تعريضُ المرءِ نفسَه بانفتاح قالة الناس، مِن أنه يَدّعي العلمَ بلا حقيقةٍ، ويَحمِل اسمَ العالِم بلا أهليةٍ، فهو مُزْجَى البضاعةِ، عظيمُ الدِّعاية، ومَن كان مثلُ هذا فهو حقيرُ الشأنِ، خسيسُ العزمِ، ذليلٌ في المجتمع، ومهما حاول وجاهد لكسب عزٍّ كاذب، وجاهٍ موهومٍ فلن يُوفَّق في مقصده، ولن ينال مأربَه بل وعلى العكس والنقيض سيتلاشى أمره، وتفتضح نفسُه، ولن يملأ فراغاً يُحِسّ به الناسَ ويعتقدونه، وصَدَق من قال في حقّ أمثال هؤلاء: مَن أراد أن يُعِزّ العِزَّ الكاذب أذَلَّه الله تعالى ذُلاً صادقاً، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣].

فما أفظعَ فضيحة "التَّعالُم" وأخزاها... وكم هي أليمةٌ نتائجه وآلأمِها للفرد نفسه، وللمجتمع بأكمله.

---

[1] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، ج١٣، ص٥٨٧، برقم (٢٧٢٤٨)، وابن حبان في الصحيح، ج١، ص٢٨٣، برقم (٨٢)، والطبراني في المعجم الأوسط، ج١، ص١٥٤، برقم (٧١٣٩)، كلهم عن جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ، وهو حديث حسن، قاله محقّق "صحيح ابن حبان" الشيخ شعيب الأرناؤط.

[2] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٩١.

[3] هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشَّوْكَانِي اليَماني (١١٧٣ - ١٢٥٠هـ): المفسِّر المحدِّث، الفقيه المجتهد. وُلد ببلدة "شَوْكَان" باليمن، ونشأ في صنعاء وتوفي بها. جدَّ في طلبه للعلم ونبغ. اشتغل بالقضاء والإفتاء. وله نحو (١١٤) مؤلفاً في التفسير والحديث والفقه وغيره. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٦، ص٢٩٨.

[4] يعني: الخير.

[5] الشوكاني، أدب الطالب ومنتهى الأرب، ص١١٠.

وفي فضيحة "الْمُتعالِم" يقول الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد: "لكنّ هذا الضرب من العباد ما يلبث أن يَلحَقه الإدبارُ، فتُحيط به خطيئته، فتَنقُله إلى السقوط المبكِّر:

كلٌّ من يَدَّعي بما ليس فيه فضَحَتْه شواهدُ الامتحان[1].

أو ليست هذه عقوبةٌ ربانيةٌ أليمةٌ لكلٍّ من تسوَّلتْ له نفسُه بالتَّعالُم والادِّعاء، وغِشِّ المسلمين وخِداعِهم، أن يَفضَحه المولى تعالى بين الخلائق أجمعين في الدنيا قبل الآخرة.

ولذا قال الحافظُ قَتَادَة بن دِعَامَة السَّدُوْسِيِّ[2] رحمه الله تعالى: "مَن حدَّث قبل حينه؛ افْتَضَح في حينه"[3].

وما أجملَ بالمرء أن يعيش تحت سِتْر الله تعالى، ومن كان صافي الجوهر، عميقَ المادة، فأمام الحقائق تتلاشى المظاهرُ، وتَزُول كتقلُّص الظِّلِّ وزوالِ الخيال[4]. يقول أبو الحسن العامري[5]: "الفائزُ بالحكمة الحقيقة، والْمُرْتاضُ بالعبادة الخالصة هو الموصوفُ بالفضيلة المطلَقة، فإذاً كل من لم يكن حكيماً متعبّداً فإنّ إطلاق وصفِ الفضيلة عليه لن يكون إلا بمنْزلة الظِّلّ والخيال"[6].

وتفادياً لجميع تلك المساويء والشُّرور والمصائب والبلايا؛ وَرَد النهي والتحذير الشديد في القرآن الكريم من اتِّصاف المرء بالادِّعاء، وتزكيتِه لنفسه بالدِّين والتُّقَى، أو العلم والمعرفة، أو غيرِ ذلك بلا استحقاقٍ، حيث قال الله تبارك وتعالى في مُحكَم تنْزيله العزيز: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال رسول الله ﷺ: «المتشبِّعُ بما لم يُعْطَ كلابس ثوبَي زورٍ»[7].

---

[1] بكر بن عبد الله بن أبي زيد، التَّعالُم أثره على الفكر والكتاب، ص١١.

[2] هو قَتَادَة بن دِعَامة بن قتادة بن عُزيز، أبو الخطّاب السَّدوسي البصري (٦١ – ١١٨هـ): محدِّث، مفسِّر، حافظ، علاَّمة. كان ضريراً أكمه. وكان مع عِلمه بالحديث، رأساً في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب. توفي بواسط في الطاعون. انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٣، ص٤٢٨، ٤٣٠.

[3] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٤٠، وج١٧، ص٢٠٨.

[4] بكر بن عبد الله بن أبي زيد، تغريب الألقاب العلمية، ص٣٢٨.

[5] هو محمد بن يوسف العامري النيسابوري، أبو الحسن (ت٣٨١هـ): عالِمٌ بالمنطق والفلسفة اليونانية، من أهل خراسان. له شروح على كتب أرسطو، ومن مصنَّفاته: "الإعلام بمناقب الإسلام"، و"السعادة والإسعاد في السيرة والإنسانية"، والأمد على الأبد". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٧، ص١٤٨.

[6] محمد بن أبي ذرّ يوسف العامري النَّيْسابوري، الأمد على الأبد، ص٩٧.

[7] سبق تخريجه في الفصل الثالث في هامش مطلع المبحث الثاني المعنون بـ"صفات المتعالم".

والحقيقةُ والله أقول: أنَّ "الْمُتعالِم" يُبغِضه ويَمقُته كلُّ من عَرَف حقيقتَه، ولا يتغافل عنه ويُجامِله إلا مثله، ممن هو على سيرته وشاكلته، أو جاهلٌ لا يعلم ولا يدري عن حقيقته شيئاً.. وإلا فكيف بربِّي يقف مكتوفَ اليد، ويَصمُت مُلجَمَ اللسان مَن يحمل في قلبه مثقالَ ذرّةٍ من حُبٍّ لله تعالى ورسولِه ﷺ، وغيرةٍ على دين الله وشرعِه عن مخازي هؤلاء، وتلاعُبِهم بدين الله ﷻ، وشريعتِه المطهَّرة السَّمحاء، وعبثِهم بتراث الإسلام وعقولِ المسلمين.

المطلب الثاني: خطر "التَّعالُم" على الفرد "الْمُتعالِم" في الآخرة:

إنّ جزاء الكذب والادّعاء، والغشّ والخداع، والتمويه والتدليس، وقول الزُّوْر والباطل عند الله تعالى في الآخرة أليمٌ شديدٌ، حيثُ يقول المولى تعالى جلَّ شأنه: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

فهؤلاء وإنْ خَفِيَ عن الناس أمرُهم، و لم يظهر لديهم شأنُهم، لكن الرَّبَّ تبارك وتعالى مُطّلِعٌ على سرائرهم عالِماً ببواطنهم، فأين خشيةُ الله تبارك وتعالى، والخوفُ من أليم عقابه، وشديدِ عذابه، ومِن غضبِه وسخطِه، في قلوب هؤلاء؟!

وما أعظَمَ أمنَهم من مكرِ الله تعالى، وغرورَهم بإمهال الله جلَّ جلاله لهم!

أمَا آنَ لهم أن يتوبوا إلى الله ويستغفروه، ويرجعوا إلى الحقّ والصواب، فإنّ الله تعالى يُمهِل ولا يُهمِل، ويَستدرِج بالنِّعَم والأفضال لتَتِمّ حجةُ الله على العباد... لكنه غير غافلٍ عما يعملون.

وفي هذا يقول الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد في معرض ذكره سببَ تأليفه لرسالته النافعة "التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب": "فهذه شآبيب من القول، أقيِّدها نصيحةً لمن يَخضَع للحقّ، وإقامةً للحجة في مقام الْمَحَجَّة بين الخلق. أمّا من استولى عليه الاغتلام في الجهالة، وصار على قلبه قُفْلٌ ضُلَّ مفتاحه، و لم يَشَامَّ العلمَ؛ فهذا لا ينفعه إلا يومَ أن تشهد عليه أعضاؤه في يوم مَعاده[١]".

[١] بكر بن عبد الله أبو زيد، مقدمة "التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب"، ص١٣.

وإنَّ العلم نعمةٌ ربانية عظيمة، ومِنَّةٌ إلهية جليلة في حقِّ مَن وُفِّق للعمل به والدعوة إليه، كما قال عبد الله بن مسعود ﵁: "منهومان لا يشبعان: صاحب العلم، وصاحبُ الدنيا، ولا يستويان. أمَّا صاحبُ العلم فيزداد رِضا الله، وأما صاحبُ الدنيا فيزداد في الطُّغيان"، ثم قرأ ﵁: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]، ثم قرأ للآخر: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦٧][1].

وكما جاء عن مَطَر الوَرَّاق[2] في قول الله ﷻ: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، قال: "بَلَغنا أنَّ الحكمة خشية اللهِ والعلمَ به"[3].

وبما أنَّ العِلم في هذه المكانة العظيمة والمنْزلة الغالية النفيسة، فسيسأل المولى تبارك وتعالى يوم الحساب والمعاد عن هذه النعمة الكبرى الجليلة، وماذا عَمِل فيها المرءُ، فعن معاذ بن جبل ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَنْ تَزُوْلَ قَدَما عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيْمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيْمَا أَبْلاَهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيْمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذا عَمِلَ فِيْهِ؟»[4].

والعلمُ إمّا حُجَّةٌ لك، أو حُجَّةٌ عليك، فهو يَحتجّ لصاحبه وينفعه ويُدافِع عنه، ويشفع له إنْ كان به عاملاً، وعلى صراط الرَّبِّ - تبارك وتعالى - المستقيم مهتدياً بالعلم سائراً، قال أبو الدرداء ﵁: "لا تكون تقيّاً حتى تكون عالماً، ولا تكون بالعلم جميلاً حتى تكون به عاملاً"[5].

---

[1] السخاوي، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، ص٤٣٤، برقم (١٢٠٦)، وقال: "إنه موقوف منقطع".

[2] هو مَطَر بن طَهْمان الورَّاق أبو رجاء الخراساني السُّلَمي (ت١٢٩هـ): الإمام الزاهد الصادق، نزيل البصرة، كان من العلماء العاملين، روى عن أنس بن مالك وطائفة. حدث عنه شعبة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد وآخرون. واحتج به مسلم في صحيحه. انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٤، ص٨٨،٨٧.

[3] أبو بكر الآجري، أخلاق العلماء، ص١٦٨، ١٦٩.

[4] أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" ج٢٠، ص٦٠، برقم (١١١)، وقال المنذري: "رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح، واللفظُ له". (الترغيب والترهيب: ج٤، ص٢٩٩، برقم٥٢٦١).

[5] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٥٦٢.

وعن عطاء[1] – رحمه الله تعالى – قال: "كان فتىً يختلف إلى أمّ المؤمنين فيسألها وتحدِّثه، فجاء ذات يومٍ يسألها، فقالت: يا بُنيّ! هل علمتَ بما سمعتَ؟ فقال: لا والله! يا أُمّاه، قالت: يا بني! ففيم تَستكثِر من حُجَجِ الله علينا وعليك؟"[2].

وعن ميمون بن مهران[3] أنّ أبا الدرداء ﷺ قال: "ويلٌ لمن لا يَعلَم مرةً، وويلٌ لمن يَعلَم ولا يَعمَل سبع مرّاتٍ"[4].

وجاء عن الإمام أبي بكر الآجُرّي[5] في كتابه النافع المفيد "أخلاق العلماء" و هو يصف "الْمُتعالِم" الذي لم ينفعه علمُه: "أنه عالِمٌ في الظاهر، لم ينفعه اللهُ بالعلم، بل طلبه للفخر والرِّياء، والجدل والمراء، وتأكَّل به الأغنياء، وجالس به الملوك وأبناء الملوك؛ لينال به الدنيا، فهو يَنسَب نفسَه إلى أنه من العلماء، وأخلاقُه أخلاقُ أهلِ الجهل والجفاء، فتنةً لكلِّ مفتونٍ، لسانُه لسانُ العلماءِ، وعملُه عملُ السفهاء"[6]. ثم ساقَ – رحمه الله تعالى – ما ورد في مثل هذا – ممن لم ينتفع بالعلم بل كان العلمُ وبالاً عليه، ومآلُه يُخشى عليه – من أحاديث نبوية شريفة، وآثار مرضية سَنيَّة... في التحذير من هذا الحال وذاك المآل... أسوق بعضاً منها إتماماً للنفع والفائدة:

١) عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ أَرَادَ بَهِ غَيْرَ وَجْهِ اللهِ؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[7].

٢) وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَعَلَّمُوْا العِلْمَ لِتُبَاهُوْا بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِتُمَارُوْا بِهِ السُّفَهَاءَ ولاَ تَخَيَّرُوْا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي النَّارِ»[8].

****

[1] وهو عطاء بن أبي رباح، قد سبقت ترجمته في هامش المطلب الثالث من المبحث الثاني في الفصل الثاني.

[2] الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم العمل، ص٦٠، (٩٢).

[3] هو ميمون بن مهران الرِّقِّي، أبو أيوب (٣٧ – ١١٧هـ): من حفاظ الحديث وثقات الرواة، وأحد الفقهاء والقضاة، استعمله عمر بن عبد العزيز على خراج الجزيرة وقضائها. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٩٨.

[4] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٥٥٦.

[5] هو محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الآجري (ت٣٦٠هـ): فقيه شافعي محدِّث، نسبته إلى "آجُر "من قرى بغداد، وُلد فيها، وحدَّث ببغداد، قبل سنة ٣٣٠هـ، ثم انتقل إلى مكة، فتنسَّك، وتوفي فيها. من أشهر مصنَّفاته: "أخلاق العلماء"، و"كتاب الشريعة". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٦، ص٩٧.

[6] الآجري، أخلاق العلماء، ص١٧٤.

[7] أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا، ص٦٠٣، برقم (٢٦٥٥)، وابن ماجه في مقدمة السنن، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، ص٤٠، برقم (٢٥٨)، وقال الترمذي:"هذا حديث حسن غريب".

[8] سبق تخريجه في الفصل الثاني في هامش المطلب الرابع للمبحث الأول.

المبحث الثاني:

خطر "التَّعالُم" على الأمة جمعاء

أمَّا بالنسبة لمخاطر "التَّعالُم" الأليمة، وأضراره الجسيمة على المجتمع ككلٍّ في ضوء الأحاديث النبوية الواردة في هذه الفتنة فيُمكِن إجمالها وتفصيل القول فيها – بإذن الله تعالى – فيما يأتي من مطالب:

المطلب الأول: فَقْدُ الناسِ الثِّقَةَ في الكتب والمؤلَّفات:

ف"التَّعالُم" يؤدِّي إلى فَقْد الناسِ الثقةَ في الكتب والمؤلَّفات، واستهجانهم وبُغضهم وكراهيتهم لأصحابها إنْ كانوا من ذوي "التَّعالُم" وأهل الادّعاء، مِن الذين لا يُحسِنون من العلوم الشرعية فرعاً، ولا يُتقِنون من المعارف الإسلامية شيئاً، وبذلك يَحصُل خلطٌ كبيرٌ في المجتمع بين الصالح النافع المفيد، وبين الطالح الفاسد الردئ، بحيثُ يَعسُر التمييز وتصعب التفرقة فيما بينهما، ويشتدّ الأمر مُرارةً وفظاعةً، ويزداد الخطبُ هَوْلاً وخطراً إنْ كان من يكتب ويؤلِّف – في دين الله وشرعه – من أصحاب الحِرَف والأشغال، وأرباب المِهَن والصناعات، الذين ليس لهم في الدين والعلم والأدب يدٌ ولا ساق، ثم يخوضون في أشرف ما أنزله الله تعالى على وجه البسيطة قاطبةً، تأليفاً وتصنيفاً وتحقيقاً، فاللهُ تعالى حسيبُهم، وهو وحده جلَّ في عُلاه طليبهم.

يقول الناصح الأمين الشيخ بكر عبد الله أبو زيد – سقى الله تعالى مسكنه شآبيب الرحمة والمغفرة والرضوان – في معرض ذكره لِما آل إليه حالُ الأمة علمياً وثقافياً وفكرياً، وكيف تلاعَبَ بأصولها وثوابتها، وعَبَث بقِيَمها ومسلَّماتِها، هؤلاء الأدعياء من أهل الافتراء الذين دَيْدَنُهم: "منعُ الخوضِ في أي علمٍ كالطبِّ، والهندسة... على غير أهله المختصّين بعلمه، إلا في (علوم الشريعة) المحضة، فيفسحون المجال لخوض الخائضين فيه، بل وحملِ الآخرين على الخوض فيها، وما لهم فيها من علمٍ ولا مشاركةٍ، فترى (أَبْتَثِيّاً)[1] يُصبِح مفتياً، وصريعَ فسادٍ: كاتباً إسلامياً"[2].

[1] أي يعرف حروفَ الهجاء: أ ب ت ث... ي.

[2] بكر بن عبد الله أبو زيد، الردود، ص١٠، بتصرف يسير.

المطلب الثاني: وقوعُ النُّفْرَةِ والكراهية في قلوب الناشئة للدرس والتدريس:

كما أنَّ "التَّعالُم" يَخلُق النُّفْرَةَ والكراهيةَ للدرس والتدريس في قلوب الناشئة الغَضّة الطَّرِيَّة، إن كان مَن يقوم به مُتعالِمٌ مُشاغِبٌ، وعلى وجه الخصوص إنْ قام بتدريس – علوم شريعة ربّ الأرض والسماء، الشاملة لكتاب الله تعالى، والسُّنّة النبوية السَّمْحاء، المتعلِّقة بأموال المسلمين وأعراضهم وأنفُسهم ودمائهم – مُدَّعٍ للعلم كاذبٌ، متشبِّعٌ بما لم يُعْطَ مُخادِعٌ، مَن قولُه يُخالِف فعلَه، وعلانيته تُناقِض سريرتَه...

وكم في هذا من غَرَرِ المسلمين وغِشِّهم وخِداعِهم، والتلاعُبُ بعقول أبنائهم وفَلَذات أكبادهم، والعَبَثُ بتُراثهم، ونتاج قرائحهم، وبنات أفكارهم اللاتي لم يَطمِثهن أحدٌ قبل علماء المسلمين وربانِّيِيهم إِنْسٌ ولا جانّ...

ولا يخفى على أيِّ غَيُوْرٍ لبيب، وعاقلٍ حصيفٍ ما يشتمل عليه ذا الحال من فوضى اجتماعية شاملة عظيمة، وفسادٍ علميٍّ وفكريٍّ كبير.

يقول الإمام ابن قَيِّم الجَوْزية رحمه الله تعالى: "مِن أعظَمِ الظُّلْمِ والجهلِ أن تطلب التعظيمَ والتوقيرَ لك من الناس وقلبُك خالٍ من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقِّر المخلوقَ وتُجلّه أن يراك في حالٍ لا توقِّر اللهَ أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣].

ومَن عَدِمَ وقارَ الله في قلبه فإنَّ الله لا يُلقي له في قلوب الناس وقاراً ولا هيبةً، بل يُسقِط وقارَه وهيبته من قلوبهم، وإنْ وقَّروه مخافةَ شَرِّه فذاك وقارُ بُغْضٍ لا وقارُ حُبٍّ وتعظيمٍ"[1].

والمقصود أنَّ من لا يوقِّر اللهَ تعالى وكلامَه وشريعتَه، وسُنّةَ رسولِه ﷺ، وما آتاه الله تعالى من العلم والحكمة؛ كيف يطلب من الناس توقيرَه وتعظيمه!؟

فكتابُ الله تعالى، وسُنَّةُ النبي ﷺ، والعلمُ والحكمة، كلٌّ هذا بمثابة تنبيهات حقّة، وروادع وزواجر عن الباطل، فمن لم يوقِّرها ويعظِّمها؛ كان أهونَ الناسِ وأحقرَهم وأبغضَهم عند الله ربِّ العالمين، وعند الناس أجمعين...

يقول الأستاذ الدكتور فاروق حمادة: "وإذا لم تكن الدروسُ هادفةً، والمصنَّفاتُ هادفةً فلا داعيَ لها، ورحم اللهُ الإمامَ ابن عَرَفَة الوَرْغَمي[2] إذْ يقول:

---

[1] ابن قيم الجوزية، كتاب الفوائد، ص١٨٨

[2] هو الإمام محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي (ت٨٥٣هـ): قال فيه تلميذه ابن فرحون: "شيخ الشيوخ وبقية أهل الرسوخ، الحافظ النظار، له تآليف عجيبة في فنون العلم أجاد فيها وأبدع، وذاع علمه شرقاً وغرباً. انظر: إبراهيم بن علي بن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ج٢، ص٣٣٠.

إذا لم يكن في مجلس الدَّرْس نُكْتَةٌ   وتقريرُ إيضاحٍ لِمُشْكِلِ صُورةٍ
وعَزْوُ غَريبِ النَّقْلِ، أو فتحُ مُقْفَلٍ   أو إشكالٌ أبْدَتْه نتيجةُ فكرةٍ
فدَعْ سَعْيَهُ، وانْظُرْ لنفسِك واجْتَهِدْ   وإيّاكَ تركاً فهو أَقْبَحُ خِلَّةٍ"[1]

المطلب الثالث: "التَّعالُمُ" ذريعةٌ إلى تبديل الدين وتحريف الشرع، وتغييرِ السُّنَّة وتضييعها:

فـ"التَّعالُمُ" أيضاً ذريعةٌ حتميةٌ إلى تبديل دين الله تبارك وتعالى، وتحريفِ شرعِه، وتغييرِ سُنَّةِ المصطفى ﷺ، وتضييعِ هَدْيه، وفي هذا مِن إضلال الناس، وتضليلِ المجتمع ما لا يخفى على كلِّ مَن في قلبه مثقالُ ذَرّةٍ من إيمانٍ، وما يُساوي حَبّةَ خردلٍ من غيرةٍ على دين الله تعالى وشرعِه، وسُنَّةِ المصطفى ﷺ وهديه، والكتابِ الْمُنَزَّلِ من السماءِ ولغتِه؛ لأن "التَّعالُم" وكما أسلفنا – استناداً لأقوال علمائنا الربانيين الأفاضل – قولٌ على الله تعالى بلا علمٍ، وهذا جرمٌ عظيمٌ، وإفكٌ كبيرٌ.

وأنقُل هنا ما قاله فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد – رحمة الله عليه – مستدلةً بذلك على ما سبق، حيثُ ورد في رسالته الغَيورة "التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب" تحت عنوان "في جرم القول على الله بلا علم" ما نصُّه: "إنّ أصل الشِّرك والكُفران، وأساسَ البدَع والعِصيان، وما هو أغلَظُ منها ومِن جميع الفواحش والآثام، والبَغْي والعُدوان: القولُ على الله تعالى بلا علمٍ، والدليلُ قولُه تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فهذه المحرَّمات الأربع تحريمُها لذاتها تحريماً أبدياً في جميع الشَّرائع والمِلَل، ومراتب الشِّدّة فيها في الآية الكريمة على سبيل التعلِّي، فقال الله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾. هذا أوّلُها.

ثم ذكر سبحانه ما هو أعظَمُ فقال: ﴿ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾.

ثم ذكر سبحانه ما هو أعظَمُ فقال: ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾.

ثم ذكر سبحانه ما هو أعظَمُ فقال: ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

[1] فاروق حمادة، منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً وتحقيقاً، ص١٢.

إذْ القولُ على الله تعالى بلا علمٍ هو أصلُ الشِّرْك والكفرِ والبِدَع الْمُضِلَّة، والفِتَن الجائرة"[1].

يقول الإمام ابن قَيِّم الجوزية – رحمه الله تعالى – عما يقع من خلافٍ في المسائل الشَّاذَّة والمرجوحة: "ثم ذلك الخلافُ قد يكون قولاً ضعيفاً، فيتولَّد من ذلك القول الضعيف الذي هو مِن خطأ بعضِ المجتهدين، وهذا الظَّنُّ الفاسدُ الذي هو خطأُ بعضِ الجاهلين يقع تبديلَ الدين، وطاعةَ الشيطانِ ومعصيةَ الرحمنِ ربِّ العالمين، فإذا أُضيفت الأقوالُ الباطلة إلى الظنون الكاذبة، وأعانتها الأهواءُ الغالية؛ فلا تسألْ عن ضياع الدين بعد ذلك، والخروجِ عن جملة الشرائع بالكلية"[2].

المطلب الرابع: "التَّعالُم" وسيلة من وسائل تفشِّي الرذائل الْخُلُقِيّة السيّئة في المجتمع:

ومن أضرار "التَّعالُم" كذلك على المجتمع أنه أكبَرُ وسيلةً لتفشِّي الأخلاق الذَّميمة الرديئة، وانتشارِ الصفات المنحطَّة الدنيئة في المجتمع، كالادِّعاء والكذب، والغِشِّ والخِدَاع، والكِبْرِ والغُرور، والعُجْبِ بالنفس، ومخالفةِ القول للعمل وغيرِها؛ وذلك بسبب انعدام القدوة الصالحة والأسوة الحسنة في المجتمع فيمَن ينبغي أن يكونوا هم صفوةُ المجتمع وأهلُ الصَّدراة والقيادة والرِّئاسة فيه من أهل التدريس والتأليف والقضاء والإفتاء وغيرِ ذلك، فإذا انتصب على مِنبر التدريس والخطابة، وأمسك بزمام القلم والدَّواة مَن ليس لذلك أهلٌ ممن يدَّعي العلمَ ولا يُحسنه؛ أدَّى ذلك إلى "انحطاط المجتمع، واضمحلاله لِما يَلزَم من ذلك من احتقار النافع المفيد، والاستهتارِ بالجيّد الحسن، ووقوعِهما تحت السلطة الضارّ القبيح، والاستهانةِ بالعلم، وتحكيمِ الجهل فيه"[3]، وفي ذلك من شُيوع الفوضى، وانتشار الفساد ما ليس يُنكِره أهل الألباب، وذوي الفهوم والقرائح، "فو الله! لا يَصلُح الأعمى لقيادة العُميان وإرشادهم"[4].

---

[1] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص١٣٢.

[2] ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، الباب الثالث عشر، ج١، ص١٥٨.

[3] العبارةُ بالمعنى من كتاب "سِرّ انحلال الأمة العربية ووهن المسلمين" لمحمد سعيد العُرفي، ص٣٥٥.

[4] بكر بن عبد الله أبو زيد، حلية طالب العلم، ص١٨٦.

خلاصة الفصل:

ويتلخَّص ما جاء في هذا الفصل – وهو الرابع ترتيباً في قائمة فصول البحث – بيانُ مَخاطِر "التَّعالُم" وآثارِه ونتائجه على كلٍّ من "الْمُتعالِم" نفسه أولاً، وعلى المجتمع الذي يعيش فيه ثانياً، حيث أوضحتُ في المبحث الأول منه ما يتعلَّق بآثاره على مستوى الفرد الْمُتعالُم في دُنياه أولاً قبل آخرته وما يَلقاه من جزاءٍ ونتيجةٍ على عمله ثانياً. ثم ثَنّيْتُ في المبحث الآخر منه بذكر آثارِه الأليمة ونتائجه الخطيرة على الأمة جمعاء؛ وذلك بالعَبَث والتَّلاعُب بكتبها الجليلة وتُراثِها العظيم، وإفسادِ عقول أبنائها الغَضَّة الطَّرِيَّة، وتغيير أفكار نشئها القويمة المستقيمة، وإضلالِهم وتضليلِهم عن طريق أبرزِ قنوات العلوم والمعارف، ومجالاتِ الفكر والثقافة، وإيقاعِ النفرة والكراهية في قلوبهم للدرس والتدريس، وإفقادِ الثقة من نفوسهم نحو الكتب والمؤلَّفات. كما يؤدِّي كذلك إلى تبديل الدين، وتحريفِ الشَّرع، وتغييرِ السُّنَّة وضياعِها. ويلعب "التَّعالُمُ" كذلك دوراً هامّاً في فُشُوِّ الأخلاق الرذيلة والصفات المذمومة في المجتمع.

الفصل الخامس

"التَّعالُم" في العصر الحديث وموقف العلماء منه

المبحث الأول: مُجمَل حال "التَّعالُم" في عصرنا الحاضر وواقعنا المرير.

المبحث الثاني: موقفُ أهل العلم من قضية "التَّعالُم" ودورُهم في حَدِّ انتشاره والصَدِّ عن مخاطره.

المبحث الأول:

مُجمَل حال "التَّعالُم" في عصرنا الحاضر وواقعنا المرير

لقد اندلعت قضية "التَّعالُم" في العصر الحديث على مصراعيها فاغرةً فاها، مولِّدةً واقعاً أليماً جريحاً، ومُفرِزةً حاضراً ذليلاً مُخزياً، للأمة والتراث.

وذلك حين وَلَج في أشرف مجالاتِها وأعَزِّها، وأخطَرِ قنواتِها وأسماها من العلوم والمعارف والفنون والثقافات أُنَاسٌ ممن اتَّصفوا بأقبح الصفات وأردئها، وأرذلِ الأخلاق وأشأمها، كالكذب والتمويه، والغِشّ والتدليس، والجشعِ والادِّعاء وغيرِ ذلك من عاداتٍ دنيئةٍ منحطَّةٍ مضى ذكرُها فيما سبق، وهم على ما هم عليه من تلك الصفات السَّيِّئة والخِصال المذمومة يأبون إلا أن يُمارِسوا في الأمة وظائفها المرموقة، ويَحرِصُون أشدَّ الحرص لنيل مراكز القِمَّة والصَّدارةِ في التعليم والتدريس، والقضاء والإفتاء، والتأليف والتحقيق، وكم منهم قد وصل إلى ذلك، ونال تلك الرُّتَبَ الرفيعة والمنازلَ العالية، ادِّعاءً وكذباً، وغِشّاً وتدليساً.

وهنا وقعتْ على الأمةِ الطَّامَّةُ، وحلَّتْ فيها المصيبةُ، حيث أخذ هؤلاء يعبثون ويتلاعبون بتراثها الخالد المجيد، وماضي أسلافها التَّالد العريق، كما أخذوا يموِّهون ويدلِّسون على أبناء الأمة وشبابها، الذين هم قُوّة يومِها وحاضرِها، وأملُ غِدها ومستقبلها، ونَتَجَتْ عن ذلك فوضى علميةٌ وفكريةٌ وثقافيةٌ عجيبةٌ، يَذهَل اللسان عن بيانها، ويَعجَز القلم عن وصفها... حيث الانحرافُ عن جادة الحقِّ والصواب، والوقوعُ في الشُّبَه والضلالات، والسقوطُ في مَراجِل الفِتَن والمِحَن، والمصائب والنكبات التي توالت على الأمة غليانها وفورانها بسوادها ودُخانها وظُلماتها، وكلُّ ذا من قِبل هؤلاء الْمُتعالِمين أولاً، ثم من صانعيهم ثانياً، دعاة الاستشراق والاستعمار من أهل الكفر والباطل والضلال، نعوذ بالله العلي العظيم منهم ومن شِقْوَتهم وضلالهم.

وإنَّ ما أصاب الأمةَ في نشئها وشبابها من تمويةٍ للعقول وتضليلها، وإفسادٍ للقُوَى وتخريبها، وما أصابها في كتبها وتراثها من تشويهٍ للأصول وتحريفها، وعَبَثٍ للنصوص وترقيعها، باسم العناية والخدمة، والنشر والتحقيق، ما هو إلا نتائجُ تَعالُمِ هؤلاء وعَبَثِهم وتلاعُبِهم بكتب التراث وعقول الأبناء.

وهذا ما تتفطَّر له قلوبُ الأغيار من علماء الأمة ومفكِّريها، وتَنْدَى جباههم من هول هذه النكبة وفظاعتها، وها أنذا أسوق بعضَ ما جاء في وصف هذه الحال، وبيانها بأقلام الغَيُورين من رجال الأمة ذوي الفكر الصائب الثاقب، والذِّهْن الوقّاد القائد، والقلم المبدِع الباسل.

ولنبدأ أولاً بذكر ما جاء عنهم في وصف واقع "التَّعالُم" عموماً في جميع مجالات العلم وقنوات المعرفة، ثم نثنِّي بذكر ما جاء عنهم في وصف واقعه في مجال تحقيق كتب التراث وذخائره – خاصةً – وخدمتها ونشرها والعناية بها.

المطلب الأول: ما جاء عن أهل العلم والفكر في وصف حال "التَّعالُم" في الواقع المعاصر على وجه العموم:

١) قال إمامُ أهل الغيرة – على الدين والعلم والفكر والتراث – وتاجُ رؤوسهم: **الشيخ الفاضل بكر عبد الله أبو زيد** – رحمه المولى تعالى – في كتابه النفيس "التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب" بعنوان "إجمال الحال في الحياة المعاصرة": "اندلعت قضية التَّعالُم في الوجود لا سيما في صفوف المسلمين، وهي رمزٌ للعدول عن الصراط المستقيم، وأضواء التنْزيل، ووسيلة القول على الله العزيز الحكيم.

فتَجَسَّدَتْ أمامنا أدلةٌ ماديةٌ قامت في ساحة المعاصرة على ما ذَرَّ قرنُه من الخوض في الشريعة بالباطل، وما تولَّد عنه من فِتَنٍ تَغلِي مراجلُها على أنقاض ظهور الرَّكالة، لذهاب العلماء وقُعود المتأهِّلين عن التحمُّل والبلاغ، وتولِّي ألسنتهم وأقلامهم يوم الزَّحْف على كرامته.

فتَبَدَّدَتْ من وراء أولاء أمورٌ دوابيةٌ، وصدودٌ عن منهاج النبوَّة والصِّدِّيقية؛ إذ دَرجُوا في الطُّرُق الجائرة، وتصيَّدوا من الرُّخَص كلَّ طريفةٍ وتالدة، ونشروها بلسان الشريعة الخالدة"[1].

وقال – رحمه الله تعالى – كذلك: "وتجاسَرَ فِئامٌ على الكذب الصُّرّاح، والكذبُ شَرُّ غوائلِ العلم، وحملوا الشَّاذَّ، ومَن حَمَل حَمَله شَرّاً كثيراً، فرَبَضَتْ في قلوبهم الشَّقْوتان: شقوة الكذب، وشقوة الشُّذوذ، نسأل الله السلامة والعافية:

فبَقِيَ الذين إذا يَقُوْلُوا؛ يَكذِبوا ومَضَى الذين إذا يَقُوْلُوا يَصْدُقوا[2]

---

[1] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٢٤، ٢٥.

[2] البيت للشاعر صالح بن القدوس، كما ذكره الحافظ الذهبي في "ميزان الاعتدال في نقد الرجال"، ج٣، ص٤٠٧.

فصار الناسُ بين علوم الاستمتاع، وما أحسن الدِّين والدُّنيا إذا اجتمعا، وعلوم جنس الخوض بالباطل؛ فنَتَج من هذا تقلُّصٌ في قائمة المتحمِّلين لأعباء العلم الشرعي على هدى مستقيم، فلا بارك الله في هذا الطِّراز، وتَبّاً لهم فما هم بعلماء، ونعوذ بالله من الفتنة الصَّمّاء، وهنيئاً لمن ارْعَوى ولازَمَ الصِّدْقَ والتُّقَى، وليَسْعَ المرءُ إلى فكاك رقبته من النار"[1].

"والمتخلِّصُ أنَّ ظواهر الأحوال من رِقَّةٍ في الدِّيانة، ووَهْنٍ في الاستقامة، وضَعْفٍ في التحصيل، والسَّعي بكل جدّ وراء الدنيا الزائلة، ومظاهرها الفانية؛ شكَّلت أمامنا ظاهرةُ التَّعالُم أوسعَ من ذي قبل؛ لِما نشاهده من واقعاتها الفَجَّة، والدَّعاوي العريضة، والبراعة في الانتحال، واتِّساع الخطو إلى المحال... وعندنا على هذا ألفُ شاهدٍ.

وما هذا إلا لتَسَنُّمِ العلمِ أغمارٌ رَكِبوا له الصَّعْبَ والذَّلول، ظنّوا أن العلم يُنال بالراحة، ولَمَّا يَملؤا منه الراحة، فتهافتوا على مناصب العلم في الفُتْيا، والتأليف، والنشر، والتحقيق، وصاروا كتماثيل مدسوسة بأيديهم هراوى، يَضرِبون في عقول الأمة حيناً، وفي تراثها أحياناً، مكدِّرين – وحسابُهم على الله – صَفْوَ الأمة في دينها وفي علمها.

وهل العلمُ والدِّين إلا تَوْأمان لا ينسلخان إلا في حساب مَن انسلخ منهما؟"[2].

٢) وقال العلامة البحاثة **الدكتور فاروق حَمادة** حفظه الله تعالى: "ومع مظاهر القُوَّة والانبعاث للسُّنّة النبوية فإنّ هناك في عصرنا الحاضر، جوانب ضَعْفٍ لا تزال تؤثِّر في مسيرتها، وتُعيق انتشارَها والاهتداءَ بسَنَاها، ويُمكن تصنيفها بإيجاز كالتالي:

(أ) العَبَثُ في إخراج كتبها ومصادرها، فلا زالتْ هناك أيدٍ لا تنشر كتبَ السُّنَّةِ إيماناً بها أو حُبّاً بصاحبها عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل جعلتْه تجارةً رابحةً، وسلعةً نافقةً، ويبدأ هذا بمن يتصدّون للتحقيق ولا يعرفونه، أو لإخراج النصِّ ولا يفهمونه، أو العمل في كتاب ثم يشوِّهونه أو يحرِّفونه.

(ب) ثم نجد عدداً من الناشرين يطبعون كتباً سَبَق طبعها بإشراف باحثين متخصِّصين، فيزوِّرون ويَبْتَرون، ويشوِّهون، ويُخرجون الكتاب، بل الكتبَ محرَّفةً مشوَّشةً؛ كل ذلك لأنَّ الكتاب مرغوبٌ، وعند الباحثين والطلبة مطلوبٌ، ولو رُحْنا

[1] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٢٥، ٢٦.

[2] المرجع السابق، ص٢٦.

نتقصَّى هذا البابَ لطال بنا الكلامُ، وخرجنا إلى ميدان آخر، ويمكنني أن أضيف في هذا الأمر، أنَّ بعض الكتب تُطبَع طبعاتٍ متعدِّدةً بأسماء محقِّقين متعدِّدين، ولا يبدو كبيرُ فرقٍ بين هذه الطبعات...، إنَّ هناك عبثاً يجب أن ينتبه له الباحثون المخلصون، ويعملون على محاربته، ووقف مدِّه، وهو خطرٌ من نواحٍ كثيرة"[1].

وقال في موضع آخر: "وإنَّ مما ينبغي أن نؤكِّد عليه اليوم ما نلاحظه من ضَعْف الأهلية، وقِلَّةِ القابلية للبحث والتصنيف والدرس، وما ذلك إلا لنقصٍ في التكوين، وفتورٍ في الهِمَم عن التحصيل للقرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة، والمعرفة الإسلامية.

وإنَّ إقدام هذا الصِّنْفِ الضعيفِ على الكتابة في موضوعات إسلامية لأمرٌ فيه خطورةٌ كبيرةٌ، فهم إمّا أن يَقطَعوا الطريق بالاختلاس والسَّطْو على ما كتب السَّابقون أو المعاصرون، وإما أن يقدِّموا أفكاراً هجينةً فَجَّةً تعود بأسوأ الأثر، وبالِغِ الضَّرَر على الأمة والحياة، وتُعيق مسيرةَ الفكر الإسلامي.

وقد حَصَلَ الآن الأَمَرَّان، وأصبحنا نرى نماذجَ تافهةً جداً، ولها مراكز باسم الإسلام.

ومثلُ هؤلاء كذلك، الذين لا علاقةَ لهم بالدراسات الإسلامية، من أصحاب الأدب، والطِّبّ، والتاريخ، والهندسة، والفيزياء، والكيمياء، هؤلاء وأندادُهم يَلتقِطون بِضْعِ آياتٍ وأحاديث وكلماتٍ، ويَبنون عليها أحكاماً ما أنزل اللهُ بها من سُلطان، وتقف المعرفةُ الإسلاميةُ الآن الموقفَ الحرج من أعمال هؤلاء وأفكارهم الشَّوهاء[2].

وقال: "وأنبِّه إلى أنّنا يجب أن نكون على حذر شديد من المعاصرين، فقد وجدنا بعضَ المنتمين إلى الدراسات الإسلامية يَعبَث بالنصوص، نقلاً أو بَتْراً وحذفاً، لِما لا يُعجبه، أو يَتعارَض مع أهوائه وتوجيهاته، أو يأتي على حُجَجه ودعاواه بالهدم والسقوط بذلك في بعض كتب التراث التي يخرِّجونها.

وقد وجدنا بعضَهم يُقحِم رأيَه الفاسد، وفكرَه الخاسر الكاسد، في نصوصٍ لها قيمةٌ ووزنٌ، دون تمييزٍ أو إشارةٍ على أنه من المحقِّق أو الناشر أو الطابع، ادِّعاءاً منه للفهم، والاجتهاد العلمي العظيم!؟، ويا له من عملٍ سقيمٍ، وجُرْمٍ أثيمٍ؛ لأنها تَزيد على صاحب النَّصِّ بما يَنسبِه إلى الجهل والسُّخْف وغير ذلك[3].

[1] فاروق حمادة، تطور دراسات السنة النبوية نهضتها المعاصرة وآفاقها، ص٢٣٧، ٢٣٨.

[2] فاروق حمادة، منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً وتحقيقاً، ص٣٨.

[3] المرجع السابق، ص٥٨.

٣) ويقول العالِم الغَيُور **الشيخ محمد مُجيْر الخطيب الحسني**[1]: "إنَّ مما يُؤخَذ على الاهتمام المعاصر بالسُّنَّة النبوية والحديث الشريف، وأُرَاه يعود بالضَّرَر على السُّنّة وأهلِها، ويمكِّن أعداءَها من الطعن فيها، مستشهدين ببعض مَن يزعم نصرتَها!:

(أ) الاتِّجارُ بتخريج الأحاديث! حتى صار ذلك صنعةً يحترفها مَن ضاقت في وجهه سُبُلُ الكسب المعروفة، فانطلق إلى كتب العلماء (يحقِّقها ويخرِّج أحاديثها!!)، ويتكسَّب من ذلك.

(ب) تصدِّي فاقد الأهلية لنقد الأحاديث، وتجريح الأشخاص من المحدِّثين والفقهاء وسائر العلماء، وهو لم يكتمل بعدُ بناؤه الإيماني والعملي والسلوكي، بَلْه العلمي؛ فتجرَّأ بذلك الصبيان والسفهاء على التضعيف والتصحيح والتعديل والتجريح!! روى رجاء بن حَيْوَة[2] رحمه الله، عن رجل قال: كنا جلوساً عند معاوية ﷺ فقال: "إن أغرى الضلالة: لرَجُلٌ يقرأ القرآنَ فلا يفقه به، فيعلِّمه الصبيَّ والعبدَ والمرأةَ والأُمَّةَ، فيُجادِلون به أهلَ العلم"[3].

(ج) الفصلُ بين العلم والعمل: سواء أكان ذلك الفصلُ كلياً أم جزئياً، وله صُوَرٌ كثيرةٌ جداً في حياة المسلمين، أسوؤها: إقصاء السُّنَّة عن مقام الإمامة في حياة الأمة، فالحديثُ الشريفُ وإنْ كان ما زال يحفظ في الصدور وفي السطور، لكنه لا يُمكَّن الآن من بسط سلطانه على المجتمع... إنها قضية من أهمِّ القضايا الكبرى التي يتوجَّب الاهتمام بها، وهي إلى جانب القضايا السياسية والاجتماعية والفكرية آخذ بعضها ببعض، قد لا تنفع معها الحلول الجزئية... والحديثُ طويلٌ ذو شجون... ومن صُوَر الفصل بين العلم والعمل: الاهتمام ببعض السُّنَن العملية الظاهرة، وتركُ المبالاة بسُنَنٍ أخرى عملية ظاهرة أو باطنة

[1] هو محمد مُجير بن محمد أبي الفرج بن عبد القادر الخطيب الحسني (من مواليد عام ١٣٩٠هـ): أحد علماء الحديث الناهضين في بلاد الشام. وُلد بدمشق، وتلقَّى العلمَ عن والده وعن كبار علماء دمشق. تخرَّج بشهادة الليسانس في كلية الحديث النبوي من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ثم بشهادة الماجستير في الحديث النبوي من جامعة أم درمان. ومن مؤلَّفاته: "معرفة مدار الإسناد وبيان مكانته في علم علل الحديث". انظر لترجمته: محمد أكرم الندوي، أيام في بلاد الشام، ص٢٤٢، ٢٤٣.

[2] هو رجاء بن حَيْوَة بن جرول الكندي، أبو الْمِقْدام (ت١١٢): العالِم الفقيه، شيخ أهل الشام في عصره، من الوعاظ الفصحاء، كان ملازماً لعمر بن عبد العزيز في عهدي الإمارة والخلافة. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص١١٨.

[3] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج٢، ص١٩٤.

لا تقلّ أهميةً عنها إن لم تَفُقْها في الطلب والاستحباب؛ كمن يلتزم بالسُّنَّة في الزَّيّ والهيئة، ولا يُقيم السُّنَّةَ في التواضُع وخفضِ الجناح وإفشاءِ السلام وحفظِ النعمة"[1].

٤) وقال العلامة المؤرِّخ **الدكتور أكرم ضياء العُمَري**[2]، صاحب الفكر المجوَّد المقنع، والقلم البارع المبدِع، في كتابه "مناهج البحث وتحقيق التراث" تحت ما عنونه بـ"مشكلات نشر التراث"، وهي:

أولاً: لأنَّ التراث الإسلامي لم يُدرَس في العصر الحديث دراسةً شاملةً.

ثانياً: الكتبُ التي طُبعت، معظمُها لا يُمكِن الاعتماد عليها؛ لأنها مليئةٌ بالتصحيف والتحريف والأخطاء الكثيرة. والسببُ هو قلةُ أعداد المحقِّقين العلماء، وكثرة أعداد المتاجِرين من الناشرين المتطفِّلين على العلم، وقد يرى البعضُ جَدْوَى في نشر النصوص حتى لو كانت بهذه الصورة غير العلمية وغير الأمينة، باعتبار أنها يَسَّرَتْ إخراجَ النصِّ، ويقولون: دعونا نقرأ النصوص بخطٍّ مطبوعٍ فهو أفضَلُ من المخطوطات. ولو كانت قراءةُ المحقِّق أو الناشرِ المتطفِّلِ قراءةً صحيحةً لصَحَّ هذا الكلامُ حتى لو لم يخدم النَّصَّ بحواشٍ يُيَسِّره ويوطئه للقراء، ولكن المشكل في أنَّ هؤلاء لا يستطيعون قراءةَ النَّصِّ قراءةً دقيقةً، ولذلك فإنَّ الأخطاء التي يقعون فيها عند نشر الكتاب تَشِيْعُ في الأوساط العلمية، ويتناقلها الناسُ في بحوثهم ودراساتهم، فإذن ينبغي ألا يُشجَّع النشرُ بهذه الطُّرُق؛ لأن فيها تحريفاً للعلم وإشاعةً للخطأ"[3].

٥) وقال العلامة المحدِّث **الشيخ أحمد محمد شاكر** رحمه الله تعالى: "أمَّا في عصرنا فقد نابَتْ نوائبُ، ونَبَتَتْ نوابتٌ، ممن استعبدوا آراء المبشِّرين وآهوائهم، وممن جَهِلوا لغة العرب إلا كلام العامة وأشباهه، وجَهِلوا القرآن فلم يَقرؤوه، ولا يكادون يسمعونه إلا

---

[1] محمد مجير الخطيب الحسني، معرفة مدار الإسناد وبيان مكانته في علم علل الحديث، ج١، ص٨، ٩، ١٠.

[2] هو أكرم ضياء أحمد العمري (من مواليد ١٣٦١هـ/١٩٤٢م): مفكِّر إسلامي، وباحث ومؤرِّخ. وُلد في "الموصل" في شمالي العراق، تخرَّج في كلية التربية من جامعة بغداد، وحصل على الدكتوراه من جامعة عين شمس بالقاهرة. درَّس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وجامعة قطر. نال جائزةَ الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية. من مؤلَّفاته: "السيرة النبوية الصحيحة طبق فيه قواعد المحدِّثين في نقد الروايات"، و"بحوث في تأريخ السنة المشرَّفه"، و"موارد الخطيب في تاريخ بغداد"، و"مناهج البحث وتحقيق التراث". انظر: موقع المكتبة الشاملة.

[3] أكرم ضياء العمري، مناهج البحث وتحقيق التراث، ص٤٧، ٤٨.

قليلاً، وجَهِلوا السُّنَّة، بل كانوا من أعدائها، وممن سَخِروا من علم علماء الإسلام، وسَفَّهَتْ أحلامُهم، ومَرَدَتْ ألسنتُهم على قولة السُّوء في سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، بل لا يُؤمنون بالغيب إلا قليلاً.

هؤلاء وأشباهُهم وأمثالُهم اجترؤوا على العبث بالقرآن، واللعبِ بالسُّنَّة، فعَرضُوا لتفسير القرآن، وزَعمُوا لأنفسهم الاجتهاد الجاهل، يَفتِنون الناس ويعلِّمونهم اللعب والعبث، ويَنْزعَون من قلوبهم الإيمانَ. لا أقول إنَّ هؤلاء وأولئك يفسِّرون القرآن بأهوائهم، فإنهم أضعَفُ مِن أن تكون لهم أهواءٌ وأشَدُّ جهلاً، بل بأهواء سادتهم ومعلِّميهم من المبشِّرين والمستعمِرين أعداء الإسلام، وما أكثرَ هذه الفئة في هذه الأيام!"[1].

٦) وقال العالِم الربَّاني **الشيخ عبد الفتاح أبو غُدَّة** في كتابه القيم "صفحات من صبر العلماء" محذِّراً جيْلَ العصر ممن يُزاوِلون التأليفَ والكتابةَ مِن هذا المرض الفتّاك، حيث قال رحمه الله تعالى: "فحذارِ أن تتعالى على المتقدِّمين والسَّابقين فيما تَكتُب – ناسخاً ماسخاً مختلساً – مؤلِّفاً، وتَرى نفسَك أنك أتيتَ بشيءٍ فاتَ الأوائلَ ولم تستطعه الأواخرُ، فلا تَنْزِل (نا) و(نحن) من لسانك وقلمك وذِهْنك؛ فتُصاب بمرض نون الجماعة، كما هي حالُ مَن تَرى من زَعانف الفارغين وطَحالب التافهين الْمُتعالِمين!"[2].

٧) وقال العالِم الفاضل **الشيخ الشريف حاتم بن عارف العَوْني** في وصف حال هؤلاء الْمُتعالِمين في عصرنا الحاضر وواقعنا المرير: "لو كان جَهْلُ هؤلاء جَهْلَ مَن يَدري بأنه لا يَدري؛ لكان الخَطَبُ كلا خطب، فإنما شفاء العِيِّ السؤال، لكنَّ جهلَهم جهلُ مَن لا يَدري بأنه لا يَدري، فقتلوا العلم، قتلهم الله!!.

وأمثِّل لك حالَهم: هم ممن حدا العجزُ بهم إلى الرِّضا بالكسل والخمول، وفرحوا بالشهادات، ورضوا بالألقاب. ثم هَدَاهم جَهْلُهم إلى التشبُّث بقولٍ من الأقوال، فلم يَرَوْا سِواه، (وأجرَأُ الناسِ على الفُتْيا أجهَلُهم بالخلاف). فلا كان الحقُّ والصوابُ عندهم معيارَ الاختيارِ، ولا الباطلُ والخطأُ سببَ الرفضِ! وأنَّى لهم ذلك؟! وقد قيَّدوا

---

[1] أحمد محمد شاكر، عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، ص٥.

[2] عبد الفتاح أبو غدة، صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، ص٣٨٦.

أنفسَهم بمختصراتٍ في علوم الحديث، إنْ زادوا زادوا عليها حواشيها وشروحها، فإنْ توسَّعوا اكتفوا بفهم خطأٍ، وتأويلٍ بعيدٍ لكلام أهل الاصطلاح، وهم خلال ذلك قد حصَّنوا أنفسهم بلِقاح (إجلال العلماء)، وسوَّغوا للناس ذلك بجُرْعَة (عظيم أقدار الأئمة)، وهي كلماتُ حقٍّ يُراد بها باطل!!"[1].

٨) وقال العالم الفاضل **الشيخ محمد خلف سلامة** في كتابه "لسان المحدِّثين" ما نصّه: "وأنبِّه على ضرورة أن يتعرَّف مَن قَلَّ نصيبُه من العلم قَدْرَ علمِه ونفسه فلا يَستعمِل عباراتِ العلماء التي لا تليق بغيرهم، ولا يَنسج على مِنْوالهم الذي يختصّ بهم، ألا ترى ما حَصَل في هذه الأزمنة مِن تكاثُر (التَّعالُم) ولا علْمٍ، وانتشارِ الدَّعاوى العريضة التي تُزكِّم الأنوفَ، وتُلبِّس على الناس أمرَ دينِهم؟ ألا تَرى هذه العبارات التي تَصدُر من صِغار الطَّلَبَة الذين لا يُحسنون الطلب؛ تَرى دَيْدَنَ أحدِهم أن يَرُدَّ على الشافعي في الفقه، وعلى أحمد في السُّنَّة، وعلى ابن الْمَدِيْني في العِلَل، وعلى ابن مَعِين في الرجال، ولو عَرَف قَدْرَهم أو قَدْرَ نفسه لغَطَّى وجهَه حياءً مِن ذكرهم إذا ذُكِرُوا عنده..."[2].

المطلب الثاني: ما جاء عن أهل العلم والفكر في وصف حال "التَّعالُم" فيما يختصّ بمجال تحقيق كتب التراث وخدمتها والعناية بها ونشرها في الواقع المعاصر والحاضر الأليم:

وجميعُ ما تقدَّم ذِكْرُه في المطلب السابق إنما يتعلَّق بـ"التَّعالُم" على وجه العُموم في جميع مجالات العلم وفنون المعرفة، أمّا هذا المطلب فهو عن واقع "التَّعالُم" في مجال تحقيق كتب التراث وذخائره ونفائسه ونشرِها وخدمتِها؛ فها هي أقوال العلماء في ذلك:

١) يقول **الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد** رحمه الله تعالى: "ثم إنَّ هذه السِّمَة – أي سمة التحقيق – أصبحتْ وسيلةً للترويج، فكم من كتابٍ قد طُبع في غايةٍ من الصِّحّة والتوثيق، ثم يأتي مُتعالِمٌ، أو دارُ نشرٍ فتَسْرِقَه؛ فيُبرِز للسوق مطبوعاً تحت شعار التحقيق!، وقد اتَّسعت الدائرةُ في هذا بشكلٍ جعل الكتبَ تحت هذا الشِّعار: جواداً رابحاً"[3].

[1] حاتم بن عارف العوني، المنهج المقترح لفهم المصطلح، ص٨، ٩.

[2] محمد خلف سلامة، لسان المحدِّثين، وهو كتاب إلكتروني، انظره في موقع "صيد الفوائد".

[3] بكر عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٧٧.

٢) ويقول العلامة **الدكتور أكرم ضياء العمري** وهو يتحدَّث عن حال "التَّعالُم" في مجال التحقيق في عصرنا الحاضر: "ثم ظهر العديد من المتطفِّلين ممن لا تخصُّصَ لهم ولا ذوقَ لهم في الفنون، وهؤلاء لا يُعتدّ بعملهم، ولا يُدرَس إلا على سبيل انتقاده، والكشفِ عن عَواره"[١].

٣) ويقول الأستاذ **الدكتور عبد الله بن عبد الرحيم عُسَيْلان**[٢]: "إنَّ الذي يُجيل النظرَ في واقع التحقيق اليوم؛ يقف على ما يبعث الأسى والحسرةَ من العبث الذي يُمنى به تراثنا، وتجأر نفائسه بمرِّ الشكوى على أيدي بعض من أقحموا أنفسهم في ساحة التحقيق دون بصرٍ ودرايةٍ تؤهِّلهم للقيام بهذه المهمة الشريفة، بما تحمله في طياتها من أهداف نبيلة في بعث تراثنا وإحيائه، وقد استسهل بعضُهم هذه المهمةَ وتصوَّر أنها لا تَعْدُوْ أن تكون عملاً آلياً فأقدم على خوض غِمارها دون أن يُعِدَّ العُدَّةَ لذلك، وما دَرَى أنَّ التعامُل مع المخطوطات وتحقيقها ليس بالأمر السهل الهيِّن...

ومن هنا برزتْ في ساحتنا الثقافيةِ أعمالٌ عديدةٌ من كتب التراث المحقَّقة تحقيقاً هزيلاً يَشيع فيه التصحيفُ والتحريفُ، والخللُ والأخطاءُ العلمية في التعليقات إلى درجةٍ يتمنَّى معها المرءُ لو أنَّ تلك الكتب خرجتْ بدون ذلك التحقيقِ الذي عَدَمُه أجدى وأنفَعُ مِن وجوده، ومن المؤسِف أنَّ صفحة العنوان منها تأتي مذيَّلةً بعبارة (حقَّقه فلان) وتبحث عن مقتضى ذلك؛ فلا تكاد تجد شيئاً يُذكَر مِن ذلك..."[٣].

****

---

[١] أكرم ضياء العمري، مناهج البحث وتحقيق التراث، ص١٢٥.

[٢] هو الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان (من مواليد عام ١٣٦٤هـ): أحد العلماء الغيورين على العربية وتراثها. وُلد في المدينة المنورة. درس الليانس في كلية اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ثم نال شهادةَ الماجستير ثم الدكتوراه في الأدب والنقد من كلية اللغة العربية وآدابها في جامعة الأزهر. عمل في جامعة الإمام بالرياض أستاذاً ووكيلاً فعميداً لشؤون المكتبات. ومن مؤلَّفاته: "المدينة المنورة في آثار المؤلفين والباحثين قديماً وحديثاً"، و"تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل"، و"بحوث ودراسات في الأدب والنقد". انظر لترجمته: "موقع الإثنينية".

[٣] عسيلان، تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل، ص٤٧، ٤٨، باختصار وتصرف يسير.

المبحث الثاني:

موقفُ أهل العلم من قضية "التَّعالُم" ودورُهم في حدِّ انتشاره والصَّدِّ عن مخاطره

لم يقف العلماء مكتوفي الأيدي أمام هذه الظاهرة الشَّعْواء، بل لهم موقف نبيل جليل في الوقوف ضِدَّ هذه القضية، وفي حدِّها والصَّدِّ عنها، وجهادُهم في سبيل ذلك باللسان والقلم خطيرٌ وعظيمٌ، وكلُّ ذا تحذيراً للمجتمع، وإنذاراً للأمة وترُاثها وأبنائها من شرور التَّعالُم، ودسائسِ أهله ومكائدهم، ولهم في توعية المجتمع وتثقيفه، وإيجاد حلول ناجعة لهذه القضية الفاجعة، مساعٍ محمودةٌ، وجهودٌ مباركةٌ موفورةٌ، وخطواتٌ بنّاءةٌ جادّةٌ، تَرفُل بحُلَل الشكر وعاطر الثناء، مما سطَّرته أقلامهم من بديع البيان، ووافِرِ الكلام، تحليلاً لهذه القضية ودراسةً لها، وبحثاً عن دوافعها وأسبابها، واستنتاجاً لمخاطرها ومساويها، وبياناً لوقعها وأثرها على المجتمع الإسلامي بأكمله، وما يُصيب جرّاء ذلك من آفاتٍ مُهلِكةٍ بتُراثه، وكنوزِ علومه ومعارفه، وذخائرِ فنونه وثقافته، وعقولِ أبنائه وفلذات أكباده.

ونقصد بهذه الجهود الجبارة – في الحقيقة – تلك المؤلَّفات النافعة الجليلة، والدراسات العلمية المنهجية، والمقالات الفكرية الهادفة، فيما يتعلَّق بمثل هذا الداء المهلِك، والواقع الأليم، والتي ظهرتْ في الساحة العلمية دفاعاً عن الدين والشريعة، وصوناً لبيضة العقيدة والملة، وغيرةً على العلم وأهله، والتراثِ وذخائره، وقَلَّ ما يوجد هناك في العصر الحديث من عالِمٍ غَيُوْرٍ من علماء الأمة العِظام، ومفكِّريه الأحرار الكرام، ممن تناولوا بالتأليف مناهجَ البحث وتحقيق التراث، وطُرُق العناية به وخدمته، وسُبُل نشره وإخراجه، إلا وتطرَّقوا إلى هذه القضية – قضية التَّعالُم الخطيرة – فكتبوا وسجَّلوا بأقلامهم الْحُرّة البديعة عبثَ الغرباء المتطفِّلين، وتلاعُبِ الأدعياء الْمُتعالِمين، بكتب العلم وتُراث الإسلام تأليفاً وتحقيقاً، أما في مجال التأليف فكان اعتداؤهم على التراث وخوضهم في مجال العلم عن طريق السرقات العلمية البَشِعة، والانتحالات الفكرية الفظيعة، وفي مجال التحقيق عن طريق التشويه والتمويه، والتدليس والتحريف للنصوص والألفاظ، والمعاني والأفكار.

وقد بذلوا في تبيين ذلك وإيضاحِه، وكشفِ زيوف الْمُتعالِمين وزيغِهم جهوداً مُشرِقة، وخدماتٍ نفيسةً، ومن هذه المؤلَّفات المعاصرة على سبيل المثال لا الحصر:

١) التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب.

٢) الرِّقابة على التراث.

٣) تغريب الألقاب العلمية.

وثلاثتها للشيخ الفاضل بكر بن عبد الله أبي زيد، رحمه الله تعالى.

٤) مَعالِم إرشادية لصناعة طالب العلم: للمحدِّث الشيخ محمد عوامة.

٥) معالم في طريق طلب العلم: للشيخ عبد العزيز بن عبد الله السَّدْحان.

٦) مناهج البحث وتحقيق التراث: للدكتور أكرم ضياء العمري.

٧) منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً وتحقيقاً.

٨) تطوُّر دراسات السنة النبوية: نهضتها المعاصرة وآفاقها: وكلاهما للأستاذ الدكتور فاروق حمادة.

٩) تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل: للأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد الرحيم عُسَيلان.

١٠) تحقيق التراث العربي منهجه وتطوُّره: للدكتور عبد المجيد دَيَّاب.

١١) حقوق الاختراع والتأليف في الفقه الإسلامي: للدكتور حسن بن معلوي الشَّهراني.

١٢) جهود المعاصرين في خدمة السنة السنة المشرَّفة: للأستاذ محمد عبد الله أبي صُعَيْليك.

كما لم يتوان العلماء كذلك في الدعوة إلى عقد المؤتمرات العلمية والندوات الهادفة، والمجالس الجادَّة البنّاءة، واللقاءات المثمِرة بين أهل العلم والفنّ والمعرفة والتخصُّص، لكشف زيوف المدّعِين، وفضحِ زَيْغِ الْمُتعالِمين، وإظهارِ ما نالته أقلامهم ومَسَّته أيديهم من تحريف التراث وتشويهه بزعم خدمته والعناية به، وما لهم في سبيل ذلك من سرقاتٍ علميةٍ شتّى، وانتحالاتٍ لكتب العلم فظيعة، وكلُّ هذه الجهودِ موفورةٌ ومُثمِرةٌ بفضل الله تعالى، ستعطي أُكُلَها كل حينٍ بإذن ربِّها.

ومن الأمثلة على هاتيك الجهود المباركة الفَعّالة، والْخُطَى المقدمة الحثيثة ما كتبه الشيخ المفضال بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه النافع الجليل "الرقابة على التراث" تحت عنوان "استنهاض العلماء"، وهذا ما جاء فيه:

"أمام هذا الطوفان الهائج، والموجة الكاسحة، والحقِّ المسلوب المفرغ من ذاتيته بأقلام الغِوَاية والمجلوب في السُّوق، في إطار كارثة التراث؛ ننادي بكل قُوَّةٍ في ساعة العسرة، علماءَ المِلَّةِ ذاكراً قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ [النساء: ١٠٤].

فإلى كَفِّ أيديهم، ودفعِ شرورهم، والرحمةِ بالمسلمين منهم، عن الخوض في هذه المآثم، فإنَّ غُبار الفتنة – أيها العلماء – ثائرٌ، وقد تولَّدتْ من تحته هذه العظائمُ، فلا تَتماروا بالنُّذُر.

أيها العلماء!: لا بُدَّ من تشييد رؤيةٍ إسلاميةٍ صحيحةٍ، ونظرةٍ شموليةٍ سديدة، تَنتصِر لهذا الحقِّ الشرعي (التُّرَاث)، وتَحميه مما لَحِقه من ضَيْمٍ، وتقويضٍ لمتنه ومبناه، وتحويلٍ لنصِّه و معناه، وأن تُقام الضماناتُ لحجب هذا العبثِ، وحمايةِ التراث من جناية البُغاة عليه من مفسدين حاقدين، ومن متأكِّلين، ومُتعالِمين، وتنظيم السُّوق – وقد غَصَّتْ به – من تَسَلُّل هذا العبثِ إلى دُور العَرض والكتب.

ولا بُدَّ من تخصيب اليَقَظَة الإسلامية برعاية حُرمة هذا الميراث – المميَّز لهم عن سائر الأُمَم – بالفكر المستنير، والعلمِ النافع.

وما بعثُ هذا الجهادُ الدفاعيُّ لهذه الكارثة التراثية إلا من أداء الواجب، والفقهِ في الدين، وتعاهُدِ الإيمان بالقول والعمل"[1].

وقال – رحمه الله تعالى – في نفس الكتابِ المشار إليه آنفاً، فيما عَنْوَنَه بـ"الضمانات للحفاظ للتراث" ما نصُّه:

١) الدعوةُ إلى عقد مؤتمرٍ إسلاميٍّ عن التُّراث، يَتَمَحْوَرُ على كشف التحريف والمحرِّفين.
٢) إعدادُ "ميثاقٍ إسلاميٍّ دولِيٍّ" يُحفَظ بموجبه تراث المسلمين عن العابثين.
٣) إصدارُ "مجلة" تُراقِب ثورةَ الإنتاج الطِّباعي، فيُقَوَّم الإنتاجُ لتحقيق أيِّ كتاب، بميزان العدل والإنصاف، وإعلانِ ما ينتهي إليه مَدْحاً أو قَدْحاً، فمرحباً بالمنافِحين غيرَ خَزايا ولا نَدامى.
٤) تكثيفُ العلماء جهودَهم بنقد العبث في التراث تصريحاً لا تلويحاً، وبيانُ ذلك لأوّل مناسبةٍ في مؤلَّفاتهم، ودروسِهم، ومحاضراتِهم...
٥) تخويلُ "الادِّعاء العام" محاكمة من يَمُسُّ التراثَ بفعلة سُوْءٍ.

---

[1] بكر بن عبد الله أبو زيد، الرقابة على التراث، ص٢٩٠، المنشور ضمن رسائل أخرى بعنوان "المجموعة العلمية".

٦) إلزامُ المحقِّقين بذكر تخصُّصاتهم تحت أسمائهم على أغلفة الكتاب، أما "الدكتور" ففي أيِّ شيءٍ؟!.

٧) هجرُ هذه الطبعاتِ السَّقيمة، وعدمُ تسويقها: "فدَعْ عنكَ نَهْباً صِيْحَ في حجراته".

٨) إنزالُ مَن لم يَشْدُ العلمَ الشَّرعيَّ منْزلتَه التي يَستحِقّها بلا وَكْسٍ ولا شَطَطٍ، فالسَّبّاكُ يَبْقى مع السَّبّاكين، والطَّبِيْبُ، والبَيْطَرِيُّ، والصَّيْدَلِيُّ،... كذلك، كلُّ صانعٍ وصَنْعَتُه، ومحترفٍ وحِرْفَتُه.

٩) توجيهُ الأنظار إلى إعادة تحقيق وطبعِ ما كان سبيله كذلك، لتسقط السابقةُ من الحساب، ولا يكون لها مُتّسعٌ في الميدان، وحينئذٍ يَعلَم المنصفون أيهما أزكى تحقيقاً.

١٠) ترغيبُ ذوي القُدرة واليسار من أثرياء المسلمين بإنشاء وتمويل مراكز لتحقيق التُّراث على منهج سليم، وتُعطى الأَولويّة لِما طُبع على يد غير أهله.

١١) إدخالُ هذه اللفتةِ عن "العبث بالتراث" في مناهج التعليم الجامعي، تحذيراً من الوقوع في وَيلاتها، حتى لا تعود الشريعةُ إلى دينٍ محرَّفٍ، واستنهاضاً للهِمَم بتحقيق ذلك بعد استكمال عدّة التحقيق.

١٢) وقبل هذا وبعده، المناداة بكل قوةٍ وصرامةٍ بمنع الكُفّار "المستشرقين" من التعرُّض لحقّنا التراثي الموروث لنا بحكم الإسلام، ورفعِ أيديهم الغاصبة عنه[١].

ويقول أحدُ الفضلاء[٢] فيما يتعلَّق بعلاج السرقات العلمية، وإيجادِ الحلول المناسبة لها، واقتراحِ ذلك على أهل الحلِّ والعقد من العلماء والرؤساء: "والزَّيْفُ في مركز القيادة والتوجيه أخطَرُ أنواع الزَّيْف على الإطلاق، والأخطَرُ مِن هذا كلِّه أن يتغلغل الزَّيْفُ إلى أروقة العلم، التي لا رسالةَ لها إلا الوصول إلى الحقيقة، والحقيقة وحدها.

ولكن برغم هذه القَتامَة التي نراها ونُحِسّها إلا أنّ الرغبة في الإصلاح موجودةٌ ومتصاعدةٌ، ويكفي أن تكون بُؤَرُ التزييف معروفةً بالأسماء والأفعال، حتى يُصبح علاجُها ميسوراً، وإنْ طال مداه، وتعثَّرتْ خطواته، وقامت العوائق في طريقه.

[١] بكر بن عبد الله أبو زيد، الرقابة على التراث، ص٢٩٥، ٢٩٦.

[٢] هو الفاضل اللبيب الأستاذ عبده الزايد، في مقاله المنشور في مجلة "الدعوة" في الرياض، بعدد (٩٤٩)، الذي ألحقه الشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، في نهاية رسالته "تغريب الألقاب العلمية"، في صفحات ٣٤٨، ٣٤٩، نقلتُه هنا بشيء يسير من التصرف.

فهل يمكن أن نبدأ الإصلاح! وهل لي أن أتقدَّم باقتراحٍ! إنَّ هذ الاقتراحَ يتعلَّق بمن يَسرِقون إنتاج غيرهم ليحصل به على لقبٍ علميٍّ، وهذا اللونُ في دنيا التزييف كثيرٌ وكثيرٌ؛ لأنه ممكنٌ وميسورٌ، وقَلَّ ما يَنكشِف أمره، وتَظهَر خبيئتُه، وربما كان هذا هو ما أغرى الكثيرين من المغامرين الْمُتعالِمين باقتحام هذا الميدان في جرأةٍ غريبةٍ، ووقاحةٍ عجيبةٍ، رغبةً في الوصول إلى لقبٍ كريمٍ، أو كرسيٍّ وثيرٍ.

وإنَّ علاج هذا الأمرِ ممكنٌ وميسورٌ، إذا أغْلَقْنا هذا البابَ إغلاقاً مُحْكَماً، وبذلك نكون قد قضينا على أكبر بُؤَر التزييف في حياتنا العلمية.

إنَّ اعتبار السرقة العلمية جريمةٌ يُعاقَب صاحبُها بحِرْمانه حرماناً أبدياً من الحصول على اللقب العلمي من أي جامعةٍ من الجامعات الإسلامية على أقَلِّ تقديرٍ سيجعل هؤلاء المغامرين الْمُتعالِمين يُحجِمون عن هذا التلصُّصِ الممقوت.

وإنَّ معاملة السارق بنقيض قصدِه أكبَرُ رادعٍ له يَحُوْل بينه وبين الإقدام على هذا الفِعل الشَّنيع، وهذا أمرٌ يتطلَّب التعاوُنَ والاتِّفاقَ بين الجامعات على تنظيف الحياة العلمية من الزَّيف والزائفين"[1].

كذلك فإنَّ لتشجيع أهل العلم بعضُهم بعضاً – كلٌّ حسب وُسْعِه وطاقتِه – دورٌ مهمٌّ وخطيرٌ، وأثرٌ عظيمٌ جليلٌ في محاربة هذه البَلِيَّة النَّكْراء، والقضاء على هذه المصيبة الشَّعْواء، وإماتتها في حينها، ودفنها في أوكارها...

وهذا كلُّه من التَّناصُح بالمعروف، والتَّعاضُدِ بالحقِّ الواجب على الأمة نحو أفرادها بعضِهم بعضاً، فالدينُ النصيحةُ كما ورد عن أبي رُقَيَّة تَمِيم بن أَوْسٍ الدَّارِي ﵁ أنَّ النبي ﷺ قال: «الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ»، قُلنا: لِمَنْ؟ قال: «لله، ولِكِتَابِهِ، وَلِرَسُوْلِه، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِيْنَ وَعامَّتِهِمْ»[2].

ومِن دَوْرِهم الفَعّال النَّبيل، وموقفِهم الحميد الجليل كذلك: تلقينُهم للطَّلَبَة والناشئين فضيلةَ الصِّدْق والأمانة، وتحذيرُهم من الكذب والغِشّ والخيانة. ومما جاء عن أحد أعلام العصر الدَّاعين إلى الصَّلاح والفلاح، وهو الشيخ محمد خِضر الحسين في "الأمانة" في العلم، أنقلُه بنصِّه لنفاسته وعظيمِ فائدته، يقول رحمه الله تعالى: "وإذا كانت الأمانةُ في العلمِ منبعَ حياةِ الأُمَم،

[1] بكر بن عبد الله أبو زيد، تغريب الألقاب، ص٣٤٨، ٣٤٩.

[2] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ص٤٤، برقم (٥٥).

وأساسَ عظمتِها – زيادةً على أنها الْخَصْلَة التي تكسب صاحبها: وقاراً، وجلالةً –؛ كان حقّاً علينا أن نَعطِف على نَشْئَتنا من طلاب العلم، ونَتّخِذ كلَّ وسيلةٍ إلى أن نُخرِّجهم أُمَناءً فيما يَرْوَوْنَ أو يَصِفُون؛ ذلك بأن نتحرَّى في دروسِنا الأمانةَ فيما نروي، ولا نُجيب سؤالهم إلا بما ندري، أو بقولنا: (لا ندري)، وإذا أَوْرَدْنا رأياً استبَنّا بعد أنه مأخوذٌ من غير أصلٍ؛ قلنا لهم في صراحة: (قد أخطأنا في الفهم)، أو (خرجنا على ما تقتضيه أصول العلم).

ومن أساليب تلقينهم الأمانةَ في العلم أن نتلقَّى مناقشاتِهم بصدرٍ رَحْبٍ، ولا نقتل آراءهم بالكلمات الجارحة، أو نتعسَّف في ردّها، فندافعها بما نَعتقِد في أنفسنا أنه غيرُ كافٍ لدفاعها.

وعلى الأستاذ بعد أن يقوم بحقِّ الأمانة ملاحظةُ سَيْرِ الطلاب، حتى إذا وقع أحدُهم فيما يَدُلُّ على أنه غافلٌ عن رِفْعَة شأنِها، وغَزارةِ فوائدِها؛ أرشده إلى أنَّ العلم بغير أمانةٍ شَرٌّ من الجهل، وأنَّ ذكاءاً لا يُصاحِبه صِدْقُ اللَّهْجَةِ نكبةً على العقل: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦][1].

خلاصة الفصل:

وفي هذا الفصل وهو الخامس ترتيباً؛ قمتُ في المبحث الأول منه ببيان مُجمَل حالِ "التَّعالُم" في عصرنا الحاضر وواقعِنا المرير، الذي نُواجهه في جميع مجالات العلوم وقنوات المعارف، حيثُ وَلَج إليها "التَّعالُم" فأضحى داءاً مستشرياً، وبلاءاً مستفحلاً، يَقُضّ مَضاجعَ عقلاء الأمة وعلمائها.

وفي المبحث الثاني منه؛ قدّمتُ موقفَ هؤلاء العلماء الأفاضل الأجلّة ممن حاربوا هذه المصيبةَ وكافحوها بكُلّ ما آتاهم الله – تبارك وتعالى – من وسائلَ ممكنةٍ وسُبُلٍ ميسَّرةٍ، حيثُ قاموا – حفظهم الله تعالى وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيراً – بالجهاد ضِدَّ هذه القضيةِ بكِلَي المهنَّدَين: اللسان والقلم؛ وذلك عن طريق الكتابة والتأليف فيما يتعلَّق بهذه القضية، وعقدِ الندوات والاجتماعات أيضاً، لبحث الحلول والوسائل الناجحة لتخليص المجتمع وأفرادِه من شرور "التَّعالُم" وأضراره.

---

[1] محمد خضر الحسين، رسائل الإصلاح، ج١، ١٣.

الفصل السادس

تَناوُلُ العلماء لقضية "التَّعالُم" في مؤلَّفاتهم قديماً وحديثاً

المبحث الأول: تَناوُلُ العلماء قديماً لقضية "التَّعالُم" في مؤلَّفاتهم.

المبحث الثاني: تَناوُلُ العلماء حديثاً لقضية "التَّعالُم" في مؤلَّفاتهم.

تَناوُلُ العلماء قديماً لقضية "التَّعالُم" في مؤلَّفاهم

وهذه بعض مؤلَّفات علمية قيمة قديمة، تناول مؤلِّفوها أبحاثاً نفيسة تتعلَّق بمثل هذا الموضوع شرحاً وتحليلاً، تبييناً وتوضيحاً، وعرضاً وتقديماً للنتائج والحلول والآثار، وفيما يلي ذكرُ ما وقفتُ عليه منها:

١ - تَلبِيس إبليس: للإمام ابن الْجَوْزي أبي الفَرَج عبد الرحمن بن علي البغدادي (ت٥٩٧هـ):

نبذة عن المؤلِّف:

هو أبو الفَرَج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي: شيخ الإسلام، علاَّمة عصره في التاريخ والحديث، إمامٌ كثيرُ التصانيف، حظي بشهرة واسعة، ومكانة كبيرة في الخطابة والوعظ والتصنيف في عصره.

وُلد ببغداد سنة ٥١٠هـ. توفي والده وعمره ثلاث سنوات، فكفلتْه أُمُّه وحفظ القرآنَ الكريم، وقرأ الفقهَ والخلاف والأصول والجدل والأدب، كما برز في كثير من العلوم والفنون، وأكثر من التصنيف فيها.

وكان من أعذب الناس لساناً، ومن أحسنهم كلاماً، وأجودهم بياناً، له نحو ثلاثمئة مؤلَّف في فنون عديدة. توفي - رحمه الله - سنة ٥٩٧هـ عن عمر يُقارِب تسعين عاماً[١].

هذا الكتاب:

قام المؤلِّف - رحمه الله تعالى - في هذا الكتاب الجليل بالتحذير من فِتَن إبليس وشُبَهه، ومكائده ومصائده، التي يلبِّس بها على الخلق، مزخرفاً لهم صُوَرها، محسِّناً لهم هيئاها، مفرِّقاً بها بين جماعاهم مشتِّتاً لشمل أُمّتهم. ومِن ضِمن تلك الغِوايات ما يلبِّس به على العلماء، وينتحل من مذاهب سخيفةٍ، وبِدَعٍ قبيحةٍ، ويزيِّن لهم من فِتَنٍ مُضِلَّةٍ ومِحَنٍ مُزِلَّةٍ، لتضليلهم وتحريفهم عن

[١] انظر لترجمته: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٣، ص١٠، ١٤٢.

جادة الحقِّ وسواء السبيل؛ لذا عقد المؤلِّف – رحمه الله – باباً لبيان كلِّ ذلك، لينكشف لأولي الألباب وذوي العقول منهم تلبيساته، ويتبيَّن لأهل الفكر والفِطْنَة والنَّباهة تدليساته...

وها أنا أورد بعضاً مما اقتبستُه من كتابه النافع الجليل:

١) قال – رحمه الله تعالى – في ذكر تلبيس إبليس على القُرَّاء: "فمِن ذلك أنَّ أحدهم يشتغل بالقراءات وجمعِها وتصنيفِها، ويُشغِله ذلك عن معرفة الفرائض والواجبات، فربما رأيتَ إمامَ مسجدٍ تصدَّر للإقراء ولا يَعرف ما يُفسد الصلاةَ، وربما حمله حُبُّ التصدُّرِ حتى لا يُرى بعين الجهل على أن يُجيب في فتوى بما يقع له، وإنْ لم يَجُزْ في مذهب. ولو تفكَّروا لعَلِموا أن المراد حفظُ القرآن، وتقويمُ ألفاظه، ثم فهمُه، ثم العملُ به، ثم الإقبالُ على ما يُصلِح النفسَ، ويطهِّر أخلاقَها، ثم التشاغُلُ بالمهمِّ من علوم الشَّرع، ومن الغُبْنِ الفاحشِ تضييعُ الزَّمان فيما غيرُه الأهَمُّ.

قال الحسن البصري: أُنزِل القرآنُ ليُعمَل به، فاتَّخذ الناسُ تلاوتَه عملاً. يعني: أنهم اختصروا على التِّلاوة وتركوا العمل به"[1].

٢) وقال – رحمه الله تعالى – في ذكر تلبيسه على أصحاب الحديث: "فترى المحدِّثَ يكتب ويسمع خمسين سنةً، ويجمع الكتبَ ولا يدري ما فيها. ولو وقعت له حادثةٌ في صلاته لافتقر إلى بعض أحداث المتفقِّهة الذين يتردّدون إليه لسماع الحديث منه، وبهؤلاء تمكَّن الطاعنون على المحدِّثين فقالوا: زوامِلُ أسفارٍ لا يَدرون ما معهم.

فإنْ أفلح أحدهم ونظر في حديثه فربما عَمِل بحديث منسوخ، وربما فَهِمَ من الحديث ما يَفهَمه الجاهل وعَمِل بذلك، وليس بالمراد من الحديث، كما رُوِّيْنا أنَّ بعض المحدِّثين روى عن رسول الله ﷺ أنّه: "نَهَى عن أن يَسقي الرجلَ ماءه زَرْعَ غيره"، فقال جماعة ممن حَضَر: قد كنا إذا فَضُلَ لنا ماءٌ في بساتيننا سَرَحْناه إلى جيراننا ونحن نستغفر الله[2].

وقد رأينا في زماننا مَن يجمع الكتبَ منهم، ويُكثِر السماعَ ولا يَفهَم ما حصَّل.

ومنهم من لا يَحفَظ القرآنَ، ولا يَعرِف أركانَ الصلاة، فتشاغل هؤلاء على زعمهم بفروض الكفايات عن فروض الأعيان، وإيثارِ ما ليس بمهمٍّ على المهمِّ من تلبيس إبليس[3].

---

[1] ابن الجوزي البغدادي، تلبيس إبليس، ص١٢٠.

[2] المرجع السابق، ص١٢٣.

[3] المرجع السابق، ص١٢٤.

٣) وقال – رحمه الله تعالى – كذلك: و"قومٌ أكثروا سماعَ الحديث ولم يكن مقصودهم صحيحاً، ولا أرادوا معرفة الصحيح من غيره بجمع الطُّرُق، وإنما كان مرادهم العوالي[١] والغرائب[٢]، فطافوا البلدان ليقول أحدهم: لقيتُ فلاناً ولي من الإسناد ما ليس لغيري، وعندي أحاديث ليست عند غيري.

وقد كان دخل إلينا إلى بغداد بعضُ طَلَبَةِ الحديث، فكان يأخذ الشيخَ فيُقعِده في الرَّقّة، وهي البستانُ الذي على شاطئ الدَّجْلَة، فيقرأ عليه ويقول في مجموعاته: حَدَّثَني فلانٌ بالرَّقّة، ويُوهِم الناسَ أنها البلدة التي بناحية الشَّام ليُظَنَّ أنه قد تَعِبَ في الأسفار لطلب الحديث!

وكان يُقعِد الشيخَ بين نهر عيسى والصُّرَاة ويقول: حَدَّثَني فلانٌ من وراء النهر، يُوهِم أنه قد عَبَر خُراسانَ في طلب الحديث، وكان يقول: حَدَّثَني فلانٌ في رحلتي الثانية والثالثة، ليَعلَم الناسُ قَدْرَ تعبه في طلب العلم، فما بُورِك له، ومات في زمن الطلب[٣].

وهذا كلُّه من الإخلاص بمعزل، وإنما مقصودهم الرياسة والمباهاة"[٤].

٢ – مُعِيْدُ النِّعَمِ ومُبِيْدُ النِّقَم: للإمامِ تاج الدين عبد الوَهّاب السُّبْكي (ت٧٧١هـ):

نبذة عن المؤلِّف:

هو عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السُّبْكي نسبةً إلى "سُبْك" من قرى محافظة "المنوفية" بمصر: الفقيه الشافعي الأصولي، المؤرِّخ، يُلقَّب بـ"قاضي القضاة تاج الدين".

وُلد بالقاهرة سنة ٧٢٧هـ، وأخذ العلمَ عن علمائها. ثم رحل إلى دمشق مع والده الذي كان عالماً فاضلاً، وهناك تلقَّى العلمَ عن كبار علماء دمشق. ومن شيوخه: والده علي بن عبد الكافي، والحافظ المِزِّي، والذَّهبي. أجازه شمس الدين بن النقيب بالإفتاء، وقد أفتى ولم يتجاوز عمره ثماني عشرة سنة. انتهت إليه رئاسة القضاء والمناصب بالشام.

توفي بدمشق سنة ٧٧١هـ. له مؤلفات كثيرة في الفقه الشافعي وأصوله وطبقات فقهائه[٥].

---

[١] وهي الأحاديث التي قلَّ رجال أسانيدها. انظر: سيد عبد الماجد الغوري، معجم المصطلحات الحديثية، ص٣٧٩.

[٢] وهي الأحاديث التي لم يروها إلا راوٍ واحدٌ. انظر: الغوري، معجم المصطلحات الحديثية، ص٣٨١.

[٣] وهكذا تكون عموماً – والله تعالى أعلم بالحقِّ والحقيقة والصواب، ولا نقول على الله ما ليس لنا به علمٌ – نتيجة طلب العلم، والعمل لغير الله تعالى، حيث محق البركة من العلم والعمل، وعدم قبولهما عند الله ربّ العالمين، إنْ كانا طلباً للمال والرئاسة، والجاه والمباهاة.

[٤] ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٢٤، ١٢٥.

[٥] انظر لترجمته: ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج٣، ص٣٩، ٤١.

هذا الكتاب:

وقد ذكر المؤلِّف في هذا الكتاب ما أنعم به المولى تبارك وتعالى وأكرم، من عظيم النِّعمة، وجليلِ المنحة للعلماء وَرَثَة الأنبياء، وما يجب عليهم من أداء شُكر هذه النعمةِ وحمدِها، والثناءِ على مُنعِمها وواهبها، حتى تكون سبباً للبقاء والمزيد، بل وذريعةً لاستمرار النعمة الأكيد، وإنَّ من شُكْرِ نعمة العلم وحمدِها على أهل العلم: العملُ به، والدعوةُ إليه، وبذلُه لطالبه، وعدمُ كِتمانه، وغيرُ ذلك من وجوه الشُّكر التي يجب عليهم القِيامُ بها...

وإنَّ من جحود هذه النعمةِ ونُكرانِها: مخالفةُ القول للعمل، والخوضُ في مجالاته الجليلة الخطيرة كالتدريس والتأليف، والقضاء والإفتاء، من دونِ كمال الشخصية العلمية، واكتمال الاستعداد والأهلية، وهذا الذي نُعِدّه "تَعالُماً" وليس علماً، وهو ما نحن بصدد دراسته والبحث عنه، وبيانِ موقف علماء الأمة منه...

وتوضيحاً لموقف هذا العالِم الرباني الجليل النبيل، نورد بعضاً مما نقتبسه من كتابه الفذّ الفائق الفريد، فمِمَّا قال رحمه الله تعالى:

١) العلماء حَقٌّ عليهم "إرشادُ المتعلِّمين، وإفتاءُ المستفتين، ونُصْحُ الطالبين، وإظهارُ العلم للسائلين، فمن كَتَم علماً ألجمه الله بلجامٍ من نارٍ، وألا يقصد بالعلم الرِّئاءَ، والمباهاة، والسُّمْعَة، ولا جَعْلَه سبيلاً إلى الدنيا؛ فإنَّ الدنيا أَقَلُّ مِن ذلك. قال الفُضَيْلُ بن عِيَاض[١] رحمه الله: "إني لأرحم ثلاثةً: عزيزَ قومٍ ذَلَّ، وغنياً افتقر، وعالِماً تَلعَّبَتْ به الدنيا".

وأنشد بعضهم:

عجبتُ لمبتاع الضَّلالة بالْهُدى ومن يشتري دنياه بالدِّين أعجَبُ

فأَقَلُّ درجاتِ العالِم أن يُدرِك حقارةَ الدنيا وخِسَّتها، وكُدورتِها وانصرامِها، وعِظَمَ الآخرة وصفائها ودوامها، فمن لا يعلم حقارةَ الدنيا وكُدورتها وامتزاجَ لذاتها بالهموم فهو فاسدُ العقلِ؛ فإنَّ المشاهدة والتجربة تُرشِد العقلاءَ إلى ذلك، فكيف يكون في العلماء مَن لا عقلَ له!

ومن لا يعلم عِظَمَ أمرِ الآخرة ودوامَها فهو كافرٌ لا إيمانَ له، فكيف يكون من العلماء مَن لا إيمانَ له!

---

[١] هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليَرْبُوْعي، أبو علي (١٠٥ – ١٨٧هـ): أحد أكابر العباد الصلحاء، ومن الثقات في الحديث، أخذ عنه خلقٌ منهم الإمام الشافعي. وُلد في سمرقند وتوفي بمكة. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٢٤٥.

ومَن لا يعلم أنهما ضَرَّتان والجمعُ بينهما بعيدٌ فهو جاهلٌ، ومَن علم هذا كلَّه ثم آثر الحياةَ الدنيا على الآخرة فهو أسيرُ الشيطان؛ قد أهلكتْه شهوتُه وغلبتْ عليه شِقْوَتُه، فكيف يُعَدّ من العلماء مَن هذه درجته؟!

والحقُّ إني لأعجب من عالِمٍ يجعل علمَه سبيلاً إلى حُطام الدنيا، وهو يرى كثيراً من الْجُهَّال وصلوا من الدنيا إلى ما لا ينتهى هو إليه! فإذا كانت الدنيا تُنال مع الجهل فما بالُنا نشتريها بأَنْفَسِ الأشياء وهو العلمُ! فينبغي أن يَقصِد بالعلم وجهَ اللهِ تعالى، والترقِّي إلى جوار الملأ الأعلى[1].

٢) "ومن هؤلاء العلماء مَن يطلب العلمَ في الدنيا حُبّاً للمناصب والجاه، فيُؤدِّي ذلك إلى أنَّ قلبه يُظلَم بهذه الأكدار، ويَزُول صفاؤه بهذه الأمور التي تُظلِم القلوبَ، وتُبعِد عن عَلامَّ الغُيوب، فكم رأينا فقيهاً تردَّد إلى أبواب الملوك فذهب فقهُه، ونَسِي ما كان يعلمه، وهذا فسادٌ عظيمٌ، وفيه هلاكُ العالِم"[2].

٣) وقال – رحمه الله – وهو يتكلَّم عن أهل القضاء والمناصب من العلماء: "ومنهم مَن يضيِّع كثيراً من وقته في طلب القضاء وغيره من المناصب، فإنْ كان مرادُه القُوْتَ فالقوتُ يجيئ بدون ذلك، وقد ضُرِبَ جماعةٌ من السَّلَف على أنْ يَلُوْا القضاءَ فأَبَوْا، وأمّا مَن لبَّستْ عليه نفسُه وطَلَب القضاءَ، واستذلَّه الشيطان من حيث لا يدري، ممن يريد التلبيسَ على الناس، فهو إبليسٌ من الأبالِسَة، نعوذ بالله منه؛ وما فعلت هذه الطائفةُ ولا كان ثمرة عِلمها إلا أن جعلت العلمَ حُطامَ الدنيا، ثم أخذت تُداجي في دين الله تعالى، وتلبِّس على الخلق، وتأكل الدنيا بالدين، فقبَّحها الله تعالى من طائفةٍ"[3].

٤) وقال عن أهل الإفتاء ما نَصُّه: "ومنهم مَن يسهِّل الأمرَ الشرعيَّ، ويتناهى إلى أن يُفتي ببعض ما لا يعتقده من المذاهب، ويرخِّص لبعض الأمراء ما لم يرخِّص فيه لعموم الخلق بعضُ العلماء، وهذا من علامات الاستهانة بدين الله تعالى؛ نعوذ بالله من الخِذْلان. وما هذا المفتي إلا ضالٌّ، خارقٌ لحجاب الهيبة، مُسقِطٌ لأُبَّهَة الشرع، مُفسِدٌ لنظام الدين، ومَن هذه حالُه يؤول – والعياذ بالله تعالى – إلى الزندقة.

---

[1] تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص٦٧، ٦٨.

[2] المرجع السابق، ص٦٨.

[3] المرجع السابق، ص٧٢.

ومنهم مَن يتسرَّع إلى الفُتْيا معتمداً على ظواهر الألفاظ غير متأمِّلٍ فيها؛ فيُوقِع الْخَلْقَ في جهل عظيم، ويقع هو في ألمٍ كبيرٍ[1].

٥) وقال عن أهل التعليم والتدريس: "ومِن أقبح المنكَرات مدرِّسٌ يحفظ سطرَين أو ثلاثَ من كتابٍ، ويَجلِس يُلقيها ثم يَنهَض؛ فهذا إن كان لا يقدر إلا على هذا القدر فهو غير صالحٍ للتدريس، ولا يَحِلّ له تناوُلُ معلومه"[2].

"وينبغي أن يكون المعلِّمُ صحيحَ العقيدة؛ فلقد نشأ صِبْيانٌ كثيرون، عقيدتُهم فاسدةٌ، لأنّ فقيههم كان كذلك. فأوّلُ ما يتعيَّن على الآباء الفحصُ عن عقيدة معلِّم أبنائهم قبل البحث عن دِينه في الفروع، ثم البحث عن دينه في الفروع"[3].

٣ – فَضْلُ عِلم السَّلَف على عِلم الخَلَف: للحافظ ابن رجب عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي الدمشقي (ت٧٩٥هـ):

نبذة عن المؤلِّف:

هو الإمام عبد الرحمن بن أحمد البغدادي الدمشقي، الشهير بـ"ابن رجب الحنبلي": الحافظ الرحَّالة، الزاهد الوَرِع.

وُلد ببغداد سنة ٧٠٦هـ، قرأ القرآنَ بروايات المختلفة، واشتغل بسماع الحديث، وله رحلات كثيرة في طلب العلم.

أتقن فنَّ الحديثِ وصار أعرفَ أهل عصره بالعِلَل، وتتبُّعِ الطُّرُق، قال الإمام السيوطي[4]: "هو الإمام الحافظ المحدِّث الفقيه الواعظ". وذكر ابن العماد الحنبلي: "كانت مجالس تذكيره للقلوب صارعةٌ، وللناس عامةٌ مباركةٌ، نافعةٌ، اجتمعت الفِرَق عليه، ومالت القلوب بالمحبة إليه".

توفي سنة ٧٩٥هـ. وله مؤلفات كثيرة، ومن أشهرها "شرح علل الترمذي" و"جامع العلوم والحِكَم" وهذا الكتاب "فضل علم السلف على علم الخلف"[5].

---

[1] المرجع السابق، ص١٠٢، ١٠٤.

[2] المرجع السابق، ص١٠٦.

[3] المرجع السابق، ص١٣٠.

[4] هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، جلال الدين (٨٤٩ – ٩١١هـ): إمام حافظ، مؤرِّخ أديب، كثيرُ التصانيف، مولده ووفاته بالقاهرة. رحل في طلب العلم إلى بلاد كثيرة وأخذ عن كبار علمائها، ومن أجلِّهم الحافظ ابن حجر العسقلاني. وله نحو ستمئة مصنَّف. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص٣٠١.

[5] انظر لترجمته: ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج٢، ص٤٢٨، ٤٢٩، وابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، ص٤٩٦، ٤٩٧.

هذا الكتاب:

وفي هذا الكتاب "أشار المؤلِّف إلى مواضيع هامّة يحتاجها المسلمُ في حياته، والداعي في دعوته، والعالِمُ في تلقِّيه العلمَ وأدائه، والعاملُ في مسعاه لبلوغ مرضاة ربِّه"[1]، كما وضَّح – رحمه الله تعالى – ما كان عليه سلفُ الأمة من التزام المحجَّة البيضاء، ولزومِ الشريعة الغرَّاء، وفضل ذلك المنهج على ما نحن فيه من النهج والطريقة...

ومما قال – رحمه الله تعالى – وهو يتحدَّث عن أولئك الذين لم ينتفعوا بالعلم، بل كان العلمُ وَبالاً عليهم، وسبباً لبلائهم:

١) وعلامةُ هذا العلمِ الذي لا ينفع أن يُكسِب صاحبَه الزَّهْوَ والفخر والْخُيَلاء، وطلبَ العُلُوِّ والرِّفْعَة في الدنيا، والمنافسة فيها. وطلبِ مباهاة العلماء، ومماراة السفهاء، وصرفِ وُجوه الناس إليه. وقد ورد عن النبي ﷺ: «أنَّ مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ»[2]. وربما ادَّعى أصحابُ هذه العلومِ معرفةَ الله وطلبه والإعراض عما سِواه، وليس غرضُهم بذلك إلا طلبُ التقدُّمِ في قلوب الناس من الملوك وغيرهم، وإحسانُ ظنِّهم بهم، وكثرةُ أتباعهم والتعاظُم بذلك على الناس. وعلامةُ ذلك إظهار دعوة الولاية كما كان يدَّعيه أهلُ الكتاب، وكما ادَّعاه القَرامِطة[3] والباطنية[4] ونحوهم. وهذا بخلاف ما كان عليه السلف من احتقار نفوسهم وازدرائها باطناً وظاهراً[5].

---

[1] ابن رجب الحنبلي، فضل علم السلف على علم الخلف، من مقدمة المحقّق، ص٧٧.

[2] لم أجد الحديث بهذه الألفاظ، إنما هو: «لاَ تَعَلَّمُوْا العِلْمَ لِتُبَاهُوْا بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِتُمَارُوْا بِهِ السُّفَهَاءَ ولاَ تَخَيَّرُوْا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي النَّارِ»، وقد سبق تخريجه في الفصل الأول في هامش المطلب الخامس للمبحث الأول.

[3] وهم الذين ينتمون إلى حركة باطنية هدامة تنتسب إلى شخصٍ اسمه حمدان بن الأشعث، ويلقب بـ"قرمط" لقصر قامته وساقيه، وهو من خوزستان في الأهواز ثم رحل إلى الكوفة. وقد اعتمدت هذه الحركة التنظيم السري العسكري، وكان ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (ت١٤٣هـ)، وحقيقتها الإلحاد والإباحية وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية. انظر: مانع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج١، ص٣٨٨.

[4] وهم الذين ينتمون إلى حركة انتسبت إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق (ت١٤٣هـ)، وليست عقائدها مستمدة من الكتاب والسنة فقد داخلتها فلسفات وعقائد كثيرة أثرت فيهم وجعلها خارجةً عن الإسلام. وهي تتظاهر بالتشيع لآل البيت، لكن الشيعة الاثني عشرية يكفِّرون أعضاء هذه الفرقة بسبب غلوهم الشديد في أئمتهم. انظر: الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان، ج١، ص٣٨٣، ٣٨٩.

[5] ابن رجب الحنبلي، فضل علم السلف على علم الخلف، ص٧٠.

٢) وأمّا مَن علمُه غير نافعٍ فليس له شغلٌ سِوى التَّكبُّرِ بعلمه على الناس، وإظهارِ فضل علمه عليهم، ونسبتِهم إلى الجهل، وتنقُّصِهم ليَرتَفع بذلك عليهم، وهذا مِن أقبح الْخِصَالِ وأردأِها. وربما نسب مَن كان قبله من العلماء إلى الجهل والغفلة والسَّهْو، فيُوجِب له حُبُّ نفسه، وحُبُّ ظهورِها، وإحسانُ ظنِّه بها، وإساءةُ ظنِّه بمن سَلَف[1].

٣) وقال مبيِّناً حالَ مَن ادَّعى الزُّهْدَ والتصوُّفَ رغبةً في المال والجاه، والشهرةِ والمكانة، والنِّسبة إلى العلماء والأولياء: "وقد اتَّسع الخرقُ في هذا الباب، ودخل فيه قومٌ إلى أنواع الزَّندقة والنِّفاق، وإلى التنقُّص بما جاءت به الرُّسُل من الشرائع، وغيرِ ذلك من أصول الكفر والفسوق والعصيان، وأدخلوا في هذا الطريق أشياء كثيرةً ليست من الدين في شيءٍ مما لم تأتِ به الشريعةُ، فشابه بذلك الذين اتَّخذوا دِينهم لهواً ولعباً[2].

٤ – منشور الهداية في كشف حالِ مَن ادَّعى العلمَ والوِلاية: للشيخ عبد الكريم الفَكون (ت١٠٧٣هـ):

نبذة عن المؤلِّف:

هو عبد الكريم الفكون بن محمد الفكون التميمي القسنطيني، ابن عائلة الفكون ذات التاريخ العريق، وهي تنتمي إلى قبيلة "تميم" العربية، وينتمي إلى هذه العائلة علماءٌ وقضاةٌ مشهورون، وأدباءٌ وشعراءٌ بارعون.

وُلد سنة ٩٨٨هـ بقسنطينة. تثقَّف ثقافةً محليةً عِصاميةً، وقرأ العلومَ على والده أولاً، وحفظ القرآنَ الكريم، ثم درس الفقهَ، والفرائض والكلام والنحو. وكان ذا ذهنٍ وقّادٍ، وطموحٍ عريضٍ، ونفسٍ توّاقةٍ متفوّقةٍ.

جلس للتدريس بالجامع الكبير بقسنطينة، كما ساهم في حركة التأليف حيث ترك مجموعةً طيبةً من التآليف القيمة المتنوِّعة، والتي شَمِلَت الأدبَ والنحو وعلم الاجتماع والدين، ومن أبرز هذه المؤلفاتِ الدينيةِ كتابُ "منشور الهداية في كشف حال من ادَّعى العلم والولاية.

توفي بالطاعون سنة ١٠٧٣هـ، عن عمر يُناهِز ٨٥ سنةً. رحمه الله رحمةً واسعةً، وأغدق عليه شآبيب المغفرة والرضوان، وأسكنه فسيح الجنان، آمين[3].

[1] المرجع السابق، ص٧٣.

[2] المرجع السابق، ص٦٢، ٦٣.

[3] انظر لترجمته "شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون: داعية السلفية" لمؤلفه الدكتور أبو القاسم سعد الله الجزائري.

هذا الكتاب:

وهذا الكتاب كما ذكر مؤلِّفه في مقدمته مبيِّناً دوافع تأليفه له، حيث قال: "فلما رأيتُ الزمان بأهله تعثَّر، وسفائن النجاة من أهوال البِدَع تتكسَّر، وسحائب الجهل قد أضلَّتْ، وأسواق العلم قد كسدتْ، فصار الجاهلُ رئيساً، والعالِمُ في منْزلة يُدعَى من أجلها خسيساً، تمسَّكوا مِن دنياهم بمناصب شرعية، وموَّهوا على العامة بأسماء ذهبتْ مسمّياتها، وأوصافٍ تلاشتْ أهلَها منذ زمان وأعصارها، لبَّسوا بانتحالهم لها على أهل العصر أنهم من أهلها، فما راقبوا المولى أن يُعاجِلهم، ولا خافوا فجأةَ الموت فما بعدها أن تُصادِمهم، كلٌّ ذلك والمولى يُمهِل لهم، فزادوا به تَمَرُّداً وطُغياناً، ولعَمْري لقد نالوا به حِرماناً وخُسراناً.

سطَّرت أناملُهم في قراطيس السِّجلاّتِ ما يُوهِم مَن لم يرهم ممن يأتي في غابر الزَّمن أنهم من حِزب العلماء بل ومِن مشايخهم الأعلَيْن. كلٌّ ذلك والقلبُ مني يتقطَّع غيرةً على حِزب الله العلماء أن يُنسَب جماعة الْجَهَلَة المعاندين الضالِّين المضلِّين لهم أو يُذكَر في معرضهم، فلم آلُ في التنفير منهم والتحذير في كل زمانٍ وأوانٍ، فشرح الله صدري في أن أعتكف على تقييدٍ يُبدي أوارَهم، ويَفضَح أسرارَهم، ويكون وسيلةً إلى الله في الدنيا والأخرى"[1].

ومما سطَّرت أناملُه – منحه الله شآبيب رحمته وأسكنه فسيحَ جناته –:

١) "أُفٍّ ثم أُفٍّ لِمَن لا يَرضى لنفسه عُلُوَّ الْهِمَّةِ، والتَّرَفُّعِ إلى بساط الشرع الأعلى، ويَقذِف نفسَه في مَهْواة العَطَبِ للأغراض الدنيوية! ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦].

٢) وذكر وهو يتحدَّث عما ما آل إليه حالُ المسلمين في مجال التعليم والتدريس، وما دخل هذا المجالَ النفيسَ الشريف من العبث والمتاجرة تحت ما عنونه بقوله: "المتاجرة بتعليم أبناء المسلمين":

وليس العجبُ منهم بأكثر من العجب ممن تمسَّك بطرفٍ من العلم، يجيئون بهم إلى محالِّهم، ويجعلون لهم الأجرَ على الإقراء عندهم، ويُراؤُوْن به الناسَ ﴿ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ [المجادلة: ١٨].

[1] عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حالِ مَن ادَّعى العلمَ والوِلاية، ص١٣٠، ١٣٢.

ثم تَرى أولئك العلماء عندهم يَذُبُّوْنَ عنهم، ويُحلِّلون لهم بأفعالهم التي يأخذون منهم أكثر مِن أقوالهم، أتَرى هؤلاء في حِزب الله! كلاَّ ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٩].

فلو نظروا بنُوْر اليقين؛ واستضاؤوا بسراج الإيمان؛ لعَلِموا أنَّ الطَّلَبَة وما يأخذون هم على الإقراء طُعْمٌ خبيثٌ، وكسبٌ حرامٌ[١].

٥ – نَثْرُ الدُّرِّ وبَسْطُه في بيان كون العلم نُقْطَةً: للعلامة أحمد بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري (ت١٣٢٠هـ):

نبذة عن المؤلِّف:

هو السيد أحمد بن محيي الدين بن مصطفى الحسني المالكي الجزائري ثم الدمشقي، وهو أخو الأمير المجاهد الإمام عبد القادر الجزائري: العلامة المحقِّق.

وُلد في شعبان سنة ١٢٤٩هـ، في "القيطنة" من ضواحي وهران في الجزائر. حفظ القرآنَ الكريم، ثم اشتغل بطلب العلم فقرأ طرفاً من مبادئ الفقه، وجانباً من النحو وعلم الكلام والفقه، ثم أخذ في تكميل تحصيل العلوم والفنون من البيان والمنطق والأصول والتفسير والحديث وغيرِ ذلك. هاجر إلى دمشق مع أفراد أسرته وأقام بها إلى أن توفي.

ومما قيل في وصفه أنه كان شديدَ المحافظة على الجماعة أوّل الوقت، وكان مجلَّلاً عند الخاصة والعامة، محبَّباً للكافة، سَمِحاً بجاهه، مشربُه الحديث الصحيح، والعملُ به، والدعوةُ إلى التمسُّك به والحثّ عليه. أَلُوْفاً وَدُوْداً متواضعاً، حسنَ المحاضرةِ، غزيرَ النادرة، وكان لا يُجيب دعوةَ مَن يَعلَم أنَّ مكسبه حرام.

توفي بدمشق سنة ١٣٢٠هـ[٢]. وله كتابات حسنة في مسائل فقهية وغيرها.

هذا الكتاب:

ذكر المؤلِّف في هذا الكتابِ موضوعاتٍ حافلةً مهمةً تتعلَّق بالعلم والعلماء، وبالأخلاق المصاحِبة لأهل العلم الربَّانيّين، وأنها أَمَاراتٌ دالّةٌ، وعلاماتٌ مُجَلِّيةٌ على كمال أوصافهم، وجمالِ آدابهم من الاقتداءِ بهَدْي الرسول ﷺ، ومتابعةِ سيّدِ الوجود والبَشَر في كل دقيقةٍ وجليلةٍ، والقِيامِ بوظيفة الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكَر، والصَّبْرِ في سبيل ذلك، وتحمُّلِ المشاقِّ لأجله، ثم

[١] عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حالِ مَن ادَّعى العلمَ والوِلاية، ص١٢٨، ١٢٩.

[٢] انظر لترجمته، أبو القاسم محمد الحفناوي الديسي، تعريف الخلف برجال السلف، ج٢، ص٩٢.

عرَّج على بيان حال أهل الادِّعاء ممَّن يَتشبَّهون بهم ظاهراً وبواطنُهم خِلْواً مما يَدّعون عُرْياً عمّا يُظهِرون، ومَن كان هذا حالُه فلن يُفلِح قطُّ، ولن يَدُوْمَ أمرُه ويَستمِرَّ حالُه وهو لم يَنحَطَّ.

وهذا بعضُ ما اقتطفته مما جاء في ثنايا الكتاب عن "التَّعالُم":

١) ذكر – رحمه الله تعالى – وهو يَصِفُ ما عليه بعضُ الطَّلَبَةِ في زمانه ممن إذا سُئل عن أمرٍ وهو لا يَعلَم جوابَ ذاك السُّؤال لكنه يَتعالَم، ويَخشى أن يُنسَب إلى الجهل فيُجيب بالسَّفْسَطَة[١]، والكَذْلَكة[٢]، إذْ قال: "وهذا مُشاهَدٌ في أجوبة بعضِ طَلَبَة زماننا، فإننا رأينا منهم مَن يُجيب بالسَّفْسَطة خشيةَ أن يقول فيما لا يَعلَم "لا أعلم"، ويأخذ السائلُ جوابَه ويَعتمده، وربما يكون في مسألة دينية ويَذهَب مطمئنَّ البالِ، كما يَذهَب هو ثَلِجُ الصدرِ مسرورُه ولا يَحُوْكُ في صدره شيءٌ من خشية الله تعالى بسبب تلك الفتوى، تَكالُباً على طلب نيل الرِّفْعَة، والظهورِ جهلاً ودعوى، حتى لا يُقال في حقِّه إنه سُئِل فلم يُجبْ، ولا يَلتفت لِما وَرَد من التهديد الشرعي بقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[٣]، ولِما ورد عنه أيضاً مِن أنه ﷺ قال: «مَنْ سُئِلَ فأَفْتَى بِغَيْرِ عِلْمٍ فَقَدْ ضَلَّ وَأَضَلَّ»[٤].

٢) وقال – رحمه الله تعالى – في موضع ما نَصُّه: "وليت شَعْري مَن الذي جَرَّأ المجيبين مع علمهم بجهلهم على ما فعلوا حتى زَلَّتْ أقدامُهم، ولدَرْكِ الخُسْران وصلوا، ولم يَخْشَوْا الحقَّ تعالى، ولا التفتوا بقلوبهم إليه، وما جاءهم تلك البَلْوى إلا من الغفلة مع عريض الدَّعوى، وعِظَم أنفسهم عليهم، ونهايةِ جهلِهم وتكبُّرهم، أو من كثرةِ غَباوتهم حتى ظَنَّوْا أنهم لا يَجهَلون شيئاً أصلاً، فذلك هو الذي أوجب طَلْقَ ألسنتِهم، وأصَّم أسماعَهم، وأعمى قلوبَهم، وصَيَّرهم يَتجاسَرون على الفتوى بجهلهم المركَّب الذي عَمَّتْ به البلوى.

ومِن أَعْجَبِ الأشياء أنَّكَ لا تَدْرِي   وأنَّكَ لا تَدْري بأنَّكَ لا تَدْرِي"[٥]

---

[١] هي المغالطة والإتيان بحكمة مضلِّلة، وهي مصدرُ: "سَفْسَطَ يُسَفْسِطُ". انظر: المعجم العربي الأساسي، ص٦٢٦.

[٢] هو قول الْمَرْءِ: "كذلك" وهو مصدرُ: "كَذْلَكَ يُكَذْلِكُ".

[٣] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ، ص٣٨، برقم (١٠٧)، ومسلم في مقدمة الصحيح، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، ص٣، ص٨، عن عليٍّ رضي الله عنه.

[٤] لم أعثر على هذا الحديث بهذه الألفاظ، إنما هو كما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلمَ انْتِزَاعَاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوْساً جُهَّالاً، فَسُئِلُوْا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوْا وَأَضَلُّوْا». سبق تخريجه في الفصل الثاني في هامش المطلب الثاني للمبحث الثاني.

[٥] أحمد بن محيي الدين الحسني الجزائري، نثر الدر وبسطه في بيان كون العلم نقطة، ص٩٩.

وهذه المؤلَّفاتُ في الحقيقة مما ذكره الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله تعالى، وقام بسرد أسمائها في كتابه الحافل الأصيل "التَّعالُم وأثره على الفكر والكِتاب" تحت عنوان "المؤلَّفات في التَّعالُم"[١]. وقد قمتُ بتعريف تلك المؤلَّفات ودراستها في هذا المبحث بإيجازٍ، كما قمتُ باستخراج كلٍّ ما له صلةٌ بموضوع البحث وقضيةِ "التَّعالُم".

****

[١] في صفحة ١٥.

المبحث الثاني:

تَناوُلُ العلماء حديثاً لقضية "التَّعالُم" في مؤلَّفاتهم

ولعلمائنا المعاصرين الأجلاء كتبٌ ومؤلَّفاتٌ نفيسةٌ قيمةٌ، تناولت هذه القضايا الشائكة المعاصرة، التي أقضَّتْ سُهادَ الأمة، ومضاجعَ أبنائها، وأدَّتْ إلى تفاقُم الفوضى وشيوع البلبلة في نشر تراثِها، وخدمةِ ذخائر علومها ونفائس معارفها...، وفيما يلي بعض تلك المؤلَّفات الحديثة المعاصرة التي وقفتُ عليها:

١ – التعليم والإرشاد: للشيخ محمَّد بدر الدين الْحَلَبِيّ (ت١٣٦٢هـ).

نبذة عن المؤلِّف:

هو محمد بن مصطفى بن رسلان النَّعْسَانِي الحلبي، أبو فراس، بدر الدين: الكاتب الأديب الشاعر.

وُلد في حلب سنة ١٢٩٨هـ، وأقام في الأزهر ثماني سنين، وقام برحلة إلى الهند سنة ١٣١٩هـ وعاد إلى مصر بعد عام ونصف، فعمل في تصحيح بعض الكتب كمعجم البلدان وسواه. ورحل إلى تونس والجزائر وطرابلس الغرب سنة ١٣٢٦هـ ثم إلى الآستانة، وعاد إلى حلب مدرِّساً للغة العربية في المدرسة السلطانية. وعهدت إليه السلطة العسكرية العثمانية في خلال الحرب العامة الاولى بإصدار جريدة "الحجاز" بالمدينة المنورة، فذهب إليها وأصدر الجريدةَ ستة أشهر، ورجع إلى دمشق فكتب في جريدة "الشرق" واستقرَّ بعد الحرب العامة في حلب محرِّراً لجريدتها الرسمية مدةً قصيرةً، ومدرِّساً في مدرستها "التجهيزية".

توفي بحلب سنة ١٣٦٢هـ. قال الزركلي في وصفه: "كان فيه انقباضٌ عن الناس، مع ظرف وحُسْن عشرة لمن يألف".

وله مؤلَّفات في التربية والتعليم وقواعد اللغة العربية وآدابها[١].

هذا الكتاب:

موضوع هذا الكتاب وكما صرَّح بذلك مؤلِّفه الفاضل إذ يقول: "موضوع الكتاب عن حال التعليم والإرشاد والدعوة في الإسلام، وما طرأ على هذه الوظائف الثلاث من الضعف

[١] خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٧، ص١٠٢.

والاضمحلال والنظر في الأمراض التي طرأتْ على جسمها، فأصارتْها إلى مثل ما نراها عليه، والنظر في الأدوية التي يُمكن بواسطتها استنقاذُها من مخالب هذه الأدواء التي أصابتها"[١].

ومن أحد الأغراض والمقاصد – التي ذكرها المؤلِّفُ – التي بنى عليها كتابَه هو: "بيانُ حقيقة المؤلَّفات التي يشتغل بها طلابُ العلوم الشرعية، وذِكْرُ النافع منها من غيره، والإشارةُ إلى ما يجب الاشتغال به من الكتب الجيدة النافعة، فإنَّ الكتاب أحد الأستاذَين، وهو المعلِّم عند غَيْبَة المعلِّم، فمهما حَسُنَ؛ حَسُنَ عنه الأخذُ، وكَثُرَتْ منه الاستفادة. وكما أنَّ الطالب أوَّلُ ما يُسأل عن أستاذه الذي أخذ عنه، كذلك يُسأل عن الكتاب الذي تلقَّن منه، فإنْ كان من الكتب العالية عَلَتْ مرتبةُ الآخذ منه، وتنحطُّ مرتبتُه بقدر انحطاط مرتبة الكتاب في نوعه"[٢].

ويقول في موضع آخر: "كما أننا لم نقصد بشيءٍ مما كتبناه في انتقاد المؤلِّفين ومؤلَّفاتهم، وذكرِ بعض معايبها، انتقاصَ أحدٍ أو الحطَّ من مقام مؤلِّفٍ؛ وإنما الغرضُ إقامة الحجةِ على أنَّ تلك المؤلَّفات ليست مما يجب الاعتناء به، بل مما يجب طرحُه وهجرُه لكونها قاطعةً عن العلم"[٣].

ويقول – رحمه الله تعالى – في تمهيد كتابه ما نصُّه: "والناظرُ إلى الدين الإسلامي اليوم يرى إنْ كان من أهل البصر أنَّ وظائف التعليم والإرشاد والدعوة – وهي أهَمُّ وظائف في الأمة – قد أصبحت معتلَّةً مختلَّةً بحيث أصبحت تستحقّ نظرَ رحمةٍ وحنانٍ، من الذين يودّون ارتفاع شأن الإسلام بين الأديان.

فوظيفةُ التعليم أصبحت عقيمةً، بما اعترى جسمَها من الأدواء، فما تكاد تُنتِج شيئاً، ولو أردنا أن نُحصي عدد الناجحين من أولئك المستعدّين لتعلُّم العلوم الدينية نجاحاً نسبياً؛ لم يكونوا أكثر من واحدٍ في كل مئة، ولو طلبنا الناجحين حقيقةً، الذين يمكنهم القيامُ بوظيفة التعليم؛ لم يكونوا أكثر من واحدٍ في الألف، إنْ كَثُرَ عددُهم.

وهذا الإحصاء وإنْ كان مبنياً على التخمين وغلبة الظَّنِّ إلا أنَّ له من الشواهد ما يؤكِّد صِحّتَه ومطابقتَه للواقع أو قُرْبه منه.

وأمَّا وظيفة الإرشاد فبعد أن كانت من أهمِّ الوظائف الدينية، ومصلحةً من أجَلِّ مصالحه؛ صارت من أكبر المفاسد حتى صار من أوجبِ الواجبات على رؤساء المسلمين وأهل الكلمة النافذة فيهم، والأمرِ المطاع بينهم: إعدامُ هذه الوظيفة مؤقَّتاً، ريثما يتمكَّن الناظرون في

---

[١] محمد بدر الدين الحلبي، التعليم والإرشاد، ص١.

[٢] المرجع السابق، ص٦.

[٣] المرجع السابق، ص٧، و٨.

إصلاح شأن الإسلام من تحسين حالها، وردِّها كما كانت، وغُصْنُ الإسلام على نضارته؛ فلقد تموت كلَّ يومٍ بسبب هذه الوظيفةِ سُنَّةٌ، وتَحيا بدعةٌ، وينتشر عنها من الخرافات المفسدة للعقل والدين ما لا يُحصيه إلا الله.

وأمَّا وظيفة الدعوة فقد ارتفع من بيننا نحن المسلمون اسمُها ومُسَمَّاها، ولا أدري متى فارقت هذه الوظيفةُ الحياةَ، وإن كنتُ أجزِمُ أنها آخرُ الوظائف الثلاث اعتلالاً وموتاً، ووظيفةُ الإرشاد أوّلهن اعتلالاً وموتاً"[١].

وقد ضرب المؤلِّفُ الفاضل لهذا مثلاً رائعاً مطابقاً لِما عليه واقعُنا المعاصر اليوم، وإليك هذا المثالَ كما ورد في كلامه النفيس: "إنَّ أمير المؤمنين عليّاً – رضي الله تعالى عنه – حين دخل مسجدَ الكوفة الجامع؛ أمر بإخراج مَن به من الوُعَّاظِ، ومَنَعهم مِن وعظ العامَّة غيرَ الحسنِ البصري، فإنه لما وقف عليه وسمع كلامَه أُعْجِبَ به، فاستبقاه و لم يمنعه.

وغيرُ شَكٍّ أنَّ علياً ﵁ لم يَأمُر بإخراجهم من المسجد ومَنَعِهْم من الوعظ إلاَّ وقد سمع من كلامهم ما لا ينطبق على الدين؛ فرأى أنَّ المصلحة في إخراجهم، وفي تركِهم مفسدة دينية، يجب اتِّقاؤها"[٢].

فهذا هو محتوى هذا الكتاب العلمي القيّم النفيس، المرقَّم بأنامل العلامة الفاضل الجليل الشيخ بدر الدين الحلبي، والذي قدَّم فيه ما عليه أوضاع التعليم في بلاد المسلمين، والكلام حول المؤلَّفات الجيِّدة منها والرديء، وشرح أسباب انحطاط العلوم الشرعية، وغيرَ ذلك.

ومما هو جديرٌ بالاقتباس من هذا الكتاب مما يتعلَّق بموضوع هذا البحث – وإن كانت هذه الاقتباساتُ مجرَّدَ نُتَفٍ وإشاراتٍ، لكنها نافعةٌ جداً، وقيمةٌ حول هذا الموضوع – وها هي تلك الاقتباسات:

١) قال – رحمه الله تعالى – في مقدِّمة كتابه المذكور: "قال أبو حامد[٣] في جملة كلامٍ له على العلوم وتدوينها من كتاب (الإحياء) ما معناه: أنَّ هذه العلوم التي نراها اليوم مدوَّنةً منشورةً بين الناس، لم يُدَوَّنْ أكثَرُها لخدمة الدين والمسلمين، وإنما كان الغرضُ منها خدمةَ الملوك والسلاطين، والتزلُّفَ إليهم، وطلبَ الحظوةِ عندهم. فلو كان في العصر مَلِكٌ من الملوك يحبّ لعبَ الكُرَةِ لألَّف له العلماء في ذلك كتباً.

---

[١] المرجع السابق، ص١٠، ١٣.

[٢] المرجع السابق، ص١٢، ١٣.

[٣] هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد (٤٥٠ – ٥٠٥هـ): حجة الإسلام: فيلسوف، متصوف، مولده ووفاته في "الطابران" (قصبة "طوس" بخراسان). رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته. له نحو مئتي مصنَّف. ومن أشهرها: "إحياء علوم الدين". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٧، ص٢٢.

وهذا ما لا نُنكره على أبي حامد، فلقد رأينا في عصرنا من أهل العلم مَن إذا عُرِضَت له مسألةٌ من مسائل الدين، وكان لأميرٍ غرضٌ في تصريفها على وجهٍ من الوجوه؛ وافقوه على ذلك، وجعلوا ما يذهب إليه الأمير مِن هَوًى، ديناً وشريعةً، وتأوَّلوا لذلك التآويل، وحرَّفوا نصوص الدين تحاشِياً عن خلافه"[1].

٢) وذكر – رحمه الله تعالى – في هذا الكتاب الحافل بكثيرٍ من قصص ومواقف أهل الادِّعاء للعلم والاجتهاد أحدَ مواقفهم قائلاً: "فلما كنتُ في الهند عام ١٣١٩هـ، دُعِيْتُ إحدى ليالي رمضان لتناوُل طعام الإفطار، وكان في جملة المدعوين رجلٌ من علماء نَجْدٍ، يرى أنه من المجتهدين، وله مِن أهل وطنه مَن يرى قولَه حجةً، فلما وُضع الطعامُ؛ مَدَّ المجتهد يدَه إليه، فقلتُ أمسكْ، فلم يَحِنِ الوقتُ والشمسُ لم تَغرُب بعد. فقال: أرى أنَّ الشمس قد غَرُبَتْ، وأنَّ الوقت قد حانَ، وما كنتُ لأقلِّد أحداً. وأهوى بيده فأكل، ونحن لا نشكّ في عدم دخول وقت الغروب"[2].

وبعد هذا، "قلتُ – أي المؤلِّف – أنَّ الحجر على أمثال هؤلاء إنْ لم يكن فيه سِوى كفّ مثل هؤلاء الحمقاء عن وُلُوْج هذا الباب، ومزاحمةِ العلماء العقلاء الفضلاء؛ لكفى ذلك داعياً إلى اختياره وترجيحه، لا سيما أنَّ درأ المفاسد مقدَّمٌ على جلب المصالح"[3].

٢ – نموذج من الأعمال الخيريّة في إدارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٩هـ: للشيخ محمد منير عبده آغا الدمشقي (ت١٣٦٧هـ).

نبذة عن المؤلف:

هو الشيخ محمد منير بن عبده آغا النقلي الدمشقي الأزهري: من علماء العصر الذين لهم فضلٌ في طبع كتب السلف ونشرها. تفقَّه في جامعة الأزهر سلفياً، وأصبح من علمائه. وأنشأ داراً للطباعة سنة ١٣٣٧هـ في القاهرة، والتي اشتهرت فيما بعد بـ"دار الطباعة المنيرية"، وقد نشر فيها كثيراً من المصنَّفات القديمة والحديثة.

توفي بالقاهرة. ومن مؤلَّفاته: "إرشاد الراغبين في الكشف عن آي القرآن المبين"، وهذا الكتابُ الذي نحن بصدد تعريفه الآن[4].

---

[1] محمد بدر الدين الحلبي، التعليم والإرشاد، ص٥٢.

[2] المرجع السابق، ص١٢٨.

[3] المرجع السابق، ص١٢٩.

[4] انظر لترجمته: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٧، ص٣١٠.

هذا الكتاب:

هذا الكتاب في الحقيقة عبارةٌ عن فهرسٍ لِما طُبع في "دار الطباعة المنيرية" من كتبٍ علمية قيمة، وأسفارٍ ضخمة نفيسة، وآثارٍ لعلماء السلف نافعة جليلة، حيث يشتمل هذا الكتابُ على أسماء تلك الكتب والآثار، ووصفٍ لِما يتضمَّنه كلُّ كتابٍ مع بيان مكانة مؤلِّفه العلمية وغير ذلك، وكلُّ ذلك في عبارة سهلة مُوجَزة، ترغيباً في العلم، وحثّاً عليه.

وقد وصف الشيخ عبد الفَتّاح أبو غُدَّة هذا الكتاب وصفاً جيداً يجدر بي نقلُه هاهنا، إذ يقول رحمه الله تعالى: "وهذا الكتابُ قَلَّ من يتنبَّه لجلالته وإفادته، فإنَّ الذي يظهر مِن اسمه أنه فهرسٌ مجرَّد لمنشورات (إدارة الطباعة المنيرية)، وليس الأمرُ كذلك؛ بل الكتابُ يشتمل على فوائدَ كثيرة حول العلم والعلماء، وحالِ الطباعة والتصحيح في عصر مؤلِّف الكتاب، وتقسيمِ باعة الكتب في العالَم في عهده، وتراجم طائفة كبيرة من تُجّار الكتب من العلماء، ثم البحثِ الواسع الْمُشبِع عن كل من علم التوحيد، وعلم التفسير، وعلم الحديث والسنة، من شَتّى النواحي، مع ذكر ما طُبع في الإدارة المذكورة من كتب هذه العلوم، والكتابُ ممتعٌ في بابه ونافعٌ للغاية"[١].

وقد صدَّر المؤلِّفُ الفاضلُ هذا الكتابَ بمقدمةٍ علميةٍ ضافيةٍ، ذكر فيها عن فضل العلم، وما جاء فيه من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، وأقوال الصحابة والتابعين، وكلام الشعراء والحكماء والأدباء.

ثم عرَّف المؤلِّفُ بالعلم وأهميته في حياة المسلمين، وبشِدَّة حاجة الناس إليه، وكيفيةِ تلقِّيه وتحصيله، ثم تكلَّم عن حالة التعليم في العصر الحاضر، وما حصل فيه من تَدَهْوُرٍ وانحطاطٍ بعد أنْ كان مُورِقاً مُثمِراً مُزدهِراً.

ثم عرَّج إلى بيان طُرُق إصلاح التعليم، وشِدَّةِ حاجة ذلك في الوقت الراهن، ثم تعرَّض لبيان حال علمائنا في الزمن الحديث، وسببِ تفريطهم فيما يجب عليهم من العمل والسعي خوفاً من اتِّساع الخرق واستفحالِ الأمر.

ثم أتبع ذلك بحال الطباعة في عصرنا الحاضر، وحالِ التصحيح، وحالِ باعة الكتب وتُجَّارِها، وما يتعلَّق بذلك من أمورٍ لها مساسٌ بالعلم وتوابعه...

أمَّا ما يتعلَّق بموضوع بحثنا هذا، فهاك مما اقتبستُه من صفحات – هذا الكتاب – المشرقة، وهذا مما اقتطفتُه من أزاهير – هذا البستان – النيِّرة:

---

[١] انظر حاشية مقدمة التحقيق لكتاب "ظفر الأماني بشرح مختصر السيد الشريف الجرجاني في مصطلح الحديث" للشيخ عبد الحي اللكنوي، ص٩.

(أ) ذكر – رحمه الله تعالى – وهو يحكي عن وضع الطباعة في مصر في عصرنا الحاضر، وما آلَتْ إليه حالُه إذ يقول: "وحالُ الطباعة في عصرنا الحاضر هي في تقدُّمٍ محسوسٍ، إلا أنها لم تزل في نقصٍ، فلم تصل إلى الغاية المطلوبة لأمورٍ:

أولاً: أنَّ غالِب عُمّالها غيرُ طلابِ علمٍ، بل ولا متعلِّمين؛ لأن شرط دخول هذه الحرفة والانتساب إليها أن يخرج عاملُها من الأمية، فلذلك يُكتفى به أن يقرأ الخطَّ المطبوع كيفما كان! هذا إذا كان يريد أن يتعلَّم العاملُ صفَّ الحروفِ، وأما إذا أراد أن يتعلَّم صنعةَ الطبعِ فقط، فيُقبَل ولو أُمِّيّاً لا يقرأ ولا يكتب، ولذلك يتطرَّق الخللُ كثيراً إلى كتب العلم والمجلاَّت الأدبية.

ثانياً: أنَّ أصحاب المطابع ليسوا من المتعلّمين الرَّاقين، المتخرِّجين من المدارس الفنية، التي تُؤَهِّلهم لأن يكونوا رؤساءَ هذه المهنة الشريفة، بل يكتفي أحدهم بمعرفة تلاوة أيِّ روايةٍ من الروايات الهزلية أو الجِدِّيَّة، بل ربما كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وينيط العملَ بأحد عُمّالِه، فلا يكون مسؤولاً عما يَحدُث من الإخلال في الصنعة، والتشويهِ في الوضع، والتصحيفِ في المسائل العلمية"[1].

(ب) وذكر حالَ باعةِ الكتب العربية وتُجَّارِها إذ قال: "أمّا باعةُ الكتب العربية فتنقسم إلى أنواع ودرجات، نبيِّن أوصافهم واستعدادهم ليتميَّزوا، وتُعرَف مكانةُ هذه المهنة الرفيعة، وشرفِ أصحابها، وفضلِ المشتغلين بها، من أهلها والدخلاء فيها، العابثين بها من غير أهلها، فنقول: هذه الصناعةُ هي أفضَلُ الصناعات على الإطلاق، وشَرَفُها يفوق جميعَ الْمِهَن والحِرَف، إذ بها نشرُ العلوم وتعميمُ النفع، وبها ترتقي الأممُ، وتَسْمُوْ مكانتُها، ويُعِزّ مجدُها، لا سيما إذا صَحِب العلمُ العملَ فلا تَسَلْ عن امتداد سطوتها، وعظمةِ سلطانها، وينقسم المشتغلون بصناعة الكتب طبعاً ونشراً، وبيعاً وشراءاً، أقساماً أربعة[2]:

القسم الأول: أُمِّيون: لا يقرؤون، ولا يكتبون، وقد أدركتُ في عصرنا هذا أفراداً منهم، أخُصُّ منهم بالذكر بعضَهم ليُحيط أهل العلم معرفةً بمن دخل

[1] محمد منير عبده آغا الدمشقي، نموذج من الأعمال الخيرية في إدارة الطباعة المنيرية، ص٧٢، ٧٣.

[2] هاهنا قمتُ بذكر القسمَين الأوّليين فقط، ومن أراد الاستزادةَ معرفةَ القسمين الآخرين فليرجع إلى الكتاب المذكور من صفحة ١٨٠، إلى صفحة ١٠٦.

هذه المحنة الشريفة وليس من أهلها، لذلك كسدتْ سوقُ الكتب العلمية النافعة، وقَلَّ نشرُها[١].

القسم الثاني: عوامٌ: أي يقرؤون ويكتبون، وليسوا بمتعلِّمين، ولا علماء، وهؤلاء كثيرون جداً في جميع الممالك الإسلامية، والبلاد العربية، وهم أغلَبُ باعةِ الكتب، وأكثَرُهم ثروةً، وأقدَمُهم صنعةً، وأجرَؤُهم نشراً للكتب التي تَرُوْج بين غالب أهل الإسلام، وهؤلاء أهلُ مادةٍ فقط، فكلما رأووا كتاباً – كَثُر طلابه، وتكرَّر استجلابه، وقامت سوقه – تهافتوا عليه تهافُتَ الفَراشِ، بدون نظرٍ لنفعه أو ضَرِّه، وصِحَّتِه وسُقْمِه، حتى أنهم ربما نسبوا الكتابَ إلى غير مؤلِّفه وغيَّروا اسمَه، وزِيْدَ عليه اسمٌ آخر مخترَعٌ، يرغِّب سامعَه، ويشوِّق شاهدَه، وليس بغريبٍ من أمثال هؤلاء العوام مثل ذلك، بل الذي يُعجَب منه، ويُستَهْجَن: إقرارُ العلماء على ذلك، وإصرارُهم على السكوت، وعدمُ التعرُّض لذلك كتابةً ونشراً، ولو نبَّه العلماء على ذلك، وبيَّنوا أنَّ هذا تصرُّفٌ وخيانةٌ، فما للغير بغير إذنه لا يجوزان بحالٍ؛ لارْتَدَعَ الناشرُ والطابع والمنفق، ولما تجاسَر أحد على مثل ذلك، وإذا لم يكن العلماء يُحافِظون على مثل هذا، وينبِّهون عليه، فمن المكلَّفُ بذلك؟ فإنا لله وإنا إليه راجعون[٢]"[٣].

٣ – سِرُّ انحلال الأُمّة العربية ووَهَنُ المسلمين: للعلامة الشيخ السيد محمد سعيد العُرْفي (ت١٣٧٥هـ):

نبذة عن المؤلِّف:

هو محمد سعيد العُرْفي: العالِم المجاهد، الأديب الأريب، المؤرِّخ المؤلِّف.

وُلد عام ١٣١٤هـ، في مدينة "دَيْرَ الزُّوْر" قاعدة محافظة "الفُرات". درس في المدرسة الابتدائية بدير الزور، فالمدرسة الرُّشْدِيّة، وأجازه العلامة حسين الأزهري والمحدِّث الشيخ بدر الدين الحسني وغيرهما بدمشق، انتخب عام ١٩٤٢م عضواً في المجمع العلمي بدمشق.

---

[١] وقد ذكر المؤلف أمثلةً عديدة لهؤلاء الذين دخلوا هذه المهنة الشريفة بلا أي أهلية، ولمعرفة المزيد يُرجَع إلى صفحات ٧٦، و٧٧.

[٢] فقد نبَّه المؤلف على بعض الكتب التي غُيِّرَتْ وحُرِّفَتْ بسبب جهلِ باعة الكتب، وانظر الصفحات ٧٨، و٧٩، و٨٠.

[٣] محمد منير الدمشقي، نموذج من الأعمال الخيرية، ص٧٨.

ساهم في الثورة العربية الكبرى، وحارب الفرنسيين حرباً لا هوادة فيها، فسُجن مدةً ثم أُبْعِدَ منفياً إلى أنطاكية ومصر من عام ١٩٢٢م إلى عام ١٩٣١م.

زار أكثرَ البلاد العربية، وله صداقات متينة مع أكثر رجالات الأمة العربية، وساهم في بناء كثير من الجوامع و المكتبات ودورِ الأيتام والجمعيات الخيرية وغير ذلك من الأعمال النافعة.

كان خطيباً مفوَّهاً، وكاتباً بارعاً، أَبِيّاً كريماً، وجواداً عفيفاً. كان يُجيد اللغةَ التركيةَ إجادةً تامةً، ويُلِمّ باللغتين الفارسية والأردوية.

كان له فضلٌ كبيرٌ في محاربة البِدَع والخرافات والطُّرُق الصوفية، وفي محاربة التعصُّب المذهبي، كذلك له دورٌ كبيرٌ في جمع كلمة المسلمين وفي تحرير الفكر الإسلامي وجعلِه متمشِّياً مع متطلّبات العصر الحديث.

توفي عام ١٣٧٥ه إثر مرضٍ عُضالٍ[١]. وله العديد من الكتب في الفقه والسيرة، والفكر والثقافة وفي مختلف الفنون والآداب والمعارف، منها هذا الكتاب: "سِرُّ انحلال الأمة العربية ووهنِ المسلمين"، و"مبادئ الفقه الإسلامي"، و"موجز سيرة خالد بن الوليد ﷺ" وغيرها.

هذا الكتاب:

وهذا كتابٌ عظيمٌ نافعٌ جليلٌ، سطَّر المؤلِّفُ فيه بقلمه البارعِ الأريبِ أسبابَ انحطاط المسلمين وضَعْفِهم، وأسرارَ فُرْقَتِهم وشَتَاتِهم، وبَحَث عن دوافع انحلالهم ووهنهم، وعِلَل تخلُّفهم وتراجُعهم عن حضارتهم الباهرة العريقة، ومجدِهم الغابر التَّليد، وماضيهم المشرق القديم، فوجد تلك الأسبابَ والأسرارَ تَكمُن في مصائب شتّى، وبلايا مختلفة، ومِحَنٍ متفرِّقة، افتُتِن بها المسلمون، مما آل بهم إلى هذه الحال المخزِية والواقع الأليم...

يقول المؤلِّف رحمه الله تعالى: "ولما كانت الحال تنتقل من سيِّيءٍ إلى أسوأ، والخطرُ في ازديادٍ؛ دفعتني الغيرةُ إلى حصر الفكر في هذه الشؤون والتدبُّر فيها لعلّي أتوصّل إلى العلم بأسباب ترويج الوسائل والعوامل الحقيقية التي أَوْجَدَتْ هذه الأحوالَ الحاضرة المؤلِمة، فجمعتُ من ذلك ما استطعتُ العثور عليه من الوقائع التاريخية، ومما كشفه الدهرُ وفضحتْه الأيامُ"[٢].

ومن تلك الأسباب التي ذكرها المؤلِّف، والتي كانت أموراً أساسيةً، وعواملَ هامّةً، لانحلال الأمة ووهنِ المسلمين:

---

[١] انظر لترجمته: الزركلي، الأعلام، ج٦، ص١٤٤، وأدهم الجندي، أعلام الأدب والفن، ج٢، ص٣١.

[٢] محمد سعيد العرفي، سر انحلال الأمة العربية ووهن المسلمين، ص٧، ٨.

١) بُعْدُ العلماء عن منصب الإمامة وزمام القيادة:

وفيه يقول: "وكثيرٌ من العلماء تركوا مناصب الإمامة وزمامَ القيادة تمسُّكاً بالرأي القائل: (مَن تقرَّب من السلطان ذهب ثُلُثُ دينِه)، ولم يعلموا أنهم بهذا الرأي الفاسد قضوا على دين الإسلام من حيث لا يشعرون".

"ولم يعلم أولئك العلماء أنهم آثِمون ومسؤلون لدى الله والناس بتركهم الأمرَ لغير أهله، من ذوي الجهل والفِسق إلى أن ضَعُف شأنُ العلم والعلماء، وأصبحوا موضع سُخريةٍ لهم، ومثالاً للحماقة والبَلَه، فاضطرُّوا إلى أن يعيشوا بمعزلٍ عن العالَم وهم فيه، وابتدعوا العُزلة ليتملَّصوا من واجب السعي والعمل"[١].

٢) الانخداعُ ببريق الألقاب الزائفة والعناوين اللامعة:

وعنه يقول: "انخدع الناسُ بهما كثيراً، اعتقاداً منهم أنَّ العنوان ذا اللقبِ الجيِّدِ دليلٌ على حُسْن الموضوع، فيتوهَّمون نَفْعَ كلِّ ذي عنوانٍ ضخمٍ لزعمهم أنَّ الواضع ما كان ليضع هذا العنوانَ لولا ما يستحقّه، وما يَنجُم عنه من الأثر الجليل، ومثلُ ذلك الشخص الشهير فإنَّ الجاهل يَغترّ به، ويَعتقِد أنه أهلٌ لذلك، وإلا لَما نال شهرةً، أو مُنِحَ رتبةً، وما دام ذلك المخادِعُ يَستُر تملُّقَه وجَرْبَزَتَه، فإنَّ الناس لا تَلتفِت إلى ماضيه.

يا قوم! كيف يَسُوْغ أَخْذُ علمٍ أهمله صاحبُه؟ ومِن أين لنا أنه الحقُّ؟ ألاَ يَحتمِل أنه يَسخَر بنا؟ ولكنه يتكلَّم مُماشاةً للظروف، وترويجاً لمنافعه، أو مُجاراةً لغيره.

لِم لا نقول لهذا المخادِع: (كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً؟)، وهل مثلُ هذا يقود الأمةَ إلى غير الكذب والنِّفاق والْخَوَر وضَعْف العزيمة؟!"[٢].

٣) فُقْدان المنهج العلمي الصحيح في تحصيل العلوم والمعارف:

وعنه يقول: "لا مانِعَ أن يَلعَب المعلِّمُ ما شاء، وأن يقرِّر ما أراد، وأن لا يَكترِث بطلاب العلم في المعاهد باسم حفظِ النِّظام عملاً بالقانون الذي وُضع للقضاء على العلم، ولهذا لا يُبالي المعلِّمُ بالدرس، وكثيراً ما يأتي غيرُ مستعدٍّ له بل ولا علمَ له بما سيقرأ إذا لم يَدُلَّه الطلابُ على المحلِّ الذي وقف عليه الأمس، ولا يَقدِر التلميذ على أن يُناقِشه لأنه يَردَعه بما شاء مِن سَبٍّ وشَتْمٍ أو طردٍ إذا عارضه بجِدٍّ؛ لأن قول المعلِّم هو المصدَّق ما دام موظَّفاً! والوظيفةُ بمثابة رُوْحِ قُدْسٍ حَلَّتْ فيه، فانقلبت حقيقتُه إلى أخرى"[٣].

---

[١] المرجع السابق، ص١٢٢.

[٢] المرجع السابق، ص١٨١.

[٣] المرجع السابق، ص١٨١.

ويقول: "نعم! إنّ الشهادة لا بُدّ منها ليُمَيِّز باذلُ الجهدِ في تحصيل العلوم من الكَسُول، ولذلك يجب أن تُعطى لِمَن صارتْ فيه قابليةُ الرُّقِيّ إذا سَعَى واجتهد لنفسه، ولكن الآية انعكست، فأصبح حامِلُها يحتمي بها، ويُقيم الْحُجَّةَ على علمه بها، لا أقول: وإنْ كان لا يَفقَه شيئاً؛ لأنَّ هذه جملة (إنَّ المحاكم لبالْمِرْصاد لقائلها)، فترى طالبَ العلم يجتهد لينال الشهادةَ بعلم أو بغيره، ثم يسلِّم على كتبه سلاماً لا تَلاقِيَ بعده، إلا أن يُنصَب مدرِّساً فيُراجع ما يحتاج إليه، ولو ذكرتُ مفرَدات الوقائع لاستغربها القارئ، ورآها أشبهَ بالخيال مع أنها الواقع الثابت"[1].

٤) إيداعُ الأمور إلى غير أهلها اللاَّئِقين بها وأصحابها المستحقِّين لها:

يقول رحمه الله تعالى: "إيداع الأمور إلى غير أهلها مرضٌ يمزِّق شملَ الأمةِ ويتركها بيد الجهل والعسف، الذي يَئِدُها في بُؤْرَة الهلاك، وانتشاره بين أمةٍ إعلانٌ عن ذُلِّها، لِما يَلزَم عنه من احتقار النافع وجَعْلِه تحت سُلطة الضَّارّ، والاستهتارِ بالحسن ووَضْعِه تحت نفوذ القبيح، والاستهانةِ بالعلم، وتحكيمهم الجهلَ فيه.

وعلى قدر تفشِّيه يكون هُبوط الأمة واضمحلالها رغماً عن وجود أنظمة وقوانين عادلة لها، ما دام تنفيذُها بيد مَن لا يَفقَهها؛ ولذلك لم يَرِدْ في ذَمّ شيءٍ من الأمراض النفسية ما وَرَد في هذا المرض الذي يَنخُر عِظَامَ الأمةِ، فهو رمزٌ لانتصار الجهل على العلم، والرذيلة على الفضيلة، وهو علامةٌ بقُرْب الساعة؛ لأنه يَفتِك في الشرائع الإلهية، ويمزِّق النُّظُمَ الاجتماعيةَ، ويَدَع الأمةَ تُشبه غنماً تَرْعاها ذِئابٌ شَرِهَةٌ، وبعبارةٍ أصرَحُ معنى: (إيداع الأمور إلى غير أهلها): جنون الأمة بقلّة عقلائها المغلوبين على أمرهم فلم تُسلِّم قيادَها لرشيدَين يَقُودانها إلى الخير والسعادة.

وإنَّ أمةً لا تفرِّق المصلِحَ من المفسد لهي سائرةٌ إلى الهلاك لا محالة؛ لهذا نهانا الشرعُ أن نُحابِي، فنقدِّم أحداً على مَن هو أَوْلَى منه، وعَدَّ ذلك خيانةً، روى الحاكم عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِيْنَ شَيْئاً فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَداً مُحَابَاةً، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفاً وَلاَ عَدْلاً حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ»[2]"[3].

---

[1] المرجع السابق، ص٢٠٠.

[2] أخرجه الحاكم في المستدرك، ج٤، ص١٠٥، برقم (٧٠٢٤)، وأحمد في المسند، ج١، ص٢٠٢، برقم (٢١)، عن أبي بكر الصديق ﷺ، وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرِّجاه".

[3] محمد سعيد العرفي، سر انحلال الأمة العربية ووهن المسلمين، ص٣٥٥.

٤ – زَجْرُ السُّفهاء عن تَتبُّع رُخَص الفقهاء: للشيخ جاسم الفُهَيْد الدَّوْسري.

نبذة عن المؤلِّف:

الشيخ جاسم الفهيد الدوسري: أحدُ كبار علماء الكويت، وله نشاطٌ ديني كبير هناك من خلال إلقاء الدروس والمحاضرات، كما أنَّ له كتب ورسائل مفيدة في موضوعات مختلفة[١].

هذا الكتاب:

وهو عبارةٌ عن رسالة صغيرة لطيفة، وقد ذكر المؤلِّف في مقدمتها عمّا دفعه إلى كتابتها حيث قال: "فإنْ عَدُوّ الله إبليس – أعاذنا اللهُ وإياكم منه – ما بَرِحَ يسعى في إغواء العِباد وإضلالِهم عن طريق الحقِّ، وجادةِ الصَّواب، فبَثَّ سراياه وأعوانَه من الجِنِّ والإنس ليُزَيِّنوا الباطل في أَعْيُن الناس ويُوقِعوهم في حُرُمات الله.

ومِن هذه الأبواب التي فتحها الشيطانُ على مِصْراعَيْها للتلبيس على العِباد بابُ تتبُّع رُخَصِ الفقهاء وزَلاَّتِهم، وخَدَع بذلك الكثيرين مِن جَهَلَة المسلمين، فانتُهِكَتْ المحرَّماتُ، وتُرِكَت الواجباتُ، تعلُّقاً بقولِ زَيْفٍ، وتمسُّكاً برخصةٍ كالطَّيْف!

فصار هؤلاء الجَهَلَةُ يحكِّمون أهواءهم في مسالك الخلاف دون استنادٍ إلى دليل شرعي، بل تقليداً لزَلَّة عالِمٍ، ولا يخفى عليك ما في هذا من التَّهاوُن بحُدود الشرع وقوانينه.

فهذه الرسالةُ مبيِّنةٌ للأدلة الشرعية على بُطلان هذا المسلك، وأقوالِ أهل العلم في ذمِّه وتحريمه"[٢].

ولنَنْثُر الآن بعضاً مما جاء في هذه الرسالة النفيسة من دُرَر الحكمة ولآلِئ المعرفة:

١) قال حفظه الله تعالى: "لقد ترتَّب على تتبُّع الرُّخَصِ مفاسدُ كثيرةٌ، منها: ذهابُ هيبة الدين فأصبح لعبةً وملهاةً بأيدي الناس، والتَّهاوُنُ بحرمات الشرع وحدوده، وقد ذكر الإمام الشاطبي جملةً من هذه المفاسد: كالانسلاخ من الدين بتَرْك اتِّباع الدليل إلى اتِّباع الخلاف، وكالاستهانة بالدين إذْ يصير بهذا الاعتبار سيّالاً لا يَنضبِط، وكتَرْك ما هو معلومٌ إلى ما ليس بمعلومٍ[٣].

ولم يقتصر الأمرُ على هذا الحدِّ، بل بلغ الأمرُ ببعضهم إلى البحث عن أقوالٍ ساقطةٍ، وآراءٍ فَجَّةٍ؛ ليَرفَعوا – بزعمهم الحرجَ عن كثير من الناس الذين وقعوا في بعض المنكَرات[٤].

---

[١] لم أجد له ترجمة في كتب تراجم الأعلام.

[٢] جاسم الفهيد الدوسري، زجر السفهاء عن تتبع رخص الفقهاء، ص٧، ١١.

[٣] الشاطبي، الموافقات، ج٤، ١٤٧، ١٤٨.

[٤] الدوسري، زجر السفهاء عن تتبع رخص الفقهاء، ص١٦، ١٩.

٢) ومما استدلَّ به – حفظه الله وأنار بصيرتَه بمزيد من العلم والحكمة – على أنَّ هذا الأمر وهو – تتبُّعُ الرُّخَص – لم يكن وليدَ العصرِ الحديثِ بل تتابَع الشكوى منه على مرّ العصور الغابرة، وقد نهض علماء الأمة الربانيين ضِدَّ هذا الأمر لمحاربته ومصارعته حتى يلقى حتفَه... فقال: "ويبدو أنَّ انصراف الناس إلى استفتاء فقهاء الرُّخَص، وانصرافهم عن أهل العلم الصحيح في الدين ممن منعتهم هيبةُ الدين عن التلاعُب بالرُّخَص؛ كان أمراً مستشرياً في الأمة منذ أمدٍ بعيدٍ، فقد شكى بعضُهم إلى الفقيه ابن حجر الْهَيْتَمي[١] أحدَ قُضاة المسلمين؛ لأنه يشدِّد على الناس فلا يَحكُم إلا بالقول الصحيح، ولا يَسلُك بهم مسلكَ التخفيف والترخيص؛ فأجاب – رحمه الله – بقوله: (ما ذُكر عن هذا القاضي إنما يُعَدّ من مَحاسِنه، لا من مساويه، فجزاه الله تعالى عن دِينه وأمانته خيراً، فإنه عديمُ النظير الآن).

وكيف وأكثَرُ قُضاةِ هذا العصر وما قبله بأعصارٍ صاروا خَوَنَةً مَكَسَةً لا يحرِّمون حراماً، ولا يَجتنبون آثاماً؛ بل قبائحهم أكثَرُ من أن تُحصَر، وأظهَرُ من أن تُشهَّر، حتى قال الأَذْرُعِيّ[٢] عن قُضاة زمانه: إنهم كقريبي العهدِ بالإسلام. فإذا كان هذا في قُضاة تلك الأزمنة فما بالك بقُضاة هذا الزمنِ الذي عُطِّلَتْ فيه الشعائرُ، وغلبتْ فيه الكبائرُ، وقَلَّ فيه الصالحون، وكَثُر فيه المفسدون؟!.

فقيامُ هذا القاضي حينئذ بقوانين مذهبه وعدمِ التفاته إلى الترخيص للناس بما لا تقتضيه قواعدُ إمامه يَدُلّ على صلاحه ونجاحه وفلاحه"[٣].

٣) ومما ذكره في ثنايا الكتاب قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ إذ قال: "ثلاثٌ يَهدِمْنَ الدينَ: زَلّة عالِمٍ، وجِدالُ منافقٍ بالقرآن، وأئمة مُضِلّون"[٤].

---

[١] هو أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين، أبو العباس (٩٠٩ – ٩٧٤هـ): فقيه شافعي، ومتكلّم على طريقة أهل السنة. وُلد بمحلة "أبي هَيْتَم" من إقليم الغربية بمصر، وإليها نسبته، وتوفي بمكة. تلقَّى العلمَ في الأزهر، وبرع في علوم كثيرة. وله مؤلَّفات كثيرة. انظر: الزركلي، الأعلام، ج١، ص٢٣٤.

[٢] هو شمس الدين أبو محمد عبد الله بن شرف الدين الأذرعي الحنفي (٥٩٥ – ٦٧٣هـ): قاضي القضاة، وأحد فقهاء الأحناف في عصره. وُلد في دمشق وتوفي بها، ولي قضاء الحنفية، وكان فاضلاً ديناً حسن العشرة. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٥، ص٤٩٦.

[٣] الدوسري، زجر السفهاء عن تتبع رخص الفقهاء، ص٢٠، ٢٢.

[٤] المرجع السابق، ص٣١.

٤) وقال: "وعلى المستفتي أن يستفتي من هو مستوفٍ لشروط الإفتاء علماً ووَرَعاً، ولا يَعمَد إلى أدعياء العلم الذين تصدَّروا الإفتاءَ جهلاً وزُوْراً، أو إلى المتساهلين في الإفتاء من أهل الرُّخَص والحِيَل، فإنَّ هؤلاء يَحرُم استفتاؤهم"[١].

٥) ونقل – حفظه الله تعالى – بعضاً من أقوال علماء الأمة الربَّانيّين الأبرار في نقض هذا الأمر وبُطلانه، ومما ذكر منها:

١ – استُفتِي أبو عبد الله المازَرِيّ المالكي[٢] في مسألة، وطُلِبَ منه الترخيص، فقال: "ولستُ ممن يَحمِل الناسَ على غير المشهور من مذهب مالكٍ وأصحابه؛ لأنَّ الورع قَلَّ بل كاد يُعدَم، والتحفُّظُ على الدِّيانات كذلك، وكَثُرت الشهوات، وكَثُر من يدّعي العلمَ، ويتجاسر على الفتوى فيه، فلو فُتِحَ لهم بابٌ في مخالفة المذهب لاتَّسع الخرقُ على الراقع، وهَتَكُوا حجاب هيبة المذهب، وهذا من المفسدات التي لا خفاءَ بها"[٣].

٢ – وقال أبو عمرو ابن الصَّلاح[٤] في بيان تساهُل المفتي: "وقد يكون تساهُلُه وانحلاله بأن تَحمِله الأغراضُ الفاسدةُ على تتبُّع الحِيَل المحظورة أو المكروهة، والتمسُّكُ بالشُّبَه طلباً للترخيص على مَن يَرُوْمُ نفعُه، أو التغليظُ على من يريد ضُرَّه، ومَن فعل ذلك فقد هانَ عليه دينُه، ونسأل الله تعالى العافيةَ والعَفْوَ"[٥].

٥ – جهود المعاصرين في خدمة السُّنّة النبوية: للأستاذ محمد عبد الله أبو صُعَيْلِيْك:

نبذة عن المؤلِّف:

هو الأستاذ محمد عبد الله أبو صُعَلِيْك: المؤلِّف المحقِّق، وأحد العلماء المشهورين في الأردن، وله مؤلفات قيمة في موضوعات مختلفة، ومن أهمِّهما: "ابن حزم وآراؤه في علوم القرآن والتفسير"،

---

[١] المرجع السابق، ص٤٠.

[٢] هو محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي، أبو عبد الله المازري المالكي (٤٥٣ –٥٣٦هـ): الفقيه المالكي المحدِّث، عُرف بالإمام. أصلُه من "مازَر" مدينة بصقلية. كان أحد رجال الكمال في العلم في وقته، ومن مصنفاته: "المعلم بفوائد مسلم وهو شرح لصحيح مسلم". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٦، ص٢٧٧.

[٣] الدوسري، زجر السفهاء عن تتبع رخص الفقهاء، ص٥٨، ٥٩، نقلاً عن "الموافقات"للشاطبي، ج٤، ص١٤٦.

[٤] هو عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين الشَّهْرَزُوْري، المعروف بابن الصلاح (٥٥٧ – ٦٤٣هـ): من أكابر علماء الحديث وفقهاء الإسلام. وُلد في "شرخان"، بلد قرب "شهرزور". تفقَّه على والده، وسمع من أبي المظفر بن السمعاني وابن عساكر وغيرهما. وُلِّي التدريس في دار الحديث الأشرفية بدمشق وتوفي بها. ومن أشهر مصنَّفاته: "معرفة أنواع علوم الحديث"، (الذي يُعرف بمقدمة ابن الصلاح"). انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٤٣٠.

[٥] الدوسري، زجر السفهاء عن تتبع رخص الفقهاء، ص٥٨، ٥٩، نقلاً عن "آداب المفتي" لابن الصلاح، ص١١١.

و"الإمام ابن حزم الظاهري إمام أهل الأندلس"، كما أنَّ له كذلك كتباً متنوّعةً في سِيَر الصحابة – رضو الله عليهم – طُبعت في سلسلة "أعلام المسلمين" في دار القلم بدمشق، وله أيضاً هذا الكتاب المعنون بـ"جهود المعاصرين في خدمة السنة النبوية""[١].

هذا الكتاب:

يقصد مؤلِّفُ هذا الكتاب إلى تأريخٍ للسُّنَّة النبوية الشريفة وخدمتها في العصر الحديث، وتقويمِ هذه الخدمة بقصد النُّصْح للأمة، والتحذير من تسوُّر جدار العلم، والتوجيه إلى حُسْن خدمة السُّنَّة وعلومها[٢].

ومن ناحية تعلُّق الكتاب بموضوع بحثِنا، فقد تناول الكتابُ ما يلي من النِّقاط:

١) واقع التحقيق في العصر الحديث.

٢) أقسام المحقِّقين في العصر الحديث.

٣) واقعُ التصنيف في السُّنَّة في العصر الحديث.

٤) مآخذ على خدمة السُّنَّةِ في مجالَي التحقيق والتصنيف.

وفيما يلي أُورِد – بعون الله تعالى – ببعض التفصيل ما يتعلَّق بموضوع البحث من هذا الكتاب الرائع المفيد:

١) يقول مؤلِّفُه – حفظه الله تعالى – وهو يتكلَّم عن واقع التحقيق في العصر الحديث وحالِ المحقِّقين: أنَّ المحقِّقين في العصر الحديث على قسمَين:

أولهما **كبار المحقِّقين**، وعنهم يقول: "أنهم هم العلماء المعروفون بالعلم بالسُّنَّة النبوية والمشهود لهم بالاطِّلاع، وإذا دخلوا ميداناً من ميادين العلم؛ تركوا آثاراً واضحةً تَدُلّ عليهم، وهؤلاء أمثال: الشيخ أحمد محمد شاكر، والشيخ عبد الرحمن المعلِّمي اليماني، والأستاذ عبد السَّلام هارون، والأستاذ محمود شاكر، والشيخ عبد الفتاح أبو غُدَّة، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني وغيرهم"[٣].

وثانيهما **صِغار المحقِّقين**، وعنهم يقول: "وهؤلاء هم مَن قَلَّتْ بالتحقيق خبرتُهم، وظهروا على السطح فجأةً، حتى أنك لو أردتَ أن تعرف سنداً لبعضهم لوجدت أنه صاحب

---

[١] لم يتيسر لي العثور على ترجمته.

[٢] أبو صعيليك، جهود المعاصرين في خدمة السنة المشرَّفة، ص٥.

[٣] أبو صعيليك، جهود المعاصرين في خدمة السنة المشرَّفة، ص٦٨.

المطبعة، ولو سألتَ عن المقصد الذي دفعه إلى العلم لقِيل لك: الرِّبْح التجاري. اللهم إلا ما رحم اللهُ، وهؤلاء معروفون لأهل العلم، وإني لأُجلُّ هذا البحث عن أنْ أُعرِض لذكر نماذج منهم، ذلك لأنَّ المسيئ لا يُكافَأ بالذِّكر الحسن، وتخليد الذِّكر في الصحائف، وحسب طالب العلم أن يعرف أمثلةً من نتاجهم، وسوق الكتابِ يجْأر إلى الله من سوء صنيعهم، واللهُ المستعان"[١].

٢) ويقول وهو يتكلَّم عن واقع التصنيف في العصر الحديث: " إنَّ الذين يقومون بالجهود التأليفية في السُّنَّة وعلومها ليسوا كلهم من أصحاب الاختصاص في الحديث الشريف وعلومه، بل بعضهم صاحب اختصاصٍ في العلم الشرعي، وبعضهم الآخر صاحبُ عاطفةٍ دينيةٍ طيبةٍ دفعته الغيرةُ للكتابة في السُّنَّة وتبسيطها وخدمتِها دون أن يكون عدمُ اختصاصه الأكاديمي مانعاً من ذلك، وبسبب دخول أصحاب العاطفة من غير أهل الاختصاص في هذا الميدان؛ برزتْ في بعض تلك الجهود أوهامٌ وأغلاطٌ عائدةٌ إلى:

(أ) جهل الكاتب، وعدمِ إحاطته بالمادة العلمية، وسوءِ فهمه للمادة العلمية.

(ب) تعجُّلِ الكاتب وعدمِ تريُّثِه في البحث حتى يستوي البحث على عُوْده.

(ج) قلةِ المصادر التي عاد إليه الكاتبُ بسبب انحصاره بما توصَّل إليه.

(د) ضغطِ الحاجة الماسة إلى مرجعٍ في ذلك الموضوع المعيَّن مما أفضى إلى سرعةٍ غير حميدة في البحث والتأليف.

(هـــ) ضغطِ المكتبات التجارية ودُوَر النشر التي تَعمَد إلى إرهاق المؤلِّف بكثرة حثِّه على إخراجُ البحث العلمي قبل أوانه استعجالاً للسُّوق والرِّبْح المادي.

(و) الاستكثارِ من المصنَّفات، حيث إنَّ بعض المؤلِّفين همُّه إكثار المؤلَّفات ليُشار إليه بالبَنَان، وهذا يؤدِّي إلى ضعف المادة العلمية، ووقوعِ الأوهام في البحث"[٢].

٣) ومن واقع التصنيف كذلك: "غِيابُ الحركة النقدية للكتب والمؤلَّفات في السُّنَّة وعلومها، مما أفضى إلى الإغضاء عن أخطاء المؤلِّفين، ووجودِ روح المحاباة بينهم، فيسكت الباحثُ عمن سكت عنه، ويَنقُد مَن نَقَده؛ مما أدَّى إلى ضعف مستوى البحوث العلمية[٣].

---

[١] المرجع السابق، ص٦٩.

[٢] المرجع السابق، ص٨١، ٨٢.

[٣] المرجع السابق، ص٨٢.

٤) ويقول وهو يتكلَّم عن المآخذ في خدمة السُّنَّةِ النبوية ما يلي:

(أ) أنه دخل في ميدان التحقيق مَن ليس مِن أهله، فقد تصدَّر لهذا الفنِّ قومٌ ليسوا من أهل هذه الصناعة، ولَيْتَهم تذكَّروا قول العلماء: "مَن أَلَّف فقد استُهْدِفَ"[١]، ورحم اللهُ إمرءاً عرف قَدْرَ نفسه، فوقف عند حَدِّه؛ بل لو تذكَّروا أنَّ الأمانة العلمية تَدفَعهم للإحجام عن هذا المقام، ولكنَّ الواقع سِوى ذلك، فقد رأينا مَن يدخل ميدانَ التحقيق وهو من غير أهله، ومن غير بابه...، ولم يُلِمّ بما يُطلَب منه في هذا المقام، ولم يَطَّلِع على ما يخصّ التحقيق الذي ابتُلي به، فهذا أحدُهم يحقِّق كتاب (الطِّبّ النبوي) للإمام السيوطي، ويقول السيوطيُّ في كتابه: (وقد ذكرنا ذلك في كتابنا في التفسير بالمأثور)، فيعقِّب عليه صاحبُنا بقوله: (لم نعلم للسيوطي في التفسير غير تفسير الجلالين)!، وأمثالُ هذا كثيرٌ، فقد ظهر محقِّقون بُلِيَتْ بهم الكتبُ، لعلَّك لو سألتَ عن مشايخهم وأسانيدهم لَما كانت سِوى دُور النشر والمكتبات التجارية.

(ب) غلبةُ الدافع المادي على الهدف العلمي، فللأسف قد دخل في هذا المقام في الآونة الأخيرة مَن غلَّب الدافعَ الماديَّ على الهدف العلمي، فوقع في كتب أهل العلم يُعمِل يدَه فيها مسخاً وإفساداً، فهذا أحدُهم يحقِّق كتاب (الإحسان بترتيب صحيح ابن حِبّان[٢])، ولا يخرِّج أحاديثَه معتذراً في ذلك بعذرٍ أقبَحُ من ذنبٍ، فيقول: (ولم نخرِّج الأحاديثَ؛ لأننا لو خرَّجنا الأحاديث لقِيل لنا لماذا لم تخرِّجوا أحاديث البخاري ومسلم؟)، ولم يقف أذاه عند هذا فقط؛ بل إنه ليَحذِف من أحاديث الكتاب بدعوى التّكرار!!، فانظرْ إلى الأمانة العلمية، زِدْ على هذا سوء تحقيقه لهذا الكتاب القيّم.

هذا الأمرُ أفضى إلى تسابُقٍ مقيتٍ في إخراج الكتب، فضاعت الفائدة العلمية، وحَرُمَ الناسُ من جهود أهل العلم، وأصبح عنوانُ تحقيق هؤلاء: نسخٌ ومسخٌ، وسلقٌ وإفسادٌ، ولم يَبْقَ مكانٌ لِمَن يمكث في تحقيق بعض المصادر عشرات السنين[٣].

---

[١] وقال عبد الله بن الْمُقَفَّع (ت١٤٢هـ): "مَن صنَّف كتاباً فقد استهدف؛ فإنْ أَحْسَنَ فقد استعطف، وإنْ أساءَ فقد استقذف". انظر: الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص٣٣٢.

[٢] ومرتِّبه هو: أبو القاسم علاء الدين أبو الحسن علي بن بَلْبان بن عبد الله الحنفي المقدسي، المتوفى سنة ٧٣٩هـ.

[٣] أبو صعيليك، جهود المعاصرين في خدمة السنة المشرَّفة، ص٨٩، ٩١.

٥) ويقول وهو يتحدَّث عن مقترحات لتحسين خدمة السُّنّة النبوية ما يلي:
"يجب أن يَترُك التصنيفَ في السُّنَّة وعلومها، مَن ليس مِن أهل ذلك الاختصاص، فإنَّ هذا الزمان يُسَمَّى زمانَ التخصُّص، وأحرى الناسِ باحترام هذا أولئك الذين يدخلون في التصنيف في السُّنَّة وعلومها مِن غير أهل الحديث المشتغلين به، وقد قال قدماؤنا: (من تكلَّم في غير فنِّه؛ جاء بالغرائب)، ومِن هنا وَجَب تركُ التصنيف في السُّنَّة وعلومها لأهل الاختصاص فقط دون غيرهم، وهذا يُعفي المكتبةَ المعاصرةَ والدارسَ المعاصر من كثيرٍ من إلقاءات الجهال، وعدمِ الفهم؛ تلك التي تَسْري في أبدان كثير من متسلِّقي التأليف في السُّنَّة وعلومها"[١].

خلاصة الفصل:

وفي هذا الفصل – وهو السادس ترتيباً – قدّمتُ بعضَ أهمِّ مؤلَّفات العلماء قديماً وحديثاً، والتي تناولتْ قضيةَ "التَّعالُم" بصفةٍ مباشرةٍ أو غيرِ مباشرةٍ، وانتظم سلكُ إيراد الكتبِ في مبحثَين حافِلَين، الأول منهما أوردتُ فيه المؤلَّفات القديمة، والآخر تضمَّن المؤلَّفات الحديثة، وكلُّها تشترك في ناحيةٍ عظمى، وتتّفق من جهةٍ كبرى، وهي أنها جميعاً تعرَّضتْ لمناقشة مثلِ هذه القضايا والفِتَن التي ابْتُلِيَتْ بها الأمةُ وأُصِيبَتْ، وكان ذلك من أسباب تخلُّفها وانحطاطها، وإبعادِ مَسَارِها عن ركب التقدُّم والرُّقِيّ والحضارة.

[١] المرجع السابق، ص١٢٣.

الفصل السابع

أمثلة على "التَّعالُم" قديماً وحديثاً

المبحث الأول: أمثلة على "التَّعالُم" من بطون كتب السِّيَر والتاريخ.

المبحث الثاني: أمثلة على "التَّعالُم" من واقع العصر الحديث.

أمثلة على "التَّعالُم" من بطون كتب السِّيَر والتاريخ

وهذه أمثلةٌ ونماذجُ حقيقيةٌ لظاهرة "التَّعالُم" في غابر الزمن وحاضره، مِمّا وقفتُ عليها أثناء معايشتي لهذا البحث وكتابته، أمّا ما حصل من مَظاهِر "التَّعالُم" ومواقفه في الماضي فإنه مسطَّرٌ على صفحات التاريخ ومدوَّنٌ في بطون الكتب وثنايا أوراقه، بينما النماذجُ والأمثلةُ الحديثةُ المعاصرةُ فإنما هي غاراتٌ وسطواتٌ علميةٌ تَمَّ كشفُ اللِّثام عنها، وتبيين حقائقها بأقلام أهل العلم والمعرفة في كتاباتهم الجيّاشة بصادق الغيرة الدينية، والْمُفعَمة بخالص الحقِّ والحقيقة.

وفي هذا المبحث سأقدِّم أمثلةً على "التَّعالُم" مما استقيتُه من بطون كتب السِّيَر واقتبستُه من صفحات التاريخ، والذي يشتمل على مطلبَين، أولهما بعنوان: "التَّعالُم في مجال الكتابة والتأليف"، والثاني بعنوان: "التَّعالُم في مجال التعليم والإرشاد والإفتاء".

المطلب الأول: "التَّعالُم" في مجال الكتابة والتأليف:

وقد كانت ظاهرة "التَّعالُم" قد بدأتْ في الأمة وبرزتْ منذ أنْ ظهرتْ فيها الفِتَنُ وبَزَغتْ، وقد عانَى منها أكابرُ الأمة وعلماؤها أشدَّ الأَمَرَّيْن، كما اشتكى كثيرٌ من أجلّة العلماء وأكارمهم من مَغَبَّة هذه الظاهرة، وجاءت كتاباتُهم عامرةً في كشف زيف أهل الادِّعاء وزيغِهم، ومحذِّرةً من الوقوع في حِبال مصائدهم ومكائدهم، وفيما يلي بعض الأمثلة الشاهدة على ذلك:

١) ما جاء عن بعض أهل العلم الربانيين، مِن كشف زَيْفِ مَن ادَّعى بلوغَه مرتبةَ التأليف والتصنيف، وخوضَه هذا المجالَ مع خُلُوِّه عن فضيلة الأمانة العلمية، وعَزْوِ القول إلى قائله، ونسبِ الفضل لصاحبه، مما هو مُثبَتٌ في صفحات التاريخ ككتاب "الفارِق بين المصنِّف والسَّارِق"، وهذا الكتابُ صنَّفه الإمامُ عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السُّيوطي، الذي استفتح كتابَه مباشرةً بما يلي:

"﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾[١]، هل أتاك حديثُ الطَّارِق؟ ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ [٢]﴾، الخائنُ السَّارِقُ، والمائنُ المارِقُ، الذي توسَّل إلينا بأولاد الحنفاء،

[١] سورة النساء: الآية ٥٨.

[٢] سورة الطارق: الآية ٢.

وتوسَّل إلينا بأبناء الخلفاء، فأوْسَعْناه بِشْراً فقابله بالجفاء، وعامَلَنا بغدرٍ إذْ عامَلْنا بوفاء، وتطفَّل علينا في الموائد، فأنعمنا له بشيءٍ مما لدينا من الفوائد، وأذنّا لطَلَبَتنا أن يَسمحُوا له بإعارة مصنَّفاتنا الدُّرَر الفرائد.

فما كان مِن هذا العديمِ الذَّوْق إلا أنه نَبَذ الأمانةَ وراء ظهره وخانَ، وجَنَى ثِمارَ غروسنا وهو فيما جَنَاه جانٍ. وافتضَّ أبكارَ عرائسنا اللاَّئي لم يَطْمِثْهُنَّ في هذا العصر إنسٌ قبلنا ولا جانٌّ، وأغارَ على عِدّة كتبٍ لنا أَقَمْنا في جمعها سِنِيْنَ، وتتبَّعْنا الأصولَ القديمة، وما أنا على ذلك بضنينٍ. وعَمَد إلى كتابَيَّ (المعجزات والخصائص) المطوَّل والمختصر، فسرق جميعَ ما فيها بعبارتي، وقال: (تتبّعتُ وجمعتُ، ووَقَع لي)، فزَعَم أنه الجامِعُ المتتبِّعُ!!، وهو كلابِس ثَوْبَي زُوْرٍ بما لم يُعْط متشبِّع.

وعَمَد إلى التخاريج والنقول التي وقفتُ عليها في أصول القوم، فذكر العزوَ مستقلاً به من غير واسطة كتابي، مُوهِماً أنه وقف على تلك الأصول وهو لم يَرها بعينه إلى اليوم ولا في النَّوْم. ولقد أبهمتُ نقولاً عن أئمة فأوردها على إبهامها، ولو سُئل في أيّ كتابٍ هي؛ لم يَدْرِ خُنْصُرَها من إبهامِها.

وإنَّما ورَّطه في ذلك الجهلُ بآداب المصنِّفين. فإنه ليس من أهلِ المنْزل؛ بل هو عن الفناء بمعزلٍ، ألا سمع الحديثَ الوارد عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله: «تَنَاصَحُوْا فِي الْعِلْمِ، فَإِنَّ خِيَانَةَ أَحَدِكُمْ فِي عِلْمِهِ كَخِيَانَتِهِ فِي مَالِهِ»[1]، ولا بالأثر الوارد – رضي الله عن ناقله –: "بركةُ العلم عَزْوُه إلى قائله"[2].

فإنْ كان صادقاً في أنه القائلُ المتضلِّعُ، والجامعُ المتتبِّعُ؛ فشكر اللهُ مَسعاه، وبارك في ما ادَّعاه.

وإنْ كان سارقاً سالِخاً، وناسِخاً ماسِخاً، وكاذِباً في دعوى اطِّلاعه على الأصول، ومُدَّعِياً ما لا حاصِلَ عنده به ولا محصولٍ، ومُغِيراً على تصنيفي، ومُنتحِلاً لتأليفي؛ فلا يَأمَن أن

[1] ورد هذا الحديث عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – بهذا اللفظ: «تناصحوا في العلم، فإنَّ خيانة أحدِكم في علمه أشَدُّ من خيانته في ماله، وإنَّ الله سائلكم يوم القيامة». أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ج٩، ص٩١٣، برقم (١١٧٠١)، وقال الهيثمي: "وفيه أبو سعد البقَّال، قال أبو زرعة: لين الحديث مدلّس، قيل: هو صدوق، وبقية رجاله موثَّقون"، انظر: "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد"، ج١، ص١٨٧، برقم٦٠٥.

[2] لم أظفر بقائليه، لكن صَحَّ عن الإمام سفيان الثوري (ت١٦١هـ) رحمه الله تعالى، أنه قال ما معناه: "نسبةُ الفائدة إلى مفيدها من الصِّدق في العلم وشُكره، وأنَّ السكوت عن ذلك من الكذبِ في العلم وكُفره". انظر: السخاوي، الجواهر الدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، ج١، ١٨١.

يَحرِمه اللهُ نَفْعَه وثوابَه، وأن يَعدِم عليه نفسَه وكتابَه. ثم لا يُرفَع عند كبير ولا جليل، ولا يُقنَى عند صديق ولا خليل"[1].

ثم ختم – رحمه الله تعالى – تلك الرسالةَ بذكر بعض الآيات القرآنية الواردة في أهل الظلم والخيانة: كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقولِه تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

٢) ومن أحد الأمثلة التي ضَرَبَها **الأستاذ الدكتور فاروق حَمادة** لهذه الظاهرة قديماً في كتابه "منهج البحث في الدراسات الإسلامية"[2]، إذ قال ما نَصُّه: "وقد ذكر الإمام تقي الدين السُّبْكي مثلَ هذه الأمور في قضيةٍ محدَّدة، وكان هذا الصنيع سلف سُوءٍ لمن يسلك هذه السبيل، حيث قال: (وقد وصل حالُ بعض المجسِّمة[3] في زماننا إلى أنْ كَتَب شَرْحَ صحيحِ مسلمٍ للشيخ محيي الدين النووي، وحذف من كلام النووي ما تكلَّم به على أحاديث الصفات، فإنَّ النوويَّ أشعريُّ العقيدة، فلم تَحمِل قُوَى هذا الكاتبِ أن يكتب الكتابَ على الوضع الذي صنَّفه مصنِّفه. وهذا عندي من كبائر الذنوب، فإنه تحريفٌ للشريعة، وفتحُ بابٍ لا يُؤمَن معه بكتب الناس، وما في أيديهم من المصنَّفات، فقبَّح اللهُ فاعلَه، وأخزاه، وقد كانَ في غُنْيَةٍ عن كتابة هذا الشرح، وكان الشرحُ في غنيةٍ عنه)[4].

٣) كما ذكر عمدةُ المحقِّقين **العلاَّمة عبد السَّلام محمد هارون**[5] في كتابه النفيس "قطوف أدبية" مثالاً آخر عن أحد مواقف "التَّعالُم" قديماً إذ قال ما نَصُّه: "ومن الذين اتَّهم التاريخُ

---

[1] السيوطي، الفارق بين المصنَّف والسارق، ص٣٣، و٣٤، و٤٤.

[2] ص٥٨.

[3] وهم القائلون بالأخذ بظواهر النصوص في الصفات، والمشبِّهون لصفات الخالق بصفات المخلوق، فيقولون: "إنَّ لله جسماً حقيقة"، وحُجَّتُهم في ذلك أنَّ كل معقول هو إما جسمٌ أو عرضٌ، فلما بَطل أن يكون تعالى عرضاً ثبت أنه جسمٌ. وتعالى الله عما يصفون. انظر: عبد المنعم الحفني، موسوعة الفِرَق والجماعات والمذاهب الإسلامية، ص٣٤٠.

[4] تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج١١، ص٩١.

[5] هو عبد السلام محمد هارون المصري (١٣٢٧ – ١٤٠٨هـ): شيخ المحقِّقين، الأديب الباحث اللغوي. وُلد في الإسكندرية. وحفظ القرآنَ في صِغره. درس العلوم الدينية والعربية في الأزهر، وأتمَّ دراسته العليا بدار العلوم. ثم مارس التدريس معلماً وأستاذاً. نال جائزةَ الملك فيصل العالمية في الأدب. حقَّق العدد الكبير من الكتب تحقيقاً مُتقَناً. انظر: محمد خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ج١، ص٢٩٠، ٢٩٤.

بالإغارة على كتب غيرِهم، وإن كنتُ أجِلُّ قَدْرَه عن ذلك: الإمام عبد الله بن محمد بن السيد البَطَلْيُوْسِيّ[١]، عثرتُ على نصٍّ نادرٍ في (بُغية الوُعاة) للسيوطي عند ترجمته لأحمد بن محمد بن أحمد المرسي[٢]، يقول فيه: (ونسب إليه ابنُ الْخَلَصَة[٣] شرح أدب الكاتب المسمَّى بالاقتضاب. وذكر أنَّ ابن السيد البطليوسي أغار عليه – أي على الكتاب – وانتحله). وأقول – يعني عبد السلام هارون –: والتاريخُ لا يَغفُل عن أمثال هذه السَّطوات العلمية، لكن لا تزال هذه التهمةُ في ذِمَّة التاريخ حتى نرى الكتابَين معاً"[٤].

المطلب الثاني: "التَّعالُم" في مجال التعليم والإرشاد والإفتاء:

وأقصد بذلك أصحاب الدعاوى العريضة ممن بضاعتُهم في العلم مزجاةٌ؛ لكنهم ومع ذلك جلسوا محلَّ التوجيه والإرشاد والتعليم والإفتاء، وقد ذكر الإمام ابن الجوزي في كتابه الماتع الجليل "تلبيس إبليس" قصصاً عديدةً لأهل الادِّعاء الكاذب، وذوي التدليس المخادع ممن أدخل نفسَه، ودَسَّ شخصَه عبثاً وتَلاعُباً بين أهل العلم وذوي المعرفة، وفيما يلي أحد تلك النماذج التي أوردها:

١) وكان بعضُ مشايخنا يروي الحديثَ أنَّ النبيَّ «نَهَى عن الحِلَق قبل الصَّلاة يومَ الجمعة»[٥]، بإسكان اللاَّم، قال: وأخبرني أنه بقي أربعين سنةً لا يَحلِق رأسَه قَبْلَ الصَّلاة، قال: فقلتُ:

[١] هو عبد الله بن محمد بن السيد، أبو محمد البَطَلْيُوْسي (٤٤٤ – ٥٢١ه): من العلماء باللغة والأدب. وُلد ونشأ في "بطليوس" في الأندلس، وانتقل إلى "بلنسية" وتوفي بها. من مصنفاته: "الاقتضاب في شرح أدب الكتاب"، وغيره. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٤، ص١٢٣.

[٢] هو أحمد بن محمد بن أحمد أبو العباس المرسي المالكي المعروف بـ"ابن بلال" (ت٤٦٠ه): عالم بالأدب واللغة، من أهل "مرسية" في الأندلس. من مصنفاته: "شرح الغريب المصنَّف لأبي عبيد"، و"شرح إصلاح المنطق لابن السّكيت". انظر: الزركلي، الأعلام، ج١، ص٢١٣.

[٣] لم أعثر على ترجمته في كتب تراجم الأعلام.

[٤] عبد السلام محمد هارون، قطوف أدبية: دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث، ص٢٤.

[٥] أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الصلاة، باب التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة، ص١٦٣، برقم (١٠٧٩)، والترمذي في الجامع، أبواب الصلاة، باب ما جاء في كراهية البيع والشراء وإنشاد الضالة والشعر في المسجد، ص٨٨، برقم (٣٢٢)، وابن ماجه في السنن، أبواب الصلاة، باب ما جاء في الحلق يوم الجمعة قبل الصلاة، ص١٥٩، برقم (١١٣٣)، وقال الترمذي: "حديث حسن".

إنما هو "الحِلَقُ: جمعُ: حَلْقَةٍ"، وإنما كَرِهَ الاجتماعُ قبل الصَّلاة للعلم والمذاكرة، وأَمَر أن يشتغل بالصلاة وينصت للخطبة، فقال: "قد فرَّجتَ عني، وكان من الصالحين[١]"[٢].

٢) ومن المواقف التي ذُكرت في التاريخ كذلك موقفُ الْهَرَوي شمس بن عطاء الرَّازي[٣]، وقد كان من أعوان تَيْمُوْرلَنْك[٤]، وكان عريضَ الدعوى في الحفظ، فاستعظم الناسُ ذلك، فجُعِلَ له مجلسٌ لامتحانه، وكان من جملة ما سُئل عنه حينئذ: هل وَرَد النَّصُّ على أنَّ المغرب تُقصَر في السَّفر؟ فقال: نعم! جاء ذلك من حديث جابرٍ في كتاب الفردوس لأبي الليث السمرقندي، فلمّا انفصلوا ورجعوا إلى كتاب أبي الليث لم يجدوا فيه ذلك، فقِيل له في ذلك، فقال: لكتاب السمرقندي هذا ثلاث نُسَخٍ: كبرى، ووسطى، وصغرى. وهذا الحديث في الكبرى، ولم تَدخُل الكبرى هذه البلاد. فاستشعروا كذبَه مِن يومئذ. وقد ساق هذه القصةَ الحافظُ ابن حجر – رحمه الله تعالى – في "إنباء الغمر"[٥] في ترجمته له، كما ذكر هذه القصةَ الشيخُ بكر بن عبد الله أبو زيد – رحمه الله تعالى – في كتابه "التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب"[٦]، ثم قال بعد أن ساقها: "هكذا فليكن كذبُ الْمُتعالِمين".

****

[١] قد يعترض القارئ الكريم لمثل هذا الموقف، وعدِّه من باب "التَّعالُم"، والحقيقة – والحقّ أحَقُّ أن يقال – أن إيراد هذا الموقف في هذا الموضع لأجل ما وُصف به هذا الشيخ من أنه من أهل العلم والرواية والتحديث، وذوي المشيخة والصلاح والتدريس، ثم يرتكب هذا الخطأ الفاحش الجسيم – الذي لا يناسب قطعاً مع مقام رواية حديث رسول الله ﷺ وتبليغِه للناس وتدريسه لهم –؛ وذلك بسبب قراءته المحرَّفة للحديث النبوي الجليل!!!، والأدهى من ذلك والأمَرّ أن يبقى على ذلك الخطأ مدةَ أربعين سنةً!!!. ولعلَّ هذا هو ما دفع الإمامَ ابن الجوزي – رحمه الله تعالى – لذكر هذا الموقف في مثل هذا الكتاب المعنون بـ"تلبيس إبليس".

و"التَّعالُم" قد يقع خطأً بسبب سوء فهم أو حصول إشكال أو غير ذلك، مثله تماماً إذا ما وقع عمداً، والله تعالى – جلّ شأنه – وحده المسؤول لأن يحفظ من الوقوع في الخطأ والزَّلَل.

[٢] ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٢٧، وقد ذكر هذه القصةَ الخطابي (ت٣٨٨هـ) في كتابه "إصلاح غلط المحدّثين"، انظر صفحة ٢٨.

[٣] هو شمس بن عطاء الله الهروي القاضي (٧٦٧ – ٨٢٨هـ): كان إماماً بارعاً في فنون من العلوم، ويقرئ في المذهبَين الشافعي والحنفي والعربية والمعاني والبيان، ويذاكر بالأدب والتاريخ، ويستحضر كثيراً من الفنون. وله تصانيف تدل على غزر علمه واتساع نظره وتبحره في العلوم. انظر: ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج١، ص٥٤٥

[٤] هو تَيْمُوْر لَنْك بن طَرَغاي (٧٣٦ – ٨٠٧هـ): مؤسِّس السلالة التيمورية في وسط آسيا، وأولُ الحكام في العائلة التيمورية. وكان يُظهِر الإسلامَ، وتقام شعائر الإسلام بالبلاد التي يحكمها. وكان يقدِّم قواعدَ جنكيس خان ويجعلها أصلاً، ولذلك أفتى جمعٌ جمٌّ بكفره. انظر: الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص٢٠٧، ٢١٣.

[٥] ابن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج١، ص٤٢٢.

[٦] انظر صفحة ١٨.

المبحث الثاني:

أمثلة ونماذج على "التَّعالُم" من واقع العصر الحديث

وهذا المبحث يختصّ بـ"التَّعالُم" في العصر الحاضر، وهو يشتمل على ثلاثة مطالب، وسأعرِّف في أولها "التَّعالُمَ" في مجال الكتابة والتأليف، وفي الثاني "التَّعالُمَ" في مجال التحقيق والتعليق وخدمة التراث والعناية به، ثم أذكر في الثالث "التَّعالُمَ" في مجال التعليم والتدريس والتوجيه والإفتاء.

المطلب الأول: "التَّعالُم" في مجال الكتابة والتأليف:

وأقصد بذلك السَّطْوَ على كتب أهل العلم، والإغارةَ على مؤلَّفاتهم، وما يتبع ذلك مِن سرقاتٍ علميةٍ مروِّعةٍ، استفحلتْ واستشرتْ في الساحة العلمية المعاصرة، واتَّخذتْ صُوَراً متنوّعةً، وأشكالاً مختلفةً عديدةً، من بين سرقة كتب أهل العلم وانتحالِها إلى السَّطْو على الرسائل الجامعية الأكاديمية والأبحاث العلمية العالية وادِّعائها، والإغارةِ على جهود الآخرين العلمية الجبّارة واقتباسِها دون عزوٍ وتوثيقٍ، وغيرِ ذلك، لكنَّها جميعاً ذات هدفٍ واحدٍ، ومَغْزى مُماثِلٍ، وهو: اقتحامُ مجالات العلم، وميادين المعرفة، وصعودُ منابر التوجيه والخطابة، وتصدُّرُ المجالس والمحافل، ونيلُ الألقاب، وحصولُ الكراسي بلا استحقاق ولا أهلية، وفيما يلي أمثلةٌ حيّةٌ ناطقةٌ على ذلك:

(أ) "التَّعالُم" في مجال تأليف الكتب وتصنيفها عبر السَّرِقات العلمية المروِّعة للكتب المعتمدة المعتبَرة الأصول:

وأظهَرُ مثالٍ على ذلك: كتاب "تتمة الأعلام للزركلي" لمؤلِّفه الفاضل الأستاذ محمد خير رمضان يوسف[١]، وهذا الكتابُ وهو "تتمّة الأعلام للزّركلي"، هو تكملةٌ لكتاب "الأعلام" للعلامة خير الدين الزِّركلي (ت١٣٩٦هـ)، حيثُ توقَّف الزركليُّ – رحمه الله تعالى – عند عام ١٣٩٧هـ، ومِن هنا أكمل المؤلِّفُ الأستاذ محمد خير رمضان وفياتِ هذا العام، وبالتحديد من عام ١٣٩٧هـ

[١] هو محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف (من مواليد ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م): أحدُ الباحثين المشهورين في مجال الدراسات الإسلامية، ومن المؤلِّفين المكثِرين فيها. وُلد في قرية "كري بري" من منطقة "القامُشْلِي" في سورية. حصل على الليسانس من كلية الشريعة بجامعة دمشق، ثم على شهادة الماجستير في الإعلام من كلية الدعوة والإعلام من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. عمل في مكتبة الملك فهد الوطنية مديراً لإدارة الاقتناء وتنظيم المعلومات. وله نحو مئتين كتاب من التحقيق والتأليف والإعداد. انظر لترجمته "موقع الألوكة".

إلى عام ١٤١٥هـ، وقد صدرت طبعته الأولى سنة ١٤١٨هـ عن دار ابن حزم ببيروت، في مجلَّدين وبآخره مُستدرَكٌ، وصدرت طبعته الثانية عام ١٤٢٢هـ، وبآخره مُستدرَكٌ آخر.

وقد سُرِقَ هذا الكتابُ سرقةً علميةً فظيعةً مروّعةً، مِن قِبَل أحد مؤلِّفي العصر الحديث – كما يحلو لهم أن يُسَمّوا أنفسهم بذلك – وهو صاحبُ الكتاب المسمَّى بـ"نثر الجواهر والدُّرَر في علماء القرن الرابع عشر"، والذي صدر عن دار المعرفة ببيروت سنة ١٤٢٧هـ، ويقع في (١٦٨٧) صفحة، ويحتوي على وفيات الأعلام من سنة ١٣٠١هـ إلى سنة ١٤٠٠هـ، وهذا الكتابُ أصلٌ، وله ذيلٌ سمّاه بـ"عِقد الجوهر في علماء الرُّبْع الأول من القرن الخامس عشر"، ويقع في (٥١٠) صفحة، ويحتوي على وفيات الأعلام من عام ١٤٠١هـ حتى ما بعده.

يقول مؤلِّفُ "تتمة الأعلام للزركلي" الأستاذ محمد خير رمضان يوسف في مقالٍ له بعنوان "إغارة أستاذ جامعي على كتاب تتمة الأعلام": أنَّ المؤلِّف المحترَم أخذ مِن كتابي (تتمة الأعلام للزركلي) معظمَ مادةِ كتابه، مِن وفيات عام ١٣٩٦هـ إلى عام ١٤١٥هـ، دون إشارةٍ إلى المصدر بالحرف والنصِّ، إلا ما شذَّ ونَدَر، وهو ما لا حُكْمَ له.

يقول – حفظه الله – "إنَّ هذين الكتابين – نثر الجواهر وعقد الجوهر – ما إنْ قدَّمهما أحدُ الأخوة المهتمِّين بالتراجم، وقلَّب صفحات الكتابين حتى صُدِمَ – قال – فهو ينقل من الأعلام للزركلي كما ورد دون زيادةٍ أو نقصٍ، ويكتب المراجعَ التي اعتمد عليه الزركليُّ في آخر الترجمة وبآخرها كتابه – يعني الأعلام –، ويعني هذا أنَّ (الأعلام) هو أحد المصادر التي اعتمد عليها المؤلِّف، في حين أنه كلُّه من (الأعلام)، فهو لم يعتمد على أي مصدرٍ من تلك المصادر التي أوردها!".

ويقول: "وعندما وصلتُ إلى ما نقله من (تتمة الأعلام) كانت الصدمةُ أكبرَ! فهو لا يذكره أصلاً، بل يُورِد جميعَ الهوامش التي اعتمدتُ عليها فقط! وهذا يعني أنها مصادره هو، وأنَّه هو الذي كتب الترجمةَ، وهذا في جميع التراجُم التي أخذها من (التتمة) مع النقل الحرفي متناً وهامشاً، إلا ما نَدَر، كأن أتحدَّث عن علاقتي بالمترجَم له وما إليه، وهو يتعدَّى بضع تراجم فيحذفها.

ولم يذكر (التتمة) في كتابَيْه جميعاً (الأصل) و(الذَّيْل) سوى (١٩) مرةً، مِن أصل (٥٧٦) ترجمةً، التي تَخُصّ السنوات ١٣٩٦هـ إلى ١٤١٥هـ، يعني أنه أخذ (٥٥٧) ترجمةً، من كتابي دون أن يُشير إلى ذلك!!"[١].

---

[١] محمد خير رمضان يوسف، إغارة أستاذ جامعي على كتاب تتمة الأعلام، انظره على موقع "الألوكة".

وهنا يَحسُن بي إيرادُ بعضٍ من هذه المضحكات المبكيات التي وقع فيها مؤلِّف كتاب "نثر الجواهر والدُّرَر" نتيجةَ سرقتِه، رغماً عنه، وهي أمثلة يُستوحَى منها التبكيت، وها أنذا أسوق بعضاً منها، والتي تبيِّن وتكشف هذه الإغارة العلمية:

١) قال الأستاذ خير رمضان في كتابه "تتمة الأعلام" في ترجمة (أحمد بن الحسين العاكولي): "إنني رأيتُه وصلّيتُ خلفه مذ كنتُ طالباً في ثانوية عربستان بالقامِشْلِيّ... إلخ"[١]. فأورده المؤلِّفُ كما هو في كتابه "نثر الجواهر"[٢]! وأشار في المصدر إلى "ذيل الأعلام" يعني التتمة.

٢) وفي ترجمة (بكري بن عبده الحلبي) قال الأستاذ خير رمضان في هامش كتابه "تتمة الأعلام": "أمدَّني بالترجُمة الشيخُ محمد الرشيد"[٣]، فقال المؤلِّفُ كذلك، ولم يذكر التتمةَ![٤].

٣) وقال الأستاذ خير رمضان في ترجُمة (حامد بن علوي الحدَّاد): "زَوَّدَنا بها الشيخُ محمد الرشيد"[٥]، وذكر المؤلِّفُ أيضاً كذلك في هامش الترجمة[٦]، ولم يُشر إلى تتمة الأستاذ خير رمضان لكتاب "الأعلام"!، ومن المؤكَّد أنه لم يزوِّده بها. ومثلها في ترجمة محمد عبد القادر الحكيم...

٤) نقل المؤلِّفُ في كتابه[٧] ترجُمةَ الشيخ (حسن خالد) مفتي لبنان بحروفها من "تتمة الأعلام" للأستاذ خير رمضان[٨]، ولم يُشر إلى المصدر كالعادة، وكان بإمكانه أن يحصِّل ترجمتَه هناك بسهولة[٩]، ولكنها السهولة والراحة اللَّتان تتطلَّبان هذا الفعل.

٥) وقال الأستاذ خير رمضان في هامش كتابه "تتمة الأعلام" في ترجمة (عبد الله عبد الغني خيّاط)، بعد إيراد عدة مصادر: "انظر مصادر أخرى في المستدرك"[١٠]، فأثبته المؤلِّفُ كما هو في كتابه "نثر الجواهر"[١١]!.. ولا مستدركَ لديه.

---

[١] انظر: خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ج١، ص٣٢.
[٢] انظر: نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، ج٢، ص١٧١٥.
[٣] انظر: خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ج١، ص٨٨.
[٤] انظر: نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، ج١، ص٢٨٦.
[٥] انظر: خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ج١، ص١٢٤، ١٢٥.
[٦] انظر: نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، ج٢، ص١٧٧٩.
[٧] انظر: نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، ج٢، ص١٧٨٦، ١٧٨٩.
[٨] انظر: خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ج١، ص١٣٠، ١٣١.
[٩] لأن المؤلِّف من أبناء لبنان فينبغي أن يكون أعلمَ بأعلامها ورجالاتها.
[١٠] انظر: خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ج٢، ص١٠، ١١، ١٢.
[١١] انظر: نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، ج٢، ص١٨٧٤، ١٨٧٥.

٦) قال الأستاذ خير رمضان في كتابه "تتمة الأعلام" في ترجمة (عبد السلام هارون): "إنني اطلعتُ على كتبه التي اشترتْها مكتبةُ الملك فهد، وتقدّمتُ بطلبٍ إلى إدارة المكتبة لتقييد حواشيه"[١]... وقال المؤلِّفُ كذلك في كتابه "نثر الجواهر"! و لم يُشر إلى المصدر[٢].

٧) قال الأستاذ خير رمضان في كتابه "تتمة الأعلام" في ترجمة (عبد العزيز الرِّفاعي): "وقبل أيام قليلة من وفاته سألني عن آخر الإصدارات، والكتب النافعة الموجودة في سوق المكتبات ..."[٣]، فأورد المؤلِّفُ كما هو في كتابه "نثر الجواهر"[٤] ولم يُشر إلى تتمة الأستاذ خير رمضان في الهامش.

٨) وقال الأستاذ خير رمضان في هامش كتابه "تتمة الأعلام" في ترجمة (كامل سليم البابا): "إنه غَيْرُ سَمِيِّه وزير الكهرباء السوري"[٥]، فكتب ذلك المؤلِّفُ أيضاً في هامش كتابه "نثر الجواهر"[٦] و لم يُشر إلى "تتمة الأعلام".

٩) وعمل الأستاذ خير رمضان لـ(محمد أبي الفضل إبراهيم) ترجُمتَيْن: في الأصل ثم في المستدرك، وكتب في الهامش الآخر: "وهي الترجمة البديلة عن السابقة"[٧]، فكَتَب المؤلِّفُ كذلك في هامش ترجمته في كتابه "نثر الجواهر"[٨]، ولا ترجمةَ سابقة له عنده!

١٠) وكتب الأستاذ خير رمضان في كتابه "تتمة الأعلام" في هامش ترجمة (نعمت صدقي): "رأيتُ في مقدّمة كتابها (بديع صنع الله) ما يُفيد وفاتَها... إلخ"[٩]. وذكر كذلك المؤلِّفُ في كتابه "نثر الجواهر"[١٠] دون ذكر "تتمّة الأعلام"[١١].

---

[١] انظر: خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ج١، ص٢٩١.

[٢] انظر: نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، ج٢، ص١٩٢٤، ١٩٢٥.

[٣] انظر: خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ج١، ص٢٩٦.

[٤] انظر: نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، ج٢، ص١٩٢٩.

[٥] انظر: خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ج٢، ص١٠٤.

[٦] انظر: نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، ج٢، ص٢٠١٢.

[٧] انظر: خير رمضان يوسف، المستدرك على تتمة الأعلام للزركلي، ج٣، ص١٠١.

[٨] انظر: نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، ج٢، ٢١٠٥.

[٩] انظر: خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ج٢، ص٢٩٤.

[١٠] انظر: نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، ج٢، ص١٦٤٥.

[١١] محمد خير رمضان يوسف، إغارة أستاذ جامعي على كتاب تتمة الأعلام، انظره في موقع "الألوكة".

(ب) "التَّعالُم" في مجال التأليف عبر النقل والاقتباس دون العَزْو الصَّريح والتوثيق الصحيح إلى المؤلَّفات الأصول:

وأبْيَنُ ما وجدتُه من مثالٍ على هذا النوع من السَّطو العلمي هو كتاب "سوانح وتأمُّلات في قيمة الزمن" لأحد أساتذة الجامعة المشهورين، والذي هو مقتبسٌ برُمَّته من كتاب الشيخ عبد الفتّاح أبي غُدَّة، والذي يَحمِل هذا العنوان: "قمية الزَّمن عند العلماء".

وفيما يلي توضيح هذا المثال:

هذا الموضوع – في الحقيقة – وهو "قيمة الزمن" أوَّلُ مَن حرقه بالعناية والتأليف فيه، وغصَّه بالكتابة: العلامة الجليل الشيخ عبد الفَتّاح أبو غُدَّة، فقد كتب فيه صفحات طويلة، وألقى عن هذا الموضوع محاضرةً عامةً سنة ١٣٩١هـ، وهذا كله حصيلةُ ما يُقارِب عشرين سنةً من مطالعاته ومراجعاته في كُتُب العلم المتنوّعة من تفسير وحديث وفقه وتاريخ ورجال وتراجم وبلدان ولغة ونحو وأدب وأخلاق وغير ذلك، حيث جمع – رحمه الله تعالى – المادةَ العلميةَ لموضوع الكتاب، وانتخبها وضبطها وعزاها إلى هذه المصادر والمراجع جميعها، ولا يخفى على كل لبيب عاقل ما في ذلك من مشقّةٍ وعنتٍ في جمع المادة العلمية وتمحيصِها وسبكِها وتحقيقِها ثم إخراجِها على تلك الصورة المشرِّفة الدقيقة[١].

ثم ظهرتْ بعد ذلك في الساحة العلمية كتبٌ عديدةٌ تحمل عناوينَ مختلفةً، قريبةً من موضوع هذا الكتاب، لكن أصحابها لم يلتزموا بعزو ما اقتبسوه من هذا الكتاب الأصل، ولم يتحلّوا في كتبهم بصفة الأمانة العلمية، ومن بين هذه الكتبِ وأحدها كتابُ "سوانح وتأملات في قيمة الزمن".

---

[١] وهي الميزة التي تُعرَف بها كتب الشيخ أبي غُدَّة، كما أنها تَحفِل بالكثير من النُّكَت والفوائد العلمية والأدبية والتاريخية، وتتميَّز بالأمانة العلمية، وبالدِّقَّة في تحقيق المسائل وتحريرها، وضبطِ الأسماء وتعيينها، كما كان – رحمه الله – شديدَ الحرصِ على إخراج كتبه بأزْهَى ثوبٍ وأَبْهَى حُلَّةٍ، إذْ كان لا يبخل فيها بنقطةٍ أو حركةٍ فضلاً عن كلمةٍ أو فائدةٍ، وما ذاك إلا رغبةً في نفع طَلَبة العلم والنهوضِ بهم، وهُياماً واحتراقاً بالعلم، ورغبةً وأملاً في ثواب الْمَنّان الكريم، وتَرحُّمِ الأحباب والمستفيدين عليه، ويَصدُق عليه ما قاله ياقوت الْحَمَوي (٥٧٤ – ٦٢٦هـ) عن حاله في التأليف، والتي ذكرها في مقدمته لكتابه النفيس "معجم الأدباء" ما نَصُّه: "وإنما تصدّيتُ لجمع هذا الكتاب لفَرْط الشَّغَف والغَرَام، والوَجْدِ بما حَوَى والْهُيَام، لا لسلطانٍ أجتديه، ولصَدْر أرتجيه، غيرَ أنّي أرغب إلى الناظر فيه أن يترحَّم عليَّ، ويَعطِف جيْدَ دُعائه إليَّ، فذلك ما لا كُلْفَةَ فيه عليه، ولا ضَررَ يَرجع به إليه، فربما انتفعتُ بدعوته، وفُزْتُ بما قد أَمِنَ هو مِن مَعَرَّته". انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١، ص٥٧.

فقد وقفتُ على هذا الكتاب، واطّلعتُ عليه، وقرأتُه كاملاً، وفوجئتُ بأنَّ هذا الكتاب في جُلِّ أخباره ومعظمِ نصوصه مقتبسٌ ومنقولٌ من كتاب الشيخ أبي غُدَّة، حيث إنَّ الأول قد اقتبس في كتابه "سوانح وتأملات" كتابَ أبي غُدَّة "قيمة الزمن عند العلماء" بمضمونه ومصادره، ومنحه زيادةً في العنوان، لكن الغريب في الأمر أنه لم يذكر من أين اقتبس هذه النصوصَ التي أَلَّف كتابه منها، ولم يعز إلى مصدره؛ بل عزا إلى المصادر التي استقى منها الشيخ أبو غُدَّة مباشرةً كأنه لم يستفد من كتاب الشيخ أبي غُدَّة واقتباسه وعزوه، مُوهِماً بذلك أنه أخذ مباشرةً من تلك المصادر والمراجع الكثيرة، ووقف عليها من طريق نقله لها، وهذا هو عينُ "التَّعالُم" في ذا العصر، وللوقوف على حقيقة الأمر، وتجليته[١]؛ سوف أقوم فيما يلي بتقديم أمثلةٍ على ذلك[٢]:

ففي المدخل، والذي قد اشتمل على مبحثين، الأول منه بعنوان: "في قيمة الزمن في الكتاب والسُّنَّة"، والثاني بعنوان: "في ارتباط قيمة الزمن بالغاية من الخَلْق"، ذكر المؤلِّفُ في المبحث الأول جميعَ تلك الآيات التي ابتدأ الشيخ عبد الفتاح أبو غُدَّة بذكرها في كتابه "قيمة الزمن عند العلماء"، كما أنَّ المؤلِّفَ قام بتفسير تلك الآيات بنفس التفسير الذي فسَّر بها أبو غُدَّة الآياتِ مع التركيز على نفس النِّقاط المهمة التي تحدَّث عنها أبو غُدَّة وركَّز عليها، واعتمد المؤلِّفُ في تفسيره على جميع تلك المصادر التي اعتمد عليها أبو غُدَّة مِن قبل، ولملاحظة ذلك انظر صفحة (١٥) و(١٦) و(١٧) عند المؤلِّف، وقارِنْ بما جاء في كتاب أبي غُدَّة صفحة (٢٠) و(٢١).

ثم تابَعَ أبو غُدَّة بذكر الأحاديث النبوية، والتي عقَّب المؤلِّفُ بذكرها كذلك وهي عموماً نفس الأحاديث التي ذكرها أبو غُدَّة، وانظر صفحة (١٨) وقارِنْ بما جاء عند أبي غُدَّة في صفحة (٢٢).

هذا بالنسبة للمبحث الأول من مدخل الكتاب، أما بالنسبة لمحتوى باقي الكتاب فقد تضمَّن في مجموعه قواعدَ في قيمة الزمن وأَوْجُه اغتنامه، وقد قسَّمها المؤلِّفُ ضِمن أربعة عشر

---

[١] مستفاد من مقدمة الشيخ عبد الفتاح أبي غدة لكتابه "قيمة الزمن عند العلماء"، انظر صفحة: ١٤، و١٥.

[٢] النسخة التي اعتمدتُ عليها في تحقيق ذلك هي الطبعة العاشرة منه، والتي صدرت عن مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب في سورية، عام ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ويبلغ مجموع صفحات هذا الكتاب (١٥٧) صفحةً، استغرق المحتوى العلمي منه على (١٢٤) صفحة، عدا ذلك ففهارس علمية متنوّعة.

النسخة التي اعتمدت عليها هي الطبعة الثانية من هذا الكتاب، والتي صدرت عن مكتبة دار الوفاء للنشر والتوزيع بجدة في المملكة العربية السعودية، عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، وقد بلغت مجموعة صفحات هذا الكتاب (٨٨) صفحةً.

قاعدةً، وجُلّ ما في هذه القواعد أخبارٌ من التاريخ، وقصصٌ للسلف الصالح، ومدى عنايتهم بالوقت، وشِدَّةِ حفاظهم عليه، وحرصِهم على كسبه، وقد اقتبس المؤلِّفُ – في الحقيقة – معظمَ تلك الأخبار والأقاصيص المستقاة من كتب التراجُم والتاريخ والسِّيَر والأخبار من كتاب أبي غُدَّة بنَصِّها وفَصِّها، وبمضمونها ومحتواها، إنْ لم نَقُلْ جميعَها، ولم يَعْزُ أيَّ خبرٍ من تلك الأخبار، وأيَّ قصةٍ من قصص السَّلف وأقوالِهم، إلى كتاب أبي غُدَّة إلا في موضعَين أو ثلاثة، وللتأكُّد من ذلك فسأسوق فيما يلي بعضَ الأمثلة والشواهد الحيَّة الناطقة على النقل والاقتباس دون عزوٍ أو توثيقٍ إلى الكتاب الواسطة:

١) ففي **القاعدة الأولى** والتي هي بعنوان "الزمن هو أجَلُّ وأشرَفُ ما يحصله العقلاء بإجماع العلماء"، ذكر المؤلِّفُ في صفحة (٢٧) من كتابه "سوانح وتأملات"، قولَ الإمام ابن قيِّم الجوزية (ت٧٥١هـ) رحمه الله تعالى، وهو: "وقتُ الإنسان هو عمرُه في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادَّة المعيشة الضَّنْك في العذاب الأليم. وهو يَمُرّ أسرعَ من السَّحاب، فما كان من وقته لله وبالله؛ فهو حياتُه وعمرُه، وغيرُ ذلك ليس محسوباً من حياته وإن عاشَ فيه طويلاً ..."، وهذا القولُ قد ذكره أبو غُدَّة في صفحة (٢٦) من كتابه "قيمة الزمن"، وانظر للمقارنة.

٢) كما أشار المؤلِّفُ في صفحة (٢٧) من كتابه، إلى مقولة الإمام الرباني الحسن البصري (ت١١٠هـ) – رحمه الله تعالى – وهي: "يا ابن آدم! إنما أنت أيامٌ، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضُك..."، وهو أيضاً مما أورده أبو غُدَّة في كتابه صفحة (٢٧) و(٢٨).
وذكر المؤلِّفُ قولاً آخر للإمام البصري في صفحة (٢٨) من كتابه، وهو: "أدركتُ أقواماً كلُّ أحدهم أشَحُّ على عمره منه على درهمه..."، وهذا القولُ كذلك مذكورٌ مِن قبل في كتاب أبي غُدَّة في صفحة (٢٧).

٣) وأورد المؤلِّفُ في صفحة (٢٩) من كتابه الحديثَ المرويَّ عن رسول الله ﷺ إذ قال: «أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِىءٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»، وهو نفسُ الحديث المرويّ الذي استدلَّ به أبو غُدَّة في صفحة (١٩) من كتابه.

٤) وذكر المؤلِّفُ في صفحة (٣٠) من كتابه قولَ الخطيب البغدادي المتعلِّق بخبر الإمام محمد ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) أنه "مكث أربعين سنةً يكتب في كل يومٍ منها أربعين ورقةً"، أي أنه – رحمه الله – كتب ما يُقارِب (٥٨٤٠٠٠)"، وهذا الخبرُ أورده أبو غُدَّة في كتابه في صفحة (٤٣).

كما أورد المؤلِّفُ في صفحة (٣١) و(٣٢) من كتابه، أقوالَ بعض العلماء المتعلِّقة باغتنام الإمام ابن جرير الطبري وقته، وعدمِ ضياعه لأي دقيقة من دقائق حياته في غير إفادة واستفادة، ومن هؤلاء: الأستاذ محمد كُرْد علي (ت١٣٧٢هـ)، والأخبار التي رواها الحافظُ الخطيبُ البغدادي (ت٤٦٣هـ) في "تاريخ بغداد"، وكذلك خبرَ وفاته (أي ابن جرير الطبري) المرويّ عن المعافى ابن زكريا، كلُّ ذلك ذكره المؤلِّفُ في كتابه نقلاً من كتاب أبي غُدَّة، الذي أورد فيه الأخيرُ – رحمه الله تعالى – تلك الأخبارَ في صفحة (٤٢) و(٤٥) من كتابه "قيمة الزمن".

٥) كما ذكر المؤلِّفُ في صفحة (٣٣) و(٣٤) من كتابه، ما يتعلَّق بأخبار الإمام أبي الوفاء علي بن عَقِيل الحنبلي (ت٥١٣هـ)، وثناء الأئمة في تراجمُهم لهذا الإمام الجليل، وقد سبق لأبي غُدَّة أنْ أورد تلك الأخبارَ بنصِّها في كتابه، وذلك في صفحة (٥٤)، وانظر للمقارنة.

كما أورد المؤلِّفُ في صفحة (٣٤) من كتابه، قولَ ابن عقيل وهو يتحدَّث عن نفسه قائلاً: "إني لا يَحِلّ لي أن أُضيِّع ساعةً من عُمري، حتى إذا تعطَّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة؛ أعملتُ فكري في حال راحتي وأنا مستطرحٌ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطِّره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشَدَّ مما كنتُ أجده وأنا ابن عشرين"، وهذا أيضاً قد أورده أبو غُدَّة في كتابه في صفحة (٥٣)، وانظر للمقارنة.

كما ساق المؤلِّفُ قولَه – أي قولَ ابن عقيل – أيضاً عن نفسه في صفحة (٣٤) من كتابه، وهو: "وأنا أقصِّر بغاية جهدي أوقاتَ أَكْلي، حتى أختار سَفَّ الكعكِ وتَحَسِّيَه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تَفاوُت الْمَضْغ، تَوفُّراً على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أُدرِكها"، وهذا أيضاً قد ساقه أبو غُدَّة في كتابه في صفحة (٥٤).

٦) ثم ذكر المؤلِّفُ في صفحة (٣٤) و(٣٥) من كتابه، أخبارَ الإمام أبي الفَرَج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، أحد الأعلام الذين يُقتَدى بهم في حرصهم على الزمن، وما قال عنه سِبطُه أبو المظفَّر يوسف بن قزأوغلي (ت٦٥٤هـ)، وهو: "وسمعتُه يقول على المنبر في آخر عُمره: كتبتُ بإصبعيَّ هاتين ألفَيْ مجلَّداً"، وقد ساق هذا القولَ برُمَّته تماماً أبو غُدَّة في كتابه في صفحة (٦٣).

كما ذكر المؤلِّفُ في صفحة (٣٥) من كتابه، ما قاله ابن الجوزي عن نفسه: "وإني أُخبر عن حالي، ما أشبَعُ مِن مطالعة الكتب، وإذا رأيتُ كتاباً لم أره فكأنِّي وقعتُ على كَنْز..."، وقد ذكر هذا القولَ أبو غُدَّة في كتابه في صفحة (٦١) و(٦٢).

كما ذكر المؤلِّفُ في صفحة (٣٥) من كتابه، أقوالَ الأئمة في الإمام ابن الجوزي، وشِدَّةِ حرصه على الوقت، منهم: قولُ الإمام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) فيه، وقولُ الحافظ الذهبي (ت٧٤٨هـ). وعند المقارَنة بكتاب أبي غُدَّة نجده – رحمه الله تعالى – أنه قد سَبَق المؤلِّفَ بذكر تلك الأخبار في كتابه، وذلك في صفحة (٦٤).

ثم ذكر المؤلِّفُ في صفحة (٣٦) من كتابه، مقولةَ ابن الجوزي عن نفسه: "لقد رأيتُ خَلْقاً كثيراً يَجْرَون معي فيما قد اعتاده الناسُ من كثرة الزيارة، ويُسَمّون ذلك التردُّدَ: خدمةً! ويُطيلون الجلوس، ويُجْرون فيه أحاديثَ الناس وما لا يَعني، ويتخلَّله غيبةٌ"، وهذه المقولةُ قد أوردها بتمامها أبو غُدَّة في كتابه في صفحة (٥٨)، وانظر للمقارنة.

٧) ثم انتقل المؤلِّفُ بعد ذلك إلى ذكر أخبار الطَّبيب المسلم المشهور ابن النفيس (ت٦٨٧هـ) وحرصِه الشديد على الوقت إذْ كان – رحمه الله – "إذا أراد التصنيفَ تُوضَع له الأقلامُ مَبْريَّة، ويُدير وجهَه إلى الحائط، ويأخذ في التصنيف إملاءاً من خاطره، ويكتب مثلَ السَّيل إذا انحدر، فإذا كَلَّ القلمُ وحَفِي؛ رَمَى به وتناول غيرَه؛ لئلا يَضِيع عليه الزمانُ في بَرْي القلم"، ثم ساق – أي المؤلِّفُ – أخبارَه في صفحة (٣٧) من كتابه، وهي في الحقيقة نفسُ تلك الأخبار التي ساقها أبو غُدَّة في كتابه في صفحة (٧٤) و(٧٥)، هذا بالنسبة إلى القاعدة الأولى.

٨) أما في **القاعدة الثانية** وهي المعنونة بـ"من شرف الزمان أنَّ الإنسان العاقل يحرص على اغتنامه إلى حال النَّزْع والذَّماء"، فقد ذكر المؤلِّفُ فيها وذلك في صفحة (٤١) من كتابه، مقولةَ القاضي إبراهيم بن الجرَّاح الكوفي تلميذ الإمام أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي (ت١٨٢هـ) – والذي كان يُقال له "قاضي قضاة الدنيا" – إذ يقول التلميذُ عن شيخه ويصف حِرْصَه على الوقت: "مَرِض أبو يوسف، فأتيتُه أعودُه، فوجدتُه مُغْمَىً عليه، فلمَّا أفاقَ قال لي: يا إبراهيم! ما تقول في مسألة! قلتُ: في مثل هذه الحالة!؟ قال: ولا بأسَ بذلك، نَدرُس لعله ينجو به ناجٍ؟" إلى نهاية القصة، وهي بتمامها موجودة في كتاب أبي غُدَّة في صفحة (٢٩).

٩) وفي **القاعدة الثالثة**، والتي هي بعنوان "الاشتغال بالندم على الوقت الفائت تضييع للوقت الحاضر"، ذكر المؤلِّفُ فيها، وبالتحديد في صفحة (٤٣) من كتابه، قولَ الحسن البصري: "ما من يومٍ يَنْشَقُّ فَجْرُه إلا وينادي: يا ابن آدم! أنا خَلْقٌ جديدٌ، وعلى عملك شهيدٌ، فتَزَوَّدْ مني، فإني إذا مضيتُ لا أعود إلى يوم القيامة"، وهذا قد ذكره أبو غُدَّة في كتابه في صفحة (١٢٣) من كتابه.

١٠) ثم ساق المؤلِّفُ في صفحة (٤٣) و(٤٤) من كتابه، قولَ الإمام الربَّاني أبي إسماعيل عبد الله ابن محمد الأنصاري الْهَرَوي (ت٤٨١هـ) في كتابه "مَنازِل السائرين" عند كلامه على الغيرة وأصحابها وأنواعها: "الغيرةُ على وقتٍ فاتَ! وهي غيرةٌ قاتلةٌ، فإنَّ الوقت وَحِيُ التقضِّي، أَبِيُّ الجانب، بَطِيءُ الرجوع ..."، وقد شرح هذا القولَ ابنُ قَيِّم الجوزية فقال: "والوقتُ عند العابد هو وقتُ العبادة، والإقبال على الله تعالى ..." إلى نهاية هذا القول الطويل وقد ساقه المؤلِّفُ بتمامه نقلاً من كتاب أبي غُدَّة، إذْ أورد – رحمه الله تعالى – هذا النَّصَّ بتمامه في صفحة (٢٣) و(٢٤) و(٢٥) من كتابه "قيمة الزمن".

١١) ثم ننتقل بعد ذلك إلى **القاعدة التاسعة**، وهي المعنونَة بـ"دوام العطاء ولو كان قليلاً يكون منه ما يُعجز"، وهنا قد ساق المؤلِّفُ في صفحة (٦٠) من كتابه "سوانح وتأملات"، أخبارَ الأئمة الْمُكثِرين من التأليف كالإمام أبي حاتم الرازي (ت٢٧٧هـ) والإمام الطبري والإمام ابن عقيل الحنبلي والحافظ ابن عساكر الدمشقي (ت٥٧١هـ) والطبيب ابن النفيس وأخبار شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمهم الله تعالى جميعاً، وكلٌّ هذه الأخبار في الحقيقة مقتبسةٌ من كتاب "قيمة الزمن" لأبي غُدَّة من صفحة (٨٥) إلى (٨٩) وقد نقل منه المؤلِّفُ تلك الأخبارَ بنصِّها وفصِّها.

١٢) وفي **القاعدة العاشرة** وهي المعنونَة بـ"مَن شغل نفسَه بغير المهمِّ؛ ضيَّع المهمَّ، وفوَّت الأهمَّ"، ذكر المؤلِّفُ تحت هذه القاعدة مقولةَ أبي الفضل العباس بن الحسن بن عُبَيد الله – وهو من أصحاب هارون الرشيد وولدِه المأمون –، وقد كان عالِماً شاعراً فصيحاً، والمقولةُ هي: "اعلمْ أنَّ رأيك لا يتّسع لكلِّ شيء، ففرِّغه للمهمِّ، وأنَّ مالَك لا يُغني الناسَ كلهم، فخُصَّ به أهلَ الحقِّ، وأنَّ كرامتك لا تُطيق العامَّةَ، فتَوَخَّ بها أهلَ الفضل، وأنَّ ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبتَ فيهما، فأحسنْ قِسْمَتَها بين عملك ودَعَتِك من ذلك..." إلى آخره، وقد ساق – أي المؤلِّفُ – هذه المقولةَ بتمامها في صفحة (٦٣) (٦٤) من كتابه "سوانح وتأملات"، وهذه قد أوردها قبله أبو غُدَّة بتمامها في صفحة (١٠٦) من كتابه "قيمة الزمن".

١٣) وفي **القاعدة الثانية عشرة**، والمعنونَة بـ"لله في أيام دهرنا نفحات، فالموفَّق من تعرَّض لها"، ذكر المؤلِّفُ قولَ بعضِهم فيها وذلك في صفحة (٧١) من كتابه "سوانح وتأملات"، وهو: "إذا كان وجهُ السَّحَر، فاقرَعْ عليَّ بابي حتى تعرف موضعَ رأيي"، وهذا القولُ قد ذكره أبو غُدَّة في حاشية صفحة (١٠١) من كتابه "قيمة الزمن.

١٤) ثم ننتقل إلى **القاعدة الرابعة عشرة**، وهي القاعدة الأخيرة في كتابه، وقد عنونها بـ"بقدر ما تتعنَّى تنال ما تتمنَّى": وتحت هذه القاعدة ذكر المؤلِّفُ في صفحة (٧٩) من كتابه، أخبارَ أحد رجال هذه الأمة الأفذاذ وهو أبو السعد عبد الكريم السَّمْعاني المروزي (ت٥٦٢هـ)، وما وصفه به الأئمةُ الكبار أمثال: الذهبي في "سِيَر أعلام النبلاء"، وتاج الدين السُّبْكي (ت٧٧١هـ) في "الطبقات الشافعية"، كما ساق المؤلِّفُ أخبارَ رحلاته العديدة، ومشايخه الكُثُر، ومصنَّفاته الجليلة؛ وكلُّ هذا قد سبق أن ذَكَرها أبو غُدَّة في كتابه "قيمة الزمن" في صفحة (٩٤)، وانظر للمقارنة.

وقد كانت هذه بعضُ النماذج والأمثلة لنقل النصوص واقتباسِها من كتاب "قيمة الزمن عند العلماء" للشيخ عبد الفتاح أبي غُدَّة، والذي – رحمه الله تعالى – أودعها كتابَه المذكور بعد أن استخرجها من بطون أمهات كُتب التاريخ والتراجم والرجال والسِّيَر.

وختاماً يمكنني أن أقول: إنَّ هذا الكتاب وهو "سوانح وتأملات في قيمة الزمن" الذي هو تأليف أحد كبار أساتذة الحديث المشهورين، هو في الحقيقة مقتبسٌ بمضمونه ومحتواه، ومصادره ومراجعه، من كتاب "قيمة الزمن عند العلماء" للشيخ المربِّي عبد الفتاح أبي غُدَّة، لكن المؤلِّف مَنَحه زيادةً في العنوان، وهو في أصله، وفي جُلِّ أخباره، ومعظمِ نصوصه، مقتبسٌ اقتباساً كاملاً من كتاب الشيخ أبي غُدَّة السابق الذكر، لكن العجيب في الأمر – مع كون المؤلِّف أحدَ تلاميذ الشيخ أبي غُدَّة في الطلب والتحصيل في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض أيام كان الشيخ أستاذاً للحديث وعلومه فيها – أنه لم يُصرِّح بأخذه واقتباسِه جميعَ هذه النصوص من كتاب الشيخ أبي غدة إلا في مو ضعين أو ثلاثة، مع أنَّ حقَّ التتلمذ والبُنُوَّةِ العلمية تُوجِب عليه ذِكْرَ ذلك، أداءاً للأمانة، وشكراً للأستاذ المعلِّم، وهذا – في الحقيقة وبكلِّ صِدْق أقول – مما يُقلِّل من قيمة الكتاب العلمية، ومما يعرِّض كذلك سُمْعَةَ المؤلِّف إلى القدح والذَّمِّ، إذْ قال العلماء مِن قبل أنَّ من الأمانة في العلمِ عَزْوُه إلى قائله أو ناقله، كما صَحَّ عن سفيان الثَّوْرِيّ[1] – رحمه الله تعالى – أنه قال ما معناه: "نسبةُ الفائدة إلى مفيدها من الصِّدْق في العلم وشُكره، وأنَّ السكوت عن ذلك من الكذبِ في العلم وكُفره"[2].

---

[1] هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله (٩٧ –١٦١هـ): أمير المؤمنين في الحديث، وسيدَ أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. وُلد ونشأ في الكوفة وتوفي بالبصرة. ومن كتبه: "الجامع الكبير" و"الجامع الصغير" في الحديث، وكتابٌ في الفرائض. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٢٠٣، ٢٠٤.

[2] انظر: السخاوي، الجواهر والدرر، ج١، ١٨١.

وهذا مما تذمَّر منه – في الحقيقة – كثيرٌ من العلماء، ومنهم صاحبُ الكتاب الأصل الْمُبدَع: الشيخ عبد الفتاح أبو غُدَّة، إذ قال: "وكثيرٌ من الْمُتعالِمين في هذا الزمان، يتساهل في النقل عن الكتب دونَ عَزْوٍ، مُوهِماً القارئَ أنَّ ما يُورِده هو من بنات أفكاره وسَهَرِ أسحاره، ومنهم مَن بَلَغتْ به الجرأةُ أن ينتحل الكتبَ والمواضيعَ بزعمٍ أنَّ العلم مُشَاعٌ، فخالَفَ بذلك أمانةَ العلم والدِّين، إذ الكتاب حَقٌّ لمؤلِّفه لا ينبغي أن يعتدي عليه أحدٌ.

وكتابي (قيمة الزمن عند العلماء) حصيلةُ نحو عشرين سنةً، من مطالعاتي ومراجعاتي في كتب العلم: التفسير، والحديث، والفقه، والتاريخ، والرجال، والبُلدان، واللغة، والنحو، والأدب، والأخلاق، وسِواها، في جَمْع مادَّتِه، وانتخابِها، وضبطِها، وعزوِها إلى مصادرها ومراجعها، والمقابَلةِ بينها، وتمحيصِها، وسَبْكِها، وتحقيقِها، وإخراجِها بأَبْهَى حُلَّةٍ.

وليس هذا مني – عَلِم الله – حرصاً على الشهرة والفخفخة، ولكن هي الأمانةُ والأدبُ الذي عَلَّمناه الإسلامُ، وصاغَه الإمامُ الشافعي ﷺ بأدبه وبيانه الرفيع إذ يقول: (الْحُرُّ مَن راعى وِدَادَ لحظةٍ، وانتمى لِمن أفاده لفظةً).

وإني قد التزمتُ في كتبي صَغُرَتْ أو كَبُرَتْ، عَزْوَ كلِّ خبرٍ أو جُمْلةٍ، بل كلِّ كلمةٍ، إلى قائلها مع تسمية المصدر وتعيينِ الجزء والصفحة فيه، أداءً للأمانة العلمية، وتَمْتِيناً للثقة بالمنقول.

والذي لاحظتُه أنَّ بعض الناس يستفيدون من هذه الطريقةِ أنهم ينقلون من كتبي، ويعزون إلى المصادر التي عزوتُ إليها بالجزء والصفحة، كأنهم أخذوا منها استقلالاً ومباشرةً، دون أن يكونوا قد استفادوا ذلك من كتابي وعَزْوي... ووقفوا عليه من طريق نقلي له... ويَتجاهَلُون كُلَّ هذا... ويَتعالَمُون بغيره!"[١].

هذا ما وقفتُ عليه – بعون الله وتوفيقه – وتيسَّر لي اطِّلاعه كنموذجٍ واحدٍ من عشرات النماذج الشائعة في عصرنا الحاضر وواقعِنا المعاصر للتَّعالُم المقيت في مجال تأليف الكتب وتصنيفها، وقد تناولتُ بالدراسة والمقارَنة للكتاب النموذج "سوانح وتأمُّلات في قيمة الزمن" مع الكتاب الذي قد سُبِقَ بالتأليف والكتابة في نفس الموضوع، وهو كتاب "قيمة الزمن عند العلماء" للشيخ عبد الفتاح أبي غُدَّة، وقد استنتجتُ بعد مقارَنة الكتابَين معاً: أنَّ كتاب "سوانح وتأمُّلات في قيمة الزمن" ما هو إلا مقتبسٌ في جُلِّ نصوصه ومعظمِ أخباره من كتاب أبي غُدَّة دون عَزْوٍ إلى كتاب الشيخ أبي غُدَّة ولا تعويلٍ عليه.

---

[١] أبو غدة، قيمة الزمن عند العلماء، ص١٧، ١٩، بتصرف واختصار يسير.

(ج) "التَّعالُم" في دائرة الأبحاث العلمية والرسائل الجامعية:

إنَّ أخطر ما في مجال العلم وواقع المعرفة اليوم في الساحة المعاصرة ما يَحدُث الآن في أَرْوقة الجامعات العلمية، ومعاهد المعرفة من سرقة الأبحاث العلمية الأكاديمية وانتحالِها، والأمرُ أشَدُّ خطراً، وأعظَمُ مُرارةً إنْ كانت تلك السرقات تَحصُل من قِبَل الأساتذة المشرفِين، والأكادميين الجامعيين؛ ذلك لأن من المفترَض في هؤلاء أن يكونوا حصوناً مانعةً لمثل هذه التجاوُزات والاعتداءات التي تنتفي وقواعد الأمانة العلمية، لكن الواقع – في الحقيقة – يُشير حصول الكثير من هذه التجاوُزات بلا أيّ وازعٍ أو رادعٍ، وفيما يلي أحد الأمثلة المعاصرة الشاهدة على ذلك:

وهو ما حَدَث مع الباحثة الفاضلة الدكتورة منيرة محمد ناصر الدَّوْسَري، التي قامت بإعداد رسالتها للماجستير بعنوان "أسماء سُوَر القرآن وفضائلها" وتقدَّمت بها إلى كلية الآداب للبنات بالدمام شرق المملكة العربية السعودية، وأشرف عليها أحدُ أساتذة الدراسات القرآنية بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر عندما كان مُعاراً للعمل في تلك الكلية في صدر التسعينات كما يقول في التعريف بنفسه، ثم نُوقِشَتْ هذه الرسالةُ في شهر شوال عام ١٤١٨هـ وممن شارك في مناقشتها الأستاذُ الدكتور فهد بن عبد الرحمن الرُّوْمِي[١].

وطُبعت رسالةُ الدكتورة منيرة الدَّوْسَري عام ١٤٢٦هـ في دار ابن الجوزي في الدمام، بعنوان: "أسماء سُوَر القرآن وفضائلها"، وقد بذلت الباحثةُ الفاضلة في رسالتها تلك جهداً مشكوراً، وقدَّمتْ دراسةً قيمةً في بابها مع الصعوبات التي تعترض الباحثات بوجهٍ خاصٍّ، وصعوبة الوصول لبعض المصادر، وبالرغم من ذلك فقد تميَّزت رسالتُها بالرجوع لعدد كبير من المصاحف المخطوطة التي أغنت البحثَ في باب تسمية السُّوَر بشكلٍ ظاهرٍ تُشكَر عليه الباحثة.

ثم حدثت طامةٌ كبرى إذ قام المشرفُ على الرسالة بطباعتها باسمه عام ١٤٢٤هـ مع تغيير العنوان إلى: "مَعالِم سُوَر القرآن الكريم وإتحافات دُرَرِه: نظرةً جديدةً في التفسير الموضوعي"، وقد أخذ رسالةَ الباحثةِ برُمَّتِها وهوامشِها مع بعض التعديلات والزيادات الطفيفة. ويمكن إجمال التعديلات التي أحدثها على الكتاب فيما يلي:

---

[١] هو الأستاذ الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرُّوْمي، أحد العلماء الأجلة السعوديين، المتخصِّصين في مجال الدراسات القرآنية، وله فيه العديد من المؤلَّفات القيمة، كما أنه يقوم بتدريس ما يتعلَّق بالتفسير وعلوم القرآن من المواد الدراسية في كلية المعلِّمين بالرياض وغيرها من جامعات المملكة.

١) تغيير صيغة العنوان من "أسماء سُوَر القرآن وفضائلها" إلى "مَعالِم سُوَر القرآن وإتحافات دُرَرِه: نظرة جديدة فى التفسير الموضوعي للقرآن سورة سورة".

٢) استبعاد مقدمة الباحثة وخاتمتها وفهارس الرسالة، وكتابة مقدمة وخاتمة إنشائية من عنده لا روح فيها.

٣) إضافة تقديمات لكلٍّ من الأستاذ الدكتور منيع عبد الحليم محمود (عميد كلية أصول الدين) ومن الأستاذ الدكتور محمد سالم أبو عاصي (الأستاذ بالكلية)، اللَّذَين أثنيا في مقدمتها للكتاب على إبداعه في التأليف وعلى أسلوبه الأدبي البديع! ولا لومَ عليهما فهما لم يعلما بحقيقة الأمر.

٤) الترجُمة لبعض الأعلام الذين أغفلتهم الباحثة - قصداً - لشهرتهم، فقد شرطت الترجمةَ للأعلام غير المشهورين، فأغفلت الترجمةَ لأبي بكر الصديق والشافعي، فقام بالترجمة لهم.

٥) أضاف إلى كتاب الباحثة أيضاً ذِكْرَ مكان نزول السورة، وعدد آياتها، وحروفها، وترتيبها على وجه الاختصار في أول كل سورة، وحاول تغييرَ بعض العبارات فلم يُوفَّق.

٦) قام بنقل حواشي الباحثة برُمَّتها، ومنها الحواشي التي تذكر فيها الباحثة إطلاعها على مصاحف مخطوطة في الرياض بجامعة الملك سعود وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وفي بيت القرآن بالبحرين. ولا أدري كيف اطَّلع الدكتور عليها في تلك الأماكن مع إنه لم يُشِرْ إلى زيارته لتلك المناطق في سيرته، وكونه لا يستطيع الاطلاعَ على تلك المصاحف بنفسه لكونه ليس بصيراً منذ كان في السادسة من عمره كما ذكر.

وذكر الدكتورُ المشرفُ الفاضلُ فكرةَ تأليف هذا الكتاب فقال في مقدمته: أنه قد عمل في المدينة المنورة عام ١٤٠٢هـ، وأن فكرة الكتاب قد بدأتْ معه منذ ذلك الحين، ثم ما زالت الفكرة معه في رحلته للعمل مرةً أخرى في كلية الآداب للبنات في الدمام، فقال: "وقد أفدتُ من فكرته - أي الكتاب - بعضاً ممن أشرفتُ عليهن بكلية الآداب سالفة الذكر، حيث حصلتْ إحدى الباحثات على رسالة لها بمرتبة الشرف الأولى، استمدّت فكرتها وموضوعها مما كنتُ أعددتُه لبناء هذا الكتاب في بعض جوانبه. فلما انتهتْ إعارتي تلك وعُدْتُ إلى كلية

أصول الدين جامعة الأزهر حيث عملي بها، كان كل شيء بتوفيق الله ﷻ يقوم على خدمة هذا الكتاب قد اكتمل، وبدأتُ أكتب كتابي الماثل بين يدي القارئ، وكنت أتمهَّل وأتروَّى في إعداده حتى يخرج إلى النور وقد مسته ركيزة التروي والأناة"[١].

والعَجَبُ كل العجب من هذا الزمن الطويل، الذي بقيت فيه هذه الفكرةُ في ذهن المؤلِّف حتى إذا ناقشت الباحثةُ الرسالةَ؛ وجد المادةَ العلميةَ قد اكتملت بين يديه فتطابقت تماماً مع بحث الطالبة، والغريبُ أنه حين سرد الرسائل التي أشرف عليها في التعريف بنفسه لم يشر إلى هذه الرسالة التي أعدها الطالبة منيرة الدوسري تحت إشرافه[٢].

ومما هو جديرٌ بالذكر أنَّ الدكتورة منيرة الدَّوْسَري قد أشارتْ إلى تلك السرقة العلمية الْمُخْزِية، في مقدِّمتها للطبعة الثانية من كتابها "أسماء سُوَر القرآن وفضائلها" فقالت: "وأشكر الدكتور جمعة علي عبد القادر[٣] لتولية الإشراف على الرسالة، وإن كان يَحُزُّ في نفسي ما قام به من تسجيل رسالتي الماجستير باسمه، وطبعِها ونشرِها في المكتبات، فحسبي اللهُ ونعم الوكيل"[٤].

المطلب الثاني: "التَّعالُم" في مجال التحقيق وخدمة التراث والعناية به:

وهذا – في الحقيقة – مجالٌ خصبٌ لتَعالُم أهل الادِّعاء من غير المتأهِّلين؛ بل قد أصبح هذا المجالُ العلمي النبيل، العالي الشريف، ميداناً واسعاً مفتوحاً، وصنعةً محترَفةً يسيرةً، لكلِّ مَن ضاقتْ في وجهه سُبُلُ الكسب المعروفة، فانطلق إلى كتب العلماء "يحقِّقها ويخرِّج أحاديثَها!!"، ويتكسَّب مِن ذلك، وفيما يلي أمثلةٌ شاهدةٌ على ذلك:

---

[١] انظر: جمعة علي عبد القادر، معالم سور القرآن وإتحافات درره: نظرة جديدة فى التفسير الموضوعي للقرآن سورة سورة، ج١، ص٨، ١٠.

[٢] انظر ما كتبه في ذلك في موقع "ملتقى أهل التفسير"، الدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري (مدير عام لمركز تفسير للدراسات القرآنية، وأستاذ الدراسات القرآنية المشارك بجامعة الملك سعود) بعنوان: "سرقة علمية محزنة: (مشرف رسالة: أسماء سور القرآن وفضائلها؛ لمنيرة الدوسري) يسرقها!"، وكذلك الدكتور داليا فهمي السَّيد، في مقاله بعنوان "الأمانة العلمية وفيروس التلاصِّ العلمي".

[٣] هو جمعة علي عبد القادر (١٩٤٩-٢٠٠٩م): من علماء الأزهر. وُلد في قرية "طملاي" أحد أعمال محافظة "المنوفية" بمصر. ابتلي بفقد البصر وهو في السادسة من عمره. تخرَّج في جامعة الأزهر بشهادة الليسانس والماجستير فالدكتوراه في التفسير. ثم عمل فيها مدرِّساً وأستاذاً. وأعير أستاذاً في بعض الجامعات خارج مصر. توفي بالقاهرة. ومن مؤلَّفاته: "أساس البنيان في علوم القرآن"، و"زاد الراغبين في مناهج المفسرين"، و"مَعالِم سور القرآن وإتحافات درره: نظرة جديدة في التفسير الموضوعي للقرآن سورةً سورةً". انظر ترجمته بقلم: أحمد سليمان الدبشة، في "موقع ملتقى أهل التفسير".

[٤] منيرة محمد ناصر الدوسري، أسماء سُوَر القرآن وفضائلها، ص١٢.

(أ) "التَّعالُم" في مجال التحقيق بالسَّطْو على الجهود العلمية السابقة للآخرين:

وما أكثَرَ ما نجده من أمثلةٍ على عبث بعض أدعياء التحقيق والمتاجرين به فيما يُقدِمون عليه من إعادة نشر كتبٍ سبق أنْ خرجت مُحقَّقةً بعنايةٍ، وجهدٍ واضحٍ، غير أنه لا يطيب لهم إلا أن تَخرُج مرةً أخرى مشوَّهةً على أيد مجهولة الهوية في ميدان التحقيق، وهدفُهم الواضح هو المتاجرةُ وكسبُ المال مما يُفقِدهم الإحساس الصادق بقيمة العمل الذي يُخرجونه، وما يتطلَّبه من بذلِ الجهد، والدراية والمعرفة، والصبر، ليَخرُج على الصورة الصحيحة، ولا يتورَّع بعضهم عن السَّطو على جهد مَن سبقه في وضح النهار، وتكاد تغصّ الساحة بغثاء هؤلاء، وسطوِ بعضهم على جهود غيره[1].

وأقرَبُ شاهدٍ على ذلك يتمثَّل في الطبعة الأخيرة من كتاب (الدُّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون) لأحمد بن يوسف المعروف بالسَّمِين الحلبي (ت٧٥٦هـ)، والتي صدرت عن دار الكتب العلمية ببيروت عام ١٤١٤هـ، وعلى صفحة العنوان عبارات تقول: (تحقيق وتعليق: الشيخ علي محمد معوّض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والدكتور جاد مخلوف جاد، والدكتور زكريا عبد المجيد)، و(قدمَّ له وقرَّظه: الدكتور أحمد محمد صيرة من كلية أصول الدين جامعة الأزهر)، وكان الكتابُ نفسُه قد قام بتحقيقه ونشرِه تباعاً منذ أكثر من عشرين عاماً الدكتورُ أحمد محمد الخرّاط[2]، وصدر منه إلى هذا اليوم تسعة أجزاء عن دار القلم بدمشق، وقد فُوجئ المحقِّق منذ شهورٍ بصدور الطبعة المذكورة، وبعد أن تفحَّصها، ودقَّق النظرَ فيها تبيَّن له بالدليل والبرهان الساطع أنَّ المدّعين لتحقيقها قد سطوا على جهده السابق المتمثِّل في الأجزاء السبعة التي تمكَّنوا من الاطِّلاع عليها، حيث أخذوا عنه المتنَ بحذافيره، وجُلَّ الحواشي، وما لهم إلا التقديم والتأخير والتمويه والإفساد[3].

---

[1] عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل، ص٧٥.

[2] هو أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال (من مواليد ١٩٤٨م): أحد كبار الباحثين في مجال الدراسات القرآنية واللغوية والأدبية. وُلد بحلب في سورية. تخرَّج في كلية اللغة والآداب من جامعة حلب. ونال شهادةَ الماجستير فالدكتوراه في النحو والصرف من جامعة القاهرة. عمل أستاذاً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بفرع القصيم والمدينة المنورة. ومن مؤلفاته: "جهود سيبويه في التفسير"، و"المجتبى من مشكل إعراب القرآن". وأبرز تحقيقاته: "الدر المصون في علوم الكتاب المكنون" للسَّمِين الحلبي، و"النهاية في غريب الحديث" لابن الأثير، انظر لترجمته: مروان، من شوامخ المحققين: الأستاذ الدكتور أحمد محمد خراط، في "موقع شبكة الفصيح".

[3] أحمد محمد الخراط، سلام على التراث: قراءة في أوراق فضيحة علمية، المنشور في آخر المجلد الحادي عشر لكتاب "الدر المصون في علوم الكتاب المكنون" للسمين الحلبي، ج١١، ص٤٩٣، ٤٩٥.

(ب) "التَّعالُم" في مجال التحقيق باقتحامه قبل التأهُّل لذلك:

وقد ظهرتْ في ساحة التحقيق منذ أمدٍ قريبٍ شرذمةٌ أقحمتْ نفسَها في ميدانه، وهم أبعَدُ ما يكونون عنه، وها نحن نرى بعض المهندسين، والمحاسبين، والأطباء البشريِّين والبيطريِّين، يُقدِمون بجسارةٍ على تحقيق كتبٍ في مجال العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية، وليس لديهم ما يؤهِّلهم للقيام بمثل هذه المهمة الجليلة، من حيث الدراية بأصول التحقيق بعلوم الكتب التي يتولَّون تحقيقها، وربما كان هدفُهم من وراء ذلك هو الكسب المادي، مما أدَّى إلى تشويه ما خرج على أيديهم من كتبٍ ينشرونها على أنها محقَّقة، وهي بعيدة عن ذلك كل البُعْد! بل تنطوي على المضحِكات والمبكِيات من ضروب التصحيف والتحريف، والجهل المطبق[1].

وأقرَبُ مثالٍ على ذلك ما خرج لنا من بعض كتب الحديث عن شخصٍ يزعم أنه طبيب، اسمه "عبد المعطي أمين قلعجي"، إذ حقَّق ما يربو على ستين جزءاً، ولا ترى فيها أيَّ تحقيقٍ غير تحقيقٍ ينمّ عن جهلٍ لأصوله، وأصول العلم الذي تدور الكتب في فلكه! بل يؤكِّد الأستاذ محمد عبد الله آل شاكر[2] أنَّ هذا الرجل يستحلّ جهودَ الآخرين، ويسطو عليها حيث يكلِّفهم بالعمل على تحقيقها، بدعوى المشاركة، ثم يطبعها باسمه وحده، كما حدَّثه بذلك أحدُ أساتذة الأزهر ممن وقع في أحابيله، ويؤكِّد ذلك تقارُبُ صدورِ بعض هذه الكتب مع كثرة أجزائها، مثل كتاب "الثقات" للإمام العِجْلي، والذي صدر سنة ١٤٠٥هـ، وهو جزء واحد، وفي السنة نفسها صدر كتاب "دلائل النبوة" للإمام البيهقي في ثمانية أجزاء، وصدر في عام ١٤١٢هـ كتابُ "معرفة السنن والآثار" للبيهقي في خمسة عشر جزءاً، وبعد أقلِّ من عامَين في عام ١٤١٤هـ يصدِّر كتابَ "الاستذكار" لابن عبد البرّ، وهو كتاب ضخم يقع في ثلاثين جزءاً، فهل كان يحقِّق هذه الكتبَ في وقت واحد؟ أو أنَّ هناك عدداً من الأشخاص يعملون خلف الكواليس، هذا إلى جانب ضخامة بعض الكتب وكثرةِ أجزائها بصورة تُحيل أنْ ينهض بمثل هذه الأعمال الضخمة فردٌ واحدٌ مع تقارُبِ بعضِها في زمن الصدور، وتحمل صفحةَ العنوان عبارة "حقَّقه ووثَّق أصوله وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي!!!"[3].

---

[1] عسيلان، تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل، ص٧٧، ٧٩.

[2] لم أعثر على ترجمته، إلا أنه مؤلِّف كتاب "أوقفوا هذا العبث بالتراث"، وهو مشهور ومتداول بين أهل العلم.

[3] عسيلان، تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل، ص٧٧، ٧٩.

(ج) "التَّعالُم" في مجال التحقيق بالتطاوُل على كبار المحقِّقين الأعلام:

وكذلك من الأشكال العجيبة المؤسِفة لـ"التَّعالُم" في مجال التحقيق: التَّطاوُلُ على كبار المحقِّقين، ولعلَّ مِن أظهر الأمثلة في ذلك تطاوُلُ الدكتور تقي الدين النَّدْوِي[1] على العلامة المحقِّق المحدِّث الشيخ عبد الفتاح أبو غُدَّة – رحمه الله تعالى – في تحقيق كتاب "ظفر الأماني بشرح مختصر السيد الشريف الجرجاني في علم مصطلح الحديث"، وهو كتابٌ حفيلُ العلم، جليلُ القَدْر، وعِلْقٌ نفيسٌ جمُّ الفوائد، رفيعُ الذكر، من أواخر ما أَلَّفه الإمام النابغة محمد عبد الحي اللَّكْنَوِي[2] رحمه الله تعالى، شرح به "مختصرَ السيد الشريف الْجُرْجَانِي[3]" في مصطلح الحديث، شرحاً وافياً، وقد طُبع الكتابُ طبعةً حجريةً في عام ١٣٠٤هـ في مطبع "جَشْمَه فَيْض" في لَكْنو في الهند، ثم قام بتحقيقه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، معتمداً في ذلك على النسخة المذكورة، وكذلك مقابلاً نسخته المحقَّقة مع النسخة الخطية التي كانت بخط المؤلِّف.

وبينما كان الشيخ أبو غدة عاكفاً على تحقيق هذا الكتاب؛ إذ قام بإخراجه الدكتور تقي الدين الندوي بتحقيقه، وقد جاء تحقيقه مشحوناً بأفحش أشكال الأغلاط والأسقاط والتحريفات بحيث قد زاد عددُ الأغلاط فيه على عدد صفحات الكتاب بكثير، وفي ذلك يقول الشيخ أبو غدة: "إنَّ كتاب (ظفرالأماني بشرح مختصر السيد الشريف الجرجاني) للإمام محمد عبد الحي اللكنوي رحمه الله تعالى، من أجلِّ وأهمِّ ما أُلِّف في مصطلح الحديث من المتأخِّرين، وقد كنتُ قمتُ بخدمة هذا الكتاب الجليل من نحو عشرسنين، حُبّاً مني بآثار الإمام اللكنوي التي

---

[1] هو تقي الدين بن بدر الدين بن محمد حسن (من مواليد عام ١٩٣٤م): العالِم المؤلِّف، وُلد ببلدة "مُظَفَّرْ فُوْر" من مديرية "أعظم كره" في الهند. دَرَس في جامعة مظاهر العلوم بسهارنفور، ثم في دار العلوم ندوة العلماء بلكنؤ، ثم حصل على شهادة الدكتوراه في الحديث من جامعة الأزهر. عمل أستاذاً للحديث في جامعة الإمارات. ومن مؤلَّفاته: "علم رجال الحديث"، و"أعلام المحدّثين ومآثرهم العلمية". لقد قام بإشرافه بعضُ الطلاب بتحقيق العديد من الكتب في الحديث وعلومه. انظر لترجمته: الغوري، مقدمات الإمام أبي الحسن الندوي، ج١، ص١٣١.

[2] هو عبد الحي بن عبد الحليم اللكنوي (١٢٦٤-١٣٠٤هـ): علامة الهند، وإمام المحدِّثين والفقهاء فيها. وُلد ببلدة "بانْدَهْ"، واشتغل بالعلم على والده. سافر للحج والزيارة واستفاد من علماء الحرمين واستجاز منهم. كان متبحراً في العلوم النقلية والعقلية، ومتضلعاً من علم الحديث. توفي بلكنؤ. وله مؤلَّفات كثيرة في الفقه والحديث وغيرهما. انظر: عبد الحي الحسني، نزهة الخواطر، ج٨، ١٢٦٨، ١٢٧٠.

[3] هو علي بن محمد بن علي الحسيني، المعروف بالشريف الْجُرجاني: (٧٤٠-٨١٦هـ): الإمام المحقق، علامة العلوم العقلية. وُلد في "تاكو" قُرْب "استرآباد". ودرس في شيراز، وعاش مدةً في سمرقند، وتوفي بشيراز. له نحو خمسين مصنَّفاً، ومن أشهر مصنفاته: "التعريفات"، ورسالة في علم مصطلح الحديث، ورسائل في المنطق والفرائض. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٧.

قمتُ بالكثير منها تحقيقاً وطباعةً وإشاعةً، وحرصاً مني على تقريب فوائد هذا الإمام وفرائده إلى علماء بلاد العرب وطَلَبة العلم بها.

وقد أعلنتُ عن فراغي من خدمة هذا الكتاب وتوجُّهي لطبعه منذ أكثر من خمس سنين، في آخر غير كتابٍ من كُتُبي، وعَلِم بذلك أخصَّ العلمِ الدكتورُ تقي الدين الندوي، سمع ذلك مني مراراً، وقرأ إعلاني عنه في كتبي تكراراً.

ثم علمتُ أن الدكتور تقي الدين قد عزم على تحقيق الكتاب، ويتوجَّه به إلى طباعته وإخراجه، فأسفتُ جداً لهذه الانتهازية التي لا داعيَ لها، تقع ممن أعتدُّه صديقاً لي، ويعتبرني أستاذاً له، وممن ساعدتُه وقدّمتُ له جميلاً...، وأشَدُّ من هذه الانتهازية البَشِعَة أنَّ (تقي الدين الندوي) كانت منه مُحاوَلة خادعة كريهة استعملها معي – ولا أشرحها الآن – ليؤخِّر خروجَ الكتاب من طبعتي ويَسبَق بخروج الكتاب من طبعته.

فلما صدر الكتابُ من طبعته قلتُ: لعلّه يكون في تحقيقه غُنْيَةٌ عن طبع الكتاب بخدمتي، فأقف عن إخراجه؟ فلما وقفتُ على الكتاب أواخر سنة ١٤١٥هـ، وقرأتُه رأيتُ فيه العَجَبَ العُجَاب من الأخطاء العلمية، والأغلاط الفاحشة الْمُضحِكة والْمُحزِنة، سِوى الأسقاط والفرطات المطبعية الكثيرة، وسِوى المآخذ التي مرجعُها إلى الذوق وحُسْنِ الإخراج، وتبيَّن لي أنَّ مَأْتى كلٍّ ذلك في تحقيقه وتعليقه عِدَّةُ أسباب:

١) الغرورُ والإعجابُ بنفسه، واللهُ أعلَمُ بالسَّرائر.

٢) قِلَّةُ العلم والضَّعْفُ البيِّنُ في اللغة والإعراب وفنونِ الحديث.

٣) الاستهتارُ وقِلَّةُ المبالاةِ بتصحيح التَّجارُب.

٤) التعجُّلُ في إخراج الكتاب والمسابقةُ في ذلك!

ولكثرة ما وقفتُ عليه من الأخطاء، والأغلاط، والأسقاط وغيرها؛ تعيَّن عندي نقدُ الكتاب كلِّه، فقرأتُه كلَّه وقيّدتُ مواضعَ الْخَلَل، فجاء من ذلك هذا الكتاب الحافل! هذا مع عدم استقصائي للأخطاء، وعدمِ تعرُّضي للأمور التي مرجعُها الذَّوْق والوِجْدان!.

ثم رأيتُ نشر هذه الأخطاء أداءً لحقِّ العلم، وصيانةً لطلابه من سَرَيان الخطأ إليهم، ولتكون عِظَةً لمن تَجَرّؤوا على كتب التراث من غير تأهُّلٍ لخدمتها، وحِفاظاً على الكلمة العلمية مِن أن يُستهان بها وتُظلَم، وتبرئةً لمقام الإمام اللكنوي مِن أن تُمَدَّ إلى آثاره الْمُنِيْفَة يدُ استهتارٍ وقلةُ مُبالاةٍ"[1].

[1] عبد الحي اللكنوي، ظفر الأماني بشرح مختصر السيد الشريف الجرجاني في علم مصطلح الحديث، ص٧١٣، ٧١٤.

ثم أبدى الشيخ أبو غُدَّة أسفَه الشديد وحزنَ العميق على ما آل إليه حالُ الطَّلَبة في هذا العصر من تَعالُمٍ مقيتٍ وتَطاوُلٍ ذميمٍ على العلم وأهله والتراثِ وذخائره، فقال رحمه الله تعالى: "وهذا شأنُ كثيرٍ مِن طَلَبة هذا الزمان، فإنَّ قليلاً منهم إذا صاروا أو صُيِّروا أصحابَ الدَّال – الدكتوراه – يَخدعون أنفسهم، ويظنّون أنهم أمسَوْا قديرين على كلِّ عملٍ علميٍّ، مع بُعْدهم عن العلم وأدبِ العلم وهو التواضُعُ، ومنْزلتُهم في العلم أنهم لا يعلمون أنهم لا يعلمون...

وواقعُ الحال أنَّ غالِب حَمَلة هذه الشهادة يُدرِكون أنها مفتاح باب العلم، وليست شهادةَ نُضْجِه واكتماله، وأنَّ التمكُّن من العلم لا بُدَّ له من المتابعة والدرس والتبحُّر والتدقيق والانقطاع، مع صِحَّة الفهم وحُسْنِ التلقِّي بالسماع والمجالسة للعلماء المشهود لهم بالعلم والتحقيق"[1].

أقول: إنَّ لهؤلاء الْمُتعالِمين الْمُتشبِّعين، الكثيرَ من المضحكات المبكيات في سبيل سرقة الكتب العلمية وانتحالها، والسطو على جهود الآخرين في مجال التحقيق وخدمة التراث، والتي يقعون فيها رغماً عن أنفسهم، لتكون دلالاتٍ واضحةً ظاهرةً، وأماراتٍ بَيِّنَةً جليّةً، وعلاماتٍ نَيِّرَةً ساطعةً على جهلهم بهذا الفنِّ العظيم، وفَقْدِهم لهذه الموهبة الربانية الجليلة التي يُنعِم بها المولى تعالى على أهل خشيته وتقواه دون غيرهم من الناس، وهم العلماء وَرَثَةُ الأنبياء، وهل يَرِثُ الأنبياء أمثال هؤلاء؟!، وهل نأخذ ديننا وشريعةَ ربِّنا، وسُنَّةَ نبيِّنا ﷺ عن هؤلاء؟

ورحم اللهُ الإمامَ مالكاً إذ يقول كلمتَه القيمة الغالية النفيسة، كأنَّما هي – وربُّ الكعبة – الدُّرّ الساطع في نورها وضيائها، واللؤلؤ الباهر في حُسْنها وبهائها: "لا يُؤخَذ العِلمُ عن أربعةٍ:

١) سَفِيْهٍ يُعلِن السَّفَهَ وإنْ كان أَرْوَى النَّاسِ.

٢) وصاحبِ بِدْعَةٍ يَدعُو إلى هَوَاهِ.

٣) ومَن يَكْذِبُ في حديث النَّاس، وإنْ كنتُ لا أَتَّهِمُه في الحديث.

٤) وصالِحٍ عابدٍ فاضلٍ إذا كان لا يَحْفَظ ما يحدِّث به"[2].

فإذا كان هذا في الكذَّاب الذي يخشى من الكذب على رسول الله ﷺ ولا يفعل ذلك قطُّ، لكنه يَكذِب في حديث الناس فقط... يُترَك، ويُهجَر علمُه، ولا يُؤخَذ عنه أيُّ شيءٍ في الدين؛ لأن هذا العلم دينٌ، فانظروا عمن تأخذون دينكم، كما قال الإمام محمد بن سيرين (ت١١٠هـ) رحمة الله عليه[3].

---

[1] عبد الحي اللكنوي، ظفر الأماني، انظر الهامش في صفحة ٧١٤.

[2] الذهبي، سير أعلام النبلاء: للذهبي: (٦١/٨).

[3] أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح، باب بيان أن الإسناد من الدين، ص١٠، برقم (٢٦).

فكيف بربِّي نتداول كُتُبَ هؤلاء أو نقرأها، ونتدارسها لمعرفة الدين وأحكام الشرع؟، أو نقف صامتين أمام هذه الظاهرة الشَّعْواء، لتقع أمثال هذه الكتب بين أيدي أبنائنا، وفلذات أكبادنا، وتتداولها الأجيالُ جيلاً بعد جيلٍ، فلا يفرِّقون بين الغَثِّ والثمين، والجيِّد والفاسد، والصَّالِح والطَّالِح، وبذلك تَعُمّ الفوضى العلمية، وتستشري في المجتمعِ البلبلةُ الفكريةُ والاضطرابُ الثقافيُّ حيث فقد الناسُ الثقةَ في الكتب وأهلها، وهذه طامةٌ كبرى، ومصيبةٌ عظمى.

المطلب الثالث: "التَّعالُم" في مجال التعليم والتدريس والتوجيه والإفتاء:

و"التَّعالُم" في مجالات التعليم والتدريس، والتوجيه والإرشاد قد عمَّ وطمَّ، حيث تقحَّم هذه القنواتِ الرفيعةَ الجليلةَ، ووَلَج إلى هذه المداخل الشريفة الأصيلة: أناسٌ ليس لهم في العلم الشرعي كبيرُ إنعامٍ؛ لكنهم ومع ذلك امْتَطَوْا صَهْوَةَ التعليم والتدريس، وتَكالَبُوْا على منابر التوجيه والإرشاد، وتَسابَقُوا في ميدان الوعظ والإفتاء، إمعاناً منهم لتعليم الناس ما يَهُمُّهم من شؤون دينهم وقضايا دنياهم.

وهذه أمثلةٌ معاصرةٌ منتقاةٌ، وأدلةٌ حاضرةٌ شاهدةٌ لِما عليه واقعُ اليوم، وما يشتكيه حالُ الزمن، من كثرة هؤلاء المستعجلين للتدريس والإفتاء، المدَّعين للعلم والعلمُ منهم بريءٌ:

(أ) التَّعالُم" في مجال الإفتاء:

يقول الأستاذ أحمد بن سالم المصري[1] – وهو يتحدَّث عن موقف العصرانيين من الإفتاء واستنتاج أحكام القضايا المستجدة العصرية من الأدلة الشرعية – ما نصُّه: أنَّ أحد الفضلاء استدلَّ على جواز مواد التجميل (المكياج) بخبر جابرٍ ﷺ أنه أتى النبيَّ ﷺ وعليه أثرُ صُفْرَةٍ، فقال الرسول ﷺ: «مَا هَذَا يَا جَابِر؟»، فقال: تزوّجتُ يا رسول الله!.

فقال هذا الفاضل: "فهذه الصفرةُ مما عَلِقَ بوجهه من وجهِ امرأته". فقلت له: يا شيخنا! لعلَّ هذه الصفرة زعفران، وقد كان من عادتهم إذا تزوَّج الرجلُ أن يَتزعفَر حتى نهى النبيُّ ﷺ عن التزعفُر، وذكرتُ له قولَ سَعْد بن زيد مناة في أخيه مالك لَمّا تزوَّج:

يَظِلّ يوم وِرْدِها مُزَعْــفَراً   وهي خَناطيلٌ تَجُوْس الخضرا

[1] لم أعثر على ترجمته، إلا أنه من مصر، وله مؤلَّفات منها: "السُّبُل المرضية لطلب العلوم الشرعية".

فقال لي: "مِن أين جئتَ بهذا الكلام"؟ فقلتُ له: من "طبقات فحول الشعراء" لمحمد بن سلام الْجُمَحي (١/٣٠)، فقال لي: "أو نأخُذ ديننا من هذا العبثِ؟". فمنعني أدبي من إكمال الحوار وبيانِ الحجة.

وهذا مثالٌ واحدٌ على حالة الانفصال المشؤمة التي يتزعَّم لواؤها بعضُ المشتغلين بالعلم الشرعي اليوم[١].

(ب) "التَّعالُم" في مجال تعليم الناس أمورَ دينهم وتوجيهِهم وإرشادِهم فيما يَمُسّ أصولَ الإسلام وثوابته:

ذكر الشيخُ الفاضل جاسم الدوسري[٢] – وهو يبيِّن موقفَ هؤلاء في شِدَّة تحرِّيهم، وانهماكِهم المتهالك في البحث عن أقوال ساقطة، وآراء فَجَّة، ليَرفعُوا بذلك – وعلى حسب زعمهم – الحرج عن كثير من الناس الذين وقعوا في بعض المنكَرات – إذ قال: "ومِن أسْمَجِ ما وقفتُ عليه في ذلك ما ذكره الشيخ محمد حبيب الله الشِّنْقِيْطِيّ[٣] – سامحه الله – في كتابه "فتح المنعم" في بحثه عن تجويز لحَلْق اللِّحية، حيث قال: (ولَمّا عَمَّتْ البلوى بحَلْقها في البلاد المشرقية – حتى إنَّ كثيراً من أهل الديانة قلَّد فيها غيرَه خوفاً من ضحكِ العامة منه، لاعتيادهم حَلْقَها في عُرْفهم – بحثتُ غاية البحث عن أصلٍ أخرِّج عليه جوازَ حَلْقِها حتى يكون لبعض الأفاضل مندوحةٌ عن ارتكاب المحرَّم باتِّفاقٍ، فأجريتُه على القاعدة الأصولية، وهي أنَّ صيغة (افعلْ) في قول الأكثرين للوجوب، وقيل: للندب، وقيل: للقدر المشترك بين الندب والوجوب، وقيل بالتفصيل: فإن كانت من الله تعالى في القرآن فهي للوجوب، وإن كانت من النبيِّ ﷺ كما في الحديث هنا على الروايتين – وهما رواية «وَفِّرُوا»، ورواية «أَعْفوا» – فهي للندب)[٤].

وهذا القولُ حكايته تُغني عن التدليل على بُطلانه، فالشيخُ قد أقرَّ باتِّفاق العلماء على حرمة حَلْقِها، ثم سعى إلى تخريجٍ فاسدٍ ترتَّب عليه نسفُ جميعِ الأوامر النبوية حيث جوَّز مخالفتَها؛ لأنها تدلّ على الندب لا الوجوب كما يدَّعي، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

[١] وهذا الموقف ذكره الأستاذ أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري في كتابه "السُّبُل المرضية لطلب العلوم الشرعية"، ص٢٣٧.

[٢] سبقت ترجمته في المبحث الثاني من الفصل السادس، عند تعريفه لكتاب "زجر السفهاء".

[٣] هو محمد حبيب الله بن عبد الله بن أحمد ما يابى الشنقيطي الجكني المالكي (١٢٩٥ – ١٣٦٢هـ): أحد علماء بلاد "موريتانيا"، رحل من بلاده مهاجراً إلى المدينة المنوَّرة وجاور بها سنتين، توفي بمصر. وله مؤلفات عديدة، منها: "هدية المغيث في أمراء المؤمنين في الحديث"، و"زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم"، و"فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم". انظر: الزركلي، الأعلام، ج٦، ص٧٩.

[٤] ص١٩ و٢٠، نقلاً عن "فتح المنعم لبيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم" لحبيب الله الشنقيطي، ج١، ص١٧٩.

(ج) **"التَّعالُم" في إبداء الآراء الفاسدة والأقوال الغريبة الشاذة في القضايا الْحَرِجَة:**

كما ذكر الشيخُ جاسم الدوسري – حفظه الله تعالى – مثالاً آخر بَيِّنَ الدلالةِ على تمسُّك هؤلاء المفتين الْمُتعالِمين بآراء فاسدة، وأقوال غريبة شاذَّة، مخالفة أشدّ المخالفة للنصوص الشرعية الواضحة، حيث أفتى بعضُ هؤلاء بجواز الصُّلح مع اليهود، مع بقاء بيت المقدس وكثيرٍ من أراضي المسلمين في أيديهم – وبلغتْ بهم الوقاحةُ ورِقَّةُ الدين أنْ قاسوا هذا الصلح الفاسد بصلح النبيِّ ﷺ مع يهود خيبر، وشتّان ما بين صلح الذليل وصلح العزيز!"[1].

ثم يقول حفظه الله: "ورحم الله ابنَ المبارك إذ يقول:

ومن البلاء وللبلاء علامةٌ أن لا يُرَى لك عن هَوَاك نُزُوْعُ
العبدُ عبدُ النَّفْسِ في شهواتها والْحُرُّ يَشبَع مرةً ويَجُوْعُ

(د) **"التَّعالُم" في مجال التدريس والإفادة:**

ومن عجيب ما يُذكَر في مواقفهم في "التَّعالُم" – وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً – وقد نصبوا أنفسهم موضع الأُسْوَة والقُدْوَة لأجيال المسلمين ونشئهم وشبابهم، ثم هذه حكاياتُهم الغريبة المدهِشة تُساق إلى الناس فتجعلهم أضحوكةً تتسلَّى بها الأجيال وتتلهَّى، وتَسْوَدُّ بها صفحاتُ التاريخ وتُظلَم، ومن ذلك ما حكاه الشيخُ بكر عبد الله أبو زيد إذ قال: "وقد سمعنا بهذا عجائبَ يُسْتَحيَى مِن ذكرها، منها: أنَّ مُعَمَّماً دَهَش الطلابَ بعجيب استحضاره لرواة السُّنَن ومخرِّجيها، فكان يقول: (هذا الحديثُ، رواه عن النبي ﷺ كذا من الصحابة ﷺ، فيذكرهم، وأخرجه فلانٌ وفلانٌ).

وكانوا لا يوثِّقون قوله، استعظاماً أن يَختلِق مُعَمَّمٌ، وذكروا لي ذلك على سبيل الإعجاب به، فأرشدتُهم إلى التوثيق ففعلوا، فافتضح وتلاشى درسُه حتى ضاقَ به معقلُ العلمِ وهَرَب"[2].

فأين هؤلاء الكَذَبَة المتشبِّعون بما لم يُعْطَوْا من هَدْي السلف ﷺ في أمانتهم، وتحرِّيهم!.

خلاصة الفصل:

وفي هذا الفصل الذي هو آخرُ فصول هذا البحث؛ قدّمتُ في المبحث الأول منه بعونه تعالى، بعضَ النماذج والأمثلة من بطون كُتُب السِّيَر والتاريخ والتراجم مما وقفتُ عليه أثناء مُعايَشتي لهذا البحث، وقمتُ في المبحث الآخر منه بإيراد نماذجَ وأمثلةٍ معاصرةٍ لسطواتٍ علميةٍ وسرقاتٍ

[1] الدوسري، زجر السفهاء عن تتبع رخص الفقهاء، ص١٧.

[2] بكر بن عبد الله أبو زيد، التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب، ص٦٧.

فكريةٍ وانتحالاتٍ مختلفةٍ متنوّعةٍ لكتب العلم، وذخائرِ التراث ونفائسه، في كِلي مجالَيه المهمَّين: التأليف والتحقيق، كما قدّمتُ بعضَ النماذج الحيَّة لواقعنا الأليم، وحاضرِنا المرير، حيثُ "التَّعالُم" المستفحَل في أروقة العلوم والمعارف من المدارس والجامعات، وشكوى أجلة علمائنا وخيرة مفكرِّينا من ذلك.

الخاتمة

وبعد أنْ ساقني توفيقُ الله ﷻ وعونُه، وكريمُ مَنِّه وإحسانه لإتمام هذا البحث، ودراسةِ موضوعه "التَّعالُم: مظاهرُه وأخطاره في ضوء السُّنَّة النبوية"، فقد توصّلتُ من خلال معايشته إلى هذه النتائج والتوصيات، وهي كالتّالي:

أولاً: نتائج البحث:

١) عرَّف البحثُ "التَّعالُمَ" من حيث اللغة إذ معناه: "ادِّعاء العلم وإظهارُه ممن ليس من أهله"، كما عرَّفه أيضاً من حيث الاصطلاح بأنه: "ادِّعاءُ الإنسانِ العلمَ قبل التعلُّم الحقيقي، حيث لا يعرف مرتبةَ الدليل ولا مناطِه، ولا يعرف الفرقَ بين المجمَل والمبيَّن، والمطلَق والمقيَّد، والعامِّ والخاصِّ، والناسخ والمنسوخ، ثم يتجرَّأ على الخوض في كتاب الله وسُنّةِ رسول الله ﷺ، وأصولِ الإسلام"، ونتيجةً لذلك قد يقع في التكفير أو التفسيق أو التبديع.

٢) كما عرَّف البحثُ "الْمُتعالِمَ" بأنه شخصٌ يُظهِر نفسَه أنه عالِمٌ بالأمور الشرعية ودلائلها، وطرائقِ الاستنباط فيها، يدَّعي أنه كذلك وليس كذلك، ثم يتكلَّم في مسائل الأمة إمّا في قضاياها الكبار، أو في مسائل العلم الشرعية، وهو على هذه الحال، حيث إنه قليلُ البضاعة في العلم أو مُدَّعٍ للعلم وليس بعالِمٍ.

٣) أظهر البحث بعد دراسة الأحاديث النبوية الواردة في قضية "التَّعالُم" كالحديث الوارد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا»، وكالحديث الوارد عن عَمْرو بن تَغْلِب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَكْثُرَ التُّجَّارُ، وَيَظْهَرَ الْقَلَمُ»، وكالحديث الوارد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيَأْتِيْ عَلَى النَّاسِ سَنَواتٌ خَدَّاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيْهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيْهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيْهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيْهِ الأَمِيْنُ، وَيَنْطِقُ فِيْهَا الرُّوَيْبِضَةُ»، قِيْلَ: وَمَنْ الرُّوَيْبِضَةُ؟، قَالَ: «الرَّجُلُ التَّافِهُ، فِيْ أَمْرِ العَامَّةِ»: أنَّ "التَّعالُم" نُبُوْءَةٌ عظيمةٌ من نبوءات الرسول ﷺ، التي قد أخبر بوقوعها في آخر الزَّمان قُرْب يوم القيامة، وقد تحقَّقت هذه النبوءة، ووقعتْ تماماً كما أخبر بها عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي هذا أعظَمُ الدلالة على صِدق الرسالة المحمدية وإعجازِها وكمالها.

٤) أثبت البحثُ أنَّ "التَّعالُم" قد ظهر في أعظم مجالات العلم وأجلِّها وأخطرِها، وأهمِّ قنوات المعرفة وأفضلِها وأشرفِها، وهي المتعلقة بالتعليم والتدريس، والتأليف والتحقيق، والقضاء والإفتاء.

٥) بيَّن البحثُ أنَّ صفات "الْمُتعالِم" يمكن إجمالُها فيما يلي: الكذبُ والادِّعاء، والتشبُّعُ بما لم يُعْطَ، والغِشُّ والتدليس، والخداعُ والتشغيب، والتطاوُلُ باللِّسان والتسلُّطُ به على العباد، وادِّعاءُ العلم والتزيُّدُ منه والتكاثُرُ دون ابتغاء العمل به، والاستماتةُ وراء الشهرة والظهور، إعجاباً بالنفس وتِيْهاً وغروراً.

٦) أوضح البحثُ أنَّ أسباب ودوافع "التَّعالُم" مختلفةٌ وعديدةٌ، لكنَّ مِن أبرزها: الرغبةُ الجامِحةُ في التكسُّب والارتزاق عبر قنوات العلوم الدينية ومجالاتِ المعرفة الشرعية، والخلطُ وعدمُ التفريق بين أهل العلم والتمكُّنِ من أهل الرسوخ والثَّبات وبين طَلَبَة العلم المبتدئين وغيرهم، وضعفُ الإيمان والتَّقوى في النفوس، وفقدانُ المنهج العلمي التأصيلي الصحيح، والاستماتةُ الشديدةُ في سبيل الشُّهْرَة والمكانة، وظهورُ وسائل الإعلام المختلفة المسموعة والمرئية والمقروءة، والفضائيات المتنوّعة باتّجاهاتها العديدة المتغايرة، وغير ذلك.

٧) بيَّن البحثُ موقف علماء المسلمين قديماً وحديثاً نحو هذه القضية الخطيرة إذ أنهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي ومُلجَمي الألسنة؛ بل قاموا بجهود مشكورة، ومساعٍ حميدة، عبر التأليف والتصنيف الواعي الجادّ، وعن طريق عقد الندوات والمؤتمرات حول هذه القضية لتوعية النَّشْءِ والأجيال بآثارها ومخاطرها، وللحِفاظِ على مكانة العلم والكُتُب والتراث.

٨) أبرز البحثُ أنَّ آثار "التَّعالُم" وأخطاره ونتائجه أليمةٌ غاية الألم للفرد الْمُتعالِم نفسه أولاً، ومؤلمةٌ حقّ الإيلام للمجتمع الإسلامي بأكمله ثانياً، إذ أنه وعلى مستوى الفرد الْمُتعالِم يؤدِّي إلى اتِّصافه بالأخلاق المذمومة، من كذبٍ وادِّعاء، وغِشٍّ وخداع، وعُجْبٍ وغرور، وغير ذلك، كما أنه يعرِّضه كذلك لغضب الله وسخطِه في الدنيا وأليمِ عقابه في الآخرة. أمّا من حيث آثاره على المجتمع فقد يؤدِّي إلى فَقْد الناسِ الثقةَ في الكتب والمؤلَّفات كما يُوقِع الكُرْهَ والنُّفْرَةَ في قلوب الناشئة للعلم والتدريس، ومِن أخطر آثاره كذلك أنه ذريعةٌ إلى تبديل الدِّين وتحريفِ الشرع، وكلُّ هذا يؤدِّي إلى حصول فوضى دينية علمية، وفكرية ثقافية، في المجتمع الإسلامي، كما يؤدِّي إلى انحطاط وتدهور قِيَمِه وأصوله، وثوابتِه ومفاهيمه.

٩) قام البحثُ بدراسة بعض الجهود التأليفية لعلماء الإسلام قديماً وحديثاً، حول قضية "التَّعالُم" فمن الكتب القديمة: كتابُ "تلبيس إبليس" لابن الْجَوْزي، و"مُعِيد النِّعَم ومُبِيد النِّقَم" لتاج الدين السُّبْكي، و"فضل علم السَّلَف على علم الْخَلَف" لابن رجب الحنبلي، وغير ذلك. ومن الكتب الحديثة: كتابُ "التعليم والإرشاد" لمحمد بدر الدين الحلبي، و"نموذج من الأعمال الخيرية في إدارة الطباعة المنيرية" لمحمد منير الدمشقي، و"سِرّ انحلال الأمة العربية ووهن المسلمين" لمحمد سعيد العُرْفي، وغير ذلك.

١٠) قدَّم البحثُ أمثلةً عديدةً، ونماذجَ متنوّعةً على قضية "التَّعالُم" في غابر الزمن وحاضره، الأمرُ الذي يُثبِت وجودَ هذه القضية بمساوئها ومخاطرها بين أفراد الأمة منذ أنْ انتهى عهد القرون الْخَيِّرَة، وإلى وقتنا المعاصر.

ثانياً: توصيات البحث:

١) تكثيفُ الدراسات البحثية المتعلقة بمثل هذه الفِتَن المعاصرة والظواهر الحديثة التي غزتْ المجتمعَ الإسلامي وحاربتْه في علومه ومعارفه، وكُتُبِه وتراثه، وعقولِ أبنائه وأفكار نشئه؛ وذلك لإيجاد الحلول العصرية المناسبة لإيقاف هذه الظواهر والفِتَن وسدِّها عن المجتمع وحدِّها عنه، ووِقايةِ الأبناء والنَّشْءِ وحمايتهم منها.

٢) ضرورةُ توعية المجتمع بأكمله بمخاطر هذه الفِتَن وآثارها الأليمة من خلال وسائل الإعلام المختلفة المقروءة والمرئية والمسموعة، ومن خلال الكتابة المتخصِّصة فيه، والخطابةِ على منابر الدعوة والإبلاغ، والتوجيهِ والإرشاد في جميع المحافل والمنتديات المتيسّرة والمتاحة.

٣) الحفاظُ على عُلُوِّ مرتبة التأليف والتصنيف والتحقيق، ورِفْعةِ شأنها، وشرفِ مكانتها، وتحقيقِ هيبة هذه المجالات ووقارها؛ وذلك بالتأكيد والتوجيه إلى التأليف والتصنيف الواعي الجادّ، والتحقيق العلمي الخالص لكتب التراث، خاصةً فيما يتعلَّق منها بالعلوم الشرعية، والمعارف النبوية السَّنِيَّة.

٤) عدمُ فتح الباب على مِصْراعَيْه لكلِّ من هَبَّ ودَبَّ ممن يريد أن يُدلِي بدَلْوه في هذه المجالات الدينية العلمية المشرَّفة المحترَمة، ليَعبَث ويلعب كما يحلو له وكما يشاء، بزعم أنه يؤلِّف ويصنِّف ويحقِّق؛ بل ينبغي على أهل الحلِّ والعقد من الأمراء والعلماء الضربُ بيَدٍ من حديدٍ على أيدي هؤلاء العابثين الْمُتعالِمين، حيث يَلْهُون بتراث الأمة وفكرها، وعلومِها وثقافاتها.

٥) تنظيمُ عملية التأليف والتحقيق؛ وذلك بالتفعيل الجادّ لدور أهل العلم المتمكِّنين، وذوي الخبرة المتمرِّسين، وإعطائهم حقَّ المراقَبة الدقيقة الفعّالة، والنقد العلمي البنّاء النَّزيه لكل ما يصدر من مؤلَّفاتٍ ومصنّفاتٍ وتحقيقاتٍ، فيقبلون ويُثنون على الجيّد الصالح، ويحذِّرون ويطرحون الرَّدِيء الفاسد.

٦) الإشادةُ بجهود الأغيار من أبناء الأُمّة ذوي الإحساس بآلامها ومشاكلها، وأصحاب الهمِّ والفكر لغَدِها ومستقبلها، أولئك الجنود الأشدّاء الذين يسهرون لراحتها، ويجتهدون لرخائها، مَن أَضْناهم الكَدُّ والتعبُ، وأرهقهم الجِدُّ والنصبُ، كلٌّ ذلك في سبيل نهضة أمة الإسلام ورُقِيِّها، وتوعيةِ أفرادها ونشئها، وتصفيةِ المجتمع وتنقيتِه من الشوائب والأكدار... من أمثال: الشيخَين الفاضلين والأخوَين النبيلين أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر، والشيخ الغَيور بكر عبد الله أبي زيد، والعالِم الرَّبّاني الشيخ عبد الفتاح أبي غُدَّة، والعالِم الموسوعي الأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمري، وفضيلة الأستاذ الدكتور فاروق حمادة.

هذه هي أهَمُّ النتائج التي توصّلتُ إليها من خلال هذا البحث، وأهَمُّ التوصياتِ التي أرى العملَ عليها في المستقبل.

وختاماً أسأل الله تعالى أن يتقبَّل عملي هذا، ويجعله في موازين حسناتي يوم القيامة يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاَّ مَن أتى اللهَ بقلب سليم، وصلَّى اللهُ على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع

١) ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، **المصنف**، تحقيق: محمد عوامة، ط١، جدة: دار القبلة.

٢) ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن الجزري. (١٣٠٣هـ. **الكامل في التاريخ**. ط١. القاهرة: الطبعة الأزهرية.

٣) ابن الأثير، أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد الجزري. (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م). **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: خليل مأمون شيحا. ط٣. بيروت: دار المعرفة.

٤) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني. (١٤١٢هـ). **مجموع الفتاوى**، ترتيب: عبد الرحمن بن قاسم وابنه. ط٢. الرياض: دار عالم الكتب.

٥) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني. (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م). **النبوات**، تحقيق: عبد العزيز بن صالح طويان. ط١. الرياض: أضواء السلف.

٦) ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي الدمشقي. (١٣٩٨هـ). **شرح علل الترمذي**. تحقيق: نور الدين عتر. ط١. دمشق: دار الملاح.

٧) ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكناني. (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م). **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**. تحقيق: محمد بن مهدي العجمي. ط٢. بيروت: دار البشائر الإسلامية.

٨) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي. (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). **تلبيس إبليس**. ط١. بيروت: دار ابن حزم.

٩) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي. (١٤١٢هـ). **المنتظَم في تاريخ الأمم والملوك**. تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٠) ابن الحاجب، جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر الدويني. (١٤١٥هـ). **الشافية في علم التصريف**. تحقيق: حسن أحمد العثمان. ط١. بيروت: دار البشائر الإسلامية.

١١) ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي. (١٤١٨هـ/١٩٩٧م). **الصحيح**. ترتيب: علاء الدين علي بن بلبان الفارسي. تحقيق: شعيب الأرناؤوط. ط٣. بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٢) ابن حجر، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني. (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م). **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز. ط٤. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٣) ابن حجر، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني. (١٩٦٩م). **إنباء الغمر بأبناء العمر**. **ط١**. حيدرآباد: دائرة المعارف.

١٤) ابن حجر، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني. (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م). **تهذيب التهذيب**. تحقيق: إبراهيم زيبق وعادل مرشد. ط١. بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٥) ابن حجر، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني. (د. ت). **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**. تحقيق: محمد سيد جاد الحقّ. ط١. القاهرة: أم القرى للطباعة والنشر.

١٦) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري.(١٩٧٨م). **كتاب الأخلاق والسير ومداواة النفوس**. تحقيق: عبد الحق التركماني. ط١. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

١٧) ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الأشبيلي الأندلسي. (٢٠٠٦م). **مقدمة ابن خلدون**. تحقيق علي وافي. ط٣. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة.

١٨) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر. (٢٠٠٩م). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. تحقيق: إحسان عباس. ط٥. بيروت: دار صادر.

١٩) ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد الدمشقي. (١٤٠٣ه/١٩٨٣م). **فضل علم السلف على علم الخلف**. تحقيق: يحيى محمد غزاوي. ط١. بيروت: دار البشائر الإسلامية.

٢٠) ابن السراج، أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي. (١٤٠٧ه). **الأصول في النحو**. تحقيق: عبد الحسين الفتلي. ط٢. بيروت: مؤسسة الرسالة.

٢١) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الأندلسي. (١٤٣٠ه). **جامع بيان العلم وفضله**. تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. ط٨. الرياض: دار ابن الجوزي.

٢٢) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي. (١٤١٨ه/١٩٩٧م). **تاريخ مدينة دمشق**. ط١. بيروت: دار الفكر.

٢٣) ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد العُكري الدمشقي. (١٤١٣ه/١٩٩٢م). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. تحقيق: محمود الأرناؤط. ط١. دمشق: دار ابن كثير.

٢٤) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين. (١٣٩٩ه/١٩٧٩م). **معجم مقاييس اللغة**. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ط١. دمشق: دار الفكر.

٢٥) ابن فرحون، إبراهيم بن علي. (١٩٧٢م). **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**. ط١. القاهرة: دار التراث.

٢٦) ابن قدامة المقدسي، أبو محمد موفق الدين عبد الله الدمشقي. (١٤٠٣ه). **المغني**. ط١. بيروت: دار الكتاب العربي.

٢٧) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبو بكر بن أيوب الدمشقي. (١٤٢٧ه/٢٠٠٦م). **إعلام الموقعين عن رب العالمين**. تحقيق: رائد بن صبري بن أبي عَلفة. ط١. الرياض: دار طيبة.

٢٨) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبو بكر بن أيوب الدمشقي. (١٤٢٢ه/٢٠٠١م). **إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان**. تحقيق: بشير محمد عيون. ط٢. دمشق: مكتبة دار البيان.

٢٩) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبو بكر بن أيوب الدمشقي. (١٤٢٨ه). **الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية**. تحقيق: محمد بن عبد الرحمن العريفي وآخرين. ط١. مكة المكرمة: دار عالم الفوائد.

٣٠) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبو بكر بن أيوب الدمشقي. (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م). **كتاب الفوائد**. ط٢. بيروت: دار الكتب العلمية.

٣١) ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي. (١٤١٦هـ/١٩٩٦م). **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة**. تحقيق: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري. ط١. الرياض: دار عفان.

٣٢) ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي. (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م). **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. ط١١. حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية.

٣٣) ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي. (١٣٩٣هـ/١٩٧٨م). **البداية والنهاية**. ط١. بيروت: دار الفكر.

٣٤) ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي. (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). **تفسير القرآن العظيم**. تحقيق: السيد محمد السيد ووجيه محمد أحمد وآخرين. ط١. القاهرة: دار الحديث.

٣٥) ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد الربعي ابن ماجه القزويني. (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م). **السنن**. ط١. الرياض: دار السلام.

٣٦) ابن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي. (د.ت.). **كتاب الزهد**. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

٣٧) ابن منظور، محمد بن منظور بن مكرم الإفريقي المصري. (١٤١٧هـ). **لسان العرب**. ط٢. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٣٨) أبو الأشبال، أحمد بن سالم المصري. (١٤٣٢هـ/٢٠١١م). **السُّبُل المرضية لطلب العلوم الشرعية**. ط١. القاهرة: دار الفاروق.

٣٩) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني. (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م). **السنن**. ط١. الرياض: دار السلام.

٤٠) أبو صعيليك، محمد عبد الله. (١٤١٦هـ/١٩٩٥م). **جهود المعاصرين في خدمة السنة النبوية المشرفة**. ط١. دمشق: دار القلم.

٤١) أبو غدة، عبد الفتاح أبو غدة الحلبي. (١٤١٢هـ). **الإسناد من الدين**. ط١. حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية.

٤٢) أبو غدة، عبد الفتاح أبو غدة الحلبي. (١٤٣١هـ). **صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل**. ط٣. حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية.

٤٣) أبو غدة، عبد الفتاح أبو غدة الحلبي. (١٤١٧هـ). **لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث**. ط١. حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية.

٤٤) أبو غدة، عبد الفتاح أبو غدة الحلبي. (١٤٣٩هـ/٢٠٠٩م). **قيمة الزمن عند العلماء**. ط١٣. حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية.

٤٥) أبو غدة، عبد الفتاح أبو غدة الحلبي. (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م). **قيمة الزمن عند العلماء**. ط١٠. حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية.

٤٦) الأحدب، خلدون بن محمد سليم. (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). **سوانح وتأملات في قيمة الزمن**. ط٢. جدة: مكتبة الوفاء.

٤٧) أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله. (١٤١١هـ). **المسند**. تحقيق: شعيب الأرناوط وآخرين. بيروت: مؤسسة الرسالة.

٤٨) أحمد الصويان. (١٤١٦هـ). **الكتاب الإسلامي المعاصر: نظرات نقدية**. ط١. الرياض: دار طيبة.

٤٩) أحمد محمد شاكر. (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). **عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير**. ط٢. المنصورة: دار الوفاء.

٥٠) أحمد محمد نور سيف. (١٤١٨هـ/١٩٩٨م). **من أدب المحدِّثين في التربية والتعليم**. ط٢. دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث.

٥١) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد. (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م). **تهذيب اللغة**. تحقيق: عبد السلام محمد هارون وآخرين. ط١. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٥٢) الألباني، محمد ناصر الدين الألباني. (١٤١٧هـ/١٩٩٦م). **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة**. ط١. الرياض: مكتبة المعارف.

٥٣) الألباني، محمد ناصر الدين. (١٣٨٨هـ). **صحيح الجامع الصغير وزياداته**. ط١. بيروت: المكتب الإسلامي.

٥٤) الألباني، محمد ناصر الدين. (١٤١٧هـ/١٩٩٧م). **صحيح سنن ابن ماجه**. ط١. الرياض: مكتبة المعارف.

٥٥) الألباني، محمد ناصر الدين. (١٤١٩هـ/١٩٩٨م). **صحيح سنن أبي داود**. ط١. الرياض: مكتبة المعارف.

٥٦) الألباني، محمد ناصر الدين.(١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م). **صحيح سنن الترمذي**. ط١. الرياض: مكتبة المعارف.

٥٧) الألباني، محمد ناصر الدين. (١٤١٩هـ/١٩٩٨م). **صحيح سنن النسائي**". ط١. الرياض: مكتبة المعارف.

٥٨) الألباني، محمد ناصر الدين. (١٤١٧هـ/١٩٩٧م). **ضعيف سنن ابن ماجه**. ط١. الرياض: مكتبة المعارف.

٥٩) الألباني، محمد ناصر الدين. (١٤١٩هـ/١٩٩٨م). **ضعيف سنن أبي داود**. ط١. الرياض: مكتبة المعارف.

٦٠) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي. (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩.). في **الأدب المفرد**. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط٥. بيروت: مؤسسة الريان.

٦١) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي. (١٤٢٨ه/٢٠٠٧م). **الجامع المسنَد الصحيح**. ط٥. بيروت: دار الكتب العلمية.

٦٢) بكر بن عبد الله أبو زيد. (١٤١٦ه). **التَّعالُم وأثره على الفكر والكتاب**. ط١. الرياض: دار العاصمة.

٦٣) بكر بن عبد الله أبو زيد. (١٤١٦ه). **تغريب الألقاب العلمية**. ط١. الرياض: دار العاصمة.

٦٤) بكر عبد الله أبو زيد. (١٤١٦ه). **الرقابة على التراث**. المنشور في ضمن رسائل تحت عنوان "المجموعة العلمية". ط١. الرياض: دار العاصمة.

٦٥) بكر بن عبد الله أبو زيد. (١٤١٤ه). **الردود**. ط١. الرياض: العاصمة.

٦٦) بكر بن عبد الله أبو زيد. (١٤١٦ه). **فقه النوازل**. ط١. بيروت: مؤسسة الرسالة.

٦٧) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي. (١٤٠٥ه). **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**. تحقيق: مصطفى السقا. ط٣. بيروت: عالم الكتب.

٦٨) البوصيري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر. (١٤٢٤ه). **مصباح الزجاجة في زوائد سنن ابن ماجه**". تحقيق: عوض بن أحمد الشهري. ط١. المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلامية.

٦٩) البوطي، محمد سعيد رمضان. (١٤١٤ه). **قضايا فقهية معاصرة**. ط٥. دمشق: مكتبة الفارابي.

٧٠) البيومي، محمد رجب. (١٤١٥ه/١٩٩٥م). **النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين**. ط١. دمشق: دار القلم.

٧١) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي. (١٤٢٠ه/١٩٩٩م). **السنن**. ط١. الرياض: دار السلام.

٧٢) التويجري، محمود بن عبد الله. (١٣٩٤ه). **إتحاف الجماعة بما جاء في الفِتَن والملاحم وأشراط الساعة**. ط١. الرياض: مطابع الرياض.

٧٣) التهانوي، محمد علي الهندي. (١٩٩٦م). **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**. ط١. بيروت: مكتبة لبنان.

٧٤) الجاحظ، عمرو بن بحر أبو عثمان. (١٩٩٥م). **الرسائل السياسية**. تحقيق: علي أبو ملحم. ط٣. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

٧٥) الجرجاني، على بن محمد بن علي. (١٤١٨ه/١٩٩٨م). **كتاب التعريفات**. تحقيق: إبراهيم الأبياري. ط٤. بيروت: دار الكتاب العربي.

٧٦) الجزائري، أبو القاسم سعد الله. (١٩٨٦م). **شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون: داعية السلفية. ط١**. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

٧٧) الجزائري، حمد بن محيي الدين بن مصطفى الحسني. (١٤٢٥ه/٢٠٠٤م). **نشر الدر وبسطه في بيان كون العلم نقطة**. تحقيق: أحمد فريد المزيدي. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

٧٨) جمعة علي عبد القادر. (١٤٢٤ه). **معالم سور القرآن وإتحافات درره: نظرة جديدة فى التفسير الموضوعي للقرآن سورة سورة**. ط١. القاهرة: المؤلف.

٧٩) الجندي، أدهم. (١٩٥٤م). **أعلام الأدب والفن**. ط١. دمشق: مطبعة مجلة صوت سورية.
٨٠) الجهني، مانع بن حماد. (١٤١٨هـ). **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**. ط٣. الرياض: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع.
٨١) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي. (١٤١٤هـ/١٩٩٤م). **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**. ط١. بيروت: دار الفكر.
٨٢) الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. (٢٠٠٩م). **المستدرك على الصحيحين**. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. ط٤. بيروت: دار الكتب العلمية.
٨٣) الحفني، عبد المنعم الحفني. (١٤١٣هـ/١٩٩٣م). **موسوعة الفِرَق والجماعات والمذاهب الإسلامية**. ط١. القاهرة: دار الرشاد.
٨٤) الحلبي، محمد بدر الدين. (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م). **التعليم والإرشاد**. ط١. القاهرة: مطبعة السعادة.
٨٥) الحلوجي، عبد الستار. **دراسات في الكتب والمكتبات**. (١٤٠٨هـ). ط١. جدة: مكتبة مصباح.
٨٦) الحملاوي، أحمد بن محمد بن أحمد. (د.ت). **شذى العرف في فنّ الصرف**. ط١. بيروت: المكتبة الثقافية.
٨٧) الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي. (١٩٩٣م). **معجم الأدباء**. تحقيق: إحسان عباس. ط١. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
٨٨) الخطابي، أبو سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي. (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م). **إصلاح غلط المحدّثين**. تحقيق: حاتم صالح الضامن. ط٣. بيروت: مؤسسة الرسالة.
٨٩) الخطابي، أبو سليمان حَمْد بن محمد الخطابي البُسْتي. (١٤٠١هـ). **معالم السنن**. ط٢. بيروت: المكتبة العلمية.
٩٠) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت. (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م). **اقتضاء العلم والعمل**. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط٥. بيروت: المكتب الإسلامي.
٩١) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت. (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤). **تاريخ بغداد**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. ط٢. بيروت: دار الكتب العلمية،
٩٢) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت. (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م). **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**. تحقيق: محمود الطحان. ط١. الرياض: مكتبة المعارف.
٩٣) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت. (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م). **الرحلة في طلب الحديث**. تحقيق: نور الدين عتر. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.
٩٤) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (١٩٧١م). **شرف أصحاب الحديث**". تحقيق: محمد سعيد خطيب أوغلو. ط١. أنقرة: كلية الإلهيات.
٩٥) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت. (١٤١٧هـ). كتاب **الفقيه والمتفقه**". تحقيق: عادل بن يوسف العزازي. ط١. الرياض: دار ابن الجوزي.

٩٦) الدارمي، محمد عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي. (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م). **السنن**. تحقيق: مصطفى ديب البغا. ط١. دمشق: دار المصطفى.

٩٧) الدمشقي، محمد منير عبده آغا. (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م). **نموذج من الأعمال الخيرية في إدارة الطباعة المنيرية**. ط٢. الرياض: مكتبة الإمام الشافعي.

٩٨) الدوسري، جاسم الفهيد. (١٤١٣هـ/١٩٩٢م). **زجر السفهاء عن تتبع رخص الفقهاء**. ط٢. بيروت: دار البشائر الإسلامية.

٩٩) الدوسري، منيرة محمد بن ناصر. (١٤٢٩هـ). **أسماء سور القرآن وفضائلها**. ط٢. الرياض: دار ابن الجوزي.

١٠٠) الديسي، أبو القاسم محمد الحفناوي بن أبي القاسم. (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م). **تعريف الخلف برجال السلف**. ط١. الجزائر: مطبعة بيير فوقتانة الشرقية.

١٠١) الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقي (١٣٣٣هـ/١٩١٥م). **تذكرة الحفاظ**. ط١. حيدرآباد: دائرة المعارف العثمانية.

١٠٢) الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقي. (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م). **سير أعلام النبلاء**. تحقيق: شعيب الأرناؤوط. ط١. بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٠٣) الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقي. (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م). **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**. تحقيق: علي محمد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود. ط٢. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٠٤) الراغب الأصبهاني، الحسين بن مفضل بن محمد. (١٤٣٠هـ). **مفردات ألفاظ القرآن**. تحقيق: صفوان عدنان داودي. ط٤. دمشق: دار القلم.

١٠٥) الرحيلي، أحمد بن نجا. (١٤٣٣هـ). **إلى كل طالب علم ... إلى كل جاهل، حكايتي حكاية من تزبَّب قبل أن يتحصرم**. ط١. الرياض: دار طيبة الخضراء.

١٠٦) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني البلجرامي الهندي. (١٤١٣هـ/١٩٩٣م). **تاج العروس من جواهر القاموس**. ط١.الكويت: وزارة الإعلام.

١٠٧) الزرقاني، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف. (١٤١٧هـ/١٩٩٦م). **شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٠٨) الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر. (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م). **المنثور في القواعد**. تحقيق: تيسير فائق أحمد محمود. ط٢. الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

١٠٩) الزركلي، خير الدين. (١٩٩٧م.). **الأعلام**. ط١٢.بيروت: دار العلم للملايين.

١١٠) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي. (١٣٢٤هـ). **الطبقات الشافعية**. ط١. القاهرة: المطبعة الحسينية.

١١١) الساكت، طه بن محمد. (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م). **من ذخائر السنة النبوية**. جمع وترتيب: مجد بن أحمد المكي. ط١. جدة: دار نور المكتبات.

١١٢) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي. (١٣٨٣هـ/١٩٦٤م). **طبقات الشافعية الكبرى**. ط١. القاهرة: مطبعة البابي الحلبي.

١١٣) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب. (د.ت). **طبقات الشافعية الكبرى**. تحقيق: محمود الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو. ط١. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

١١٤) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب. (١٤١٣هـ/١٩٩٣م). **معيد النعم ومبيد النقم**. تحقيق: محمد علي النجار وآخرين. ط٢. القاهرة: مكتبة الخانجي.

١١٥) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن. (١٤١٩هـ). **الجواهر الدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**. تحقيق: إبراهيم باجس. ط١. بيروت: دار ابن حزم.

١١٦) السخاوي، أبي الخير شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. (د.ت). **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**. ط١. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

١١٧) السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن. (١٤٢٦هـ). **فتح المغيث بشرح ألفية الحديث**. تحقيق: عبد الكريم بن عبد الله الخضير ومحمد بن عبد الله بن فهيد. ط١. الرياض: دار المنهاج.

١١٨) السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن. (١٤١٢هـ/١٩٩١م). **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**. تحقيق: عبد الله محمد الصديق. ط٢. القاهرة: مكتبة الخانجي.

١١٩) السدحان، عبد العزيز بن محمد عبد الله. (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م). **معالم في طريق طلب العلم**. ط٣. الرياض: دار العاصمة.

١٢٠) السعدي، عبد الرحمن ناصر. (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. ط١. القاهرة: دار الحديث.

١٢١) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف. (١٤٣٢هـ/٢٠١١م). **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**. تحقيق: أحمد محمد الخراط. ط٣. دمشق: دار القلم.

١٢٢) سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي. (١٤١١هـ/١٩٩١م). **الكتاب**. تحقيق عبد السلام هارون. ط١. بيروت: دار الجيل.

١٢٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م). **أدب الفُتيا**. تحقيق: محي الدين هلال السرحان. ط١. القاهرة: دار الآفاق العربية.

١٢٤) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (د.ت). **التعريف بآداب التأليف**. تحقيق: مرزوق على إبراهيم. ط١. القاهرة: مكتبة التراث الإسلامية.

١٢٥) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (١٤١٩هـ/١٩٩٨). **الفارق بين المصنِّف والسارق**. تحقيق: هلال ناجي. ط١. بيروت: عالَم الكتب.

١٢٦) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي. (١٤١٢هـ/١٩٩٢م). **الاعتصام**. تحقيق: سليم الهلالي. ط١. الرياض: دار ابن عفان.

١٢٧) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي. (١٩٦٨م.). **الموافقات**. تحقيق عبد الله دراز. ط١. بيروت: دار المعرفة.

١٢٨) الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس المطلبي القرشي. (١٩٩٣م). **الرسالة**. تحقيق: أحمد شاكر. ط١. دمشق: دار الفكر.

١٢٩) الشربيني، شمس الدين محمد بن محمد الخطيب. (١٤١٤هـ/١٩٩٤م). **الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع**. بهامش بجيرمي على الخطيب. تحقيق: علي محمد معوض عادل أحمد عبد الموجود. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٣٠) شكيب أرسلان. (١٩٨٥م). **لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدَّم غيرهم؟**. ط١. القاهرة: دار البشير.

١٣١) الشنقيطي، محمد حبيب الله بن عبد الله بن أحمد ما يابى الجكني المالكي. (د.ت). **فتح المنعم لبيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم**. ط١. القاهرة: مؤسسة الحلبي.

١٣٢) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد اليماني. (١٤١٩هـ/١٩٩٨م). **أدب الطلب ومنتهى الأرب**. تحقيق عبد الله يحيى السريحي. ط١. بيروت: دار ابن حزم.

١٣٣) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد اليماني. (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م). **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**. تحقيق: محمد حسن حلاق. ط٢. دمشق: دار ابن كثير.

١٣٤) الشهراني، حسين بن معلوي. (١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م). **حقوق الاختراع والتأليف في الفقه الإسلامي**. ط١. الرياض: دار طيبة.

١٣٥) الصفدي، صلاح الدين بن خليل بن أيبك الصفدي. (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م). **الوافي بالوفيات**. ط١. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٣٦) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. (١٤١٥هـ/١٩٩٥م). **المعجم الأوسط**. تحقيق: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد. ط١. القاهرة: دار الحرمين.

١٣٧) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. (١٤٣١هـ/٢٠١٠م). **المعجم الكبير**. تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. ط١. بيروت: مؤسسة الريان.

١٣٨) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م). **المعجم الصغير**. ط١. القاهرة: دار النصر.

١٣٩) الطوفي، سليمان بن عبد القوي. (١٤١٠هـ). **شرح مختصر الروضة**. تحقيق: عبد الله التركي. ط١. بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٤٠) الطيالسي، سليمان بن داود بن الجارود. (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م). **المسند**. تحقيق: محمد بن عبد المحسن التركي. ط١. جيزة: هجر للطباعة والنشر.

١٤١) العامري، أبو الحسن محمد بن أبي ذرّ يوسف النَّيْسابوري. (١٩٧٩م). **الأمد على الأبد**. ط١. بيروت: دار الكندي.

١٤٢) عبد الحي بن فخر الدين الحسني. (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م). **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**. ط١. بيروت: دار ابن حزم.

١٤٣) عبد الرزاق الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام. (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م). **المصنَّف**. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. ط٢. بيروت: المكتب الإسلامي.

١٤٤) عبد الستار الشيخ. (١٤٣٢هـ/٢٠١١م). **نبوءات الرسول ﷺ دروس وعِبَر**. ط١. دمشق: دار القلم.

١٤٥) عبد السلام محمد هارون. (١٤١٨هـ/١٩٩٨م). **تحقيق النصوص ونشرها**. ط٧. القاهرة: مكتبة الخانجي.

١٤٦) عبد السلام محمد هارون. (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م). **قطوف أدبية: دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث**. ط١. القاهرة: مكتبة السنة.

١٤٧) عبد الله العقيل. (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م). **من أعلام الدعوة والحركة المعاصرة**. ط٧. جدة: دار البشير.

١٤٨) عتر، نور الدين الحلبي. (١٤١٨هـ). **منهج النقد في علوم الحديث**. ط٣. دمشق: دار الفكر.

١٤٩) العثماني، محمد تقي. (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م). **تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم**. ط١. دمشق: دار القلم.

١٥٠) العثيمين، محمد بن صالح. (١٤٢٦هـ). **شرح رياض الصالحين**. ط١. الرياض: مدار الوطن للنشر.

١٥١) العدوي، صفاء الضوي أحمد. (٢٠٠١م). **إهداء الديباجة بشرح سنن ابن ماجه**. ط١. المنامة: دار اليقين.

١٥٢) العرفي، محمد سعيد. (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م). **سِرّ انحلال الأمة العربية ووهن المسلمين**. ط٢. دمشق: مطبعة عبد الله الملاح.

١٥٣) عسيلان، عبد الله بن عبد الرحيم. (١٤١٥هـ/١٩٩٤م). **تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل**. ط١. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.

١٥٤) العظيم آبادي، أبو الطيب شمس الحق. (د.ت). **عون المعبود شرح سنن أبي داود**. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٥٥) العلائي، أبو سعيد صلاح الدين خليل بن كيكلدي. (١٩٨٥م). **بغية الملتمس في سباعيات حديث الإمام مالك بن أنس**. ط١. بيروت: عالَم الكتب.

١٥٦) علي القاري، أبو الحسن نور الدين علي بن سلطان الهروي. (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م). **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**. ط١. بيروت: دار الفكر.

١٥٧) العمري، أكرم ضياء. (١٤١٦هـ/١٩٩٥م). **مناهج البحث وتحقيق التراث**. ط١. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم.

١٥٨) العمري، أكرم ضياء. (١٤١٧هـ). **منهج النقد عند المحدِّثين**. ط١. الرياض: دار إشبيليا.

١٥٩) العوني، الشريف حاتم بن عارف بن ناصر. (١٤١٦هـ/١٩٩٦م). **المنهج المقترح لفهم المصطلح**. ط١. الرياض: دار الهجرة.

١٦٠) العوني، الشريف حاتم بن عارف بن ناصر. (١٤١٨هـ). **نصائح منهجية لطالب علم السنة النبوية**. ط١. مكة المكرمة: دار عالَم الفوائد.

١٦١) العيني، أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد. (١٤٢١هـ/٢٠٠١م). **عمدة القارئ في شرح البخاري**. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٦٢) الغوري، سيد أحمد زكريا الندوي. (١٤٣١هـ/٢٠١٠م). **مقدّمات الإمام أبي الحسن الندوي**. ط١. دمشق: دار ابن كثير.

١٦٣) الغوري، سيد عبد الماجد. (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م). **محمد حميد الله سفير الإسلام وأمين التراث الإسلامي في الغرب**. ط١. دمشق: دار ابن كثير.

١٦٤) الغوري، سيد عبد الماجد. (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م). **معجم المصطلحات الحديثية**. ط٢. سلانجور (ماليزيا): دار الشاكر.

١٦٥) الغوري، سيد عبد الماجد. **إلى طالب العلم**. (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م). ط١. سلانجور (ماليزيا): معهد دراسات الحديث النبوي.

١٦٦) فاروق حمادة. (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م). **تطور دراسات السنة النبوية نهضتها المعاصرة وآفاقها**. ط١. دمشق: دار القلم.

١٦٧) فاروق حمادة. (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م). **المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل**". ط١. القاهرة: دار السلام.

١٦٨) فاروق حمادة. (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م). **منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً ومنهجاً**. ط١. دمشق: دار القلم.

١٦٩) الفراهيدي، خليل بن أحمد. (١٩٨٠م). **كتاب العين**. تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. ط١. بغداد: دار الرشيد.

١٧٠) الفكون، عبد الكريم. (١٤٠٨هـ/١٩٨٧م). **منشور الهداية في كشف حال مَن ادَّعى العلمَ والولاية**. تحقيق: أبي القاسم سعد الله. ط١. دار الغرب الإسلامي: بيروت.

١٧١) الفيروزآبادي، مجد الدين محمد يعقوب. (١٤١٦هـ/١٩٩٦م). **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**. تحقيق: محمد علي النجار وعبد العليم الطحاوي. ط١. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

١٧٢) الفيروزآبادي، مجد الدين محمد يعقوب. (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). **القاموس المحيط**. تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي. ط٨. بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٧٣) القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي. (١٤١٩هـ/١٩٩٨م). **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، تحقيق: يحي إسماعيل. ط١. القاهرة: دار الوفاء.

١٧٤) القرضاوي، يوسف. (١٤٠٦هـ). **الرسول والعلم**. ط٣. بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٧٥) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر. (١٤٢٣هـ/٢٠٠٤م). **الجامع لأحكام القرآن**. تحقيق: هشام سمير البخاري. ط١. الرياض: دار عالم الكتب.

١٧٦) القنوجي، صديق حسن خان البخاري. (١٩٧٨م). **أبجد العلوم**. تحقيق: عبد الجبار زكار. ط١. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

١٧٧) الكيرانوي، وحيد الزمان القاسمي. (ط١٤٢٢هـ/٢٠٠١م). **القاموس الوحيد**. ط١. كراتشي: إدارة الإسلاميات.

١٧٨) اللكنوي، عبد الحي بن عبد الحليم الهندي. (١٤٢٩هـ). **ظفر الأماني بشرح مختصر السيد الشريف الجرجاني في علم مصطلح الحديث**. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. ط١. حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية.

١٧٩) مالك بن نبي. (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). **شروط النهضة**. ط٤: دمشق: دار الفكر.

١٨٠) المباركفوري، محمد بن عبد الرحمن. (١٤١٠هـ/١٩٩٠م). **تحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي**. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٨١) محمد بن أحمد واصل. (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م). **أحكام الترجمة في الفقه الإسلامي**. ط١. الرياض: دار طيبة.

١٨٢) محمد الخضر حسين. (د.ت). **رسائل الإصلاح**. الدمام: دار الإصلاح.

١٨٣) محمد خير رمضان يوسف. (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م). **المستدرك على تتمة الأعلام للزركلي (الأول والثاني)**. ط٢. بيروت: دار ابن حزم.

١٨٤) محمد خير رمضان يوسف. (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م). **تتمة الأعلام للزركلي**. ط٢. بيروت: دار ابن حزم.

١٨٥) محمد بن صالح العثيمين. (د.ت). **كتاب العلم**. ط١، عنيزة: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية.

١٨٦) محمد عثمان شبير. (١٤١٦هـ). **المعاملات المالية المعاصرة**. ط١. عمان – الأردن: دار النفائس.

١٨٧) محمد عوامة. (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م). **أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء رضي الله عنهم**. ط٥. المدينة المنورة: دار اليسر.

١٨٨) محمد عوامة. (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م). **أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين**. ط٢. المدينة المنورة: دار اليسر.

١٨٩) محمد عوامة. (١٣٣٤هـ/٢٠١٣م). **مَعالِم إرشادية لصناعة طالب العلم. ط١**. جدة: دار المنهاج.

١٩٠) محمد مجير الخطيب الحسني. (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م). **معرفة مدار الإسناد وبيان مكانته في علم علل الحديث**. ط١. الرياض: دار الميمان.

١٩١) المرعشلي، يوسف بن عبد الرحمن. (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م). **نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر**. ط١. بيروت: دار المعرفة.

١٩٢) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. (١٤١٩هـ/١٩٩٨م). **الصحيح**. ط١. الرياض: دار السلام.

١٩٣) **المعجم العربي الأساسي**. (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م). ط١. تونس: لاروس.

١٩٤) **المعجم الوسيط**. (د.ت). القاهرة: مجمع اللغة العربية.

١٩٥) المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف. (١٤١٠هـ/١٩٩٠م). **التوقيف على مهمات التعريف**. تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان. ط١. القاهرة: عالم الكتب.

١٩٦) المنذري، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي. (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م). **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**. تحقيق: محيي الدين مستو وآخرين. ط٣. دمشق: دار ابن كثير.

١٩٧) **الموسوعة الفقهية**. (١٤١٠هـ). ط٢. الكويت. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

١٩٨) موفق بن عبد الله بن عبد القادر. (١٤١٤هـ). **توثيق النصوص وضبطها عند المحدثين**. ط١. مكة المكرمة: المكتبة المكية.

١٩٩) الميداني، أحمد بن محمد. (١٤٠١هـ). **نزهة الطرف في علم الصرف**. بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة.

٢٠٠) الندوي، أبو الحسن علي الحسني. (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م). **أبحاث حول التعليم والتربية الإسلامية**. إعداد: سيد عبد الماجد الغوري. ط١. دمشق: دار ابن كثير.

٢٠١) الندوي، سيد أحمد زكريا الغوري. (١٤٣١هـ/٢٠١٠م). **مقدمات الإمام أبي الحسن الندوي**. ط١. دمشق: دار ابن كثير.

٢٠٢) الندوي، محمد أكرم. (٢٠٠٨م). **أيام في بلاد الشام**. ط١. دمشق: دار التربية.

٢٠٣) الندوي، محمد ولي الله بن عبد الرحمن. (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م). **نبوءات الرسول ما تحقَّق منها وما لم يتحقق**. ط٨. القاهرة: دار السلام.

٢٠٤) نزار أباظة و محمد رياض المالح. (١٩٩٩م). **إتمام الأعلام**. ط١. بيروت: دار صادر.

٢٠٥) النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب. (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م). **السنن الكبرى**. تحقيق: أبو أنس جاد الله بن حسن الخداش. ط١. الرياض: مكتبة الرشد.

٢٠٦) **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ**. (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م). ط٥. جدة: دار الوسيلة.

٢٠٧) النووي، أبو زكريا محي الدين يحي بن شرف. (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م). **التبيان في آداب حملة القرآن**. تحقيق: محمد بن مصطفى أحمد بن عبد الباري. ط١. المنصورة: دار بدر

٢٠٨) النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف. (١٩٩٦م). **المجموع شرح المهذب**. ط١. بيروت: دار الفكر.

٢٠٩) النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف. (١٤١٨هـ/١٩٩٧م). **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**. تحقيق: خليل مأمون شيحا. ط٤. بيروت: دار المعرفة.

٢١٠) همام عبد الرحيم سعيد. (١٤٢٨هـ). **موسوعة أحاديث الفتن وأشراط الساعة**. ط١. عمان: مركز دراسات السنة النبوية.

٢١١) الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر المصري. (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م). **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**. تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

٢١٢) يوسف بن عبد الله بن الوابل. (١٤١٤هـ/١٩٩٤م). **أشراط الساعة**. ط٤. الدمام: دار ابن الجوزي.

الأبحاث العلمية:

٢١٣) "**الرواية والإسناد وأثرهما في تطور الحياة الفكرية**" بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي في عدد: ٣١/١/٣٣.

المصادر الإلكترونية:

٢١٤) عبد الرحمن بن صالح المحمود. **فتنة التَّعالُم**. القرص المدمج. الرياض: تسجيلات الراية الإسلامية.

مواقع الإنترنيت:

٢١٥) أحمد سليمان الدبشة. **ترجمة الشيخ جمعة علي عبد القادر**. "موقع ملتقى أهل التفسير".

٢١٦) حسام الدين عفانة. **التعالم وقول النبي ﷺ: «المتشبِّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»**. "موقع شبكة المرقاة".

٢١٧) خباب مروان الحمد. **انظروا عمن تأخذون دينكم**. "موقع صيد الفوائد".

٢١٨) داليا فهمي السَّيد. **الأمانة العلمية وفيروس التلاصِّ العلمي**. "موقع ملتقى أهل التفسير".

٢١٩) الفوزان، صالح بن فوزان. **التَّعالُم وآثاره الخطيرة على الأمة!**. "موقع شبكة سحاب السلفية".

٢٢٠) الشهري، عبد الرحمن بن معاضة. **سرقة علمية محزنة: (مشرف رسالة: "أسماء سور القرآن وفضائلها" لمنيرة الدوسري) يسرقها!**. "موقع ملتقى أهل التفسير".

٢٢١) لعويسي، أبو بكر يوسف. **المعالم لمعرفة حد التَّعالُم**. "موقع الأمين" موقع سلفي علمي للتعريف بالمصطلحات والعلوم الشرعية.

٢٢٢) محمد حسان. **فضل العلم وخطورة التَّعالُم**. "موقع فضيلة الشيخ محمد حسان".

٢٢٣) محمد خلف سلامة. **لسان المحدِّثين**. "موقع صيد الفوائد".

٢٢٤) محمد خير رمضان يوسف. **إغارة أستاذ جامعي على كتاب تتمة الأعلام**. "موقع الألوكة".

٢٢٥) محمد مسعد ياقوت. **"موقع محمد مسعد ياقوت"**.

٢٢٦) مروان. **من شوامخ المحققين: الأستاذ الدكتور أحمد محمد خراط**. "موقع شبكة الفصيح".

٢٢٧) "موقع الإمام الآجري".

٢٢٨) "موقع الإثنينية" لترجمة الشيخ محمد عوامة.
٢٢٩) "موقع المكتبة الشاملة".
٢٣٠) "موقع عبد الرحمن بن صالح المحمود".
٢٣١) "موقع الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد".
٢٣٢) "موقع ملتقى أهل الحديث" لسيرة الشيخ حاتم بن عارف العوني.

ooo

الفهرس الإجمالي للموضوعات

الفهرس التفصيلي للموضوعات

الموضوع	الصفحة

ABSTRAK

Kajian ini membincangkan salah satu fitnah kontemporari serta isu-isu yang melingkunginya, iaitu fitnah "*ta'ālum*" yang bermaksud sikap menzahirkan diri sebagai seorang yang berilmu namun hakikatnya adalah bertentangan. Kajian ini menfokuskan kepada tiga dimensi terpenting, iaitu pengajian dan pengajaran, penulisan serta pentahqiqan serta fatwa dan hukum dari perspektif sunnah nabawiyyah sebagai satu kajian tematik kontemporari. Matlamat kajian ini adalah untuk membuktikan bahawa *ta'ālum* merupakan salah satu fitnah yang telah dikhabarkan oleh Rasulullah s.a.w akan kemunculan dan penyebarannya pada akhir zaman sebelum datangnya hari akhirat. Fitnah *ta'ālum* yang benar-benar berlaku ini membuktikan kebenaran sabda Rasulullah s.a.w. Kepentingan kajian ini terserlah dalam menerangkan kehebatan hadis nabawi dan kebenaran risalah baginda s.a.w melalui hadis-hadis yang berkaitan. Kajian ini melibatkan metode dokumentasi dan analisis data. Metode dokumentasi diaplikasikan melalui pengumpulan hadis-hadis nabawi yang berkaitan dengan *ta'ālum* berserta huraian hadis-hadis tersebut secara tematik. Metode analisis data pula diaplikasikan untuk memahami hadis-hadis *ta'ālum*, mendapatkan pandangan ulama klasik dan kontemporari berkaitan *ta'ālum* serta mengaitkannya dengan permasalahan masa kini. Hasil kajian membawa kepada beberapa dapatan antaranya: Fitnah *ta'ālum* merupakan fitnah yang besar dan isu kontemporari yang penting dari satu aspek dan juga fitnah yang merbahaya dari satu aspek yang lain. Rasulullah s.a.w telah pun memberi peringatan kepada umat Islam mengenainya. Justeru, bagi menyelusuri manhaj nabawi dan meneladani sirah nabawiyyah dalam mendidik ummah, menjadi kewajipan atas para ilmuwan, para penulis dan para pendidik memberi peringatan terhadap generasi muslim dan menyedarkan mereka akan fitnah *ta'ālum* serta implikasinya yang negatif sebagai satu benteng terhadap tahap intelektual mereka dan menjaga warisan khazanah ilmu mereka yang hebat.

ABSTRACT

This research deals with the study and analysis of one of the most fascinating topics of the contemporary age and its issues, namely the trail of *al-Ta'ālum* (false claims to scientific knowledge), which is pretending to have knowledge. The three most prominent manifestations of this is analysed, namely education and teaching, authorship, governance, and issuing fatwas, all in the light of the Sunnah .This study seeks to demonstrate that *al-Ta'ālum* is among the tribulations predicted by the Messenger of Allah (PBUH) to appear in the final days prior to the Day of Resurrection and that this indeed has taken place. The importance of such studies manifests in the explanation of miraculous nature of hadith to forecasts future events accurately. As for the approach adopted in this research, it pursues am inductive, descriptive and analytical approach that examines the collection of hadith on the issue of *al*-Ta'ālum. In this, a direct analysis of the text is endeavored supported by the opinions of classic and contemporary scholars. The research concludes that *al-Ta'ālum*is a major tribulation and an important yet dangerous contemporary for which we were warned against by the Messenger of Allah (PBUH). Pursuing the method of the Prophet (PBUH) in education the Ummah, it is incumbent upon those with knowledge to protect the intellectual integrity of Muslims by warning the youth and future generations about the consequences of *al-Ta'ālum*.

الملخَّص

يتناول البحث بالدراسة والتحليل إحدى أهمِّ فِتَن العصر وقضاياه، وهي: فتنةُ "التَّعالُمِ"، وهو: التَّظاهُرُ بالعلم دون الاتِّصاف به حقيقةً؛ وذلك من خلال أبرز مظاهره الثلاثة الكبرى من تعليم وتدريس، وتأليف وتحقيق، وقضاء وإفتاء، وكلٌّ ذلك في ضوء السنة النبوية كدراسة موضوعية معاصرة. وتهدف هذه الدراسة إلى إثبات وتحقيق أنَّ "التَّعالُم" من الفِتَن التي تنبَّأ رسولُ الله ﷺ بظهورها وانتشارها في آخر الزَّمان قُرْب يوم القيامة، وقد وقعتْ هذه الفتنةُ تماماً؛ مِصداقاً لِما أخبر بها عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وتَكمُن الأهميةُ العظمى لمثل هذه الدراسات في بيان إعجاز الحديث النبوي الشريف في تحقُّق التنبُّؤات النبوية الواردة في الأحاديث الشريفة. أما المنهجُ المتّبَعُ في البحث فهو المنهج الاستقرائي، والوصفي التحليلي، فالأولُ منهما اعتُمِد لجمع الأحاديث النبوية المتعلّقة بقضية "التَّعالُم" وتتبُّعِها، ثم شرحِها شرحاً موضوعياً، بينما اعتُمِد الآخرُ لفهم تلك الأحاديث وللتعرُّف على أقوال العلماء والمعاصرين حول القضية، مع ربط ذلك بالزمن الحاضر. وقد خَلُصَت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج، من أهمِّها: أنَّ "التَّعالُم" فتنة عظيمة، وقضية معاصرة مهمة من ناحية، وخطيرةٌ أيضاً من ناحية أخرى، وقد حذَّر منها رسولُ الله ﷺ أُمَّتَه المباركة. فسَيْراً على المنهاج النبوي، واتِّباعاً للسيرة المصطفوية في تربية الأمة؛ يجب على أهل العلم وأرباب القلم من عقلاء الأمة ورَبَّانِيِّيْها: تحذيرُ النشء والأجيال، وتوعيةُ الأمة والرجال حول عواقب هذه الفتنة الوخيمة ونتائجها الأليمة، حفاظاً لعقول أبناء المسلمين، وصوناً لتراثهم العلمي العظيم.

مطبوعات "دار الشاكر"
في الحديث النبوي وعلومه

مؤلفات الأستاذ الدكتور محمد أبي الليث الخيرآبادي:

١) علوم الحديث: أصيلها ومعاصرها.
٢) تخريج الحديث: نشأته ومنهجيته.
٣) معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنفين فيه.
٤) الاتجاهات في دراسات السنة قديمها وحديثها.
٥) المرويات في فضل ليلة النصف من شعبان والتوسعة على العيال يوم عاشوراء في ميزان النقد الحديثي.
٦) إعفاء اللحية بين النص والتطبيق.

مؤلفات الدكتور نجم عبد الرحمن خلف بالاشتراك مع مؤلفين آخرين:

١) المدخل إلى علوم الحديث.
٢) المختصر التام لأحاديث كتاب "عمدة الأحكام من كلام خير الأنام عليه الصلاة والسلام" لأبي محمد عبد الغني المقدسي.
٣) التيسير في شرح أحاديث البشير والنذير ﷺ.
٤) التوضيع والبيان في شرح أحاديث نبي الزمان ﷺ.
٥) مجلس التلقي بالسماع مع الإجازة بكتاب "الصمت وآداب اللسان" لابن أبي الدنيا (تحقيق ودراسة).

مؤلفات الأستاذ سيد عبد الماجد الغوري:

١) معجم المصطلحات الحديثية.
٢) الميسر في علم الرجال.
٣) الميسر في علم مصطلح الحديث.
٤) مباحث تمهيدية في علم الجرح والتعديل.
٥) مبادئ التعامل مع السنة النبوية.
٦) المنهج المفيد في طلب علم الحديث.
٧) إلى طالب العلم.

مؤلفاته المترجَمة باللغة الملايوية:

1) KAMUS ISTILAH HADIS.
2) PENGENALAN ILMU MUSTALAH AL-HADITH.
3) PENGENALAN ILMU AL-JARH DAN AL-TAD’IL.
4) METODOLOGI TERBAIK MEMPELAJARI ILMU HADIS.
5) IKON TERBAIK TERJEMAHAN *USWATUN HASANAH* (Karya: Shaikh Syed Abu al-Hasan al-Nadwi).

دار الشاكر
للطباعة والنشر والتوزيع
سلانجور - ماليزيا

AL-TA'ĀLUM

AND IT'S MANIFESTATIONS IN THE LIGHT OF AL SUNNAH AL NABAWIYAH

By: Khadeja Fatima Binti Syed Mumtazuddin

هذا الكتاب

"هذا الكتاب من تلك الكتب التي يُفتخَر بها ويُعتَزّ، ويُعتبَر بها ويُتّعَظ؛ لأنه قدّم صُوَراً عديدةً للتّعالُم البغيض، والتظاهر المقيت بالعلم...، والباحثة الفاضلة أثبتت جدارتها في إثبات مسائل التّعالُم، من خلال الأحاديث، ومن خلال أقوال العلماء، ومن خلال تحليلاتها العلمية النافعة، بقدرتها الخارقة عليهما، ولذلك الكتابُ بأكمله يشكل إضافةً علميةً في المكتبة الإسلامية".

الأستاذ الدكتور محمد أبو الليث الخير آبادي

(الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا)

"جاء هذا العمل العلميّ القيّم المتميز كرسالة ماجستير...، وهي من أجود الرسائل جمعاً وتحليلاً واستنتاجاً...، وقد اتصفتْ بالعُمْق والإحاطة والتحقيق والتوثيق...، وقد بذلتْ فيها الباحثةُ جهداً مميزاً قيماً تُشكَر عليه...، فقد جمع هذا العمل فأوعى من الفوائد والعوائد وفرائد القلائد، وفيه الغنية والكفاية في بابه".

الدكتور نجم عبد الرحمن خلف

(جامعة العلوم الإسلامية الماليزية)

"(التّعالُم: مظاهره وأخطاره في ضوء السنة النبوية): هو عنوانٌ لافتٌ مهمٌّ، يلفت أنظارَ المهتمّين بفقدان الرسوخ في العلم وحُبّ التظاهر، وكثرة الجدل والمراء، مما أدّى إلى التشدُّق والتفيهق، والاغترارِ بالعلم...، وقد نبّه ربُّ العِزّة والجلال إلى هذا المرض النفسي، والنّفاق القلبي، وأنذر المصابين به بعذابه، وتنبّأ الرسول ﷺ بظهورهم وغلبتهم وسيادتهم... ".

الشيخ سلمان الحسيني الندوي

(دار العلوم لندوة العلماء بلكنو – الهند)

"وقد تناولت الباحثة في هذه الرسالة بالدراسة والتحليل لفتنة التّعالُم من خلال أبرز مظاهره الثلاثة الكبرى من: تعليم وتدريس، وتأليف وتحقيق، وقضاء وإفتاء، وكلُّ ذلك في ضوء السنة النبوية، وقد تمكّنت الباحثة من دراسة هذه القضية ومعالجتها في ضوء الأحاديث النبوية الشريفة".

الدكتور خالد بن مرغوب بن محمد أمين

(الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة – المملكة العربية السعودية)

ISBN 978-967-5996-70-2

9 789675 996702

DARUL SYAKIR enterprise
دار الشاكر